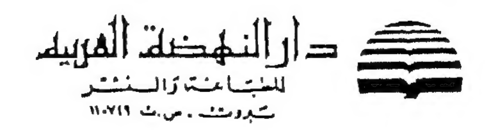
# دراسات في
# تاريخ الحضارة الإسلامية

الدكتور حسّان حلاّق



دراسات في

# تاريخ الحضارة الاسلامية

الطبعة الاولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .



الناشر
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

الادارة : بيروت - شارع مدحت باشا - بناية كريدية
تلفون : 743166 / 743167 / 736093
برقيا : دانهضة - ص.ب 749-11
فاكس : 00961 1 735295

المكتبة : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون : 854161

المستودع : بئر حسن - بناية الدجى
تلفون : 833180

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدّمَة عن الحضارة الإسلامية والتعريف بها

تركزت عناية الباحثين في السنوات الأخيرة بدراسة جوانب الحضارة الإسلامية، نظراً لأهميتها في مختلف الميادين العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية أيضاً، ونظراً لما قامت به هذه الحضارة من دور بارز سواء في العالم الإسلامي، أو لأثرها الواضح على حياة أوروبا التي كانت تئن من وطأة التخلف والجهل، فجاءت الحضارة الإسلامية لتوقظها من سباتها وتخلفها العميق. ومما يزيد من أهمية الحضارة الإسلامية تفاعلها وتطورها والاقتباس عنها، لأن ما من جانب من جوانب الحياة إلا وكان لها فيه الأثر الفعال.

وكنت قد بدأت بالعناية بجوانب الحضارة الإسلامية منذ عام ۱۹۷۳، - ولا أزال - وكتبت عدة دراسات في هذا المجال. ولا أدعي أنني استطعت أن أغطي مختلف وجوه هذه الحضارة، لأن دراستها في مختلف الجوانب وفي مختلف الحقب التاريخية، تحتاج إلى مجلدات ودراسات وموسوعات لا حصر لها. غير أنني استطعت دراسة جوانب عديدة منها على سبيل المثال: الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والقضائية، ودراسة

جوانب من التراث العلمي والفكري، ودراسة بعض الأطباء وميدان الطب عند المسلمين.

كما قمت بدراسة جوانب من الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية والشام، وأثر هذه الحضارة على أوروبا حيث أضحت جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الأوروبية.

والحضارة لغة من فعل «حضر» ومضموناً تعني التحضر، أو الإقامة في الحضر والعواصم، بخلاف البادية وملامحها أو الإقامة بها. والحضارة هي الإسهامات المدنية التي أنجزتها دمشق وبغداد وقرطبة وغرناطة والقاهرة وفاس وبلاد فارس وسواها من المدن والحواضر الإسلامية والعربية. والحضارة الإسلامية ـ العربية هي التي أدت إلى إسهامات أساسية وفاعلة في الميادين الإدارية والقضائية والعلمية، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذلك في ميادين الطب والهندسة والصيدلة والفلك والتقويم والرياضيات، وفي ميادين الفيزياء والكيمياء، والتاريخ والجغرافيا والموسيقى، وفي سواها من العلوم الإنسانية والعلوم البحتة. والحضارة (civilization) والثقافة (culture) تستخدم بمعنى واحد سواء في الشرق أو الغرب.

أما فيما يختص بالتسمية «حضارة إسلامية» أو «حضارة عربية» فلا تناقض بينهما، فهما توأم حضاري لا ينفصل. فالمسلمون من العرب وغير العرب، كما أن العرب من المسلمين ومن غير المسلمين كلهم ساهموا في تكوين وتفعيل هذه الحضارة.

وأخيراً أرجو من الله (عز وجل) أن أكون قد وفقت في دراسة هذه الجوانب من الحضارة الإسلامية، وأرجو أن أكون قد ساهمت في تسليط الأضواء على هذه الحضارة، مشاركة مني في سد بعض الثغرات في ميدان الدراسات الإسلامية والحضارية.

**٢٩ رمضان ١٤١٩ هـ ـ ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٩ م**

**حسان حلاق**

# الفصل الأوّل

# ملامح في أنظمة الحضارة الإسلاميّة

## العرب قبل الإسلام[1]:

تعتبر المنطقة العربية من أهم المناطق في العالم بسبب موقعها الجغرافي والسياسي ومميزاتها الدينية ، فهي على مفترق طرق بين قارات آسية وإفريقية وأوروبا ، وهي ذات المواقع الاستراتيجية الهامة منذ فجر التاريخ ، وهي التي شهدت ثلاثة أديان سماوية اليهودية والمسيحية والإسلام ، اختصها بها الله دون سواها من مناطق العالم .

ويمكن القول بأن المنطقة العربية أو ما يعرف باسم الشرق الأدنى القديم عرفت الحضارات الأولى للبشرية ، ومنها الحضارات الفينيقية ، المصرية ، الكنعانية ، الأشورية البابلية ، السومرية... وعرفت المنطقة أول علوم في مجال الطب والهندسة والقانون ، فالطب المصري الفرعوني يعتبر من أقدم الطب العالمي ، وكان

---

(١) حول موضوع العرب قبل الإسلام، توجد دراسة متخصصة على غاية من الأهمية للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى. العرب في العصور القديمة (مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام) دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨ .

«أمنحتب» وزير الملك «زوسر» في القرن الثلاثين ق.م طبيباً وفلكياً ومهندساً معمارياً. أما فيما يختص بتاريخ الطب في العراق ( بلاد ما بين النهرين) فإن أقدم ما كتب عنه من إيضاحات إنما تعود ألى الألف الثالث ق.م. ويلاحظ إن أعظم وثيقة قانونية تتعلق بالطب البابلي هي ما جاء في قانون حمورابي[1].

وعرفت منطقة الشرق الأدنى القديم (المشرق العربي) أولى المحاولات العلمية في ميدان التكنولوجيا والرياضيات، وتعرف المصريون القدماء إلى هذه العلوم نظراً لارتباطها بالهندسة وبناء الإهرامات والمعابد والقبور والقصور، وقد جمع العالم «أرشيبالد» (Archibald) حولي (٣٦) وثيقة تتعلق بالرياضيات المصرية وهي مكتوبة باللغات المصرية والقبطية واليونانية يمتد تاريخها من عام ٣٥٠٠ ق.م. إلى عام ١٠٠٠ ق.م. وعثر على ألواح علمية ونصوص رياضيات في بلاد ما بين النهرين لا سيما في العهدين البابلي والسومري.

والحقيقة فإن المناطق العربية قبل الإسلام عرفت بدورها شتى العلوم وبينها علوم الفلك والتنجيم والتقويم والهندسة والفيزياء والكيمياء والجغرافية والنحت وسوى ذلك... ومن أهم المنجزات العلمية انتقال إنسان المنطقة من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخي بتعرفه إلى الكتابة، وبينها الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية في بلاد ما بين النهرين، والكتابة العربية السينائية والنبطية الأرامية، وأهمية هذه الحضارة قبل الإسلام إنها لم تؤثر في الشرق الأدنى القديم فحسب، وإنما امتدت آثارها إلى مناطق أخرى من العالم الغربي القديم اليوناني والروماني.

أما أسباب نشأة الحضارات في المنطقة العربية: فهي ظروف المناخ وطرق المواصلات البرية والبحرية المناسبة، والتمازج الحضاري البشري والاحتياجات الملحة للإنسان.

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن العلوم والمعارف المتنوعة فى العراق القديم انظر محمد عزة دروزة: تاريخ الجنس العربى، جـ٣، ص ١٦٩ ـ ١٨٦.

والحقيقة فإن العرب قبل الإسلام أوجدوا حضارات لهم ومنها[1]: حضارة اليمن في جنوب الجزيرة العربية التي قامت بها قبل ظهور الإسلام ثلاث دول هي: الدول المعينية (١٢٠٠ ـ ٦٥٠) ق.م. ومقرها شرقي صنعاء بين نجران وحضر موت، الدولة السبأية (٩٥٠ ـ ١١٥) ق.م. وكانت مأرب عاصمة لها واشتهرت هذه الدولة عبر تاريخها بسد مأرب الشهير وهو معلم من معالم وعجائب الهندسة في التاريخ القديم. كما اشتهرت هذه الدولة ببناء القصور الضخمة. أما الدولة الثالثة فهي الدولة الحميرية (١١٥ ق.م. - ٥٢٥م)، وتميزت هذه الدولة بالاهتمامات العمرانية والهندسية والحربية على السواء، وكان من أشهر ملوكها وآخرهم يوسف ذا نواس الذي اعتنق اليهودية ويذكر بأنه هو الذي أحرق نصارى نجران عام ٥٢٣م.

وفي شمال جزيرة العرب قامت دولة اللخميين في الحيرة بالقرب من بابل على حدود الدولة الفارسية الساسانية، وعرفت أيضاً بدولة المناذرة، كما قامت على الحدود الشمالية الغربية للجزيرة العربية دولة الغساسنة على حدود الدولة البيزنطية، وشملت مناطقها الأراضي الواقعة بين نهري العاصي والأردن[2].

وقد استطاعت الدولة اللخمية ودولة الغساسنة الاحتكاك بالحضارتين الفارسية والبيزنطية ونقل معالمهما إلى العرب ونقل التراث العربي إليها، ومن ممالك شمال الجزيرة العربية مملكة النبطيين في مدينة البتراء التي لا تزال آثارها ماثلة إلى الآن في الأردن، وكانت تعتبر مركزاً دينياً لعرب الشمال يحجون إليها لزيارة الإله ذو الشرى (دوسارس) والآلهة مناة. وقد تكلم سكانها لغة عربية شمالية واستخدموا الخط النبطي الأرامي الذي استخدم في تدوين القرآن الكريم.

ومن ممالك الشمال العربية مملكة تدمر في باطن بادية الشام حيث

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: د. محمد عبد السلام كفافي الحضارة العربية، طابعها ومقوماتها العامة، ص ١٦ ـ ٢٠.

(٢) انظر: د. زاهية قدورة: شبه الجزيرة العربية، ص ١٤ ـ ١٥.

شهدت حضارة مجيدة وتجارة مزدهرة لا سيما بين (١٣٠ - ٧٣ م). وامتدت تخومها من الفرات إلى الإسكندرية في عهد الملكة زنوبيا. أما مملكة كندة فقد قامت في وسط الجزيرة العربية، وحاولت توحيد القبائل العربية، وكان امرؤ القيس أحد أمرائها واستقر الكنديون في بلاد نجد ثم توسعوا شمالاً ناحية العراق والشام.

كما شهدت الجزيرة العربية حضارة حجازية ونشوء مدن فيها مثل مكة والمدينة والطائف وكان عرب الحجاز لا سيما أهل مكة يهتمون بالتجارة مع اليمن والشام وهي المعروفة برحلتي الشتاء والصيف التي ذكرها القرآن الكريم، ويذكر أنه بمرور الزمن أصبحت مكة «جمهورية تجارية» يتولى رئاستها أغنياء قريش.

أما فيما يختص بديانة العرب قبل الإسلام، فإنهم وإن اعتنق بعضهم اليهودية أو النصرانية، غير إن غالبيتهم كانوا يدينون بالوثنية ويعبدون الأصنام والأوثان التي زاد عددها عن (٣٦٠) آلهاً ومنها: «العزى» إله كوكب الزهرة و «ود» إله القمر، و «هبل» أي الروح و «مناة» أي المنية الموت، وسواع، ويقوت، ويعوق، وبعل، وجهار، . . . أما اللات والعزى ومناة فهي آلهة مشتركة لجميع القبائل العربية. وبالإضافة إلى تعرف العرب إلى اليهودية والنصرانية والوثنية فقد اعتنق بعضهم معتقدات الصابئة والمجوس وهم عبدة الكواكب والنجوم.

وعرف العرب بالإضافة إلى بعض العلوم، المعلقات الشعرية، وهي من النشاطات الثقافية الهامة عند العرب، وتبين لنا عاداتهم وتقاليدهم وحروبهم وتياراتهم من خلال هذا الشعر وهذه المعلقات.

## الحضارة العربية بعد ظهور الإسلام

ولد النبي محمد (ﷺ) يوم الإثنين في ١٢ ربيع الأول من عام الفيل. الموافق ٢٠ نيسان (إبريل) ٥٧١م. وبعد أن أصبح في الأربعين من عمره أتاه الوحي، ليبشر بالدين الإسلامي، وليأمر العرب والناس بنبذ عبادة الأوثان

والتوجه نحو الله الواحد، وبالرغم من الصعوبات العديدة التي واجهته غير أن الدعوة الإسلامية بدأت تنتشر تباعاً وانتصر المسلمون على مختلف القبائل المعادية لا سيما قريش، وفي أقل من عشر سنوات أصبحت الجزيرة العربية بكاملها تدين بالإسلام.

وفي ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية - ٨ حزيران (يونيه) ٦٣٢م. انتقل الرسول (ﷺ) إلى جوار ربه بعد خطبة الوداع على جبل عرفة. وقد تولى مسيرة المسلمين من بعده من الصحابة الخلفاء الراشدين وهم على التوالي: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، ودام حكمهم من ٦٣٢ - ٦٦١م، استطاعت جيوش المسلمين خلالها الأنتصار على الروم والفرس والتوسع نحو الشام والعراق ومصر والمغرب العربي وأرمينيا وما وراء النهرين (قرب روسيا اليوم). ثم توسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين فسيطرت على إسبانيا وبلاد وسط فرنسا والقسطنطينية وتركستان وبلاد السند وقبرص ورودوس. ولما تولى العباسيون أمور الدولة شهدت مناطقها التقدم الحضاري الاقتصادي والعلمي، غير أنه في عام ١٢٥٨م تعرضت بغداد لغزوات المغول الذين أنهوا الخلافة العباسية. كما إن الأمويين في الأندلس أقاموا حكماً حصيناً وحضارة راقية سرعان ما بدأت بالتدهور نتيجة الخلافات العربية فسقطت الدولة العربية فيها عام ١٤٩٢م. وكان المشرق العربي قد سبق أن تعرض للحملات الصليبية في القرن الحادي عشر في إطار الصراع الفاطمي - السلجوقي، ثم ما لبث هذا المشرق العربي ومصر وبعض بلدان المغرب العربي أن خضعت للسيطرة العثمانية في عامي ١٥١٦ - ١٥١٧ وقد استمر حكم الدولة العثمانية إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨.

أما فيما يختص بملامح الأنظمة والحضارة العربية الإسلامية فيمكن دراستها على النحو التالي[1]:

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن هذه الأنظمة انظر: حسان حلاق: تاريخ الحضارات، ص ٥٧ - ٧٥، الدار الجامعية - بيروت ١٩٨٤.

## الدين الإسلامي :

كان الإسلام هو الأساس والعامل الهام في بناء ملامح المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية فلم تكن الأنظمة القضائية والمالية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والعلمية منفصلة عن جوهر الدين الإسلامي ، ذلك إن المسلمين انتهجوا الإسلام كمبدأ للدين والدنيا لذا كانت نشاطاتهم المتنوعة لا تقوم بمنأى عن الدين بل بوحي منه وتبعاً لمعتقداته وتعاليمه وتبعاً للقرآن والسنة النبوية وجمهرة الفقهاء والعلماء المسلمين.

ويمكن ذكر المبادىء الأساسية التي يقوم عليها الإسلام واستطراداً المجتمع الإسلامي وهي خمس عقائد وخمسة أركان ، أما العقائد فهي :

١ ـ الإيمان بأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له ، وهو لم يلد ولم يولد وهو خالق الكون.

٢ ـ الإيمان بأن محمداً رسول الله ، أنزل عليه القرآن الكريم ، وإن محمداً خاتم الأنبياء.

٣ ـ الإيمان بالملائكة.

٤ ـ الإيمان بالأنبياء والرسل مثل موسى وعيسى وإلياس وزكريا وذي الكفل . . . عليهم السلام وإن المسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان ببقية الرسل الذين اختارهم الله.

٥ ـ الإيمان بالآخرة ، وإن بعد الموت الحياة والحساب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1].

أما أركان الإسلام فهي :

١ ـ شهادة أن لا إله إلا الله .وأن محمداً رسول الله.

٢ ـ أداء الصلاة خمس مرات في اليوم : عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يوجه المصلي وجهه ناحية القبلة.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية ٧ ـ ٨.

٣ ـ الصوم في شهر رمضان والامتناع عن الأكل والمشرب وأية إساءة للنفس وللغير.

٤ ـ الزكاة وهي زكاة أموال المسلم تدفع كل سنة مرة بما يقارب ٢ ١/ ٢ بالمائة مما يملك من النقود ومقادير معينة من انتاج الأراضي الزراعية.

٥ ـ الحج وهو ركن فرض على القادرين من المسلمين والمسلمات، يتوجه به نحو مكة والمدينة وعرفة والمزدلفة وبقية الأماكن التي قصدها الرسول محمد (ﷺ).

هذا بالإضافة إلى أن للإسلام تعاليم عديدة أخرى وردت في القرآن أو على لسان الرسول، وبينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم شرب الخمر ولعب القمار (الميسر) وتحريم أكل لحم الخنزير، والامتناع عن النميمة واستيغاب الناس وأكل أموال الناس بالباطل والربا... وتعاليم عديدة تجسدت في معاملات المجتمع الإسلامي.

## النظام السياسي الشرعي (الخليفة)

كان الرسول (ﷺ) هو رأس النظام السياسي في العهد الإسلامي الأول وبعد انتقاله إلى جوار ربه تولى الخلافة(*) من بعده الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقامت الخلافة على أساس الشورى والانتخاب، واستمرت على هذا النحو إلى أن قبض معاوية بن أبي سفيان على السلطة، فأصبحت منذ أن تولاها ومن جاء بعده خلافة وراثية أشبه بالنظام الملكي واستمرت على هذا النحو في مختلف العهود الأموية والعباسية والفاطمية والمملوكية والعثمانية.

وكان الخليفة هو المسؤول الأول عن نظام وأوضاع الدولة، وبعد

(*) نظام الخلافة استحدث بعد وفاة الرسول (ﷺ) وهو من خلفه في المسؤولة فى الدين والدنيا ولهذا سمى من أتى بعده بإسم الخليفة أى خليفة الرسول (ﷺ) وليس خليفة الله، وقد اختلف كثيراً في هذا الموضوع ويمكن العودة للماوردى فى الأحكام السلطانية للاطلاع على وجهات النظر الشرعية حول هذا الموضوع.

اتساع الدولة العربية وتزايد أمصارها، أصبح للخليفة معاونون في الداخل وولاة في الأقاليم والأمصار يعاونهم القضاة ورؤساء الجند وسواهم. وكان الخليفة ليس مسؤولاً عن المسلمين فحسب وإنما عن كل السكان التابعين للدولة العربية ولو كانوا يعتنقون أدياناً أخرى، غير أن فترات الانحطاط شهدت تجاوزات في الحكم الإسلامي لا سيما وإن بعض الخلفاء العباسيين أحاطوا أنفسهم بالقداسة واعتقدوا أنهم يحكمون بتفويض من الله وتكاثرت أسماءهم المقترنة بلفظ «الله» مثال: المتوكل على الله، المقتدر بالله، المستعين بالله، وتلقبوا بلقب الإمام لإعطاء سلطاتهم معانٍ دينية. وأصبح للخليفة فيما بعد وزراء يساعدونه في إدارة الحكم وأصبح له حاجب أو الوزير الحاجب المسؤول عن إدخال الناس إلى الخليفة.

هذا وقد اهتم المسلمون بالنظام السياسي وكيفية أساليب الحكم، وكان في مقدمة المهتمين القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الذي تقلد منصب القاضي في بغداد سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م. ويمثل كتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» النموذج الحي للفكر السياسي ولنظم الحكم الإسلامي القائمة على الشرع والعدل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[1] وقد تضمن الكتاب عشرون باباً[2]:

الباب الأول: في عقد الإمامة.
الباب الثاني: في تقليد الوزارة.
الباب الثالث: في تقليد الإمارة على البلاد.
الباب الرابع: في تقليد الإمارة على الجهاد
الباب الخامس: في الولاية على المصالح.
الباب السادس: في ولاية القضاء.
الباب السابع: في ولاية المظالم.

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٤. طبعة بيروت ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الكتب العلمية.

الباب الثامن: في ولاية النقابة على ذوي الأنساب.
الباب التاسع: في الولاية على إقامة الصلوات.
الباب العاشر: في الولاية على الحج.
الباب الحادي عشر: في ولاية الصدقات.
الباب الثاني عشر: في قسم الفيء والغنيمة.
الباب الثالث عشر: في وضع الجزية والخراج.
الباب الرابع عشر: فيما تختلف أحكامه من البلاد.
الباب الخامس عشر: في أحياء الموات واستخراج المياه.
الباب السادس عشر: في الحمى والأرفاق.
الباب السابع عشر: في أحكام الإقطاع.
الباب الثامن عشر: في وضع الديوان وذكر أحكامه.
الباب التاسع عشر: في أحكام الجرائم.
الباب العشرون: في أحكام الحسبة.

ويرى الماوردي أن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وأن شذ عنهم الأصم....» وأورد الأراء الخاصة بالإمامة بأن البعض قال بوجوبها عقلاً وإن البعض الآخر قال بوجوبها شرعاً، غير أن الشرع جاء بتفويض الأمور إلى وليه في الدين استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[1].

أما أهل الاختيار فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة وهي: العدالة الجامعة لشروطها، والعلم، والرأي والحكمة، وإذا عقدت الإمامة لإمامين في بلدين لم تنعقد إمامتهما، لأنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد.

أما خلافة الخليفة، فلو عهد الخليفة إلى واحد أو إلى اثنين أو أكثر، ورتب الخلافة فيهم، فقال الخليفة بعدي فلان، فإن مات فالخليفة بعد موته فلان، فأن مات فالخليفة بعده فلان، جازت الخلافة وحكم الخليفة شرعي،

(١) سورة النساء الآية ٥٩.

وكانت الخلافة منتقلة إلى الثلاثة على ما رتبها الخليفة[1].

وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة وهي[2]:

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة.

٢ ـ العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

٥ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦ ـ الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

٧ ـ النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه، ولا اعتبار بضرار حين شذ فجوزّها في جميع الناس.

ويرى الماوردي بأنه إذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوالهم أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً ومما يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوفقون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد ألى اختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت بيعتهم له الإمامة فلـزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته، وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها لأنها «عقد مراضاة واختيار» لا يدخله إكراه ولا أجبار، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقيها[3].

هذا وقد وردت كلمة خليفة وخلائف في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٥ ـ ١٣.

(٢) الماوردي: المصدر نفسه، ص ٦، انظر أيضاً ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٣ ـ ١٩٦.

(٣) الماوردي: المصدر السابق، ص ٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٥. انظر أيضاً: سورة فاطر، الاية ٣٩.

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾[2].

أما فيما يختص بالتسمية، فإن ابن خلدون يرى بأن منصب الخليفة هو نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا وهو لذلك يسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ( ﷺ ) في أمته فيقال خليفة بالمطلق، وخليفة رسول الله، واختلف في تسميته خليفة الله، فأجاز بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للناس في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه، وقد نهى الخليفة أبو بكر عنه لما دعي به وقال: لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ( ﷺ ). ثم أن تنصيب الإمام واجب، وقد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ( ﷺ ) عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر[3].

ويحلل ابن خلدون معنى الخلافة وأمور السياسة وإدارة أمور الناس الدينية والدنيوية بقوله: «لما كانت حقيقة المُلك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم. . . . وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ينقادون إلى أحكامها، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها»[4].

(١) سورة ص، الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩٠.

ورأى ابن خلدون إن هذه القوانين السياسية إذا كانت مفروضة من العقلاء وكبار رجال الدولة كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ذلك إن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط وهي دار فناء، وإنما المقصود أيضاً آخرتهم وهي دار بقاء، «فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء».

وهكذا يتبين معنى الخلافة عند ابن خلدون الذي يقرر أيضاً بأن المُلك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة في حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجحة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع ألى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[1].

## الوزارة

يرى ابن خلدون بأن السلطان أو الخليفة بحاجة إلى من يساعده في تصريف أمور الدولة والناس، ويفضل أن يكون هذا المعاون من ذوي القربى والنسب لسهولة التعاون بسبب التجانس. وقد عرَّف ابن خلدون الوزارة بأنها «أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن إسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثِقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة»[2]. وقد ورد في القرآن الكريم هذا اللفظ بقوله تعالى:

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩١. انظر أيضاً للمزيد من التفصيلات حول الوزارة والوزراء: ادم متز: الحضارة الإسلامية، م ١، الفصل السابع، ص ١٦٨ - ٢٠٦. انظر أيضاً: د. توفيق اليوزبكي، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، ص ١٥ - ٢٤. دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٦.

﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾[1] أما مهام الوزارة فكانت على عدة أصناف منها:

١ ـ النظر في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجد والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة.

٢ ـ النظر في أمور جباية الأموال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه وهو يعرف باسم صاحب المال والجباية.

٣ ـ النظر في أمور الناس وحجبهم عن الخليفة لمعرفة مشاكلهم ومطالبهم.

٤ ـ النظر في قيادة الثغور وولاية الجبايات الخاصة والنظر في حسبة الطعام أو النظر في السكة.

والحقيقة فإن النظام السياسي في عهد الرسول ( ﷺ ) لم يعرف نظام الوزارة بمفهومها الواسع بالرغم من إن الصحابة كانوا يساعدون الرسول في مهامه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. غير أن منصب الوزارة بدأ يتبلور منذ العهد الأموي، وبذلك يقول ابن خلدون: «فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائر دولة بني أمية، فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند، وفرض العطاء بالأهلية»[2].

وازدادت أهمية الوزارة في العهد العباسي وتفاحل نفوذ الوزير بشكل بارز، وبهذا يقول ابن خلدون: «فما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ

---

(١) سورة طه، الآية ٢٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٨.

البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع، ودفع إليه فصار إسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد»[1].

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية كأسرة البرامكة وبني سهل وبني طاهر، وبني القرات، وبني الجراح وبني خاقان وبني وهب وسواهم[2].

ولا شك بأن الوزارة تطورت وتباينت مهامها ما بين بلدان المشرق وبلدان المغرب والأندلس، وتداخلت فيها مناصب الحجابة[3].

أما أنواع الوزارة الإسلامية فقد كانت على نمطين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ.

١ - **وزارة التفويض**: وهي أن يستوزر الإمام الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده، ولا يمتنع جواز هذه الوزارة، على اعتبار أن الله عز وجل أورد قصة عن نبيه موسى عليه السلام: قال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة أجوز، ولأن ما وكل ألى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة، ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل.

أما فيما يختص بشروط تولي الوزارة، فهي تماثل شروط الإمامة باستثناء

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٨.

(٢) د. أحمد مختار العبادي: محاضرات في الحضارة الإسلامية (نظم الحكم والإدارة في المغرب والأندلس)، ص ٧٠، مطبعة كريدية - بيروت ١٩٧٨.

(٣) للمزيد من التفصيلات حول الوزارة والحجابة في المغرب والاندلس انظر: د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧١ - ١١٨.

النسب، غير أن الوزير يحتاج إلى شرط إضافي على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج. ويرى الماوردي أنه على هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة[1].

ومن واجبات وزارة التفويض أو الوزير المفوض إطلاع الإمام على ما قام به من أعمال وما أنجز من مهام لئلا ينفرد بالأمور ويتحول إلى مستبد. وبالتالي فإن على الإمام الإطلاع ومراجعة أعمال الوزير للموافقة على الصواب واستدراك الأخطاء «لأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول».

٢ ـ **وزارة التنفيذ**: إن وزارة التنفيذ حكمها أضعف وشروطها أقل، لأن النظر فيها مقتصر على رأي الإمام وتدبيره، ووزير هذه الوزارة هو الواسطة بينه وبين الرعايا والولاة يؤدي عن الإمام الخليفة ما أصدر من أوامر وينفذ ما ذكر ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش. ثم يعرض على الإمام الخليفة ما ورد من أمور هامة. وبكلمة فإن وزير التنفيذ هو مساعد في تنفيذ الأمور وليس والٍ عليها أو متقلد لها. ويراعي في من يتولى هذا المنصب سبعة أوصاف:

ـ الأمانة، صدق اللهجة، قلة الطمع، عدم العداوة مع الناس، أن يذكر للخليفة ما رآه وما سمعه، الذكاء والفطنة، أن لا يكون من أهل الأهواء. وإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرأي احتاج إلى وصف ثامن وهو الحنكة والتجربة.

ومن الأهمية بمكان القول بأن هذه المناصب السياسية وسواها من المناصب الهامة يتولاها عادة الذكور من المسلمين لأسباب عديدة وقد قال الرسول محمد (ﷺ): «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة». علماً بأن الإسلام كرّم المرأة وعظم من شأنها، ولكن في إطار معلوم من المهام والمناصب، وفي إطار أمكانياتها المتاحة.

أما فيما يختص بالخليفة فيجوز له أن يقلد وزيري تنفيذ على اجتماع

---

(١) الماوردي، المصدر السابق، ص ٢٢.

وانفراد، ولا يجوز أن يقلد تفويض على الاجتماع لعموم ولا يتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين لأنهما ربما تعارضا في العقد والحل والتقليد والعزل[1]

## النظام العسكري

إن الظروف السياسية والعسكرية والقبلية التي أحاطت بالدين الإسلامي منذ نشأته دعت الرسول محمد (ﷺ) إلى الإعداد العسكري لمواجهة أعداء الإسلام في الداخل، علماً أن القرآن الكريم حض المسلمين على قتال الكفار والمشركين والمعتدين. ولما انتشر الإسلام وزاد عدد المسلمين، زادت الأطماع، ومحاولات القضاء عليه، فكان لا بد من تكوين جيش قوي وقادر لمواجهة الدولتين البيزنطية والفارسية ومن هنا كان اتجاه الخليفة عمر بن الخطاب لإنشاء ديوان خاص بالجند ينظم أوضاعهم العسكرية والمالية والعائلية[2]. كما اعتنى معاوية بن أبي سفيان بتطوير النظام العسكري وبناء السفن الحربية والقوات البرية بهدف الدفاع والغزو وأقام مراكز لبناء الأساطيل البحرية ثم طبق عبد الملك بن مروان نظام «التجنيد الإلزامي». واهتم العباسيون خاصة في إنشاء جيش قوي وإقامة القلاع والحصون في الثغور لحماية المدن من غزوات الروم.

وكان الجيش الإسلامي في أثناء الحرب تتوزع مهامه وفق تقسيماته العسكرية: المقدمة والقلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر والساقة، وكان يقود الجيش القائد الذي يتصف بالجرأة والإقدام والذكاء. أما أسلحة الجيش فكانت: السيوف والدروع والخوذ والرماح والحراب والأقواس والسهام والمنجنيق والأليات الخشبية المدرعة، كما استخدموا فيما بعد الدوافع (المدافع) الطالقة. وكانت عناصر الجيش عادة من المسلمين لا

---

(١) الماوردى، المصدر السابق، ص ٢٧.

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦.
انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى.
انظر أيضاً دراسة جيدة ومتخصصة للدكتور خالد جاسم الجنانى. تنظيمات الجيش العربى الإسلامى فى العصر الأموى، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق، ١٩٨٤.

سيما العرب منهم ، ثم بتوسيع الدولة سمح للبربر والعنصر التركي بالدخول إليه .

## النظام الإجتماعي

كان النظام الإجتماعي في العصر الجاهلي يختلف كثيراً عن النظام الإجتماعي في العهد الإسلامي نظراً لأن الدين الإسلامي أوجد أنظمة وعادات ومعتقدات جديدة مخالفة للشرائع الجاهلية ، غير أن النقلة الإجتماعية ، تمت تدريجياً .

وكان المجتمع العربي يضم : المسلمون العرب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود والمسلمون من غير العرب كالأندلسيين والأتراك والمماليك والفرس وسواهم . وبالرغم من أن الإسلام ساوى بين المسلمين بين الأغنياء والفقراء في الحقوق ، والواجبات ، غير أن المجتمع العربي شهد فئات إجتماعية متنوعة مثال فئات : الوزراء والأمراء والقضاة والقادة والعلماء والأغنياء والتجار ، والفقراء والصعاليك والرقيق .

أما الأسرة العربية فهي تنقسم عادةً إلى ثلاثة أقسام : الرجل ، المرأة ، الأولاد . وقد كرم الإسلام الأسرة وحض على رعايتها والإهتمام بها ، وبلغ اهتمام الإسلام بالأسرة أن دعا الرسول (ﷺ) إلى اختيار أسماء جميلة غير معيبة للأولاد ، وإلى تعليمهم تعليماً جيداً وإلا كان الأب عاق بحق أولاده . . كما أن الإسلام دعا الأولاد إلى رعاية واحترام الوالدين «وبالوالدين إحساناً» وأعطى الإسلام للرجل حق الزواج بأكثر من واحدة ضمن شروط معينة ، كما أباح له ولزوجته طلب الطلاق في حال وجود المبررات الشرعية .

أما المرأة العربية[1] ، فمن المعروف أنها منذ ما قبل الإسلام كان لها مكانة مرموقة ، فقد كان يحق لها التملك والاشتغال بالسياسة والشعر والأدب والسحر ، . وكانت تتميز بحرصها على شرفها وكرامتها ، وكان تخوف الأباء

(١) انظر كتاب : أ. عبد الحميد فايد : المرأة وأثرها في الحياة العربية ، دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

من مس شرفهم يدعوهم إلى وأد بناتهم وطمرهم آحياء في الرمل. من جهة أخرى فقد كانت المرأة قبل الإسلام ينقصها الكثير من الحقوق، فقد كانت تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها وكان باستطاعة الرجل أن يتزوج أختين معاً وسمح للإبن أن يتزوج إمرأة أبيه بعد موته. ولما جاء الإسلام حرم وأد البنات وحرم زواج الأختين الضرتين إلا في حال وفاة الأولى أو طلاقها فيمكن للزوج ساعتئذٍ الزواج من الأخرى كما سمح للمرأة الزواج بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه، ومنع زواج الإبن بزوجة والده ولو بعد وفاته.

ولقد أعلى الإسلام مكانة المرأة وأمر برعاية الأم والأخت والزوجة والعمة والخالة وقال الرسول (ﷺ) بإن الجنة تحت أقدام الأمهات، وفي حديث شريف آخر: «أمك أمك ثم أباك.» ولما شرع الإسلام بأن «للذكر مثل حظ الأنثيين». لم يكن يعني بذلك أعلاء الرجل درجة على المرأة بل على العكس، فقد أمر الشرع الرجل مقابل حصتين، الزامه برعاية والدته وأخته وكل أنثى تمت إليه بقربى، ويقع على عاتق الرجل جميع المسؤوليات أزاء والدته وأخته و. . . في حال حاجتها إلى مساعدته، بينما لم يكلف الإسلام المرأة بتحمل المسؤوليات عن أخيها.

أضف إلى ذلك بأن الإسلام أعلى من مكانة المرأة وأعطاها حقوقاً إجتماعية وسياسية ومالية وأعطاها حرية التصرف بأموالها وممتلكاتها. وبرز من النساء الشاعرات والأديبات والعالمات والطبيبات والممرضات. . .

وبالرغم من أن الإسلام لم يحرم الرقيق غير أنه ساعد على الغائه تباعاً بتحديد التغفير والتكفير عن الذنوب والتقصير في مجالات العبادة، فأمر الله بعتق العبد أزاء التكفير عن المعاصي والخطايا، وكان الرقيق فئة من فئات المجتمع العربي والإسلامي وقد بلغت شأواً هاماً لا سيما في العصور العباسية فثارت ضد الظلم واستطاعت فيما بعد تولي المناصب وتولي السلطة في عصر عرف بإسم عصر المماليك.

هذا وقد عرفت الحضارة الإسلامية نشاطات علمية مكثفة في ميدان

الأدب، والشعر والنثر والطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والموسيقى والرياضيات والصيدلة وعلم النبات والفنون والعمارة وبناء المساجد والبيمارستانات والجغرافيا والتاريخ ونظم التعليم والجامعات. وسواها الكثير، وفي مختلف المناطق الإسلامية وفي مختلف العهود[1].

## النظام القضائي وأساليب الإدارة الإسلامية في المدن الإسلامية (المحتسب)

كان الرسول (ﷺ) هو القاضي الذي يحكم بين الناس في بدء الدعوة الإسلامية، ثم تولى هذه المسؤولية الخلفاء من بعده، ولكن نظراً لتطور الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب ومن ثم في العهد الأموي، بدأ الخلفاء يعينون قضاة في العاصمة وفي الأقاليم كان المسؤول عنهم «قاضي القضاة» الذي كان مركزه عادة في عاصمة الخلافة دمشق أو بغداد فيما بعد. وكان القضاة يحكمون وفقاً للقرآن الكريم والسنة النبوية وتبعاً للفقهاء الذين اجتهدوا اجتهادات هامة في قضايا الإسلام. وارتبط بنظام القضاء، نظام استحدثه الخليفة عبد الملك بن مروان هو «ديوان المظالم» ويستدل من إسمه بأن مهمته كانت تلقي الشكاوى والبحث فيها وإصدار الحكم حولها، وكانت الجلسات تعقد إما في المسجد أو في غرفة خاصة في قصر الخليفة أو منزل قاضي القضاة، ولا يجوز أن يقلد القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه وهي سبعة: أن يكون رجلاً بالغاً، أن يكون عاقلاً، أن يكون حراً، أن يكون مسلماً، أن يكون عادلاً، أن يكون سليم السمع والبصر، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية وأصولها[1].

ويرتبط بالنظام القضائي أيضاً نظام الشرطة الذي كان أفراده يقومون

(١) انظر: ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية (في فصوله الستة) تعريب حمزة طاهر، دار المعارف ـ مصر الطبعة الخامسة، ١٩٨٣.

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٦٥ ـ ٦٦. للمزيد من التفصيلات حول منصب القضاء في الإسلام، انظر الماوردي، المصدر نفسه، صفحات ٦٥ ـ ٩٣.

بحفظ الأمن الداخلي والمحافظة على مصالح الناس. وكانت هنـاك شرطـة خاصة في أثناء الليل يقال لها «شرطة العسس» لملاحقة اللصوص والمجرمين الذين يحاولون السرقة ليلاً، وكان من مهامهـا تفقـد الشـوارع والمحـلات والدكاكين فيما إذا كـان صـاحبها نسي إقفالها أم لا. وقد انتقل نظام الشرطة إلى الأندلس وعرف هناك بإسم (Zavorda).

أما فيما يختص بنظام الحسبة والمحتسب في الإسلام فهو يعتبر من أرقى الأنظمة الإدارية المحلية التي كانت مرتبطة بالنظام القضائي وقد أنشىء نظام الحسبة تبعاً لتعاليم الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: فصل النظام القضائى الإدارى الإسلامى.

# الفصل الثاني

## النظام الإداري في العهد الإسلامي الأول

**أولاً: نبذة عن النظم السائدة**

سادت النظم الإدارية في الامبراطوريات القديمة، لاسيما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية، نتيجة تجارب مستمرة في ميدان الاقتصاد والسياسة والحرب، وحصيلة خبرات إدارية جعلت كلا منها قادرة على تنظيم شؤونها تبعاً لأوضاعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وتبعاً لمتطلبات الحكم والتوسع العسكري الذي فرض التنظيم لكافة الأقاليم التي سيطرت عليها.

وهذا يعني ـ بطبيعة الحال ـ أن تلك الامبراطوريات قد تأثرت تأثراً مباشراً نتيجة احتكاكها بالمناطق التي سيطرت عليها، لوجود حضارات قد تكون أرقى وأزهى من حضارتها، لذا اقتبست الكثير من أنظمة الشعوب المسيطرة عليها، فالرومان مثلاً أخذوا عن الحضارة اليونانية من حيث النظم الإدارية والسياسية، ومن حيث الآداب والعلوم أيضاً. كما أن الفرس أخذوا عن شعوب استعمروها كانت تفوقهم في مضمار الحضارة، ومن الأمثلة عمى ذلك، أنهم اقتبسوا عن الكلدانيين والبابليين تنظيمهم السياسي والإداري، وأخذوا عن الأشوريين تنظيمهم العسكري.

ومن الجدير بالذكر أن الفرس لم يهتموا في بادىء أمرهم بالكتابة والتدوين والآداب. فلا غرابة إذن أن تضيع «الافيستا» ولا تدون إلا في عصور لاحقة.

ولما أحس الفرس بضرورة التدوين اعتمدوا الكتابة المسمارية المعمول بها في بلاد ما بين النهرين مع بعض التعديل في كتاباتها، ولما امتدت امبراطوريتهم إلى الغرب اعتمدوا الأرامية كلغة دبلوماسية لأنها كانت لغة تتداولها شعوب الامبراطورية.

هذا ويمكن القول، أن الأمم التي ضمتها امبراطورية الفرس ساهمت مساهمة فعالة، في تأمين أسباب الحضارة للفرس. فلا عجب والوضع على هذا النحو، أن يقتبس العرب بعض الأنظمة التي سادت قبل إنشاء دولتهم وأضافوا عليها ما يلائم أوضاعهم الاقتصادية والإدارية والدينية والسياسية، ومن بين هذه الأنظمة نظام الدواوين. وهذا دليل واضح على استعداد العرب لتقبل الحضارات ومظاهر التقدم والرقي عند غيرهم من الشعوب.

ومما يستغرب أن أكثر المراجع والمصادر العربية لا تشير إلى أن الفرس أنفسهم، كانوا قد اقتبسوا نظام الدواوين وغيره من أنظمتهم من نظم إدارية لشعوب سيطروا عليها من قبل.

**ثانياً: أسباب جهل العرب قبل الإسلام للنظم الإدارية الراسخة**

يتبين للدارس في تاريخ العرب والإسلام الملاحظات التالية:

١ ـ كان العرب قبل الإسلام قبائل متفرقة، لا تربط فيما بينها روابط سوى النسب، ولا تجمعها أهداف موحدة، وكان مجتمعهم على هذا النحو مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية.

٢ ـ لا يعني ذلك أنه لم يكن للعرب حضارة قبل الإسلام، ولكن المقصود منه أن عدم وجود دولة بمفهومها الكياني، يستتبع عدم وجود الإدارة والتنظيمات المالية والسياسية وما شابه ذلك، إذ لا حاجة للقبائل لمثل هذه التنظيمات. بل كانت تنظم أمورها وفقاً لظروفها واحتياجاتها.

٣ ـ جاء الدين الإسلامي ليلغي هذه الأوضاع، وليؤسس «دولة المدينة» في عهد الرسول ﷺ، وكان من الطبيعي ألا تجاري هذه الدولة الفتية ـ ولما يمض عليها سنوات معدودات ـ كبريات الامبراطوريات كالامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية التي خبرت وأدركت الكثير من أمور

الإدارة والسياسة نتيجة خبراتها وتجاربها واختلاطها بشعوب أرقى منها وأكثر تقدماً. ولذا فقد اقتصر التنظيم الإداري في زمن الرسول ﷺ على قيادته السياسية والعسكرية ورئاسته الدينية، ولم يستلزم الأمر في ظل بساطة «دولة المدينة» الأخذ بنظم متطورة في الإدارة والحكم على غرار الفرس والروم.

٤ ـ عندما تعقدت الإدارة الإسلامية في عصر الفتوحات، كان طبيعياً الاقتباس من نظم المغلوبين، وهذه ظاهرة طبيعية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العرب شعب يتقبل الحضارات العالمية، ولا يعيش في معزل وانكماش عن التطورات الحضارية.

**ثالثاً: تعريف الديوان**

من الأنظمة التي اقتبسها العرب عن الفرس والروم نظام الدواوين الذي كان أداة لتنظيم أمور الدولة في كافة المجالات. «والديوان في تعريف أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي، الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»[١]. «وفي تسميته ديواناً وجهان: أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال «ديوانه» أي مجانين، فسمي موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً للاسم فقيل ديوان، والثاني أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين فسمي الكُتَّاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق واطلاعهم على ما بعد وقرب ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان»[٢].

---

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار) م ٢ ص ٣٣ تحقيق:

G. Wiet; Le Caire Imprimerie de L'Institut Francais «1913».

انظر أيضاً: .Encyclopédie de L'Islam - Art Diwan - P.1006, Vol. 1

للمزيد من التفصيلات أيضاً: انظر الموسوعة ذاتها طبعة ١٩٦٥.

Encyclopédie de L'Islam (Nouvelle Edition) Tome II, PP. 332 - 345.

(٢) المقريزي، المصدر نفسه م ٢ ص ٣٣، (ديوانه تعني بالفارسية مجنون) انظر أحمد لواساني (مدخل إلى اللغة الفارسية) ص ٢٦٨، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢.

وقد استعمل العرب كلمة «ديوان» في نظامهم الإداري بعد أن عربت عن الفارسية، وقد يكون لهذه الكلمة صلة بكلمة «دبير» بمعنى الكاتب، أو بكلمة «دب» الأشورية بمعنى سجلات العامة[1]. وهذا التفسير يدعم الرأي السالف الذكر من أن الفرس كانوا قد اقتبسوا عن غيرهم من الشعوب.

### رابعاً: الدواوين في عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين

لقد وجد الديوان منذ عهد الرسول ﷺ دون أن يتسمى بهذه التسمية، وللدلالة على صحة هذا القول، أنه كان للرسول ﷺ كتبة وقراء من الصحابة بلغ عددهم أكثر من اثنين وأربعين شخصاً، فقد كان عثمان بن عفان يكتب له أحياناً، وأحياناً علي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي[2]. وكان أول من كتب له أبي بن كعب وإذا غاب كتب له زيد بن ثابت، وقد كتب له أيضاً عبدالله بن سعدبن أبي سرح، وكتب له أيضاً معاوية بن أبي سفيان وحنظلة الأسيدي.

ويكفي هذا العدد من الأشخاص لأن يؤلفوا ديواناً للكتابة والإدارة وكان جميع هؤلاء يكتبون ـ بطبيعة الحال ـ باللغة العربية وليس بلغة ثانية، بل إن ثقافة أحدهم بلغت حد إجادته لعدة لغات أجنبية من النادر أن تجتمع في شخص واحد في تلك الفترة، فقد كان زيد بن ثابت ترجمان الرسول ﷺ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية[3]. يترجمها إلى اللغة العربية.

ومن الدلائل غلى وجود المفاهيم الديوانية عند المسلمين، أن النبي ﷺ أراد مرة إحصاء المسلمين فقال: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبوا له ألفاً وخمسماية رجل[4]. ولم يكن قبل ذلك يجمع المسلمين كتاب

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٤٠.

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ٣، ص١٧٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف في مصر ١٩٦٢.

(٣) محمد كرد علي (الإدارة الإسلامية في عز العرب) ص ١٤ مطبعة مصر، القاهرة ١٩٣٤.

(٤) محمد كرد علي، المرجع نفسه، ص ١٩.

حافظ أي ديوان مكتوب[١]. بالرغم من أن الرسول ﷺ أحصى المسلمين وسجل أعدادهم.

لقد كان إحصاء المسلمين الأول خطوة أولى نحو التدوين إذ بمثل هذه الطرق تم الإحصاء وأعداد من اعتنق الإسلام، والظاهر أن الرسول اتخذ هذه الخطوة ليقف على أعداد من اعتنق الإسلام، وذلك لدفع أموال الزكاة ولصرفها على المحتاجين من المسلمين، والأخذ ممن يتوجب عليهم الدفع. وللتأكد أيضاً من أعداد المسلمين الذين يمكن لهم الاشتراك في العمليات القتالية.

وقد اقتدى الخليفة أبو بكر الصديق بما ساد في عصر الرسول ﷺ من أنظمة أولية، إذ أن من كتب للرسول ﷺ كان يكتب أيضاً للخليفة أبي بكر الصديق ومنهم زيد بن ثابت وعثمان بن عفان. على أنه مما لا شك فيه أن نواة «بيت المال» وجدت في أيام الخليفة أبي بكر[٢].

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة، طور الأنظمة السائدة في الدولة، وأضاف إليها أساليب إداربة متبعة في بلاد فارس، ففي ١٥ هـ فرض على المسلمين الفروض ودون الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة في الإسلام[٣].

ولما أراد عمر وضع الدواوين لتوزيع الأموال على المسلمين، قال له علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك. قال: لا، بل ابدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب[٤]. ومن الذين دونوا للخليفة عمر عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وبالناس.

وكان السبب في تدوين عمر للدواوين، أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين

---

(١) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص ١٩ نقلاً عن سيرة ابن هشام.

(٢) انظر: E. Browne; A Literary History of Persia, P. 205, Vol 1 «London 1909».

(٣) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ٣ ص ٦١٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٦١٤.

ومعه مال، فلقى عمر فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم، فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعده عداً. فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم، قال دونوا الدواوين[1].

ويقال أنه استشار عثمان بن عفان، والوليد بن هشام بن المغيرة الذي قال له: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً، فدون ديواناً وجند جنداً[2]. فأخذ بقول من استشارهم بعد أن رأى أنه لا بد من ضبط الأموال التي ترد على الدولة. ومن ثم معرفة أعداد الجند لفرض العطاء لهم ولأسراتهم، وما يقتضي ذلك من تنظيم للقضايا المالية والعسكرية.

وكان الديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية[3]. وأول ديوان أنشىء في الإسلام هو ديوان الجند، ويطلق عليه أيضاً ديوان العطاء، وغايته الحفاظ على الأموال الفائضة الواردة إلى بيت مال المسلمين، مثل الزكاة والجزية والعشور وغيرها، وتسجيل أسماء الجند لصرف العطايا لهم. وقيل إن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء[4].

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، أقر الأوضاع الإدارية السائدة التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب من قبل. وسار الخليفة علي بن أبي طالب

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٣٥، ٦٣٦. الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ١٦، ١٧، الطبعة الأولى تحقيق ونشر مصطفى السقا وآخرين، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٩٣٨.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ٦٣٠.

(٣) محمد كرد علي (الإدارة الإسلامية في عز العرب) ص ٤٤.

(٤) محمد كرد علي، المرجع نفسه، ص ٤٥ نقلاً عن «نهاية الأرب للنويري» و «صبح الأعشى» للقلقشندي.

على النمط الإداري السابق لأنه لم ير موجباً لتغييره أو الإضافة عليه، خاصة وأنه كان مشغولاً بما ساد من مشاكل داخلية في عهده.

ويذكر أيضاً أن معاوية بن أبي سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم، أو ضيف حل بهم، فيكتب أسماءهم وأسراتهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه[1]، بالإضافة إلى أن عبد الملك بن مروان سيعمل - فيما بعد - على تنظيم الدواوين وتطبيقها ليس على المسلمين فحسب وإنما على أهل الذمة، حيث أمر بأن يدون كل شخص اسمه واسم والده وأولاده وممتلكاته وذلك في مكان ولادته[2].

---

(١) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٩٩ نقلاً عن ابن عبد الحكم والمقريزي.

(٢) Denys; Chronique, Publication et traduite par chabot, P. 10 «Paris 1895».

# الدواوين في العصر الأموي

تولى معاوية بن أبي سفيان الحكم سنة (٤١ ـ ٦٠ هـ) وفي عهده خطت الإدارة العربية خطوات سريعة إلى الأمام، نظراً لانفتاحه الشديد على حضارات الروم والفرس، وقد اضطرته الظروف الجديدة، والمحيط الجديد للأخذ بمثل هذه الحضارات، لاسيما الإدارية منها، بعد أن رأى ضرورة إخراج إدارة الدولة العربية من رتابة الماضي إلى تطور الحاضر ورقي المستقبل.

وفي عهده تعددت الدواوين إلى أن أضحت خمسة تدير شؤون الدولة الأموية، وذلك نتيجة لاتساع هذه الدولة وازدياد نشاطها، فظهر مظهر الاختصاص فأصبح كل ديوان يختص بناحية معينة من شؤون الدولة.

وقد استعان معاوية بن أبي سفيان بأشخاص من النصارى بالإدارة العربية، بينما كان الخليفة عمر بن الخطاب يمتنع عن استخدامهم إلا إذا أسلموا، لاسيما في الإدارة الخاصة بمقر الخلافة. فعهد معاوية إلى سرجون بن منصور، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بإدارة دواوين المال. وكان منصور الأول والد سرجون على المال في الشام منذ عهد هرقل وذلك قبل الفتح العربي.

والواقع أنه لم يقتصر وجود الدواوين على مقر الخلافة فقط ـ والتي كانت بطبيعة الحال تستعمل اللغة العربية في تدوينها ـ بل أنشئت دواوين محلية في البلاد المفتوحة، كانت استمراراً للدواوين التي كانت موجودة قبل الفتح العربي، وظلت تستعمل فيها اللغات الفارسية والرومية والقبطية وأحياناً

اليونانية، ويتولى الوظائف فيها أشخاص من النصارى والفرس دون العرب والمسلمين.

وكانت الدواوين في البلد الواحد تكتب باللغة العربية وبعضها الآخر إما باللغة الفارسية أو الرومية. ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان: أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذي كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالرومية، والآخر بالعربية فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان[١].

أما في مصر فكانت الدواوين تكتب بالقبطية واليونانية، ولكن ظهرت اللغة العربية إلى جانبهما، فقد عثر على وثيقة من وثائق البردي كتبت باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخها إلى سنة **٢٢** هـ. أي نحو ٦٥ عاماً قبل المحاولة الرسمية لتعريب الدواوين في مصر[٢].

ومع هذا فقد كانت السمة الغالبة على الدواوين سواء ما يتعلق بأشخاصها أو لغاتها السمة الأجنبية البعيدة عن المظاهر العربية، إلى أن تولى عبد الملك بن مروان أمر تعريب الدولة، بعد أن نفذ عملية تعريب النقود، وتحقق بذلك الاستقلال الاقتصادي عن الدولة البيزنطية والأنظمة النقدية الفارسية، ثم قام الخليفة عبد الملك ليحقق الخطوة الثانية في حركة التعريب وأعني بها تعريب الدواوين إكمالاً لصبغ الدولة بصبغة عربية. بعد أن كان النظام الديواني والمالي الإسلامي على غرار الأنظمة البيزنطية نظاماً وتعبيراً[٣].

وكانت الدواوين في العصر الأموي خمسة: ديوان الجند، ديوان الخراج، ديوان الرسائل، ديوان الخاتم، ديوان البريد.

---

(١) الجهشياري (كتاب الوزراء والكتاب) ص ٣٨، الصولي (أدب الكتاب) ص ١٩٢، نسخة وعلق عليه محمد بهجة الأثري المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١ هـ.

(٢) أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر) ص ٣١، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠.

(٣) Lammens, un gouverneur Omaiyade d'Egypte, P. 102.

**١ ـ ديوان الجند**

وكان هذا الديوان هو نفسه الذي أسسه عمر بن الخطاب لتحديد العطاء لجميع المسلمين وخاصة الجند منهم. غير أنه قد مر بتطورات عديدة على أيدي الأمويين، لما اقتضته الظروف الجديدة للحياة الإسلامية في العصر الأموي، نتيجة ازدياد عدد الجند، واحتكاك المسلمين بحضارات أخرى، وتشعب المسائل المالية وما شابه ذلك من نظرة الجند إلى العطاء على أنه معاش أكثر منه راتباً لقاء خدمة حربية أمر بها الإسلام.

وقد استمرت هذه النظرة إلى أن جاء الخليفة هشام الذي أبطل إجراء من الإجراءات الفاسدة، وهو تقديم العطايا على أنها وسيلة للتعيش دون إيمان بما يقوم به الجندي من خدمة، فلم يأخذ أحد عطاء حتى ولو كان أميراً أموياً ما لم يؤد الخدمة الحربية بنفسه أو يرسل من ينوب عنه في أدائها وأعطى نصيبه لمولاه ياقوت، الذي ذهب إلى ميدان القتال نائباً عنه[١].

**٢ ـ ديوان (الخراج)**

ويعتبر أهم الدواوين جميعاً، لأنه يشرف على شؤون الجبايات وجميع القضايا المالية للدولة، ويتولى تسجيل ما يرد وما ينفق من الأموال في الوجوه المختلفة. ويقال لكتابة الخراج قلم التصريف، وأول ما دون هذا الديوان في الإسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قبل الإسلام[٢] وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية[٣].

وكان هذا الديوان يعتبر بمثابة مصلحة المالية حالياً، إذ نظم تنظيماً دقيقاً حيث أعدت فيه إيصالات الاستلام والصرف، التي كانت تحفظ في سجلات خاصة بها.

---

(١) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٣٤٨، ترجمة دكتور أبو ريدة، نشر لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٨.

(٢) المقريزي (المواعظ والاعتبار) م ٢، ٥٧ تحقيق: G-Wiet; Le Caire 1913

(٣) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٦٧٧.

وكان الفائض من الولايات يرسل إلى هذا الديوان ومع ذلك فإن مبالغ طائلة أبقيت في خزائن الولايات للأغراض المحلية والحوادث الطارئة[1].

### ٣ ـ ديوان الرسائل

سبق وأشرنا إلى أن الرسول ﷺ كان يستعين في أمور دولته بكتاب يكتبون له الرسائل والوثائق، وحذا الخلفاء الراشدون حذوه فكانوا يتخذون الكتاب لتدوين الكتب والرسائل. واستمر الحال كذلك حين اتخذ الأمويون ديواناً خاصاً بالرسائل يخدم الإدارة المركزية والإدارات المحلية.

وكان من أعمال هذا الديوان تنسيق العمل أيضاً بين جميع الدواوين الأخرى، نظراً لما يرسله الخليفة من ملاحظات على سير الأمور في هذه الدواوين وما يتوجب عمله.

وكانت المراسلات السياسية في عهد الخلفاء الأول قصيرة جداً ومقصورة على ما يراد منها[2].

ويتولى هذا الديوان مشرف عام يقوم بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية، أو الموجهة من الخليفة إلى عماله. وكان القائم على هذا الديوان يختار من أهل الخليفة ومن عظماء قبيلته[3] ذلك أن الخليفة كان لا يأتمن إلا من كان موضع ثقته، حتى لا تتسرب أسرار الدولة والخلافة إلى الأعداء.

### ٤ ـ ديوان الخاتم

وكان من مهام هذا الديوان تسجيل ما يصدر عن الخليفة ثم يختم سواء كانت رسالة أم وثيقة قبل أن يرسل إلى الولايات والأمصار والأقاليم. كانت الرسائل ـ قبل إنشاء ديوان الخاتم ـ تصدر غير مختومة بتوقيعات الخليفة، وحدث أن أعطى معاوية كتاباً إلى عمرو بن الزبير يأمر فيه زياد بن أبيه عامله

---

(١) مولوي حسيني (الإدارة العربية) ص ١٦٧ ترجمة د. إبراهيم العدوي، المطبعة النموذجية بالحلمية ١٩٥٨.

(٢) مولوي حسيني المصدر نفسه ص ١٦٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٦٧٩.

في بلاد العراق، بأن يعطي حامله مائة ألف درهم، ففض عمرو الكتاب، وجعل المائة مائتين، وتسلم المبلغ من زياد[١]. فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد، فاكتشف معاوية عند ذلك تزوير عمرو وأمر بسجنه. غير أن أخاه عبدالله بن الزبير دفع المبلغ الزائد إلى معاوية وضمن بذلك إطلاق سراح أخيه[٢].

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الرسائل تصدر مختومة، بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحال اليوم في قلم «الأرشيف» أو السجلات[٣]. بحيث لا يعلم أحد ما تشتمل عليه، ولا يستطيع فضها أيضاً، ولو حاول حاملها ذلك لاكتشف أمره فوراً.

وأسند ديوان الخاتم إلى عبدالله بن محصن الحميري وقيل ولاه عبد الله بن أوس الغساني. والمرجح أن الرسائل البالغة الأهمية، كان لا بد للخليفة نفسه من أن يختمها بخاتمه الخلافي، ولا يتركها تختم بخاتم المشرف على الديوان، وذلك للحفاظ على سريتها وأهميتها.

وقد اتبع ولاة الأقاليم الأسلوب نفسه، فاعتاد زياد بن أبيه أن يختم الرسائل، وأن يحفظ نسخاً من جميع أوامره، حتى إذا ما تقاعس البعض عن تنفيذ أوامره، أو شذوا في تحقيقها، كانت هناك نسخة ثبوتية إضافية تدينهم.

وفي عهد عبد الملك بن مروان تقدمت إدارة ديوان الخاتم، كما نشأت إذ ذاك دار للمحفوظات الحكومية في دمشق[٤]. وكان بنو أمية عادة لا يولون ديوان الخاتم إلا أوثق الناس عندهم. وأول من رسم هذا الديوان معاوية[٥].

---

(١) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٢٤، ٢٥.
(٢) مولوي حسيني (الإدارة العربية) ص ١٦٩.
(٣) حسن إبراهيم حسن (تاريخ الإسلام) جـ١، ص ٤٤٧، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٤.
(٤) مولوي حسيني، المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٥) الصولي (أدب الكتاب) ص ١٤١.

### ٥ ـ ديوان البريد

يذكر ياقوت في «معجم البلدان» أن كلمة «بريد» مأخوذة من الكلمة الفارسية «بوريدان» لأن أذناب خيل الرسل وأعرفها كانت مقطوعة، لتميزها عن الخيل الأخرى، ولتميز راكبها بأنه رسول الدولة.

وقد استحدث نظام البريد، بعد اتساع الدولة العربية، وضرورة الاتصالات بين مركز الخلافة وسائر الأقاليم للوقوف على الأحداث ومجريات الأمور، وإعطاء الأوامر وتلقيها أيضاً. إذ أصبح من الضروري نقل الرسائل في سرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وعمال الأقاليم(١).

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من أنشأ نظاماً للبريد، وكان في نشأته الأولى مختصاً لتصريف شؤون الدولة فقط، وبعد التيقن من فائدته وضرورته أتيح للناس الانتفاع منه في نقل رسائلهم. بالإضافة إلى أنه يزيد دخل الدولة المالي، من جراء إجرة النقل أو الرسوم المترتبة على ذلك.

وفي عهد عبد الملك بن مروان ـ الخليفة الأموي ـ تقدم نظام البريد تقدماً ملموساً، فلم يعد نظاماً يعتمد على طريقة تبادل الخيل في المحطات البريدية فقط، ولنقل الرسائل، بل أصبح نظاماً يستفاد منه في الحالات العسكرية، والحربية والرحلات السريعة، فقد كانت عربات البريد تستخدم أحياناً في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة، حيث كانت تستطيع أن تحمل ما بين خمسين ومائة رجل في الرحلة الواحدة(٢). وبعد أن قامت الدولة الأموية بتعريب النقود عمدت إلى تعريب الدواوين وتنظيم البريد تنظيماً جيداً(٣).

وللدلالة على أهمية البريد والوظيفة التي كان يقوم بها، فقد كان عبد الملك بن مروان يمنع حاجبه من الوقوف في سبيل حامل البريد إذا أراد

---

(١) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٦٨٠.

(٢) مولوي حسيني، المصدر السابق ص ١٧١.

(٣) H. Gibb; The Arab Conquests in Central Asia, P. 25 - 27, «London 1923».

الدخول إليه. وذلك كسباً للوقت لاسيما في الحالات الطارئة وأيام الحرب وأثناء قيام الثورات المضادة للحكم المركزي[1].

وفي عهد يوسف بن عمر والي العراق، بلغت تكاليف ديوان البريد في هذه الولاية وحدها أربعة ملايين من الدراهم في السنة[2].

وكان وجود هذه الدواوين الخمسة، ضرورة مهمة لإقامة دولة متكاملة، بحيث تستطيع أن تنظم أمورها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية، وقد استطاعت الدولة العربية أن تستكمل شروط إقامة مثل هذه الدولة.

---

(١) انظر أيضاً: عن تنظيم البريد H. Gibb; op. cit, P. 424.

(٢) مولوي حسيني (الإدارة العربية) ص ١٧١.

# عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين

يعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الأموية، لما امتاز به من رجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، فانتشل الدولة من الفوضى بعد وفاة مروان بن الحكم، وأقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء[1].

وكان عبد الملك بن مروان لبيباً عاقلاً مالكاً جباراً، قوي الهيبة شديد السياسة، حسن التدبير للدنيا. في أيامه نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، واخترعت سياقة المستعربين[2].

وكان عبد الملك منذ نشأته يميل للإسلام والعروبة، فقد ولد عبد الملك في الإسلام وتربى عليه، فضلاً عن أن ميلاده كان في مدينة الرسول ﷺ، وكان يعتبر من العلماء بالقرآن. لذا رأينا نشأته الأولى تؤثر في سلوكه واتجاهه، بالإضافة إلى ضرورات الدولة والظروف الجديدة، فبعد أن دعم سلطانه على أرجاء الدولة العربية، رغب في تعريب الإدارة والدواوين، خاصة بعد أن قام بتعريب النقود وإصلاحه النقدي الشهير، إذ أن تعريب الدواوين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعريب النقود كضرورة من الضرورات الواجب اتخاذها لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة قوية.

وكانت لغات الدواوين لا تزال إلى أيامه تكتب بلغات أهلها، ويتولاها

---

(١) حسن إبراهيم حسن (تاريخ الإسلام) جـ ١ ص ٢٩٢.

(٢) ابن طباطبا (تاريخ الدول الإسلامية) ص ١٢٢، مطبعة دار صادر - دار بيروت ١٩٦٠.

أشخاص من أهل البلاد المفتوحة، وترتب على ذلك احتفاظ الدولة بعدد من الموظفين من غير العرب والمسلمين، فكانت لغاتهم الأجنبية لغـات من الدرجة الأولى، لأنها كانت لغات رسمية، يضطر الناس إلى تعلمها لأنها كانت سبيلاً لتولي الوظائف الحكومية.

ولو لم تقم حركة التعريب في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، لاستمرت تلك اللغات منافسة للغة العربية، ولاستمر هؤلاء الأشخاص عقبة في سبيل وصول العرب إلى مناصب الدولة، وكان هذا يضعف من شأن اللغة العربية وخطراً يهددها. وبالتالي كان يضعف من تكوين الدولة القومي[١].

ورأى عبد الملك أن هذا الوضع يتناقض مع سيادة الدولة العربية، فرأى أن ثقته في الإدارة لا يمكن أن تتم ما دام موظفوها ليسوا عرباً ومسلمين، وما دامت لغتها غير العربية. لذا أمر عبد الملك بن مروان بتعريب لغة الدواوين، وكان طبيعياً أن يعقب تغير لغة الكتابة تغيير الموظفين[٢].

وكان لهذا العمل أثر عظيم في رفع شأن اللغة العربية، بحيث أصبحت لغة من الدرجة الأولى بعد أن كانت تعد لغة أجنبية كسواها بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة.

ويعتبر الخليفة عبد الملك بن مروان مؤسس النهضة العربية الأولى، بسبب حركة التعريب في مرافق الدولة. صحيح أن معاوية كان له فضل في إدخال بعض الأنظمة الإدارية في الدولة، إلا أن عبد الملك بن مروان هو الذي صقلها وأضاف عليها وبلورها ومن ثم عربها، وهي أهم خطوة خطاها خليفة حتى تلك الفترة.

وكان ديوان الخراج أو المال عصب الدولة، لما يطلع به على جميع القضايا الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية سواء في مركز الخلافة أو

---

(١) ضياء الدين الريس (عبد الملك بن مروان) ص ٢٨٤.

(٢) فيليب حتي وآخرين (تاريخ العرب) جـ ٢، ص ٢٨٣، الطبعة الثانية مطبعة دار الكشاف للنشر بيروت ١٩٥٣.

في أقاليم الدولة، وكان لا بد من أن يكون في هذه الدواوين موظفون يتمتعون بثقة الخليفة نتيجة إطلاعهم على أسرار الدولة. وكان الرسول ﷺ من قبل قد أحس بخطورة هذا الأمر، إذ يروى أن زيداً بن ثابت قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود، وقال لي: إني لا آمن يهوداً على كتابي، فلم يمر بي نصف شهر حتى تعلمته، فكنت أكتب له إلى يهود، وإذا كتبوا إليه قرأت كتابهم»[1]. ونظراً لأهمية الثقة ودورها في الدولة فقد تعلم زيد بن ثابت الفارسية والرومية والقبطية وغيرها، لئلا يضطر الرسول ﷺ والخلفاء إلى الاستعانة بمثل هذه الملل والنحل في الكتابة لهم.

ومن الأسباب التي جعلت عبد الملك يقوم بتعريب الدواوين الاختلاف الواضح منذ عهد الخليفة عمر بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف اختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الأراضي المفتوحة، وكان من العسير على عمر أن ينقل هذه الدواوين إلى العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً يفرضه على الدولة العربية كلها[2]. لذا قام عبد الملك بن مروان بتنفيذ هذه المهمة لإخراج نظام موحد في الدولة العربية. وأعطى أوامره إلى عمال الأقاليم بتنفيذ مهمة التعريب في الدواوين كالحجاج في العراق وعبدالله بن عبد الملك في مصر، وتولى عبد الملك بنفسه الإشراف على تنفيذ المهمة في بلاد الشام.

**١ ـ دواوين الشام**

«كان يتقلد ديوان الشام بالرومية، لعبد الملك ولمن تقدمه، سرجون ابن منصور النصراني، فأمره عبد الملك يوماً بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه، فعاد لطلبه، وحث فيه، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً، فقال عبد الملك لأبي ثابت سليمان بن سعد الخشني ـ وكان يتقلد ديوان الرسائل ـ أما ترى إدلال سرجون علينا؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه وإلى صناعته، أفما عندك حيلة؟ قال:

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٦٤.

(٢) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٥٢٤.

لو شئت لحولت الحساب إلى العربية، قال: فافعل، فحوله، فرد إليه عبد الملك جميع دواوين الشام»[1]. وذلك في سنة ٨١ هـ[2] ثم صرف سرجون عن الديوان، واستمر سليمان بن سعد يكتب لعبد الملك ومن بعده للوليد بن عبد الملك، إلى أن صرفه عمر بن عبد العزيز واستكتب مكانه صالح بن كثير الصداي من أهل طبريا[3]. وكان سليمان بن سعد هذا من أهل الأردن، وهو أول مسلم ولي الدواوين كلها[4]. في بلاد الشام.

والظاهر أن الخلفاء الأمويين ضيقوا عليه، وحاولوا إقصاءه أكثر من مرة نتيجة ازدياد نفوذه لأنه صاحب الفضل في نقل الديوان من الرومية إلى العربية، ومن الخلفاء الذين أقصوه أيضاً يزيد بن عبد الملك الذي أحل مكانه الكاتب أسامة بن زيد، مما أثار حفيظة سليمان وحقده على الكاتب الجديد.

٢ ـ دواوين العراق

وكان يتولى ديوان الفارسية زادان فروخ بن بيري، ومعه صالح بن عبد الرحمن البصري الذي كان يكتب بالعربية والفارسية التي تعلمها من زادان، وصالح هذا هو مولى بني مرة بن عبيد من بني سعيد بن زيد مناة بن تميم وكان من سبي سجستان[5].

ولما قلد الحجاج العراق قرب صالح بن عبد الرحمن لذكائه، فاغتاظ زادان قائلاً: «لا بد للحجاج مني لأنه لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري. فقال له صالح: إنه إن أمرني بنقل الحساب إلى العربي[6] فعلت، قال فانقل شيئاً منه بين يدي ففعل»[7]. فقال له زادان: تمارض فتمارض، فبعث إليه

---

(١) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٤٠.
(٢) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٢٧٢.
(٣) الصولي (أدب الكتاب) ص ١٩٣.
(٤) محمد كرد علي (الإدارة الإسلامية) ص ٨٩.
(٥) الصولي (أدب الكتاب) ص ١٩٢.
(٦) العربية.
(٧) الصولي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زادان، وأمره أن لا يظهر للحجاج[1].

ولما كان مقتل زادان فروخ ـ أيام فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ـ استكتب الحجاج صالحاً مكانه[2]. فأعلمه بما جرى له مع زادان في نقل الديوان فأعجبه ذلك، وعزم عليه في إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية[3]. بعد أن عرضه على الحجاج وذلك في سنة ثمان وسبعين[4]. ويقال إنه بعد سنة ثمانين[5]. ومضى صالح بن عبد الرحمن في نقل الديوان إلى العربية، وإن كانت كتابة الكسور قد شقت عليه، ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل في الكوفة[6].

وازدادات أهمية صالح بن عبد الرحمن فتتلمذ على يديه تلاميذ كثر، دربهم على أصول الكتابة الديوانية، وكانت عامة كتاب العراق تلامذته، وقد تسلموا الوظائف الإدارية في أيامه وبعده ومن هؤلاء المغيرة بن أبي قره، وشيبة بن أيمن، ومروان بن أياس[7]. وغيرهم.

غير أن الذي يسترعي الانتباه، تواريخ بدء التعريب في كل من الشام والعراق، فمن خلال تلك النصوص التاريخية يتضح لنا أن تعريب الدواوين بدأ في العراق قبل الشام. والظاهر أن السبب في ذلك يعود إلى عدم معاصرة المؤرخين لتلك الحقبة التاريخية، وعدم تثبتهم من تاريخ بدء التعريب في كلا البلدين، بدليل أن كلًا منهم يذكر تاريخاً مختلفاً عن الآخر.

ومن الوجهة العملية يرجح أن تعريب الدواوين بدأ في الشام قبل العراق

---

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ٣ ص ٥٩.
(٢) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٤٢١.
(٣) المقريزي، المصدر السابق ص ٥٩.
(٤) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٣٨.
(٥) المقريزي، المصدر السابق ص ٥٨.
(٦) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٢١٢.
(٧) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٣٩.

وفارس، لأن صاحب التعريب كان يستقر في دمشق، وكانت الظروف السياسية مؤاتية له في الشام أكثر منها في أكثر الأقاليم والولايات الأخرى.

ومما يسترعي الانتباه أيضاً أن اللغة الفارسية ظلت مستعملة في ولايات أخرى غير العراق كمنطقة خراسان وذلك حتى سنة ١٢٤ هـ «وكان أكثر كتاب خراسان إذ ذاك مجوساً، وكانت الحسابات تكتب بالفارسية، فكتب يوسف بن عمر ـ وكان يتقلد العراق في سنة أربع وعشرين ومائة ـ إلى نصر بن سيار كتاباً أنفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار، يأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشرك في أعماله وكتاباته»[١].

وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان إسحق بن طليق، رجل من بني نهشل، كان مع نصر بن سيار[٢].

والظاهر أن استعمال اللغة الفارسية فيما وراء العراق ظلت سائدة في الدواوين حتى العصر العباسي، فيذكر «المقريزي» بأن «أول من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية الوليد بن هشام بن قحذم بن سليمان بن ذكوان وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين»[٣].

أما انتقال الدواوين إلى العربية في العراق فيذكر «المقريزي» أنه تم بعد ثمانين[٤]. كما سبق وأشرنا.

وكان استمرار التدوين باللغة الفارسية في خراسان وما جاورها، وتأخر حركة التعريب هناك، أمراً طبيعياً، لأن الفارسية كانت لغة السكان الأصلية يتداولونها منذ آلاف السنين، بالإضافة إلى أنها لغة الدين المجوسي، ولا يعقل أن تذوب هذه اللغة في الدواوين في سنين قليلة، بل إن ذلك يحتاج إلى مراحل زمنية لا بد من قطعها، وقد تم ذلك فيما بعد.

---

(١) الجهشياري، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٢) الجهشياري، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٣) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ٣، ص ٥٨.
(٤) المقريزي، المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٥٨.

وكان الفرس يتباهون باستمرار، ويفاخرون أمام العرب في تنظيماتهم، ولغتهم السائدة في الدواوين، أذ قال أحدهم لأحد رجال العرب: «ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سميناه ما غيرتموه، كالأسفيداج والسكباج والدغباج. . . »[1].

ولكن بعد حركة التعريب تغير هذا المنطق نتيجة لحركة عبد الملك بن مروان واستمرار خلفائه في تحقيق هذه الحركة، فقد أجرى التعريب حتى على العيارات والألفاظ سواء رومية أو فارسية، وما سمعته العرب فاحتاجت إلى استعماله في نظم أو نثر فقد أعربته فصار عربياً بتكلمها به وإعرابها إياه[2].

والواقع أن حركة تعريب الدواوين لا تقل أهمية عن حركة الإصلاح النقدي لما أسهمت به من صبغ الدولة بالصبغة العربية، ورفع أثر اللغة العربية ـ بعد أن كانت لغة من الدرجة الثانية ـ في الميدانين الإداري والاقتصادي.

وخير دليل على الأهمية التي اتخذتها هذه الحركة، ظاهرة التحول الكبرى في التاريخ العربي، نتيجة شعور الفرس والروم بانحسار نفوذهم في الدولة، إذ أنه عندما أفصح الخليفة عبد الملك بن مروان لكاتبه سرجون بن منصور عن عزمه على تعريب الدواوين غمه ذلك وخرج من عنده كئيباً حزيناً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم[3].

وللدلالة أيضاً على حزن كتاب الدواوين غير العرب، بسبب فقدانهم المكاسب المادية والمعنوية، أنه عندما علم مردانشاه بن زادان فروخ بتعريب الدواوين غضب وحزن حزناً شديداً، حتى أنه عرض على صالح مائة ألف

---

(١) الصولي (أدب الكتاب) ص ١٩٣.
(٢) الصولي المصدر نفسه ص ١٩٣.
(٣) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٢٧٢.

درهم ليظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية، ولكنه أبى وأمسك عن ذلك وأتم عمله، فقال مرادنشاه بن زادان موجهاً كلامه لصالح: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية[1].

وكان زادان فروخ قد تنبأ قبل وفاته بانتهاء نفوذ اللغة الفارسية، بعد أن رأى صالحا يكتب الحساب باللغة العربية، فقال عندئذٍ لكتاب الفرس: التمسوا مكسباً غير هذا[2].

ويتجلى ـ خلال ذلك ـ مدى تأثر الفرس والروم من تعريب الدواوين، لأنه أنهى نفوذهم الثقافي والإداري، وأنهى استغلالهم المالي، بسبب حاجة العرب إليهم، وعدم استغنائهم عنهم إلى أن ظهرت تلك الحركة العربية. وتظهر الآثار المترتبة على ذلك، في عبارة عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان ابن محمد قوله: لله در صالح، ما أعظم منته على الكتاب[3]. إذ أصبح كتاب العرب يظهرون تباعاً، نتيجة اهتمامهم باللغة العربية وتلقنها، فتولوا إدارة الدواوين وكتابتها، وأصبحوا في أرفع المناصب الحكومية، حتى أنهم أصبحوا في عهود لاحقة وزراء للدولة. علماً أن الفرس فيما بعد ونتيجة لإسلامهم وحرصهم على فهم القرآن الكريم، فقد اتخذوا الحروف العربية أساساً للغتهم.

**٣ ـ دواوين مصر:**

أما عن تعريب الدواوين في مصر، فلم يستطع الفتح العربي منذ البداية إلغاء اللغتين القبطية واليونانية، بسبب شيوعهما بين الناس ومرافق الدولة.

صحيح أن اللغة العربية ظهرت في مصر ابتداء من سنة ٢٢ للهجرة، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ أنه في سنة ٥٧ هـ، أصبح المكان الأول للعبارة العربية التي تلتها الترجمة اليونانية[4]. وفي بعض الوثائق وجدت

---

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٤٢٢، والمقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ٣، ص ٥٩.

(٢) الصولي (أدب الكتاب) ص ١٩٢.

(٣) البلاذري المصدر السابق ص ٤٢٢، والكفريزي المصدر السابق ص ٥٩.

(٤) عبد الرحمن فهمي (صنج السكة في فجر الإسلام) ص ١٢.

الترجمة القبطية على هوامشها. بينما يرجع تاريخ أول وثيقة كتبت كاملة باللغة العربية إلى سنة ٩٠ هـ[١].

ويلاحظ من ذلك أن تعريب الدواوين تأخر في مصر عنه في الشام والعراق، ومن الجائز أن يكون سبب سرعة نقل ديواني الشام والعراق دون ديوان مصر، هو أن البلدين الأولين كانا عربيين قبل ظهور الإسلام.

وكان أول من دون ديواناً للجند في مصر هو بطل فتحها عمرو بن العاص، ولما ولي مصر عبد العزيز بن مروان دون تدويناً ثانياً، ثم دون قره بن شريك التدوين الثالث، ودون بشر بن صفوان (١٠١ - ١٢٠ هـ) التدوين الرابع[٢].

وكان عبد الملك بن مروان قد أمر عماله في الأقاليم والأمصار بالقيام بتعريب الدواوين، وكانت مصر إحداها، وقد استمر التعريب كأمر طبيعي لاستكمال تعريب الدولة، في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك، ومن هنا يختلف بعض المؤرخين، في أيهما قام بتعريب الدواوين في مصر، عبد الملك أم ابنه الوليد؟.

والواقع أن عبدالله بن عبد الملك بن مروان كان والياً على مصر من قبل أبيه في سنة ٨٦ هـ، ثم استمر والياً عليها عندما بويع الوليد بن عبد الملك بالخلافة الذي أمر عبدالله بن عبد الملك بالدواوين، فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية. وصرف عبدالله أثيناس عن الديوان، وجعل عليه ابن يربوع الفزاري[٣]. وكان هذا من أهل حمص من بني الذيال انتقل إلى مصر أما مع الجيوش العربية التي جاءت من بلاد الشام لتوطيد الحكم العربي في مصر، أو نتيجة انتقالات طبيعية بين مناطق الدولة العربية الواحدة، أو نتيجة

---

(١) أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر) ص ٣١، حول وجود برديات قبطية ويونانية وعربية انظر:

Cheïra; La Documentation Papyrologique de L'Epoque Arab (Alexandrie 1948).

(٢) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٩٨، ٩٩.

(٣) الكندي (ولاة مصر) ص ٨٠، تحقيق د. حسين نصار دار صادر - دار بيروت ١٩٥٩.

لتهجير بعض القبائل العربية إلى مصر بقصد تعريبها. ولكن الظاهر أن هناك من سبق أبن يربوع الفزاري في الديوان، هو رجل مولى لبني سعد[1].

ويؤكد «المقريزي» أن الذي نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبدالله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية[2].

والجدير بالذكر، أن الخليفة عبد الملك بن مروان هو رائد حركة التعريب في الدولة العربية، وهو الذي ابتدأ تنفيذ سياسته بتعريب النقود وأمر بتعريب الدواوين، وكان لا بد من تنفيذ هذه السياسة في كل الأقاليم التابعة للدولة العربية.

وكانت عملية التعريب، عملية صعبة وشاقة بدأها الخليفة عبد الملك وحذا الوليد بن عبد الملك حذوه في تطبيق هذه السياسة. وإن افترضنا أن تعريب الدواوين في مصر لم يبدأ إلا في عهد الوليد، فيكفي الخليفة عبد الملك أنه وضع القواعد المتينة الأولى لتعريب الدولة ثم جاء خلفاؤه لينفذوا الخطة التي رسمها.

غير أن اللغة العربية لم تكن هي اللغة الرسمية والوحيدة في مصر بعد حركة تعريب الدواوين، إذ تدل بعض الوثائق إلى أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين في دواوين الحكومة، الأولى على أنها اللغة الرسمية التي كانت تدون بها الأعمال في تلك الدواوين، والثانية لأنها لغة الحاكم العربي[3]. لأن مثل هذه الوثائق كانت تصدر عن رجل له صفة رسمية هو عبدالله بن عبد الملك والي مصر والمسؤول عن الخراج والصلاة فيها. وكذلك كانت الحال في الوثائق التي صدرت عن الوالي الذي حل محله في

---

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ٣ ص ٥٨.

(٢) المقريزي المصدر نفسه ص ٥٨.

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن (النظم الإسلامية) ص ١٧٥، الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢.

ولاية الصلاة والخراج في مصر وهو قره بن شريك[1]. الذي حكم مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) واتضحت في عهده معالم النظام العربي المالي. إلا أنه وجدت برديات تحمل في طياتها بعض التعابير اليونانية[2]. وقد لوحظ في بعض أوراق البردي كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية، ولكن هل يفسر ذلك بأن القبطية كانت لغة رسمية في تلك الفترة؟.

الواقع أن عبارات اللغة القبطية كانت تدون إما في آخر الوثيقة، أو في ظهرها، مما يدل على أن هذه اللغة كانت في الدرجة الثالثة من الأهمية[3]. كما أنها كانت تكتب أيضاً بحبر مخالف لحبر النص الأصلي للوثيقة المدونة باليونانية والعربية.

يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كلها بالقبطية في العهد العربي[4]. ولكن يستدل من الوثائق المكتشفة، بأن السلطات المحلية في الريف كانت تكتب كثيراً باللغة القبطية، بل إنه وجد إيصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية[5]. وهذا بطبيعة الحال يعود إلى جذور هذه اللغة في مصر والتي تعود إلى خمسة آلاف سنة قبل المسيح. فلا يمكن القضاء عليها نهائياً أو بين ليلة وضحاها، بل يستلزم ذلك مراحل لا بد من أن تمر بها.

وقد استمرت حركة التعريب تسير سيراً حثيثاً في عهد الوليد وخاصة في الجهاز الإداري. ثم أن الحجاج قطف في عهد الوليد ثمرات العمل الشاق الذي قام به في عهد عبد الملك[6]. فقام الحجاج متفرغاً للعمل الجاد هادفاً إنعاش البلاد التي أنهكتها الحروب والفتن. فكان عصر الدولة الأموية هو

---

(١) حسن إبراهيم حسن (تاريخ الإسلام) ص ٤٥٠، ٤٥١.

(٢) انظر: الرسالة إلى صاحب كورة أشقاو، في

H. Bell; the Greck Aphrodite papyri - der islam BII - P. 272.

(٣) حسن إبراهيم حسن (تاريخ الإسلام) ص ٤٥١.

(٤) المرجع نفسه ص ٤٥١.

(٥) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٤٥.

(٦) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) جـ١، ص ١٧٧.

عصر سيادة العروبة وسيادة الإسلام، وكان عصر الوليد بن عبد الملك هو عصر امبراطورية العرب الواسعة[1].

وبالرغم من أن العرب قاموا بتعريب الدواوين إلا أنهم احتفظوا بالأنظمة الإدارية القديمة مع بعض التعديل والتنظيم فيها، بالإضافة إلى استعمال بعض الألفاظ اليونانية التي كانت تستعمل في الإدارة في مصر قبل حركة تعريب الدواوين مثل كلمتي «جسطال» و «موازيت». ومن أمثلة ذلك أن الوالي قره بن شريك والي مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) نراه يرسل كتاباً إلى «باسيل» صاحب أشقوه[2] يطلب منه أن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى «جسطاليوس» بمعنى المسؤول عن مالية الكورة أو ديوان الخراج، وكلمة «موازيت» يونانية مشتقة من «ميزوتـروس» وتعني مشايـخ ورؤساء القرى[3].

ولكن لماذا استعمل العرب بعض الألفاظ اليونانية؟.

ذلك أن العرب لم يكن لديهم هذه المناصب الإدارية من قبل، وبالتالي لم يوجد أسماء عربية لها، ولما كان التعريب لا يزال سارياً وأهل مصر لا زالوا يعرفون تلك التعابير ويستعملونها لاسيما في الريف، فقد قام الوالي باستخدام هذه الإصطلاحات اليونانية الدارجة تسهيلاً لعملية التنـظيم الإداري في المناطق الريفية. وباستمرار الحكم العربي في مصر زالت مثل هذه التعابير وحل محلها اصطلاحات عربية.

ولم تقف حركة التعريب على الدواوين في هذا العصر، فقد تجاوزتها إلى تعريب الإنجيل وبعض الكتب الدينية في عهد الاصبغ بن عبد العزيز بن

---

(١) سيدة كاشف (الوليد بن عبد الملك) ص ١١٤، المؤسسة المصرية العامة للنشر القاهرة ١٩٦٢.

(٢) أشقوه وهي كورة من كور الصعيد واسمها الآن كوم أشقاو في محافظة أسيوط، عثر فيها سنة ١٩٠١ على مجموعة من الأوراق البردية ترجع إلى زمن ولاية قره بن شريك انظر سيدة كاشف «عبد العزيز بن مروان» ص ٤٤.

(٣) سيدة كاشف «عبد العزيز بن مروان» ص ٤٤. انظر أيضاً: H. Bell; op. cit, P. 272.

مروان[1]. كما سبق وترجم في عهد أبيه عبد العزيز المكاتبات بين البطريرك وبين الحبشة والنوبة[2]. ليطلع المسلمون عما إذا كان في هذه الكتابات الدينية ما يمس بسوء الإسلام أو نبيهم.

والظاهر أن الأقباط عندما ابتدأوا يتعلمون اللغة العربية كتبوها أولاً بحروفهم القبطية، وقد عثر على قطع كثيرة من هذا الشبه أهمها مجلد في دير أنبار مقار السرياني ببرية شيهات بوادي النطرون (في حوالي سنة ١٩٢٢) ومحفوظ الآن بالمتحف القبطي[3].

وقد اضطرت حركة التعريب هذه، الكثير من أهل الذمة إلى التخلي عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين تعلموا اللغة العربية، وذلك للعودة من جديد إلى وظائفهم، ويمكن القول أن هؤلاء استعربوا خلال المدة التي لم تكن تجاوزت الستين عاماً[4].

على أنه في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) حاول أن يضفي علىّ الإدارة طابعاً إسلامياً بإحلال المسلمين مكان النصارى في جميع إدارات الدولة، وبالرغم من أنه عامل الأقباط معاملة طيبة، لكنه عاد يأمرهم بالتخلي عن مناصبهم في الدولة ما داموا على دينهم، أما من كان يرغب منهم الاحتفاظ بعمله فكان عليه أن يعتنق الإسلام. وبعد أن ولى الخليفة عمر بن عبد العزيز بن شرحبيل على الصلاة في مصر في سنة ٩٩ للهجرة، أمر بأن تنزع «موازيت» القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها[5].

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا القرار وغيره من القرارات المماثلة إلى

---

(١) سيدة كاشف (مصر في فجر الإسلام) ص ١٩٩.

(٢) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٤٥.

(٣) جورج صبحي (قواعد اللغة المصرية القبطية) ص ١٢، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٢٥.

(٤) محمد عز دروزة (عروبة مصر) ص ٩٨، الطبعة الثانية المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٣.

(٥) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ ٧، ص ٨٧ ، تحقيق،
G - Wiet' le Caire Imprimerie de L'institut francais 1910.

تحول الكثير من الأقباط إلى دين الإسلام كي لا يضطروا إلى ترك مناصبهم وامتيازاتهم في الدولة.

ويلاحظ أن الأقباط بدأوا بترك لغتهم واستبدالها باللغة العربية تماماً في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فنرى البطريرك الملكاني «سعيد بن طريق» يؤلف كتاباً في التاريخ باللغة العربية وذلك في القرن الرابع الهجري، كما قام «ساويرس» أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة في أواخر القرن الرابع الهجري باللغة العربية، فضلاً عن أنه قام بترجمة الوثائق اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، مما يدلنا على أن اللغة العربية، أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة[1].

وقد كانت المراحل الزمنية كفيلة بنشر اللغة العربية وإحلالها محل اللغة القبطية واليونانية، بالرغم من أن العرب كانوا قلة إذا قيسوا بعدد سكان مصر، بالإضافة إلى أن اللغة القبطية كانت لغة دينهم، ولو أن اللغة العربية لم تكن تحمل بذور البقاء والتجدد لقدر لها الذوبان بين لغات الشعوب التي سيطروا عليها.

ومما يسترعي انتباه الدارس لعملية تعريب الدواوين لاسيما في مصر، ملاحظات هامة لا يمكن إغفالها بتاتاً، فالمعروف أن مصر توالت عليها دول عديدة سيطرت قروناً طويلة كاليونان والرومان، ولم تكن تبعية مصر لهذه الدول كفيلة بإزالة اللغة الرسمية في مصر وهي القبطية، بالرغم من انتشار تلك اللغات، وهذه ظاهرة تستحق الانتباه، لأن تنازل شعب عريق في المدنية كالشعب المصري عن لغته واتخاذه لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي[2].

ولما أضحت اللغة اليونانية لغة رسمية في مصر، فإن الشعب المصري لم يتخل أيضاً عن لغته، ولم يتخذ اليونانية لغة التخاطب عكس ما شاهدناه

(١) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٥١.
(٢) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٥١.

في اللغة العربية من اتخاذها لغة رسمية ولغة تخاطب بل كانت لغة المؤلفات، وحتى الكتابات الدينية القبطية منها أيضاً.

وتقول الأستاذة الدكتورة «سيدة كاشف» في هذا الصدد:

«أن مصر كانت من الأمم القلائل التي تخلت نهائياً عن لغتها القومية، ورمت بنفسها في أحضان الإسلام والعروبة. وهي في ذلك تخالف إيران والهند اللتين لم يقض فتح العرب على لغتهما القومية، ولم يقض على العقائد الدينية التي وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاماً. كذلك لم يمنع اعتناق الأتراك للدين الإسلامي من الاحتفاظ بلغتهم القومية. بل نرى الأندلس التي كانت تتمتع بحضارة إسلامية مزدهرة في العصور الوسطى تعود ثانية دولة مسيحية الدين أجنبية اللغة، وبينما نرى الشاعر الوطني «الفردوسي» في إيران ينظم «الشاهنامة» باللغة الإيرانية الحديثة في القرن الرابع الهجري، نجد رجال الدين الأقباط في مصر يكتبون في القرن الرابع الهجري باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم بالعربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم»[1].

ولكن ما هي الأسباب المباشرة لتلك الظاهرة في مصر؟.

في الواقع هناك عدة أسباب يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١ ـ اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة، بعد حركة التعريب في الدواوين، جعل المصريين يقبلون على تعلم العربية حفاظاً على مصالحهم.

٢ ـ أدى اعتناق عدد كبير من الأقباط الدين الإسلامي إلى انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم.

٣ ـ تهجير عدد من القبائل العربية، وازدياد عدد الجند، قوّى حركة التعريب في مصر، ومكن الحكم العربي فيها.

٤ ـ الاختلاط والتزاوج بين المصريين والعرب بدرجة ملحوظة، أدى إلى تزايد عدد المسلمين والمستعربين من المصريين.

٥ ـ قدرة اللغة العربية على النمو والتفاعل والتجدد، واستيعابها لاحتياجات الناس العلمية والأدبية والفنية والسياسية والإدارية أيضاً.

---

(١) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٥٢.

٦ ـ استمرارية السيطرة العربية في مصر، أدى إلى مزيد من التعريب، عكس إيران والهند والأندلس، التي انتهت السيطرة العربية فيها، فعاد السكان إلى لغاتهم القديمة، ثم أن الأتراك صحيح أنهم كانوا مسلمين ولكنهم لم يكونوا عرباً، بالإضافة إلى أنهم كانوا حكاماً سيطروا على المنطقة العربية، ولم يكونوا محكومين من قبل العرب كما هي الحال في مصر.

## أسباب تعريب الدواوين ونتائجه

من كل ما سبق أن عرضناه يتضح لنا، أن حركة تعريب الدواوين في الدولة العربية كانت لها أسباب حقيقية ومباشرة تختلف اختلافا جوهرياً عن الأسباب التي ذكرتها بعض المصادر العربية كالجهشياري (الوزراء والكتاب) والبلاذري (فتوح البلدان) اللذين يؤكدان أن الموظفين في الدواوين تثاقلوا عن طلب الخليفة عبد الملك بن مروان، وأن أحدهم بال في دواة، فقام الخليفة يأمر بتحويل الحساب إلى العربية.

والواقع ـ كما سبق أن قدمناه ـ أن هناك أسباباً رئيسية وهامة أدت إلى التعريب تتلخص في عدة أسباب:

١ ـ إتمام صبغ الدولة بالصبغة العربية بعد أن تحققت حركة الإصلاح النقدي، لأن حركة التعريب كانت مظهراً من مظاهر وجود الدولة وسيادتها. كما أن تولي أشخاص غير عرب زمام الإدارة في الدولة العربية، كان مخالفاً لأسس وكيان الدولة القومي.

٢ ـ كان الاختلاف في لغات الدواوين يفتت نظام الدولة الاقتصادي ويعيق إدارتها المالية. لذا كانت حركة تعريب الدواوين دعماً للمركزية العربية في النواحي الإدارية والاقتصادية وتصحيحاً للنظام القديم.

٣ ـ تحرير النظم الإدارية المالية من ربقة الخضوع للسيطرة العنصرية أو الشعوبية المحلية، مما يؤكد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المغلوبة.

٤ ـ تقييم اللغة العربية، ورفع مركزها واتخاذها لساناً حضارياً للأمة الإسلامية والعربية وللشعوب التي خضعت لها.

أما نتائج حركة التعريب فتتلخص على الشكل التالي :

١ ـ أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في الدولة، وقد ساعد ذلك على تقلص نفوذ أهل الذمة بعد أن انتقلت مناصبهم إلى أيدي المسلمين من العرب، نتيجة التعديل في الدواوين المحلية سواء أكان من ناحية اللغة، أم من ناحية الموظفين الذين يعملون في هذه الدواوين[١]. ثم أخذت طبقة الكتاب تظهر منذ ذلك الحين[٢]، من العرب والمسلمين. وترتب على ذلك انقراض اللغات الفارسية والرومية والقبطية.

٢ ـ انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي، وأصبحت لغة الفكر والحضارة في أجزاء كثيرة من الامبراطورية العربية. وأقبل الموالي وغيرهم على تعلمها وإتقانها[٣].

٣ ـ كانت حركة التعريب أول عملية ترجمة منظمة، أدت إلى نقل الكثير من الاصطلاحات الرومية والقبطية، كما نشطت أيضاً الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية.

يتبين من ذلك أن اللغة العربية، أصبحت لغة مزدهرة في العصر الأموي، وكان مقياس التعلم عندهم أن يكتب الرجل العربية ويقرأها ويتقن السباحة والرماية[٤]. وفي هذا العهد والعهود التي تلته، أصبحت اللغة العربية أداة التفاهم اليومي من فارس حتى البرانس وحلت كأداة للثقافة محل اللغات القديمة المستعملة من قبل في تلك الأقطار مثل القبطية والآرامية واليونانية واللاتينية[٥]، والفارسية والسريانية.

ويمكن القول أن للغة العربية فضلاً في حركة التعريب في الدولة

---

(١) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ١٤٤.
(٢) حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن (النظم الإسلامية) ص ١٧٤.
(٣) ضياء الدين الريس (عبد الملك بن مروان) ص ٢٨٧.
(٤) سيدة كاشف (الوليد بن عبد الملك) ص ٢٤٧.
(٥) محمد عبد المعز نصر (في الفكر السياسي العربي والمجتمع) ص ٢٠٩، مطبعة دار نشر الثقافة بالإسكندرية.

العربية بما استطاعت أن تشمله من دين وقوانين واقتصاد وإدارة وصناعة وفلاحة وعلم وأدب وثقافة وغيرها من شتى ضروب النشاط البشري في تكامله الفكري والمادي[1].

«وهكذا نرى أن اللغة العربية بما أوتيت من قوة مستمدة من أنها لغة القرآن ومن أنها لغة حضارة زاخرة، انبثقت في مراكز الحضارة الإسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة، قد خدمت ظاهرة التعريب الدفاقة في الوطن الإسلامي»[2].

وبعد، فقد أوجدت الدولة الأموية نظاماً عربياً شاملاً بعد تجارب عديدة، وإضافات مستمدة من أسس الدولة القائمة على خدمة العروبة والإسلام، وللدلالة على حسن هذا النظام، أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطوراً للإدارة عند الأمويين وقد اعترف الخليفة أبو جعفر المنصور بأنه مدين إلى حد كبير في تنظيم دولته للأمويين[3].

---

(١) محمد عبد المعز نصر، المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٢) محمد عبد المعز نصر، المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٣) سيدة كاشف (الوليد بن عبد الملك) ص ١٦٩.

# الفصل الثالث

## النظام القضائي الإداري الإسلامي
## في المدن الإسلامية "المحتسب"

إن دراسة الإدارة المحلية الإسلامية تعتبر من الدراسات الإسلامية الهامة والجديرة بالدرس، لما لها من أهمية على كافة الأصعدة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولأن مثل هذه الدراسات تظهر لنا الواقع الإسلامي في العصور الإسلامية الأولى التي استطاعت أن تظهر الدين الإسلامي كدين حضاري قادر على استيعاب مفاهيم العصر وقادر أيضاً على تسيير أمور الدولة الإسلامية.

هذه الدراسة المتواضعة عن الإدارة المحلية الإسلامية ودور المحتسب في المجتمعات الإسلامية ليست هي في الحقيقة سوى محاولة لتسليط الضوء على تلك الإدارة التي تميزت بالدقة والتنظيم وبالعدل والمساواة بين مختلف الفئات الإسلامية، كما أنه لا بد من القول من أن هذه الدراسة ليست هي سوى نواة أولية للمهتمين بدراسة أوضاع الإدارة المحلية الإسلامية، وهي نواة لدراسات إسلامية أكثر اتساعاً وشمولاً.

## أولاً ـ المدينة الإسلامية وإدارتها

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حياة يغلب عليها التنقل وعدم الاستقرار، بينما جماعة منهم تشتغل بالتجارة لا سيما إلى اليمن والشام. وبمجيء الإسلام انتقل العرب من أسلوب حياتهم وتقاليدهم القديمة إلى أسلوب جديد وإلى مثل عليا جديدة جاء بها الإسلام. وكانت لغتهم الحيّة التي أنزل بها القرآن الكريم وطموحهم عاملان أساسيان لنقل الحضارات: الفارسية واليونانية والرومانية، ولم يكتف المسلمون بالنقل بل صححوا ما نقلوه وأضافوا إليه وطوروه.

وكانت الخضارة الجديدة سبباً لنشوء المدن الإسلامية التي أصبحت مركزاً للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، ففيها أقيمت الأسواق والمتاجر، وأنشئت المدارس والجامعات، وعقدت مجالس الفكر والأدب والشعر، وأقيمت المساجد التي كانت المركز الرئيسي للمدن الإسلامية حيث تتوزع منها الشوارع والأسواق. وكانت أقدم المدن التي أنشأها العرب: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط، وقد أقيمت في الأساس لأهداف عسكرية على غرار القاهرة التي أنشأها الفاطميون وبغداد التي أنشأها العباسيون.

والواقع أن تطور المدن وانتقال الناس إليها واستقرارهم فيها، أدى إلى إقامة الصناعة والتجارة ونمو الحياة الاقتصادية، وباتساع المجتمع الإسلامي، وتعدد ميادين الأنشطة الاقتصادية فيه كانت الضرورة ملحة لتنظيم هذا المجتمع على أسس إسلامية تحول دون اضطراب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية[1].

وبعد الفتوحات الإسلامية أصبح للمسلمين أسواق ثابتة مثل أسواق:

(١) انظر نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص ٢٠.
للمزيد من التفصيلات عن الوضع الإداري في الدولة العربية أنظر أيضاً: يوليوس ڤلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ص ٢٥ ـ ٢٩.

البصرة وحلب وحماه، وعكا وبغداد كما أن الأسواق الموسمية السابقة للإسلام مثل: عكاظ ودومة الجندل وصنعاء وعدن، تبدل طابعها القديم وأصبحت ثابتة نتيجة للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسكاني والبيئي. ومن يطلع على كتب ابن جبير (الرحلة) ليدن ١٩٠٧، وابن بطوطة (تحفة النظار) باريس ١٨٧٤ ـ ١٨٧٩، يتعرف على كثير من المعلومات الفريدة عن الأسواق الإسلامية وأوضاع البلدان بشكل عام[1].

ويمكن القول أن إدارة المدن الإسلامية في البدء كانت إدارة عسكرية ما لبثت الإدارة المدنية أن وجدت طريقها لتنظيم المجتمع الإسلامي وفقاً للمبادىء الإسلامية، مع الأخذ بعين الاعتبار الأنظمة الإدارية المعمول بها في البلدان المفتوحة كالأنظمة الفارسية والرومية. إلا أنه يجب التأكيد على شيء وهو أن الأنظمة الأجنبية عن الإسلام مرت بمراحل تأسلمت فيها ثم تعرّبت لا سيما في زمن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الذي اشتهرت دولته بدولة التعريب[2].

ومن الأهمية بمكان القول، إن الوظائف الإدارية التي أنشئت في الدولة الإسلامية، إنما كانت مهمتها الأساسية خدمة المجتمع الإسلامي، وقد بدأ الفقهاء والمشرعون بوضع القوانين وتنظيم عمل الموظفين فيها على أسس من الشريعة الإسلامية. وكان الموظفون يعينون من قبل الوالي المركزي على غرار ما كان يطبَّق في بغداد والقاهرة والقدس وغزة وعكا وصفد والكوفة والبصرة.

هذا، وقد عرفت المدينة الإسلامية نظام مراقبة الأجانب الذين يدخلون إلى المدينة، حيث ترصد تحركاتهم سواء من الناحية السياسية أو التجارية. كما عرفت المدينة الإسلامية نظام الشرطة التي كانت تنقسم إلى قسمين: الشرطة النهارية والشرطة الليلية (العسس)، وكانت الأولى تهتم بشؤون

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: د. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية (الفصل الأول، نشأة المدينة الإسلامية، ص ٤٩ ـ ٨٧) سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٨.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن حركة التعريب انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي.

الناس في النهار، بينما تقوم الثانية بحراسة الأسواق والمنازل وملاحقة اللصوص. ومن الطريف أن الإدارة الإسلامية عرفت نظام مكافحة الحرائق ذلك أن التجار في القاهرة ودمشق وبغداد وسائر المدن، كان عليهم أن يحتفظوا بأوعية كبيرة مملوءة بالماء خارج حوانيتهم لتستعمل في إطفاء الحريق، على أن وظيفة المحتسب تبقى الوظيفة الأكثر أهمية لأنها كانت الأساس في تنظيم المجتمع.

**ثانياً ـ نشوء نظام الحسبة**

عرفت الحضارة اليونانية نظاماً اقتصادياً انتشر مع السيطرة اليونانية في بلاد الشرق، وكان يعرف باليونانية بإسم آغورا نوموس (Agoranomos) «صاحب السوق». وكان عمل هذا الموظف الإشراف على أمور الأسواق، وقد استمرت هذه الوظيفة عند الرومان والبيزنطيين. ولما جاء الإسلام وانتشرت راية الدولة العربية في الشرق والغرب أبقى الخلفاء والولاة على هذه الوظيفة، ولكن أطلقوا عليها إسم «الحسبة» وعلى صاحبها إسم «المحتسب»، على أن المسلمين وإن اقتبسوا هذا النظام عن الحضارات السابقة فإن ذلك لا يعني أنهم أبقوا عليه كما هو، بل أدخلوا عليه الكثير من المهام والتعديلات والمبادىء المستمدة من تعاليم الإسلام، على اعتبار أن مهمة «الأغورانوموس» كانت مستمدة من التعاليم والبيئة الوثنية ومن ثم المسيحية.

ومن الأهمية بمكان القول أيضاً، بأن نظام الحسبة نشأ قبل تكوين الدولة الإسلامية، فقد عرف أيام الرسول محمد (ﷺ) كمفهوم ديني إيماني غير مرتبط بالنظام الإداري الذي عرف فيما بعد، حيث أن الرسول كان يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر اقتداء بالآية الكريمة: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1]، والآية الكريمة الأخرى التي تقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٤.

بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1] . كما يستفاد من الأحاديث الشريفة أن الرسول الكريم كان يكافح الغش والمنكر قولاً وعملاً ، فهو القائل : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» . وقد روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهم ـ حادثة يستفاد منها أن الرسول غضب من شخص غش في صنعته للطعام فقال له : «من غشنا فليس منا» وفي رواية «من غشني فليس مني»[2] . كما حدث أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً شاب اللبن بالماء ليبيعه فأراقه عليه ، أما مالك فيرى أن يتصدق باللبن المغشوش فهو أفضل من إلقائه على الأرض .

والجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) كان قد عينّ سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة ، كما عين عليها فيما بعد عقاب بن أسيد للإشراف على أوضاعها ومحاربة الفساد فيها . وعيّن على الطائف عثمان بن العاص وعلى قرى عرينة خالد بن سعيد بن العاص وبعث علياً ومعاذاً وأبا موسى إلى اليمن[3] . وقد اتبع الخلفاء الراشدون أسلوب الرسول الكريم في مراقبة الأسواق ومكافحة المنكرات . على أنه يجب التأكيد بأن نظام الحسبة والمحتسب لم يكن نظاماً إدارياً قائماً بحد ذاته في أيام الرسول الكريم والخلفاء ، بل كان على غرار بقية الممارسات المنبثقة من تعاليم الدين الجديد . وكان لذلك مبررات موضوعية على اعتبار أنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد وجدت الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء ، بل كان العمل محصوراً في مناطق محدودة . ولكن بتطور الفتوحات الإسلامية لا سيما في زمن الدولة الأموية وما بعدها ، أصبح من الضروري إقامة نظام إداري يكون على مستوى الدولة وليس على مستوى القبيلة . ومن أجل ذلك وجدنا بأن الخلفاء المتعاقبين على الدولة الإسلامية اضطروا إلى تنظيمها باتباع أسلوب متطور يضبط الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١١٠ .

(٢) ابن تيمية . الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية ، ص ١٦ .

(٣) ابن تيمية ، المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

هـذا وقـد اهتـم علمـاء وفقهـاء وفلاسفـة المسـلمين بنظـام الحسبـة والمحتسب ، فظهرت كتب عديدة تبحث في هذا الموضوع ، ومن هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر: الماوردي (الأحـكام السلطـانية) ، والغزالـي (أحياء علوم الدين جـ ٢) وابن تيمية (الحسبة في الإسـلام) . إلا أن أقـدم الكتب التي وصلتنا هي كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبـة) للشيزري ، و (كشف الأسرار) للجوبري وقد جاء بعدهما ابن بسام صاحب كتاب (نهـاية الرتبة في طلب الحسبة) وابن الأخوة (معالم القربة في أحكام الحسبة) . على أن ظهور هذه المؤلفات في المشرق لا يعنـي عدم ظهـور كتـب أخـرى في المغرب ، فقد ظهر في المغرب عدة مؤلفات تبحث في موضوع الحسبة ومنها : ابن خلدون (المقدمة) والسقطي (آداب الحسبة) وأحمـد سعيد المجيلـدي (التيسير في أحكام التسعير) وسواها من المؤلفات .

## ثالثاً ـ صفات المحتسب

ينبغي على المحتسب أن يتصف بصفات الرفق ولين القول ، وطلاقـة الوجـه وسهولـة الأخـلاق ، فإن ذلك أبلـغ في استمالـة القلـوب وحصـول المقصود . ويجب أن يكون المحتسب مسلماً ذكراً عاقلاً[1] . مواظبـاً علـى سنن رسول الله يتعفف عن أموال الناس ويرفض قبول الهدايا والرشـاوي . وقد قال ﷺ : «لعن الله الراشي والمرتشي» . كما أن مثل هذه الشروط يجب أن تتوفر في مساعدي المحتسب فإن الغلمان والأعوان إذا ما ارتشـوا ، فإن ذلك يسيء إلى المحتسب ، مما يستوجب عليه صرف المرتشين من الخدمة لتنتفي عنه الظنون وتنجلي عنه الشبهات[2] .

ويتخذ المحتسب سوطاً ودرة (أداة للضرب) وطرطوراً كان يضعه على رأس الغشاش أو المذنب للتشهير به وتجريسه . وكان غلمانه وأعوانه بمثابـة

(١) ولـى الخليفة عمر بن الخطاب «أم الشفاء» بنت عبدالله أمور الحسبة على سوق من أسواق المدينة ، وذلك في نطاق ضيق وتتعلق بأمور النسوة ، انظر : أحمد سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التسعير، ص ٤٢ ، انظر أيضاً : علي الخفيف ، الحسبة ، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣ ، من كتاب مهرجان الإمام ابن تيمية .

(٢) انظر شروط من يتولى الحسبة في : الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

عيون له ، فإن ذلك أرعب لقلوب العامة ، حيث كانوا يلازمون الأسواق والدروب يراقبونها وينقلون أحوالها إلى المحتسب . وإذا حدث أن عثر المحتسب ـ أو أعوانه ـ على بائع ينقص المكيال أو يبخس الميزان أو يغش بضاعة ، نهاه عن معصيته ووعظه وخوّفه وأنذره العقوبة والتعزير[1] ، فإن عاد إلى فعله عزره على حسب ما يليق به .

ويضيف «الشيزري» بعض صفات المحتسب فيرى أنه يجب أن يكون فقيهاً عالماً بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهى عنه . ويجب أن لا يكون قوله مخالفاً لفعله ، وإن يتميز بالمهابة والجلالة . وذكر أن السلطان طغتكن المملوكي (المتوفى ٥٢٢هـ ١١٢٨م) سلطان دمشق طلب له محتسباً من أهل العلم ، وعندما حضر قال له : إني وليتك أمر الحسبة على الناس ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» . قال المحتسب : «إن كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة وأرفع هذا المسند ، فإنهما حرير ، واخلع هذا الخاتم ، فإنه ذهب ، فقد قال النبي ﷺ في الذهب والحرير : إن هذين حرام على ذكور أمتي ، حلّ لأناثها ، قال : «فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع مسنده وخلع الخاتم من إصبعه وقال : «قد ضممت إليك النظر في أمور الشرطة» . ويضيف الشيزري : «فما رأى الناس محتسباً أهيب منه» .

من جهة ثانية يورد الشيزري بأن رجلاً حضر عند السلطان محمد بن سبكتكين ـ (المتوفى ٤٢١هـ ١٠٣٠م) سلطان أفغانستان والعراق وفارس ـ وطلب منه الحسبة على مدينة غزنة (عاصمة أفغانستان في تلك الفترة) ، فنظر السلطان فرأى شاربه قد غطى فاه من طوله ، وأذياله تسحب على الأرض ، فقال له السلطان : «يا شيخ ! إذهب فاحتسب على نفسك ، ثم عد واطلب الحسبة على الناس[2]

(١) التعزيز : عقاب المذنب أو المخالف لأمور الشرع ، ويختلف التعزيز بحسب الذنوب وهو انواع مثل : التوبيخ ، الزجر ، السجن ، النفي ، والضرب . هذا مع الإشارة إلى أن لفظ التعزيز لا يزال يستعمل حتى اليوم في الديار الشامية والمصرية .

(٢) عبد الرحمن بن نصر الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٦ ـ ٩ .
انظر أيضاً : ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٣ .

ويمكن القول أن من صفات المحتسب أيضاً، أن يطبق على نفسه ما يطبقه على الناس لا أن يأمر الناس بالبر والابتعاد عن الفواحش، ثم يقوم هو بالمنكرات والفسوق، وذلك اعتماداً على الآية الكريمة: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1] و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[2] كما أن عليه أن لا يكون فظاً قاسياً على اعتبار أن القساوة قد تؤدي إلى النفور من المحتسب[3].

## رابعاً - مهام المحتسب

اتسعت سلطات المحتسب بحيث اصبح يختص بجميع شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولذا كان عليه أن يكون على معرفة بالشريعة الإسلامية، ورجلاً حذقاً ملماً بأساليب الغش والتحايل. وكان المحتسب ينظر في تطبيق أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بناء الحوانيت في الشوارع العامة لكي لا يتأثر بذلك نظام المرور. ويرى صاحب «الأحكام السلطانية» أنه «إذا بنى قوم في طريق سابل منع منه، وإن اتسع الطريق يأخذهم بهدم ما بنوه ولو كان المبنى مسجداً لأن مرافق الطرق للسلوك لا للأبنية»[4]. وكان يستوفي الديون، ويراقب الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف، وكان المحتسب يطلب عادة إلى جميع الباعة والتجار الحضور إلى دارته، ومعهم موازينهم ومكاييلهم وصنجهم[5] فيطلع عليها، فإن وجد فيها غشاً أو خللاً صادرها وطلب من صاحبها استعمال غيرها، وقد اتبع هذا الأسلوب بشكل دقيق في زمن الفاطميين والأيوبيين.

والجدير بالذكر أن المحتسب لم يكتف بمراقبة المكاييل والموازين

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٢) سورة الصف، الآية، ٢، ٣.

(٣) للمزيد من التفصيلات: انظر: عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٨، ٩، ٣٨، ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٣٠ - ١٩٥.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٨.

(٥) الصنج: المعايير، وهي تكون عادةً زجاجية أو معدنية أو حجرية.

وفحصها في دارته ، بل كان يتفقد الأسواق للتأكد من صحتها ومعاييرها ، وكثيراً ما كان يرسل صبياً لشراء سلعة ما لاختبار هذا البائع أو ذاك فيما إذا كان غشاشاً أم مستقيماً ، وإذا ما تأكد له أن البائع طفّف في الوزن أو غش بضاعة ، يقوم المحتسب «بتجريسه» و«تعزيره» حيث يجمع الناس حوله ، ويخبرهم بما قام به ، وإذا ما كرر محاولات الغش فإن المحتسب يأمر بوضعه على حمار بشكل مقلوب ، ويوعز للغلمان والأطفال بالسير وراءه والتهليل له بغية تجريسه .

ويذكر ابن خلدون بأن الحسبة هي وظيفة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين وأن على المحتسب أن يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة : مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على المارة ، ويضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب إذا ما ضربوا الصبيان المتعلمين [1] . وللمحتسب أن يمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه ويخاف من غرقها ، وكذلك بمنعهم من المسير عند اشتداد الريح ، وإذا حمل فيها الرجال والنساء حجز بينهم بحائل[2].

ويضيف أحمد سعيد المجيلدي[3] بأنه «لا ينبغي للمحتسب أن يتسور دار قوم إذا اتهمهم بمعصية ما لم ترتفع فيها أصوات الملاهي والمناكر وضجيج السكارى ، فله الهجوم عليهم حينئذ ، وتغيير المنكر واجب إذ ذاك» .

وقد أشار الماوردي[4] أيضاً بأنه «ما لم يظهر من المحظورات فليس

(١) إبن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، م ١ ، ص ٣٩٨ .
(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٥٧ .
(٣) أحمد سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التسعير ، ص ٤٦ .
(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٥٢ .

للمحتسب أن يتجسس عنها ولا أن يهتك الأستار حذراً من الإستتار بها، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من أتى من هذه القاذورات شيئاً فليستتر ستر الله، فإنه من يُبدِ لنا صفحته نقم حد الله تعالى عليه».

أما فيما يختص بصناعة السلاح، فإذا احتاج المسلمون إلى السلاح فإن على الصناعيين أن يقدمونه بثمنه ولكلفته دون زيادة، ولا يمكن لهم أن يحبسوه على المجاهدين حتى يتسلط العدو أو يبذل لهم من الأموال ما يريدون[1]. وعلى المحتسب أن يقوم بدورٍ بارزٍ في هذا المجال بمراقبته للصناعيين وأماكن السلاح الذي يودعونه.

هذا، وكانت مهام المحتسب تتطور بتطور المنكرات المستجدة في المجتمع الإسلامي، فمثلاً عند ظهور زراعة الحشيش وتناوله، أصدرت المراسيم بمنع زراعته والتحذير من تناوله، وعندما تولى «أزجور بن أولع» محتسبية وشرطة مصر (٢٥٣ هـ - ٨٦٧ م) منع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب إلى المقابر، وسجن المخنثين، وقد صدرت هذه الأوامر بعد تفشي هذه المظاهر في هذه الفترة. وفي عام (٦٦٥ هـ - ١٢٦٦م) أصدر الظاهر بيبرس أمراً بمنع الخمور والبغاء في كافة أنحاء مصر ولا سيما في القاهرة، فأغلقت الحانات ولوحقت النساء[2].

ومن الأهمية بمكان القول أن نظام المحتسب لم يكن مقتصراً على المجتمع الإسلامي المشرقي، بل انتشر هذا النظام في المغرب العربي أيضاً، وكانت مدن فاس والجزائر وسواهما من المدن التي عرفت هذا النظام وطبقته بدقة متناهية[3].

ويورد «الشيزري» أربعين باباً في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»

---

(١) إبن تيمية، المصدر السابق، ص ٣١.

(٢) أنظر حول هذا الموضوع: إبراهيم دسوقي الشهاوي: الحسبة فى الإسلام ص ١١٣ - ١١٦.

(٣) للمزيد من التفصيلات أنظر: ثلاث رسائل أندلسية (إبن عبدون، إبن عبد الرؤوف، الجرسيفي)، ص ٢٠، ٢١، ٦٩، ١١٩.

لما يجب أن يقوم به المحتسب من مهام، بينما يورد «ابن الأخوة» في «معالم القربة في أحكام الحسبة» في سبعين باباً. أما ابن بسام فيورد مائة باب وأربعة عشر باباً بعد أن يقتبس من الشيزري ويضيف إليها، إلا أنه لا يمكننا أن ندرس جميع هذه الأبواب (المهام) نظراً لاتساعها وكثرتها، ولكن بإمكاننا القيام بدراسة بعض هذه الأبواب التي يمكن بواسطتها الإطلاع على مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية ونظمها وللمقارنة بين تلك الحضارة وبين حضارة القرن العشرين. وعلى هذا فيمكن دراسة مهام المحتسب على النحو التالي:

## ١ ـ في النظر في الأسواق والطرقات

يراقب المحتسب الأسواق والطرقات ويحرص على إبقائها من الاتساع والارتفاع على ما وضعته القوانين، ويكون عادة على جانبي السوق رصيفان يمشي عليهما الناس، ويمنع الباعة من إخراج بضاعتهم ومصاطب دكاكينهم إلى الخارج، لأن ذلك يعيق مرور المارة. ويذكر ابن تيمية[1] بأن على المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصلِّ بالضرب والحبس... لأن الصلاة هي عمود الإسلام وقد أوردها الله في أكثر من مكان في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والواقع أن المحتسب برغم مراقبته للأسواق إلا أنه لم يكن يحق له تسعير البضائع ولا إلزام الباعة بسعر محدد إمتثالاً لما كان يفعله رسول الله ﷺ، إلا أنه كان ينبغي عليه محاربة الغلاء والإحتكار، فإن رأى أحداً يحتكر صنفاً من سائر الأقوات سبق واشتراه وقت الرخاء ليحتكره وقت الغلاء، ألزمه ببيعه إجبارياً لأن الإحتكار حرام في الإسلام. وقد قال رسول الله ﷺ): «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» وقال أيضاً: «لا يحتكر إلا خاطىء» كما كان المحتسب يحارب وسائل المخادعة والغش في التجارة، ويمنع التجار من شراء بضاعة القوافل وهي خارج البلد وقبل وصولها إلى

(١) إبن تيمية: الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية، ص ١٤، ١٥.

السوق، ذلك لأن هؤلاء التجار قد يقنعون أصحاب البضاعة أن بضاعتهم كاسدة لا راغب لها في الأسواق، وقد يخدعونهم ويبيعونها بأثمان بخسة. هذا ولا بد من القول بأن بعض المذاهب الإسلامية أجازت تحديد الأسعار في بعض الحالات[1].

وفي الأسواق يمنع المحتسب أحمال الحطب والتبن وسواها من الدخول إليها، لأن ذلك فيه إضرار بالناس وبلباسهم كما يمنع في الأسواق بيع الأشياء المحرمة أو المكروهة كآلات اللهو وأواني الخمر[2]. كما يتعين على المحتسب إخراج ذوي العاهات والمجذومين من الأسواق ومنعهم من الشرب والوضوء من الأواني التي يستعملها الأصحاء. ومن واجب المحتسب أيضاً منع نقل الموتى من قبورهم إذا دفنوا، إلا إذا كانت الأرض مغصوبة، كما يهتم بالأمور الإنسانية فيمنع خصاء الآدميين والبهائم ويؤدب عليه[3].

أما الطرقات والدروب فإنه لا يجوز لأحد أن يتصرف بشأنها بما يخالف القوانين ويسيء إلى المصلحة العامة، كالميازيب الظاهرة من الجدران ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور إلى وسط الطريق. فالمحتسب يأمر أصحاب الميازيب بجعلها مخفية في الحائط لتجري فيها المياه، ويأمر أصحاب المجاري بحفر حفرة لرمي الأوساخ فيها.

هذا ولا يجوز التطلع على نساء الجيران من السطوح والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال في طرقات النساء، كما أن على النساء أن لا يجلسن على أبواب بيوتهن ولا في طرقات الرجال، فمن فعل شيئاً من ذلك عزّره المحتسب[4]. لا سيما إذا رأى رجلاً أجنبياً مع امرأة أجنبية يتحدثان في موضع خلوة فإن ذلك أشد للتهمة في حقهما.

---

(١) أنظر: إبن تيمية، المصدر السابق، ص٢٢، ٣٤، ٣٥، ٤٥.

(٢) أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٦٥.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٨.

(٤) أنظر: إبن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٧٩.

## ٢ ـ في معرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل

ينبغي على المحتسب أن يراقب كل ما يتعلق بعمليات الشراء والبيع سواء بواسطته أو بواسطة أعوانه، ذلك لأن أساليب الغش كثيرة ومتنوعة. فقد أوردت المصادر الخاصة بهذا الموضوع العديد من هذه الأساليب، ومنها أن بعض الباعة لا سيما باعة الذهب يضعون في الميزان كمية معينة من الذهب لوزنها، فيعمد البائع إلى نفخ الكفة التي فيها الذهب نفخاً خفيفاً، بينما يكون الشاري مركزاً نظره على الميزان وليس على فم البائع. وهذا الأسلوب يسمى «البخس الخفي». وقد يعمد بعض الباعة إلى رمي المادة الموزونة رمياً ثقيلاً لكي تزن أكثر من وزنها، وبسرعة خاطفة ينزعها من الكفة لئلا ينتبه الزبون إلى ذلك التدليس[1].

ومن الواجبات الملقاة على عاتق البائع أن يتخذ الأرطال والأواقي من الحديد وليس من الحجارة، لأنها تنتحت باستمرار الاستعمال وتنتقص. وإذا دعت الحاجة إلى اتخاذها من الحجارة، أمره المحتسب بتجليدها وختمها بعد التأكد من صحة عيارها. ويجدد المحتسب النظر فيها بعد كل حين لئلا يتخذها البائع من الخشب، ويكون تفقد الباعة عادة على حين غرة.

أما بالنسبة إلى المكاييل، فينبغي على المحتسب مراقبتها أيضاً، لأن بإمكان الباعة أن يجعلوا المكيال يتسع أقل من الكمية الصحيحة، كأن يصب في أسفله «الجبس المدبر» فيلصق به لصقاً لا يعرف مما يؤدي إلى تطفيف المكيال.

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[2].

---

(١) عبد الرحمن نصر الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص ١٨، أنظر أيضاً محمد بن أحمد القرشي: معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص ٨٣، أنظر أيضاً إبن بسام. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) سورة المطففين، الآية ١ ـ ٣.

إن غش المبيعات وتدليس الأثمان منكر وممنوع ويؤدب عليه. وإن كان الغش تدليساً على المشتري ويخفى عليه فهو أغلظ الغش تحريماً وأعظمها إثماً فالإنكار عليه أغلظ والتأديب عليه أشد. [١]

## ٣ ـ في الحسبة على السمانين ومعاصر الزيت

يقوم المحتسب بمراقبة مكاييل وموازين وأرطال السمانين وينهاهم عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة، كأن يخلطوا عتيق التمر والزبيب بجديده. كما يمنعهم من رش الماء على التمر والزبيب لأن ذلك زيادة لوزنه، ومن مزج العسل بالماء الحار. ومن السمانين من يغش الخل بالماء، ومعرفة غشه أن الخالص إذا صب منه شيء على الأرض نش، والمشوب بالماء لا ينش، وإذا وضعت فيه حشيشة الطحلب فإنها تشرب الماء دون الخل. أما إذا فسد أو دوّد شيء من الجبن المكسود في الخوابي فلا يجوز للسمانين بيعه لما فيه من الضرر بالناس، وقد يغشون الدبس البعلبكي بدقيق الحنطة الناعم، ومعرفة غشه إنه إذا جعل منه شيء في الماء رسب الدقيق في أسفل الأناء وقد يبقى للماء رغوة.

هذا، وينبغي أن تكون بضائع السمانين مصونة في القطارميز لئلا يصل إليها شيء من الذباب أو هوام الأرض أو يقع فيها شيء من التراب والغبار، ويجب أن تغطى البضاعة الظاهرة برداء على أن تكون المذبة بيد السمان يطرد بها الذباب عن البضاعة. ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم وبغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم ومسح موازينهم ومكاييلهم. وينبغي على المحتسب أن يتفقد أصحاب الحوانيت المنفردة في الحارات والدروب الخارجة عن الأسواق لأن أكثرهم يدلس بما سبق ذكره. ذلك أن الغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل أن يكون ظاهر المبيع خيراً من باطنه[٢].

---

(١) الماوردي، المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٢) إبن تيمية، المصدر السابق، ص ١٧.

أما بالنسبة إلى الزيت فيذكر «إبن بسام» غش المشتغلين بعصر الزيت فيذكر بأن هؤلاء يعمدون إلى عصر بزر الكتان ويخلطونه مع الزيت الحلو، وهو إذا قلي عرف غشه، وظهرت رائحته. كما أن زيت القرطم (نبات) يخلط مع الزيت الصافي الطيب، وضرره كبير لا سيما على النساء الحوامل، كما أنه يؤدي إلى سقوط شعرهن إذا شربوا منه أو استعملوه[٢]. ومعرفة غشه إنه إذا ترك على النار يكون له دخان عظيم يخنق.

## ٤ ـ في الحسبة على الخبازين والفرانين

ينبغي على الخبازين أن يرفعوا سقائف حوانيتهم على أن يكون في هذه السقوف منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس. وإذا فرغ الخباز من إحماء الفرن مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز. ويأمر المحتسب الخبازين بنظافة أوعية الماء وتغطيتها وغسل المعاجن وتنظيفها. ويراقب المحتسب الخبازين ويأمرهم بعدم عجن العجين بأقدامهم ولا بركباتهم ولا بمرافقهم لأن في ذلك مهانة واتساخاً للطعام. وربما سقط في العجين شيء من عرق إبط الخباز وبدنه، لذا لا يعجن إلا وعليه ثوب يلبسه أو بشت مقطوع الأكمام. وعلى الخباز أن يكون ملثماً أيضاً لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين، وعليه أن يشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيتقطر منه شيء ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين. وإذا عجن في النهار فليكن لديه عامل بيده مذبة يطرد بها الذباب.

والجدير بالذكر أنه كان على المحتسب أن يراقب عمليات ما قبل العجن، كأن يراقب نخل الدقيق ويلاحق الخبازين الذين يغشون الخبز فيخلطونه مع الجلبان (البقول) والبيسار (نوع من أنواع الفول)، ومنهم من

---

(١)بن بسام. نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص ١٨٩.

يغشه بدقيق الحمص ودقيق الأرز لأنهما يثقلانه، ومنهم من يعجن الخشكار (الدقيق) أو دقيق الشعير أو الدقيق المزون (دقيق مخلوط بالزوان) ثم يبطن به الخبز الخاص عند نفاقه. ومن مهام المحتسب الإشراف على مصلحة الزباتن فمن اشترى خبزاً ووجد فيه حجارة فباستطاعته أن يرد ما بقي منه، وينهى المحتسب صاحب الفرن عن هذا الإهمال، فإن عاد لمثله سجن وأخرج من السوق[1]. كما أنه إذا كثرت أطباق العجين عند الفران فعليه أن يميز كل طبق منها بعلامة يتميز بها عن غيره، لئلا يختلط الجميع فلا يعرف كل طبق يخص مَن مِنَ الناس. وينبغي أن يكون للفران مخبزان: أحدهما للخبز والآخر للسمك، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز. أما عمال الفرانين وغلمانهم وإجراؤهم فيجب أن يكونوا دون سن البلوغ لأنهم يدخلون بيوت الناس وعلى نسائهم.

## ٥ ـ في الحسبة على الجزارين والقصابين والمكارية

يستحب أن يكون الجزار مسلماً بالغاً عاقلاً، يذكر إسم الله على الذبيحة، وأن يستقبل القبلة، وأن يذبح البقر والغنم مضطجعة على الجنب الأيسر، ولا يجر الشاة برجلها جراً عنيفاً، ولا يذبح بسكين غير قاطعة لأن في ذلك تعذيب للحيوان[2] اعتماداً على ما ذكره رسول الله (ﷺ) بقوله: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». كما يمنع من ذبح البقر الحوامل، فجميع ذلك وردت في السنة النبوية. هذا ويجب أن لا تسلخ شاة مذبوحة إلى أن تبرد. ويقوم المحتسب بدورٍ هام في هذا المجال حيث يراقب وأعوانه عمليات الذبح وما بعدها، ذلك أن بعض الجزارين ينفخون لحم الشاة بعد سلخها، ومنهم من ينفخ الماء في أجزاء مخفية من الشاة وكل ذلك يغير من نكهة اللحم وطعمه ووزنه[3].

---

(١) انظر: أحمد سعيد المجيلدي: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) الشيزري: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٩٨.

أما القصابـون ، فيمنعهـم المحتسـب من تعليق اللحـوم علـى أبـواب حوانيتهم لئلا تلاصقها ثياب الناس فيتضررون بها. ومنعاً للغش يأمرهم بفصل لحوم المعز عن لحوم الضأن ، وبإبقاء أذناب المعز معلقة على لحومها إلـى آخر البيع ، كمـا يأمرهـم ببيع الدهـون منفصلـة عن اللحـم[1]. وإذا فرغ القصاب من البيع وأراد الانصـراف أخـذ ملحـاً مسحوقـاً ونشره علـى قرمية الخشب التي يقصب عليها اللحم ، لئلا تلحسها الكلاب أو يدب عليها شيء من هوام الأرض ، فإن لم يجد ملحاً ، فعليه استعمال نبات الأشنان المسحوق الذي يميل طعمه إلى الملوحة.

ويقوم المحتسب بالحفاظ على مصلحـة الأمـة ورعـاية صحتهـا ، فإذا ساورته الشكوك فيما إذا كانت اللحوم لشاة ميتة أم مذبوحة بشكل غير طبيعي فإنه يلقيها في الماء ، فإن رسبت فهي مذبوحة وإن لم ترسب فهي ميتة.

وترتبط صناعة «النقانق» (المقانق) بمهنة القصابين ، فينبغي عليهم تنقية اللحم الذي يجب أن يكون من لحـم الضـأن ، وأن لا يخلـط بالشحـم ولا بالدهن ولا شيئاً من بطون البهيمة. ثم يحشون اللحم في «المصارين» النقية المغسولة بالماء والملح. ومنهم من يغش النقانق بلحوم المعز أو لحوم الإبل أو اللحوم الهزيلة ، فينبغي على المحتسب أن يراقـب هؤلاء ، ويمنعهـم من التدليس والغش.

وعن الرفق بالحيوان فقد عرف الإسلام هذا النظام منـذ أيام الرسـول محمد (ﷺ) وقبل غيره من الأنظمـة الحديثـة بقـرون عديدة. فقـد كان المحتسب يراقب «المكارية» ويمنعهم من أن يحمّلوا الـدواب أكثـر من قدرتهـا ، ولا يسوقونها سوقاً شديداً تحت الأحمال ، ولا يضربونها ضرباً قوياً ولا يوقفونها في مكان وعلى ظهورها أحمالها ، فإن في ذلك ضرر وتعذيب لها ، وقد نهى رسول الله عن تعذيب الحيوان لغير مأكله ، هذا ، وعلى «المكارية» أن يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها ، ويكون موفوراً لها غير مبخوس.

---

(١) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٣٥ ، ٣٦.

### ٦ ـ في الحسبة على الصيرفة

التعيش بالصرف خطر على دين متعاطيه، بل لا بقاء للدين معه إذا كان الصيرفي جاهلاً بالشريعة، غير عالم بأحكام الربا، لذا من أراد الاشتغال بالصيرفة عليه معرفة أصول الشريعة الإسلامية ليتجنب الوقوع في المحظور.

وفي هذا المجال ينبغي على المحتسب أن يتفقد سوقهم ويتجسس عليهم فإن عثر بمن رابى أو تصرف في الصيرفة ما لا يجوز في الشريعة عزّره وأقامه من السوق. كما لا يجوز لأحد من الصيارفة بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلا مثلاً بمثل، يداً بيد، فإن أخذ الصيرفي زيادة على المثل أو تصرف بغياب الشاري أو البائع ونال سمسرة بدون علمهما أو علم أحدهما فإن الشرع حرّم ذلك. وقد نهى الرسول (ﷺ) أسلوب السمسرة بقوله: «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض»[1]. كما لا يجوز بيع الخالص من الذهب والفضة بالمغشوش ولا بيع المغشوش بالمغشوش، كما لا يجوز بيع الدنانير المصرية (الفاطمية) بالدنانير الصورية (الفاطمية)، ولا دينار قاشاني بدينار سابوريْ وهكذا. وعلى المحتسب أن ينتبه لجميع هذه الأمور ويلاحقها ويمنع التدليس فيها.

### ٧ ـ في الحسبة على الصيادلة

تعتبر مهنة الصيدلة في الدولة الإسلامية مهنة تؤثر مباشرة في صحة الناس، لذا اهتم المعنيون بهذا الأمر اهتماماً بالغاً نظراً لخطورة إدخال الغش في الدواء أو إعطاء دواء بدلاً من دواء آخر. ومن هنا قام المحتسب بدورٍ مؤثرٍ في حياة الجماعة والأفراد، فكان عليه في هذا المجال أن يراقب الصيادلة يومياً وأسبوعياً، إذ أن من غشوشهم المشهورة أنهم يغشون «الأفيون المصري» بـ «شياف الماميتا» المر الطعم الأزرق اللون، ويغشونه أيضاً بعصارة ورق الخس البري ويغشونه أيضاً بالصمغ. ولمعرفة غشه أنه

---

(١) ابن تيمية، المصدر السابق، ص ٤٥.

أذيب بالماء ظهرت رائحته كرائحة الزعفران إن كان مغشوشاً بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة كان مغشوشاً بعصارة الخس، وإن كان مراً صافياً يكون مغشوشاً بالصمغ.

ومن الصيادلة من يغش الشمع بشحم المعز، وقد يذوبون فيه عند سبكه دقيق الباقلا أو الرمل الناعم أو الكحل الأسود المسحوق، ثم يغشى بالشمع الخالص ومعرفة غشه إنه إذا أشعلت الشمعة ظهر فيها أثر ذلك.

ومن الصيادلة من يأخذ «اللّك»[1] ويسكبه على النار ويخلط معه الأجر المسحوق والطين الأحمر، وإما جميع الأدهان الطبية فإنهم يغشونها بدهن الخل بعد أن يغلي على النار ويطرح فيه جوز ولوز مسحوق لإزالة رائحته وطعمه، ثم يمزجونه بالأدهان والمراهم.

## ٨ ـ في الحسبة على الأطباء والكحالين (أطباء العيون) والمجبرين والجراحين (أطباء الجراحة) (أطباء العظام)

يقول «الشيزري»، «الطب علم نظري وعملي أباحت الشريعة علمه وعمله لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية الشريفة[2].

هذا وينبغي على الطبيب في الدولة الإسلامية أن يكون مطلعاً على أجزاء الجسم وعمل كل عضو فيه، والأمراض التي يمكن أن يتعرض لها وأسبابها وأعراضها وعلاماتها والأدوية النافعة لها، واستبدالها بأخرى إن لم توجد تلك. ومن لم يكن ملماً بهذه الأمور فلا يحق له مداواة المرضى وعلاجهم.

والجدير بالذكر أن الطبيب إذا دخل على مريض ينبغي أن يسأله عن

---

(١) نبات يستخدم في الطب والصبغة والطلاء.

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٩٧، انظر أيضاً: ابن بسام: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص ١٠٨، وما يليها.

سبب مرضه، ومن أية جهة من بدنه يتألم، ثم يفحصه ويأخذ نبضه، ثم يصف له دواء من الأشربة أو سواها ثم يكتب الطبيب وصفة طبية للمريض فيها أيضاً وصفاً لحالته المرضية ويسلم نسخة لأولياء المريض. وفي اليوم الثاني يسأل عن المريض لمتابعة حالته ويكتب له نسخة أيضاً، وفي اليوم الثالث والرابع أيضاً يقوم بزيارته، وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن شفي من مرضه أخذ الطبيب أجرة وزيادة عليه، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور (حكيم الحكماء) وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن وجدها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصيرمن الطبيب أعلمهم بذلك، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: «خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه».

أما المحتسب فينبغي عليه في هذا الصدد أن يحلّف الأطباء ألا يعطوا أحد دواء مضراً ولا يركبوا له سما ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنّة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل. وعلى الأطباء أن يقسموا على شرف المهنة، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار.

وأما الكحالون (أطباء العيون) فيمتحنهم المحتسب بكتاب «حنين بن إسحق»[1]، فمن وجده فيما امتحنه به عارفاً بتشريح عدد طبقات العين السبعة، وعدد أجزائها وأمراضها وكان خبيراً بتركيب العقاقير، أذن له المحتسب بمداواة أعين الناس.

وأما المجبرون (أطباء العظام) فلا يسمح لأحد أن يمارس التجبير إلا بعد أن يعرف المقالة السادسة من مقالة «بولس الأجانيطي» (Paul D'Egine) - المتوفي سنة ٦٨٠م - في التجبير، وأن يعلم عدد عظام الإنسان - وهي ٢٤٨ عظمة - وشكل كل عظم منها ووظيفتها، حتى إذا انكسر منها شيء أو خلع رده

---

(١) كتاب «محنة الطبيب» وله كتاب آخر بإسم «العشر مقالات في العين». وقد عاش حنين في العهد العباسي (٨٠٩م - ٨٧٧م) - (١٩٤هـ - ٢٦٤هـ).

إلى موضعه وعلى الهيئة التي كان عليها.

أما الجراحون فعليهم معرفة كتاب «جالينوس» الخاص بتركيب الأدوية والجراحة والمراهم، كما عليهم أن يعرفوا كتاب «الزهراوي»، التصريف عن التأليف، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب، ليتجنب الجرّاح أي طارىء أثناء إجراء العمليات الجراحية.

## ٩ ـ في الحسبة على المساجد

يشرف المحتسب على المساجد ويأمر بكنسها وتنظيفها من الأوساخ في كل يوم، ونفض حصرها من الغبار ومسح جدرانها وغسل قناديلها وإشعالها في كل ليلة. ويأمر بغلق أبوابها عقب كل صلاة، ويأمر بصيانتها من عبث الصبيان والمجانين ومن يأكل الطعام أو ينام فيها، أو يعمل صناعة أو بيع سلعة أو ينشد ضالة أو يتحدث بحديث الدنيا. وينبغي على المؤذن إذا ما صعد منارة المسجد أن يغض بصره عن النظر إلى دور الناس، فجميع ذلك قد أورده الشرع بتنزيه المساجد عنه وكراهية فعله. وقد أضاف «أحمد سعيد المجيلدي» بقوله: إنه على المحتسب أن يحتسب على المؤذنين في حفظ أوقات الصلاة ويأمر الناس بالصلاة، كما يأمر غلمانه بضرب الباعة الذين لا يزالون في الحوانيت ضرباً مبرحاً، ولا سيما إذا شرع خطيب الجمعة بالخطبة[1]. ويأمر المحتسب قراءة القرآن مرتلاً كما أمر الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحينه وقراءته بالأصوات الملحنة كما تلحن الأغاني والأشعار.

## ١٠ ـ في الحسبة على الحمامات

الحمام مظهر إسلامي يرتبط بمبادىء وتعاليم الدين الإسلامي، ذلك أن إقامة الحمامات لم تكن تهدف إلى النظافة البدنية فحسب، وإنما لأسباب

(١) أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٧٢.

تتعلق بالطهارة التي تتطلبها الصلاة في ظروف خاصة. ومن المعلوم أن أكثر البيوت الإسلامية كانت تفتقد إلى وجود الحمامات، ولذا فقد كان المسلمون يتجهون إلى الحمامات للإغتسال والتطهر قبل الدخول إلى المساجد.

أما دور المحتسب في هذا المجال فيقوم على إشرافه المستمر على الحمامات وتنبيه المشرفين عليها من ضرورة غسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر يومياً وبغير ماء الغسالة، وضرورة دلك بلاط الحمامات لئلا يعلق بها الأوساخ والادران والصابون المتسخ كي لا تنزلق أرجل الناس، وعلى المحتسب أن يأمر صاحب الحمام بإشعال البخور في الحمامات مرتين في كل يوم.

ويقوم المحتسب بدورٍ هامٍ في الحفاظ على الصحة العامة، إذ يمنع من الدخول إلى الحمام المجذوم والابرص ويأمر صاحب الحمام بتخصيص ميازر يؤجرها أو يعيرها للغرباء والضعفاء. كما يأمره بفتح الحمام في السحر لحاجة الناس إليها للتطهير فيها قبل وقت صلاة الفجر. هذا وإن رأى المحتسب أحداً قد كشف عورته عزره على ذلك، لأن كشف العورة حرام. كما يلزم المسؤول حفظ الثياب، فإن ضاع منها شيء حمّله مسؤولية ذلك.

وأما الصور المثبتة على باب الحمام أو داخله، فيجب إزالتها لأن ذلك منكر، كما أن قراءة القرآن لا تجوز في الحمام إلا سراًوليس علانية.

## ١١ - في الحسبة على النساء والمخنثين وشاربي الخمر

إن المعاملات المنكرة كالزنا والبيوع الفاسدة وما منع الشرع منه مع تراضي المتعاقدين به إذا كان متفقاً على حظره، فعلى والي الحسبة إنكاره والمنع منه والزجر عليه، وأمره في التأديب مختلف بحسب الأحوال وشدة الحظر.[١]

ويهتم المحتسب بالأمور الإجتماعية للمسلمين ويتبع تعاليم الشرع

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٣.

ويطبقها بحق المخالفين ، فمثلاً إن كان الرجل زانياً بإمرأة وهو بكر[1] جلده على مرأى من الناس ، أما المرأة فيجلدها وهي في ثيابها ، وأما الزاني المحصَّن فيجمع المحتسب الناس حوله خارج البلد ويأمرهم برجمه ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، وإن كانت إمرأة محصنة حفر لها حفرة في الأرض وأجلسها فيها إلى وسطها ، ثم يأمر الناس برجمها . وإن كان المذنب لاط بغلام ألقاه المحتسب من أعلى شاهق في البلد ، على أن المحتسب لا يستطيع أن يتخذ الأحكام ، إنما يحول هذه الحالات إلى الأمام ويقوم المحتسب بتنفيذها . غير أن إبن خلدون يرى أن المحتسب «لا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه» ولكن «ليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين . . . »[2] .

وأما التعزيز ، فعلى قدر الجناية ، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ ، ومنهم من يضرب بالسوط، ومنهم من يلبس الطرطور حيث يقوم بتجريسه[3] .

وإذا رأى المحتسب رجلاً أجنبياً مع إمرأة أجنبية في خلوة أو طريق منعهما من ذلك وعزرهما . وينبغي على المحتسب أن يتفقد الأماكن التي تجتمع فيها النساء مثل : سوق الغزل والكتان وشطوط الأنهار وأبواب حمامات النساء ، فإن رأى شاباً منفرداً بإمرأة أو معترضاً لها ويكلمها بموضوع غير البيع والشراء عزّره ومنعه من الوقوف معها ، فكثير من الشبان المفسدين يقفون في هذه المواضع «وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان» ثم يتفقد المحتسب مجالس الوعاظ فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء ويجعل بينهم ستارة ، فإذا انفض المجلس خرج الرجال من طريق والنساء من آخر ،

(١) البكر الزوج الذي لم يطأ زوجة بنكاح صحيح .

(٢) إبن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الأول ، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ .

(٣) للمزيد من التفصيلات عن العقوبات الشرعية أنظر : إبن تيمية ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ـ ٦١ .

فمن وقف من الشباب في طريقهن لغير حاجة عزره المحتسب. وإن تكلم رجل إمرأة أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤد بك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات. [1]

هدا، ويتفقد المحتسب المآتم والمقابر، فإذا سمع نادبة أو نائحة عزرها ومنعها لأن النواح حرام قال رسول الله ﷺ: «النائحة ومن حولها في النار»، وقال أيضاً «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.» ويمنع المحتسب النساء من زيارة القبور لأن رسول الله قال: «لعن الله زئرات القبور».

أما فيما يختص بالمغنيات وسواهن، فإن سمع المحتسب بإمرأة عاهرة أو مغنية استتابها عن معصيتها، فإن عادت عزرها ونفاها من البلد. كما يجوز له إتلاف آلات الملاهي لا سيما آلة الطنبور، وقد أقر ذلك أكثر الفقهاء على حد قول إبن تيمية.

أما المخنثون والمردان المشهورون بالفساد مع الرجال، فإن المحتسب ينهاهم عن فسادهم ويعزرهم فإن عادوا نفاهم من البلد، كما يمنع المحتسب المخنث من حلق لحيته ودخوله على النساء، وكذلك الأمرد النكريش[2] متى حلق لحيته كان ذلك دليلاً على فساده فيعزره المحتسب على فعل ذلك. ومن أجل وضع حد للفساد منع الخليفة عمر بن الخطاب اجتماع الصبيان بمن كانوا يُتهمون بالفاحشة.

وبالنسبة لشاربي الخمر، فإن رأى المحتسب رجلاً يحمل خمراً عزره حسب ما يراه من المصلحة في حقه بعد إراقة الخمر وكسر الآنية. وإذا عثر على شارب خمر جلده كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما يمكن أيضاً للمحتسب أن يحرق الحانوت الذي يباع فيه الخمر على غرار ما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أمر بإحراق قرية لأن الخمر كان يباع

---

(١) أنظر: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٩.

(٢) النكريش: لفظ فارسي معناه، ذو اللحية الجميلة.

فيها[1] وعلى حد قول إبن تيمية فإن كل مسكر في الطعام والشراب لهو حرام وقد أدخل في ذلك التبغ والمزر والحشيشة القنبية.

## ١٢ - في الحسبة على أهل الذمة

يذكر الشيزرى وإبن الأخوة وإبن بسام وسواهم معلومات عن كيفية الحسبة على أهل الذمة، تعتمد بمجملها على القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والعادات والتقاليد المتبعة في المجتمعات الإسلامية. يقول الله عزوجل في كتابه الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ[2] ﴾. وقد جاء في الأحاديث الشريفة أن الرسول ﷺ قال: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع بها إلا مسلماً[3]. ويروي الماردي بأنه على المحتسب منع أهل الذمة من تعلية ابنيتهم على أبنية المسلمين، فإن ملكوا أبنية عالية أقروا عليها ومنعوا من الإشراف منها على المسلمين.[4]

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولي البصرة أبو موسى الأشعري الذي ولى بدوره رجلاً نصرانياً على إدارة المال، فعلم الخليفة بذلك[5]، وأرسل له رسالة قال فيها:

«قاتلك الله يا أبا موسى وليت نصرانياً على المال، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ[6] ﴾.

---

(١) إبن تيمية، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ١.

(٣) أنظر: إبن الأخوة، المصدر السابق، ص ٣٨.

(٤) الماوردي: المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية، م ١، ص ١٠٥.

(٦) سورة المائدة، الآية ٥١.

هذا، وقد علم عمر بن عبد العزيز أن أحد الولاة ولى رجلاً على الكتابة إسمه «حساناً» على غير دين الإسلام، فأرسل إليه يؤنبه ويذكره بقوله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]. وقد طلب عمر بن العزيز من الوالي أن يدعو حسانا إلى الإسلام وإلا فليترك الكتابة، وهكذا فقد أسلم حسان وتعلم الطهارة والصلاة.

والواقع إن علماء الاحتساب يرون أن على المحتسب أن ينطلق في معاملته لأهل الذمة من القواعد السابقة الذكر، مع تقيدهم بما التزموا به من التزامات حيال الخليفة عمر بن الخطاب وهي ما يلي:

١ ـ أن نوسع على من مر بنا من المسلمين في الضيافة ثلاث ليال.

٢ ـ لا ننزل في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً.

٣ ـ لا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا من الدخول في الإسلام.

٤ ـ أن نوقر المسلمين ولا نتشبه بهم لا في ملبسهم ولا كلامهم ولا في أسمائهم ولا كنيتهم.

٥ ـ أن لا نبيع الخمور ولا نسقيها لأحدٍ، ولا نظهر الخنزير ولا نضرب النواقيس في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً.

والواقع أنه من خلال ذلك نرى أن من مهام المحتسب أيضاً مراقبة أهل الذمة لخشية الدولة الإسلامية من اتصال بعض المسيحيين بالأوروبيين لا سيما في عهد المماليك، وفي عهود أخرى ومناطق عديدة.

أما بالنسبة للجزية المفروضة على الذميين فتؤخذ منهم كل حسب قدرته فعلى الفقير المعيل دينار وعلى المتوسط ديناران والغني أربعة دنانير. أما إذا قاتل الذمي المسلمين أو زنا بمسلمة أو إذا أصابها بإسم نكاح، أو فتن مسلماً عن دينه أوقطع الطريق على مسلم أو آوى المشركين أو دلهم على عورات المسلمين أو قتل مسلماً انتقضت ذمته في ذلك وقتل في الحال. وعلى

(١) سورة المائدة، الآية ٥٧.

المحتسب معرفة هذه الأمور والزام الذميين بعدم مخالفة الأحكام الإسلامية . غير أنه من الأهمية بمكان القول أن المجتمع الإسلامي رأى من واجبه أيضاً أن يكفل للذميين أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ، فإذا تبين أن أحدهم كان فقيراً أو محتاجاً فإن المحتسب يؤمن له حاجته من المال والمأكل والملبس ، كما أن كثيراً من النصارى واليهود تبوأوا أعلى المراتب في عصور مختلفة من عهود الدولة الإسلامية .

وكان المحتسب عادةً يراقب أهل الذمة من اليهود والنصارى ويحاول تطبيق النصوص والقوانين الخاصة بهم ، ولكني وجدت «إبن الأخوة» المتوفى (٧٢٩هـ - ١٣٣٨م) والمعاصر للماليك يتألم مما آلت إليه الأوضاع وتمادي اليهود والنصارى وتراخي الحكام المسلمين الأمر الذي يشير إلى ازدياد نفوذ اليهود والنصارى بعد الحملات الصليبية المتكررة ، ومما قاله «إبن الأخوة» : « . . . فلو شاهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه اليهود والنصارى في زماننا هذا ، ودورهم تعلو على دور المسلمين ومساجدهم وهم يدعون بالنعوت التي كانت للخلفاء ويكنون بكناهم ، فمن نعوتهم الرشيد وهو أبو الخلفاء ، ويكنون بأبي الحسن وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . . وأظهرت منهم الأيام طبائع شيطانية مكنتها وعضدتها يد سلطانية ، فركبوا مركوب المسلمين ولبسوا أحسن لباسهم واستخدموهم ، فرأيت اليهودي والنصراني راكباً يسوق بمركبه والمسلم يجري في ركابه وربما تضرعوا وتذللوا له . . . وربما جلست النصرانية في أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها ، ويخرجن إلى الأسواق ويجلسن عند التجار فيكرمونهن بما يشاهدون من حسن زيّهن ، فلا يدرون أنهن أهل ذمة»[1] . . . وهذا مما يدل على أن النصارى واليهود وصلوا في العهود الإسلامية إلى مراتب عليا ، كما أن أوضاعهم الإجتماعية تحسنت تحسناً ملحوظاً بحيث لم يعد هناك تمييز بينهم وبين المسلمين .[2] .

(١) إبن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) للمزيد من التفصيلات حول واقع أهل الذمة في الدولة الإسلامية أنظر : آدم متز : الحضارة الإسلامية ، الفصل الرابع (اليهود والنصارى) ص ٧٥ - ١١٨ .

## ١٣ ـ أهمية نظام الحسبة الإسلامي وأثره على الأنظمة المعاصرة، والحاجة الملحة لتطبيقه

يعتبر نظام الحسبة العامل المؤثر في ضبط أوضاع المجتمع في كافة جوانبه الدينية، والاقتصادية، وبعد انتشار هذا النظام بدأ المسلمون وأبناء البلدان المفتوحة يشعرون بضرورة تطبيقه نظراً لأهميته الكبرى، بل أننا رأينا أن الصليبيين بعد احتلالهم للأراضي المقدسة عملوا على تطبيق نظام الحسبة الإسلامي وأبقوا على وظيفة المحتسب في المناطق التي سيطروا عليها، كما أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً أقروا المحتسب في عمله، كما انتقلت الكلمة إلى الإسبانية باسم (Almotacen)[١]. وقد انتشرت هذه الوظيفة في مختلف المناطق الإسلامية وصارت تتطور وتتحول من المحتسب إلى موظف أعلى رتبة ففي دولة العبيديين في مصر والمغرب والأمويين في الأندلس كانت تتدرج وظيفة المحتسب في عموم ولاية القاضي «ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية»[٢].

غير أن وظيفة المحتسب استمرت عبر العصور التاريخية الإسلامية وإلى تاريخ متأخر من العصر العثماني ومما يدل على ذلك وجود وثائق في استانبول تعود إلى أعوام (٩٨٧هـ ـ ٩٩١هـ ١٥٧٨م ـ ١٥٨٢م) وهي بمثابة رسائل إحداها من الباب العالي إلى والي دمشق وقاضيها، وثانيها موجهة من الباب العالي إلى والي دمشق وقاضي صفد، وفيهما معلومات تشير إلى وجود وظيفة المحتسب[٣] وفي مصر استمرت هذه الوظيفة يعمل بها إلى عهد محمد علي باشا.

ويمكن القول أن نظام الحسبة الإسلامي اندثر بمفهومه الديني في

---

(١) حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ٣٠٠.
(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، م، ١، ص ٣٩٩.
(٣) انظر: نقولا زيادة، الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص ٤٣.

المشرق الإسلامي باستثناء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي لا تزال موجودة في بعض الدول العربية. أما المغرب الإسلامي فقد ظلت مدنه لا سيما فاس تعين محتسباً حتى مطلع القرن العشرين، على أن وظيفة المحتسب لا يزال يعمل بها في أقطار المغرب عامة حتى اليوم، وهو المعروف اليوم بـ «رئيس المصالح الاقتصادية».

ومن الأهمية بمكان القول، أن أوروبا اقتبست كثيراً من أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية ومسألة مراقبة الأسواق والبيع والشراء ومكافحة الاحتكار من نظام الحسبة الإسلامي، وقد تم هذا الاقتباس والنقل عن طريق المسلمين في إسبانيا وصقلية وعن طريق بلاد الشام بعد أن تأثر الصليبيون بالنظام الإسلامي عامة، ثم نقلوه ألى بلادهم بعد عودتهم. ومن ناحية ثانية فإن تجذر نظام الحسبة الإسلامي سواء في البلدان الإسلامية أم عن طريق الاقتباس في البلدان الأوروبية كان له أثر بارز عند تشريع القوانين الوضعية المعاصرة على اعتبار أكثر هذه القوانين إنما كانت تقتبس من الأنظمة التقليدية المتبعة في هذه البلدان[1].

والواقع إننا نجد أن العالم الإسلامي لا يزال حتى الآن يطبق نظام الحسبة، ولكن ليس كمفهوم ديني[2]، فمثلاً هناك الشرطة الأخلاقية وحراس الليل، وموظفي مراقبة الأسعار ومنع الاحتكار في الأسواق، وهناك موظفون مختصون بمراقبة الأفران واللحامين لمنع الغشوش والأمر باتباع النواحي الصحية وسوى ذلك من وظائف اقتصادية واجتماعية، ولكن بالرغم من تطبيق هذا النظام الوضعي، فإننا نرى أنه لا يمكن أن يخرج إلى حيز التنفيذ العملي، والتقيد به طالما أن القائمين عليه غير مقيدين بأهداب الأخلاق والضمير، فالرشوة تلعب دوراً سلبياً في منع تطبيق القانون الوضعي. ولكن

---

(١) هناك دراسة مقارنة الحسبة بالأنظمة الوضعية المعاصرة، لعلي حسن فهمي: الحسبة في الإسلام، ص ٥٩٩ ـ ٦٣٤، من كتاب مهرجان الإمام ابن تيمية.

(٢) انظر. على الخفيف، دراسة مفصلة عن «الحسبة» ص ٥٥٥ ـ ٥٩٤، من كتاب مهرجان الإمام ابن تيمية.

نظام الحسبة الإسلامي يكفل تطبيق القانون بأخلاص وعدالة، خاصة وأن المحتسب يجب أن تتوفر فيه شروط أخلاقية ودينية، وفي حال عدم توفر هذه الشروط فإنه يمنع من تولي هذه الوظيفة.

إذا ليس العبرة بالنظام فحسب بل بنوعية القائمين عليه، والنظام الإسلامي يكفل انتقاء الأشخاص على أساس الكفاءات الدينية والدنيوية والعلمية، بينما الأنظمة الوضعية المطبقة حالياً سواء في العالم الإسلامي أو العالم الغربي لا تتقيد سوى بكفاءات الأشخاص العلمية دون الأهتمام بصفات الموظفين الخلقية.

هذا ويقترح الأستاذ الجزائري «أحمد الغسيري» بضرورة العودة إلى نظام الحسبة الإسلامي وتطبيقه في عصرنا الحاضر، فيرى في معرض حديثه عن ابن تيمية التزام العمل بكتابة «الحسبة في الإسلام» لإصلاح أسواقنا التي عليها مدار معاشنا[١] . . .

وبعد هذه المقارنة السريعة بين نظام الحسبة الإسلامي والأنظمة الوضعية ليس غريباً أن تقرأ للمفكر بريفولت (Briffault) عبارته وهي:

«. . . لقد هذبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة في العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لهم . . .»[٢].

(١) أحمد الغسيري: الإمام ابن تيمية المصلح الاجتماعى الدينى، ص ٩٠٨ من كتاب مهرجان الإمام ابن تيمية.

(٢) انظر: د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ص ٢٠٥، ٢١٠.

# الفصل الرابع

## النظام الاقتصادي والنقدي

اهتم الخلفاء الراشدون بأوضاع المسلمين وغير المسلمين لا سيما أوضاعهم المعيشية فأنشأوا «بيت مال المسلمين» الذي كان يمول من ضرائب الخراج على الأرض ومن الزكاة والجزية والغنائم. وكانت تصرف أموال بيت المسلمين على الفقراء والمعوزين ودفع مرتبات الجند والشرطة والمحتسب والقضاء كما تصرف على تحسين أوضاع الأقاليم والأمصار ووسائل أعداد المعدات الحربية وبناء المساجد[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن حركة تعريب النقود في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان مرتبطة إلى حد كبير بالنظام المالي والاقتصادي للدولة العربية، فقد كان هذا الخليفة الأموي يرى أن ضرب العملات العربية والإسلامية ضرورة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي للدولة العربية، خاصة بعد أن انتقلت الدولة من مرحلة الفوضى والاضطراب

(١) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية، الفصل الثامن، ص ٢٠٧ ـ ٢٥٤ والمتعلق بالمسائل المالية وما يستتبعها من خراج وضرائب وبيت مال ونظم مالية وسواها.

إلى مرحلة البناء والاستقرار. ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية أنشأ عبد الملك بن مروان داراً لضرب السكة. ثم قام بإلغاء النقود البيزنطية والفارسية والحميرية وأمر بجمعها وتذويبها وسك نقود عربية جديدة. ولهذا فإن عبد الملك بن مروان يعتبر رائد التعريب في مجال النقود والدواوين أيضاً.

وقد استطاع عبد الملك بن مروان أن يحقق استقلال الدولة العربية اقتصادياً عن بقية الدول المجاورة. وكان إشراف الدولة على ضرب نقود موحدة قد نجمت عنه فوائد جمة إذ عمدت الدولة على مراقبة ومحاربة الزيف والغش والتمييز بين الجيد والرديء. وأصبحت هذه العملة الإسلامية تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء[1].

ونظراً لما كان للنقود من أهمية في الاقتصاد القومي والإسلامي للدولة العربية، فقد كانت إدارة الولايات في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز وفي مقدمة ذلك إصلاح نظام الخراج.

أما فيما يختص بالأنشطة الاقتصادية الأخرى في إطار الدولة العربية فقد اهتم العرب بالزراعة لا سيما بعد انتشارهم في مصر وبلاد الشام والأندلس فاستغلوا الأنهار الموجودة في مصر (النيل) والعراق (الفرات ودجلة) وبنوا السدود والقنوات، واستخدموا مواد جديدة لتحسين مستوى الزراعة. ومن المنتجات الزراعية التي زرعها العرب: القطن والبرتقال وقصب السكر والتفاح والزيتون والنخيل والبطيخ والأرز والقمح والذرة والخضراوات المتنوعة ولعل تنوع المنتجات الزراعية سهل لهم ابتكار مأكولات جديدة لا سيما في العصرين الأموي والعباسي.

أما الصناعة فقد تطورت لديهم أكثر مما كانت عليه في شبه الجزيرة العربية ذلك لأن الأنتشار العربي أهّل العرب لوضع أيديهم على مواد خام عديدة في المناطق التي سيطروا عليها، فحصلوا على الحديد والنحاس

---

(١) انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى.

والذهب والفضة واللؤلؤ الأمر الذي دعاهم للاشتغال بالصناعة المرتبطة بهذه المواد ، علماً بأن العرب منذ القدم تعرفوا إلى البترول الذي كان يطفو على وجه الأرض . . . فأناروا به منازلهم وشوارعهم . أضف إلى ذلك بأن العرب استطاعوا تحويل بعض المزروعات إلى صناعات مثل الزيوت من الزيتون ، والنسيج من القطن والقنب والكتان .

وعلى هامش هذا النشاط الاقتصادي وبمرور العهود العربية المتلاحقة تكونت النقابات العمالية والطوائف المهنية ، وكان يرأس كل نقابة : النقيب أو المعلم أو الأسطة الذي كان مسؤولاً عن العمال ضمن المهنة الواحدة .

واستطاع العرب القيام برحلات تجارية سبق أن تعودوا عليها منذ ما قبل الإسلام لا سيما رحلتي الشتاء والصيف ، فإذا بالدولة الإسلامية تفتح للتجار العرب آفاقاً واسعة براً وبحراً للأتجار وللبيع والشراء ، فأقاموا علاقات تجارية مع بلاد الشام ومصر واليمن وإفريقية وإسبانيا والغرب الأوروبي والسودان والحبشة والصومال والهند والصين والفلبين ، وأدخل العرب معهم إلى جانب تجارتهم الدين الإسلامي ، ذلك أن مناطق عديدة من العالم دخلت الإسلام بواسطة التجار المسلمين . وتحولت المدن الإسلامية لا سيما الساحلية منها إلى مراكز تجارية هامة استقطبت تجار العالم . وتكون للتجار نقابات يرأسها «شهبندر التجار» أو «نقيب التجار» كماأوجد العرب أنظمة مالية مرتبطة بالعمل التجاري مثل الحوالات المالية والشيكات ، كماسنرى فيما بعد في فترة العصور الوسطى .

ولما جاء القرن الرابع الهجري أصبح التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك : ولم يترفع «بدر بن حسنويه» في اواخر القرن الثالث الهجري ـ وكان في منصب هام من المناصب الجليلة في الدولة الإسلامية ـ عن أن يبتاع خاناً في مدينة همدان ويفرده باسمه ، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة في أعماله ، وقدرت أرباحه من وراء هذه التجارة نحواً من ألف ألف ومائتي

ألف درهم[1] ويرى آدم متز بأن التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري كانت تعتبر مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام. وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر[2].

أما فيما يختص بالنقود الإسلامية فقد اعتبرت مظهراً من مظاهر الحضارة الإسلامية نتيجة أهميتها الاقتصادية والمالية في الدولة الإسلامية، ونظراً لهذه الأهمية ولهذا المظهر الحضاري، فقد جرت حروب من أجل الاستقلال المالي والاقتصادي الإسلامي عن الدولتين البيزنطية والفارسية وكذا الدولة الحميرية، لأنه لا يمكن للحضارة الإسلامية أن تبرز بمظهرها اللائق، وسياستها النقدية لا تزال خاضعة للنفوذ والسيطرة الأجنبية. ومن هنا يمكن دراسة تطور النظام النقدي وأسلمة وتعريب هذا النظام من خلال دراسة النقود الإسلامية.

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، م٢، ص ٣٧٠.

(٢) آدم متز: المرجع نفسه، م ٢، ص ٣٧١.

# النقود الإسلامية

تعتبر النقود من أقدم النظم الاقتصادية في تاريخ الحضارة الإنسانية، فقد عاصرت الإنسان منذ آلاف السنين، مؤثرة في نمط حياته الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ومنذ تعامل الناس بالنقود، لم يفـرغ لهم شغل بمشاكل سياستها، ولم يفلت إنسان من أن تؤثر كيفية إدارتها على حياته ومعاشه[1]. وقد ورد في الحديث الشريف «أهلك الناس الدينار والدرهم» من جراء الحرص والطمع في سبيل الحصول عليهما[2] وتندرج دراستها تحت علم عرف باسم علم «النميات» (La Numismatique) وهو العلم الذي يبحث في النقود، والأوزان، والأختام.

ويطلق لفظ السكة (المسكوكات) على جميع النقود التي تعاملت بها شعوب الدولة العربية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية، والتي أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية في العصور الوسطى بين شعوب المنطقة وغيرها من شعوب العالم. وحسبنا ذلك العدد الضخم من السكة الإسلامية التي عثر عليها المنقبون في شبه جزيرة سكندناوه وسهول روسيا وبلاد الصين وأواسط أفريقيا، وبعض جزر المحيطات الهندي والهادي والأطلسي[3]. وهذا

---

(١) محمد زكي شافعي (مقدمة في النقود والبنوك) الطبعة السابعة ص ٤٧ دار النهضة بيروت ١٩٧٣.

(٢) عباس العزاوي (تاريخ النقود العراقية)، ص ٦. وزارة المعارف العراقية ـ شركة التجـارة والطباعة، بغداد ١٩٥٨ م ـ ١٣٧٧ هـ.

(٣) سعيد عاشور (المدنية الإسلامية) ص ١١٨، الطبعة الأولى دار النهضة القاهرة ١٩٦٣.

يؤكد مدى انتشار السكة الإسلامية وقبولها في العلاقات الاقتصادية مع مختلف شعوب العالم، بالإضافة إلى أنه يؤكد مدى نشاط العرب الاقتصادي وعظم محصولهم الجغرافي[1].

ولا بد من الإشارة إلى أنه ورد في القرآن الكريم لفظ «الورق» على أنه النقود الفضية، في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾[2] ويقال «الرقة» أيضاً. كما أطلق على النقود لفظ «المعاملة» بمعنى واسطة للمبادلة وللشراء والبيع وأطلق عليها منذ العهود الإسلامية الأولى معنى مجازياً هو «ياقاضي الحاجات» ثم عم وانتشر لفظ «العملة»، ولا يزال إلى اليوم[3].

وتعد العملة الإسلامية من أهم المصادر الأثرية لدراسة التاريخ، فهي تلقي الضوء على كثير من حوادث هذا التاريخ، فتظهر بعض ما غمض وتضيف إليه بعض ما سقط من أيدي النساخ وما أهمل عمداً أو سهواً[4]. وقد عاش لفظ «السكة» في أوروبا بعيداً عن وطنه العربي وأمعن في البعد والاغتراب حتى تبنته اللغة الفرنسية باسم (Sequin) واشتقت منه الإيطالية لفظ (Zecchino)[5].

ويرى «الماوردي» بأن «السكة هي الحديدة التي يطبع عليها الدراهم، ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة. . .»[6] بينما يرى «ابن خلدون» بأن «السكة هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج

---

(١) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١١٩.

(٢) سورة الكهف، الآية ١٩.

(٣) انظر: عباس العزاوي، المرجع السابق، ص ٦ - ٧.

(٤) محمد باقر الحسيني (العملة الإسلامية في العهد الأتابكي) ص ٨، الطبعة الأولى دار الجاحظ بغداد ١٩٦٦.

(٥) عبد الرحمن فهمي (النقود العربية ماضيها وحاضرها) ص ٨، المؤسسة المصرية القاهرة ١٩٦٤.
انظر أيضاً:

Description de L'Egypte, T. XVI, P. 281 «Paris 1825»

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٥٥.

رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة. . . ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك، ثم نُقِلَ إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم. . »[١].

أما العملات التي تداولها العرب في عصري الجاهلية والإسلام فهي ثلاث:

١ ـ الدينار:

هو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب، اشتقه العرب من اللفظ اليوناني اللاتيني (Denarius - aureus) المشتق عند الروم من (DENI) أي عشرة[٢]. فلقد عرف العرب هذه العملة الرومانية الذهبية وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده. وقد ورد ذكر الدينار في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾[٣].

والدينار البيزنطي مستدير الشكل، يحمل على أحد وجهيه صورة الامبراطور البيزنطي، وقد عاصرت الدنانير الهرقلية الفترة الإسلامية الأولى وكانت تحمل صورة هرقل وحده، أو صورته وعلى جانبيه ولداه هرقليانوس وقسطنطين. وإلى جانب كل منهم صليب بالإضافة إلى صليب آخر يتوج الرأس، وعلى الوجه الثاني للدينار صورة صليب قائم على مدرجات أربعة مع بعض العبارات المسيحية، ومكان الضرب بالأحرف اليونانية واللاتينية[٤].

وهناك أجزاء للدينار كالتي وجدت في مصر من قطع النصف دينار (Semis) والثلث (Tremis)، والثلثين، والربع (Quadrans) وقد أشير إلى

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٦١. دار القلم ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨١.

(٢) جرجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي) جـ ١، ص ١٤١، الطبعة الأولى دار الهلال مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٧٥.

(٤) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ١٨، الطبعة الأولى مطبعة دار الجاحظ بغداد ١٩٦٩.

هذه العملات كلها في أوراق البردي[1]. والظاهر أن إصدار مثل هذه الأجزاء من الذهب يعود إلى هدف الدولة في تسهيل أمور الشراء والبيع.

وقد احتفظ العرب بعد حركة الفتح الإسلامي بكل هذه العملات لاستخدامها في عملياتهم التجارية من جهة، وللوفاء بالالتزامات الضرائبية من جهة أخرى[2].

وقد وجدت دنانير بيزنطية اختلف ضربها عن الدنانير الهرقلية، وهذه الدنانير أشار إليها الكاتب القبطي (بسندي) الذي عاصر الفتح العربي. إذ يروى أن (بسندي) أرسل إلى الأساقفة زملائه يقول لهم: «إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة المسيح وأزالوا الصليب وصورة المسيح، وأحلوا محلها اسم نبيهم محمد الذي يتبعون تعاليمه، واسم الخليفة ونقشوا الاسمين معاً على السكة الذهبية»[3].

هذا ولم يفكر المسلمون في تبديل النقود ذات الشارات المسيحية بعد

---

(١) عبد الرحمن فهمي (صنج السكة في فجر الإسلام) ص ٣٠، دار الكتب المصرية ١٩٥٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠.

(٣) يذكر الدكتور محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ١٩. أن النقود التي أشار إليها (بسندي) لا توجد أصلاً بدليل عدم العثور على أية عملة منها. كما أن الحقائق التاريخية والأثرية لا تؤيد وجود نقود تحمل صورة المسيح عليه الصلاة والسلام، أو عقيدة الإيمان المسيحية قبل الفتح العربي أو بعده.

ولكني لا أؤيد الدكتور الحسيني في ما ذهب إليه خاصة ما يتعلق بنقش عقيدة الإيمان المسيحية في العملة البيزنطية فقد وجدت نقود تحمل صورة الأباطرة البيزنطيين وقسمائهم في الحكم بالإضافة إلى إشارة الصليب. ثم أن عقيدة الإيمان المسيحية وجدت على القراطيس التي كانت ترد من مصر إلى بلاد الروم. وقد تكون وجدت نقود في تلك الفترة حملت عقيدة الإيمان المسيحية دون صورة المسيح وذلك اعتماداً على ما أورده «ابن تغري بردي» في (النجوم الزاهرة) ص ١٩٣. إذ يقول:

«وضرب عبد الملك بن مروان على الدينار والدرهم اسم الله تعالى، وسببه أنه وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بثلثمائة سنة أو بأربعمائة سنة مكتوب عليها: باسم الآب والابن والروح والقدس».

كما أشار «البلاذري» في كتابه (النقود) ص ١٠ «كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر».

سيطرتهم على أقاليم الدولة البيزنطية في الشام ومصر، ما دامت هذه النقود مألوفة لديهم وما دامت تشبع حاجة شعب مزدوج من الغالبين والمغلوبين، وما دام الإبقاء على هذه النقود يساعد على استقرار البناء الاقتصادي في الدولة الإسلامية[1].

ولكن هذا الاستقرار الاقتصادي لا يعني أن العرب المسلمين لم يحاولوا ضرب النقود، فقد حدثت محاولات عديدة في هذا الصدد، بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وانتهت بالإصلاح النقدي المنسوب إلى الخليفة عبد الملك.

٢ ـ الدرهم:

كلمة أعجمية عربت عن الكلمة اليونانية «الدراخما» (Drachma) ويقابلها بالفارسية «دراخم وديران» (Drachm)[2]. والدرهم عملة فضية استخدمها العرب في معاملاتهم نقلاً عن الفرس، إذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي تتعامل بالدراهم أي أنها كانت تتبع قاعدة الفضة، باعتبار الدرهم الفضة هو نقدها الرئيسي[3]. وقد أشير إلى هذه الدراهم في البرديات في مصر منذ فجر الإسلام كما أشير إلى انصاف الدراهم (Semis) وإلى ثلث درهم (Tremis). واستعمل لفظ الدرهم في الآيات القرآنية الكريمة: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[4]. أما بالنسبة إلى الدراهم الحميرية، فأقدمها ما وصلنا من اليمن ويعود تاريخه إلى سنة ١١٥ ق. م. وكانت تحمل صورة (البومة) على غرار الدراخما الإغريقية، وصورة خنجر بجوار البومة مع نقش لاسم الملك ولقبه. وعلى الجهة الثانية من الدراهم صورة رأس إنسان

---

(١) محمد باقر (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ١٩، انظر أيضاً:
H. Lavoix; Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale.. Khalifes Orientaux P. 1, Vol, 1 (Paris 1887).

(٢) ناصر النقشبندي (الدرهم الإسلامي) جـ ١ ص ١، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٧٠.

(٣) عبد الرحمن فهمي (النقود العربية) ص ١٠.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٢.

في وضع جانبي (Profil) وهو حليق الوجه ومحاط بغصن من الأشجار[١].

بينما كانت الدراهم الساسانية في فجر الإسلام عبارة عن قطع مستديرة فضية نقش على الوجه الجانبي صورة كسرى، وقد وضع التاج على رأسه، وفي جهة ثانية معبد النار مع بعض العبارات التي تتضمن اسم الملك أو ما يعبر عن الدعاء لأسرته[٢]. بالإضافة إلى رسم يمثل حارسين مدججين بالسلاح[٣].

وظل المسلمون يتداولون هذه الدراهم مع إضافة عبارات إسلامية عليها أدخلها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ثم عربت مع الدينار على يد الخليفة عبد الملك بن مروان.

**٣ـ الفلس:**

إن كلمة «فلس» لا تعني بالضرورة عملة نحاسية، بالرغم من أن استعمالها الشائع منذ فجر الإسلام اقتصر على هذا الغرض الضيق، ولفظ الفلس اشتقه العرب من اليونانية (Follis). وكان يرمز لقيمة القطعة بالحرف الأبجدي اليوناني (M) على أحد وجهي الفلس، أما الوجه الثاني فكان يحمل صورة الامبراطور البيزنطي المعاصر[٤].

غير أن العرب لم يتقيدوا بأوزان هذا النوع من الفلوس البيزنطية، إذ كان هذا الوزن عند الفتح العربي للشام ومصر في غاية الاضطراب والاهتزاز، فضرب العرب فلوساً عربية في بعلبك، وحلب، وحمص، ودمشق، وطبرية، وفلسطين، والإسكندرية.

والظاهر أن قيمة هذه الفلوس وأوزانها اختلفت باختلاف الأقاليم التي

---

(١) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ١٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٥.

(٣) H. Lavois; Op. Cit, P. VII

انظر أيضاً: محمد باقر الحسيني (العملة الإسلامية في العهد الأتابكي) ص ٢٤.

(٤) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ٤١.

ضربت فيها، لذا كان لها قوة شرائية متباينة[1] وإن كانت النسبة الشرعية بين الفلوس والدراهم وهي ٤٨/١ كانت معروفة. والأصل في ضرب هذا النوع من النقود النحاسية العمل على تسهيل وإجراء العمليات التجارية البسيطة، ولكن رغم ذلك اهتم العرب بنقوشها وأوزانها وصنعوا لضبط هذه الأوزان وتحديدها صنجاً زجاجية خاصة مقدرة بالقراريط والخراريب[2].

وتظهر الفلوس التي دخلت عليها العبارة العربية والإسلامية، ان النقود العربية بشكل عام، أخذت تزداد استقلالاً شيئاً فشيئاً، كلما فرض العرب سلطانهم وسيطرتهم على المناطق البيزنطية في بلاد الشام ومصر. وقد ظهر من دراسة الفلوس أن بعض الولاة لم يتقيدوا أحياناً بنقش نفس العبارات العربية الإسلامية، التي كانت تضرب في مركز الخلافة، كما لم يتقيدوا بذكر اسم الخليفة المعاصر.

هذا، ولا ضير أن قلد المسلمون الأوائل النقود البيزنطية أو الفارسية أو الحميرية أو تعاملوا بها، وذلك لانشغالهم في توحيد الجزيرة العربية وإتمام الفتوحات في الشام والعراق وفارس. فالصليبيون الذين جاؤوا إلى الشرق - مع ملاحظة الفارق الزمني الشاسع - وأضحوا قوة حاكمة، وأصحاب السلطة في المنطقة لم يترددوا في إصدار عملات صليبية، ولكن ذات طابع عربي، فقد ضرب الصليبيون نقودهم تقليداً للنقود العربية الفاطمية بكتاباتها وكل خصائصها الإسلامية[3]. وهناك نقود صليبية بعبارات مسيحية مكتوبة باللغة العربية ضربت بعكا بأمر القديس لويس سنة ١٢٥٠ م وما بعدها وهي تقليد للنقود الأيوبية[4].

---

(١) عبد الرحمن فهمي (صنج السكة في فجر الإسلام) ص ٤٠.
(٢) عبد الرحمن فهمي (النقود العربية) ص ١١.
(٣) عبد الرحمن فهمي (النقود العربية) ص ٨١.
(٤) المرجع نفسه ص ٨١.

## الخطوات الأولى لتعريب النقود

كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية[1]. وحميرية قليلة[2]. وكان بعضها يحمل تواريخ قديمة، فقد ترجع إلى ما قبل الإسلام بأربعمائة سنة. وكانت جميع هذه النقود تجلب مع رجال القوافل التجارية الذين كانوا ينظمون رحلتين تجاريتين في السنة، وأعني بهما رحلتي الشتاء والصيف. وأضاف ابن خلدون بأن ملوك العجم كانوا يتخذون الدنانير والدراهم وينقشون عليها «تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثال حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم»[3].

**١ ـ في عهد الرسول (ﷺ):**

في العهد الإسلامي أبقى الرسول على هـذه العملة، ولم يحاول إلغاءها، بدليل أنه زوج علي بن أبي طالب من ابنته فاطمة سنة ٢٠ هـ بمهر قدره ٤٨٠ درهماً كسروياً[4]. كما أن الزكاة والجزية كانت تدفع بمثل هذه العملات، إذ لا بديل لها في تلك الفترة. وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيدي المسلمين يتعاملون بها «ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص٦٥٣، الطبعة الأولى تحقيق عبدالله وعمر الطباع دار النشر للجامعيين ١٩٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٥٤.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٦١.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٦٥٢.

بينهم»[1] وأشار المقريزي بأن الرسول ﷺ أقر أهل مكة على ذلك كله وقال: «الميزان، ميزان أهل مكة» وفي رواية «ميزان المدينة»[2].

وكان الرسول ﷺ يعتبر من رجال الساسة البارعين فلم يشأ في تلك الفترة الأولى تأليب القوى الخارجية على المسلمين من بيزنطيين وفرس باعتبارهما أقوى دولتين في تلك الحقبة من التاريخ. بالإضافة إلى انشغاله بتوطيد دعائم الإسلام في الجزيرة العربية. ولذا واصل العرب في عصر النبوة استخدام النقود الأجنبية في معاملاتهم التجارية مع الروم والفرس.

**٢ ـ في عهد الخلفاء الراشدين:**

وفي زمن أبي بكر الصديق بقيت هذه العملات معمولاً بها ما دام الرسول قد أقرها.

أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد أراد المسلمون إبراز شخصيتهم في هذه المرحلة الأولى رغم انشغالهم بالفتوح ونشر الدين الجديد، فعمدوا إلى وضع بصماتهم على العملات. وإن كان بعض النقود كالدراهم نقش على نقش الكسروية[3]، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب حرص على إضافة نقوش عربية إسلامية على العملات المتداولة مشيراً بذلك إلى الشخصية العربية الإسلامية في المنطقة، وبهذا بدأت الخطوات الأولى للتعريب، فقد ضرب عمر الفلوس على طراز عملة هرقل سنة ١٧ هـ مسجلاً اسمه عليها بحروف عربية وهو أقدم فلس وصلنا حتى الآن[4]. وقد ظهر في قنسرين[5]. كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمة «جايز» وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة «طيب» أو «واف» إشارة إلى الوزن الصحيح[6].

---

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٢) المقريزي: كتاب النقود القديمة الإسلامية، ص ٣٠

(٣) J. Walker; A Catalogue of the Arab - Sassanian coins P.P. 3,5 (London 1941).

(٤) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية) ص ٤١.

(٥) عبد الرحمن فهمي (صنج السكة في فجر الإسلام) ص ٣٧.

(٦) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٥٢٤، دار النهضة العربية ١٩٧١.

وفي سنة ١٨ للهجرة ضرب الخليفة عمر الدراهم على نقش الكسروية، وكانت تسمى بغلية لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية في الإسلام إذ نقش عليها صورة الملك وسجل بأدنى الكرسي عبارة «نوش خور» الفارسية التي تعني «كل هنيئاً»[١]. وبقيت صورة معبد النار (أتش كاه) ممثلة على الدراهم الفارسية التي كانت تصنع من الفضة[٢]. ومن بين العبارات العربية التي أضافها الخليفة عمر على الدراهم سنة ١٨ هـ عبارة «الحمدلله» و «محمد رسول الله» وفي بعضها «لا إله إلا الله وحده»[٣] وعلى جزء منها «عمر». ولم تصلنا مثل هذه الدراهم وإنما وصلتنا دراهم ضربت سنة ٢٠ هـ تحمل اللفظ «بسم الله» أو «بسم الله ربي»[٤]. ونقش على بعضها أسماء الخلفاء أو الأمراء بالحروف الكوفية[٥].

وكانت أسماء المدن التي ضربت فيها العملة تنقش على هذه النقود باليونانية والعربية معاً مثل «دمشق» و «حمص» و «طبريا» و «بعلبك» و «إيليا» و «قنسرين».

ومن المعروف أن الخليفة عمر ضرب هذه العملات الإسلامية ذات الطابع البيزنطي أو الفارسي أو الحميري[٦]، لأن العملات الجديدة كانت تساهم في توفير كميات النقد اللازمة لإجراء المعاملات والنشاطات الاقتصادية المتعددة.

ولما رأى عمر بن الخطاب اختلاف قيمة الدرهم البغلي وهو ثمانية دوانق، والطبري وهو أربعة دوانق، جمع بينهما وجعل الدرهم الإسلامي ستة دوانق.

---

(١) البيهقي (المحاسن والمساوىء) جـ ٢، ص ٢٣٦، مطبعة نهضة مصر ١٩٦١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٣) المقريزي: كتاب النقود القديمة الإسلامية، ص ٣٢.

(٤) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية) ص ٤٧.

(٥) ناصر النقشبندي (الدرهم الإسلامي) جـ ١ ص ١.

(٦) انظر: J. Walker; A Catalogue of the Arab - Sassanian Coins, P.P. 3,5.

والواقع أنه يمكن اعتبار عمر بن الخطاب أول من ضرب النقود في الإسلام. إلا أن المؤرخ (ملر) يذكر أن خالد بن الوليد سبق الخليفة عمر بضربه النقود في طبريا في سنة ١٥ هـ وقد أبقى على رسم التاج والصولجان والصليب أيضاً. ولكن نقش على أحد وجهي هذه النقود اسم خالد بالحروف اليونانية (Xaved) ونقش كذلك الحروف (I Y - bou)، ويرجع الدكتور (ملر) أن هذه الأحرف مقتطعة من كنية خالد بن الوليد (أبو سليمان)[١].

ويذكر أن الخليفة عثمان بن عفان ضرب نقوداً ونقش عليها عبارة (الله أكبر). وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ضربت الدراهم والفلوس الإسلامية وعليها صورته متقلداً سيفاً[٢]، ولكن لم يعثر على أي منها بسبب الإصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان.

والجدير بالذكر أن علي بن أبي طالب ضرب نقوداً قيل أنها النقود الأولى بنقوش عربية ضربها في البصرة سنة ٤٠ هـ. ولكن الأستاذ ناصر النقشبندي ينكر نسبتها إلى الخليفة علي ويعتقد أنها ضربت سنة ٩٠ هـ وفي ذلك يقول:

«أما بشأن درهم البصرة المضروب على الطراز الإسلامي سنة ٤٠ هـ، فهو خطأ ويقصد بها سنة ٩٠ للهجرة، إذ أن الخطأ في تاريخ الضرب يحدث عندما يحفر العمال السكك على النصوص، بدليل أن العلماء لم يعثروا على نسخة أخرى من ذلك الدرهم ضربت بهذا التاريخ أو قبله أو بعده حتى سنة ٧٩ هـ»[٣].

ولما اجتمع الأمر لزياد بن أبيه في ولاية الكوفة والبصرة زمن معاوية ضرب دراهم مماثلة لدراهم معاوية.

هذا ولم يكن لخلفاء معاوية أمثال، يزيد بن معاوية، ومعاوية الثاني،

---

(١) الكرملي (النقود العربية) ص ٩١، جرجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي) جـ ١ ص ١٤٢.

(٢) المقريزي: كتاب النقود القديمة الإسلامية، ص ٣٢، ٣٣.

(٣) ناصر النقشبندي (الدرهم الإسلامي) جـ ١، ص ٣.

ومروان بن الحكم محاولات فعالة وإيجابية في ميدان ضرب النقود أو تعريبها. إلا أن بعض الثوار والمطالبين بالخلافة فطنوا إلى أهمية العملة لكونها مظهراً من مظاهر السلطان وسمة من سمات السيادة فضربوا بأسمائهم عملات على غرار ما فعله الخلفاء تعبيراً عن استقلالهم. ومن هؤلاء قطري بن الفجاءة الخارجي، وعبدالله بن الزبير[1]، وأخوه مصعب الذي ضرب الدراهم سنة ٧٠ هـ، على ضرب الأكاسرة، وعليها بركة، وعليها الله، وكانت دراهم قليلة كسرت بعد[2]، بواسطة الحجاج سنة ٧١ هـ، وكتب عليها اسمه وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر، وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أرباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل[3].

ويقال بأن عبدالله بن الزبير أول من ضرب الدراهم المستديرة، وكانت الدراهم قبل ذلك ممسوحة غليظة فدورها عبدالله ونقش على أحد وجهي الدراهم «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «أمر الله بالوفاء والعدل»[4].

وكانت جميع هذه العملات التي سكّت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب مجرد محاولات أولية في ضرب النقود، لم تستكمل عناصرها من حيث إصلاحها وتعريبها إلا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

---

(١) J. Walker, op. cit P.P. 29 - 30 وقد أشار «ولكر» إلى سكة عبدالله بن الزبير التي ضربها في أعوام ٦٥، ٦٦، ٦٧ هـ.

(٢) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٦١.

(٤) المقريزي: كتاب النقود القديمة الإسلامية، ص ٣٣. انظر أيضاً: سيدة كاشف (مصر في فجر الإسلام) ص ٦٦، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٧، انظر أيضاً: سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٨٨، دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٦.

# الإصلاح النقدي المنسوب
# إلى عبد الملك بن مروان

لم تصدر العملات الإسلامية الخالصة إلا في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بـن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) الذي شهد عصره ظاهرة صبغ الدولة بصبغة عربية في جميع الشؤون الإدارية والمالية والفنية. خاصة بعد أن تركّزت السلطة في يده وقضى على مناوئيه، وأصبحت الحاجة ماسة لوضع نظام إداري واقتصادي موحّد لكل الولايات الإسلامية[١]، فبدأ بحركة تعريب السكة وتوحيدها، وعلى هذا النحو ظهر في سنة ٧٧ هـ أول نقد إسلامي خالص خال من التأثيرات المسيحية كضرورة من ضرورات الاستقرار الاقتصادي[٢]. كما ضرب عبدُ الملك بن مروان الدرهم على طراز إسلامي خاص يحمل نصوصاً إسلامية نقشت عليه بالخط الكوفي بعد أن ترك الطراز الساساني وذلك في سنة ٧٩ للهجرة وقيل ضربه في سنة ٧٤ هـ وقيل ٧٥ وقيل ٧٦ للهجرة إلا أننا لم نعثر على شيء من ذلك[٣].

والواقع أن الأستاذ محمد باقر الحسيني يؤكد أنه تم تعريب الدرهم في سنة ٧٩ هـ ووصلتنا نماذج من الدراهم المعربة من ضرب دمشق والكوفة[٤].

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن سيرة وحياة عبد الملك بن مروان ومراحل حكمه. انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٤ ـ ٢٢٢. تحقيق: محمد محي الدين بن عبد الحميد، المكتبة التجارية مصر ١٩٥٢. انظر أيضاً الطبعة الرابعة ١٩٦٩.

(٢) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية الإسلامية) ص ٢٢.

(٣) ناصر النقشبندي (الدرهم الإسلامي) جـ ١، ص ٢. «لم يشر من أين استقى هذه التواريخ».

(٤) محمد باقر الحسيني، المرجع السابق ص ٤٨.

وجميع هذه الدراهم المعربة تحمل نفس نصوص الدنانير في الأقاليم الشرقية على الوجه والظهر[1]. مما يحمل على الاعتقاد بأن الدولة سيطرت على أقاليمها وقضت على الحركات المناهضة للحكم المركزي. على أنه إذا كان ثمة نقود تخالف في نقوشها نقوش النقود المركزية كنقود الحجاج مثلاً فلا يعني هذا استقلال الحجاج الذي يعتبر خير ممثل للحكم المركزي[2]. ومن الولاة الذين ضربوا السكة في أقاليمهم على غرار السكة المركزية عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد الثاني (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) وخالد بن عبدالله والي العراق لهشام بن عبد الملك (١٠٦ ـ ١٢٠ هـ) ويوسف بن عمر والي العراق للوليد بن يزيد (١٢٠ ـ ١٢٦ هـ). وكانت هذه النقود تُعرف بأسمائهم.

أما العملات التي وجدت قبل عبد الملك فقد كانت ممسوحة، فلما جاء هو نقش عليها وأبقى على وزنها القديم، ويقول البلاذري في هذا الصدد: «رأيت الدنانير والدراهم قبل أن ينقشها عبد الملك ممسوحة، وهي وزن الدنانير التي ضربها عبد الملك فيما بعد»[3]. ولكنه عمل على ضبطها عن طريق الصنج الزجاجية العربية[4]. وقد أصبح الدينار الشرعي منذ ٧٦ هـ، ٧٧ هـ، يزن ٤,٢٥ غرام. ويعتبر عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود من الذهب وذلك في عام ٧٤ المعروف بعام الجماعة. وهو العام الذي قضى فيه على حركة ابن الزبير وأعيدت الوحدة إلى مثل ما كانت عليه.

١ ـ مغزى حركة تعريب النقود:

تقترن حركة الإصلاح النقدي وتعريب النقود والدواوين باسم الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي يمتاز عن أسلافه بأنه طبَّق سياسة التعريب في

---

(١) محمد باقر الحسيني، المرجع السابق ص٤٩.

(٢) انظر حول نقود الحجاج:

J. Walker, A Catalogue of The Arab Sassanian coins, P. 118, No. 229.

(٣) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٤.

(٤) عبد الرحمن فهمي (صنج السكة في فجر الإسلام) ص ٢٨.

جميع مرافق وأجهزة الدولة العربية الإسلامية مستهدفاً إبراز الكيان العربي في مناطق كانت خاضعة للدولتين الساسانية والبيزنطية قروناً طويلة.

ومن الأهمية بمكان القول أن حركة التعريب دفعت الدولة العربية خطى واسعة إلى الأمام وساعدتها الظروف السياسية المؤاتية على تحقيق هـذا الغرض. ولقد تتبعنا المحاولات الأولى لضرب النقود العربية منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن جميع هذه النقود لم تكن على صعيد واسع من الانتشار والكثرة[1]، بدليل أن المصادر التاريخية والأدبية القديمة، لـم تشر لا من قريب ولا من بعيد، إلى احتجاجات قدّمها البيزنطيون على مثل هذه العملات.

والظاهر أن استخدام مثل هذه النقود اقتصر على نطاق ضيّق من الدولة العربية أو حتى خارجها، فالنقود ذات الطراز البيزنطي والفارسي، والتي لم تدخل عليها عبارات عربية ظلت متداولة بحيث أنها استطاعت احتواء النقود العربية الأولى وخنقها، نظراً لقلتها وعدم تشكيلها خطراً على النقود البيزنطية والفارسية.

والواقع أن جميع المحاولات الأولى للخلفاء، لم تكن محاولات إيجاد وابتكار بقدر ما كانت عمليات تقليد للنقود البيزنطية أو الساسانية[2]. كما قد يكون المغزى من ورائها يعني رمزاً للسيطرة الإسلامية.

وما أن تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، حتى استطاع أن يحطّم الحركات المناهضة لسلطانه، ففي سنة ٧١ للهجرة تم مقتل مصعب بن الزبير، ذلك أن عبد الملك بن مروان سار في جنود هائلة من الشام بقصد محاربة مصعب بن الزبير[3]. وفي سنة ٧٣ للهجرة قضى الحجاج على حركة عبدالله بن الزبير.

---

(١) يرى «لافوا» (Lavoix) أن النقود المسكوكة قبل عهد الملك بن مروان والتي نقش عليها عبارات التوحيد وصلت إلى أيدي البيزنطيين. انظر:

H. Lavoix; op. cit. vol. 1. No. 1 - 55, P. 1 - 16.

(٢) عبد الرحمن فهمي (النقود العربية) ص ٣٤.

(٣) ابن كثير (البداية والنهاية) جـ٧، ص ٣١٤، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٦.

وهكذا أصبحت السيادة والسلطان لعبد الملك بن مروان، وفي سنة ٧٧ للهجرة كانت السلطة قد تركزت كاملة في يد عبد الملك وأصبح يسيطر على دولة عربية واحدة تضم مصر والشام والعراق وفارس.

وكان الخليفة الأموي يرى أن ضرب العملات العربية الإسلامية ضرورة لازمة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي القومي للدولة العربية[١]. خاصة بعد أن انتقلت الدولة من مرحلة الفوضى والاضطراب إلى مرحلة البناء والاستقرار. ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية أنشأ عبد الملك بن مروان داراً لضرب السكة[٢]. وفي رأي ابن خلدون أن سبب تعريب النقود إنما يعود إلى «تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك، وأمر عبد الملك الحجاج... بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين، ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين، وكتب عليها «الله أحد الله الصمد»[٣].

بينما تذكر أكثر المصادر العربية أمثال: البلاذري (فتوح البلدان) والبيهقي (المحاسن والمساوىء) وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) والدميري (كتاب الحيوان) والمقريزي (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وغيرهم أن سبب تعريب النقود ما نُقش من كتابات مسيحية على الطراز والقراطيس[٤]، المصنوعة في مصر والتي ترد إلى بلاد الروم، وقد ساعد على استمرار صناعتها وتصديرها، أن أكثر سكان مصر كانوا لا يزالون على دين المسيحية.

ويعلل البيهقي في (المحاسن والمساوىء) سبب تعريب النقود على النحو التالي:

«وكانت القراطيس للروم، وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين

---

(١) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٦٨٤.

(٢) E. Gibbon; The Decline and Fall of The Roman Empire P. 388 Vol. 5 (London 1911).

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٦١.

(٤) وهي ما يطرز من عبارات على الثياب أو الأ قمشة التي يتحلى بها خاصة القوم.

الملك، ملك الروم، وكانت تطرز بالرومية، وكان طرازها: «أباً وابناً وروحاً قدساً»، فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه، إلى أن ملك عبد الملك، فتنبه عليه، وكان فطناً، فبينا هو ذات يوم، إذ مرَّ به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أن يترجم بالعربية، ففعل ذلك، فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب ـ وهما يعملان في مصر ـ وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد، على سعته وكثرة ماله وأهله تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت بشرك مثبت عليها، فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان ـ وكان عامله على مصر ـ بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به، من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأخذ صنّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد، ﴿ شهد الله أنه لا إلَه إلّا هو﴾[1]. وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد، ولم يتغير»[2].

ويتضح لنا من خلال هذا النص أن النعرة الدينية أثرت على سلوك الخليفة عبد الملك بن مروان باستنكاره التثليث واعتقاده بالتوحيد، وكان ذلك سبباً وجيهاً من ضمن أسباب أخرى عجّلت بتنفيذ خطته القائمة على تعريب الدولة لتبقى ذات صلة بواقعها العربي ولغتها العربية.

ولكن مما لا ينبغي إغفاله في هذا المجال أن عبد العزيز بن مروان ـ عامل مصر من قبل أخيه ـ قام بدور هام في لفت نظر الخليفة عبد الملك بن مروان إلى مثل هذا الطراز، نظراً لوجوده في مصر، ومراقبة أحوالها عن كثب، وهو الذي أشار على أخيه عبد الملك بضرب الدراهم والدنانير فضربها في سنة ست وسبعين[3]. كما بدأت تظهر في الأقاليم نقود نحاسية

---

(١) الآية ١٨ من آل عمران. وذكر السيوطي في: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٨، بان عبد الملك أول من كتب في صدور الطوامير «قل هو الله أحد» وذكر النبي ﷺ مع التاريخ».

(٢) البيهقي (المحاسن والمساوىء) جـ ٢، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣، مطبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٦١.

(٣) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ ١، ص ١٧٦.

عليها عبارات «عبدالله ـ أمير المؤمنين) أو (خليفة الله ـ أمير المؤمنين)[1].

ومهما يكن من أمر فإن التجول من التثليث إلى التوحيد في القراطيس قد أخذ مجراه، ويمكن تسمية هذا التحول بحركة تعريب الطراز والقراطيس ومن هنا كتب عبد الملك بن مروان إلى عماله في سائر الآفاق يأمرهم بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من وُجد عنده بعد هذا النهي شيء منها، بالضرب الوجيع والحبس الطويل[2].

ولما وصلت القراطيس التي تحمل العبارات الإسلامية إلى بلاد الروم استشاط جستنيان الثاني غضباً، وأرسل جواباً إلى عبد الملك بن مروان مقروناً بهدية فاخرة، يطلب منه فيه العودة إلى طراز التثليث، الذي كان سائداً من قبل، قائلاً: «فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر من هاتين الخلتين أيتهما شئت وأحببت»[3].

ثم أضاف ملك الروم مهدداً: «وأنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه»[4]، «وإذا ما قرأته ارفض جبينك له عرقاً»[5].

ويلاحظ الدارس في هذا المجال الملاحظات التالية:

١ ـ رأى عبد الملك بن مروان بعد تعريبه للنقود، أن الخلفاء ممن سبقوه قد أخطأوا بالفعل، لعدم تنبههم إلى عبارات التثليث، أو السماح بتطريزها، وأنه أصاب حينما قام بتطريز عبارات التوحيد، ومن ثم تعريب النقود.

٢ ـ بالمقارنة مع عبارة عبد الملك بن مروان عن التثليث: «ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام». ومع عبارة جستنيان الثاني عن التوحيد: «إنكم

---

(١) H. Lavoix; op. cit. Vol. 1 No. 59-85.،

(٢) البيهقي (المحاسن والمساوىء) جـ ٢، ص ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٤) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٢٣٦، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٨.

(٥) البيهقي، المصدر السابق ص ٢٣٤.

أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه». يظهر بوضوح البون الشاسع بين التثليث والتوحيد، والاختلاف العقائدي الذي كان سبباً هاماً من أسباب النزاع كما سنرى فيما بعد.

لذا قرر عبد الملك بن مروان رد التحدي، متأثراً من أسلوب جستنيان الثاني المهين قائلاً: «لأني جنيت على رسول الله ﷺ من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر، ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب، إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم»[1].

وكان جستنيان الثاني قد حاول إغراء عبد الملك بن مروان حينما زاد قيمة الهدية ثلاث مرات على التوالي وكانت عظيمة القدر، ولكن المسألة ليست مسألة هدية بقدر ما هي مسألة تنفيذ لسياسة الدولة العليا. فاستشار عبد الملك فقهاء المدينة بالتدابير الواجب اتخاذها في هذا الصدد إلى أن نصحه روح بن زنباع بأخذ رأي رجل فاضل هو محمد بن علي بن الحسين الباقر[2]. الذي أشار عليه بضرب نقود إسلامية رداً على التحدي البيزنطي والاستغناء عن العملات البيزنطية مشيراً على عبد الملك بالإيعاز إلى صناع الضرب بسك الدراهم والدنانير، وأن يجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ، أحدهما في وجه الدراهم والدنانير، وأن يجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ، أحدهما في وجه الدراهم والدنانير، والآخر في الوجه الثاني، وأن يجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه، والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير[3]، بينما أشار البلاذري وابن تغري بردي والمقريزي والسيوطي، أن عبد الملك بن مروان استشار خالد بن يزيد بن معاوية، وهو الذي أشار عليه بضرب النقود، وعدم التعامل بالنقود البيزنطية، وقال له: «حرّم دنانيرهم، وأضرب للناس سككاً فيها ذكر الله وذكر رسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير، فضرب الدنانير

(١) البيهقي (المحاسن والمساوىء) جـ٢ ص ٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
(٣) البيهقي، المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

للناس سنة خمس وسبعين»[1]. ويـذكـر بأن خالد بن يزيد بن معاوية هو الذي قال للخليفة عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله في الدرهم، فعزم على ذلك، ووضع السكة الإسلامية..»[2]. وأشير على الخليفة أيضاً بوزن ثلاثين درهماً، والظاهر أن الدراهم كانت ثلاثة أوزان في تلك الفترة، عشرة دراهم منها عشرة مثاقيل، وعشرة منها ستة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل بحيث يصبح أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فيعمل صنفاً واحداً يوحّد بين الثلاثة أصناف من الدراهم بحيث يكون وزنه سبعة مثاقيل.

ومن ناحية ثانية لم يفت على عبد الملك الاهتمام بعملية أوزان هذه الدراهم والدنانير حتى لا يدخلها الغش، وذلك بصب سنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان[3]. ففعل عبد الملك ذلك، ثم أمر بالتعامل بالعملات الجديدة، وتهدد من يتعامل بغيرها، وأن تبطل جميع الدنـانير والدراهم المتداولة قبل هذا القرار حتى تعاد لتضرب من جديد على الطراز الإسلامي.

وبعد أن حقق الخليفة عبد الملك تعريب النقود عملياً قيل لملك الروم: «إفعل ما كنت تهددت به ملك العرب»، فقال: «إنما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه، لأني كنت قادراً عليه، والمال وغيره برسوم الروم، فأما الآن فلا أفعل، لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام، وامتنع من الذي قال، وتثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم»[4].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٣٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١ ص ١٧٧، المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٥٣ ـ ٥٤ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٨.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٥٤ ـ ٥٥، انظر أيضاً: المقريزي: كتاب النقود القديمة الإسلامية، ص ٣٥.

(٣) البيهقي (المحاسن والمساوىء) ص ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٣٦.

وهكذا استطاع عبد الملك بن مروان أن يطبِّق حقاً من حقوق الدولة الإسلامية العربية تظهر فيه شخصيتها المستقلة عن باقي الدول بحيث لا تظهر وكأنها مرتبطة اقتصادياً بتلك الدول سواء البيزنطية القائمة بعد أو الفارسية البائدة.

والواقع أن أشراف الدولة على ضرب نقود موحدة قد نجمت عنه فوائد جمة، إذ عملت الدولة على مراقبة ومحاربة الزيف والغش والتمييز بين الجيد والرديء، وأصبحت هذه العملة الإسلامية تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء[1]. ولما كانت النقود ترتبط بالمسائل الشرعية مثل الزكاة والصداق والدية، فإن عبد الملك بن مروان أخذ تلك المسألة في الاعتبار حين ضرب النقود فاتخذ النسبة القديمة المعروفة، والتي أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي أن كل سبعة دنانير تزن عشرة دراهم[2].

ومن ناحية ثانية فقد أمر عبد الملك بن مروان، الحجاج بن يوسف عامله على العراق التعامل بالنقود المعربة ومنع تداول النقود البيزنطية والفارسية والعمل على جمعها وسكها من جديد في دار الضرب.

وكان للحجاج دور هام في تحقيق خطة عبد الملك بن مروان في تعريب النقود، حتى أن بعض المصادر تبالغ فيما لعبه الحجاج في هذا المجال فتقرن حركة التعريب باسمه، فاليعقوبي، ذكر أنه في أيام عبد الملك نقشت الدراهم والدنانير بالعربية، وكان الذي فعل ذلك الحجاج بن يوسف[3].

وكانت أولى أعمال الحجاج جمع دراهم عبدالله بن الزبير وأخيه مصعب وقطري بن الفجاءة أحد زعماء الخوارج، وصهرها ثم أعاد ضربها من جديد. وكانت هذه النقود على ضرب الأكاسرة، ولكنها تحمل لفظة «بركة»، ولفظة

---

(١) ضياء الدين الريس (عبد الملك بن مروان) ص ٢٨٢، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٢.

(٢) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٩٢.

(٣) اليعقوبي (تاريخ اليعقوبي) المجلد ٢، ص ٢٨١، طبع دار صادر - دار بيروت ١٩٦٠.

«الله» فلما كان الحجاج غيرها[1]. وقال الحجاج: «ما نبقي من سنّة الفاسق أو المنافق شيئاً» ثم غيّرها[2].

ولما ضرب الحجاج العملات الإسلامية في العراق نقش عليها: «قل هو الله أحد». فكره الناس ذلك لمكانة القرآن، فإن الجنب والحائض يمسها[3]، ونهى أن يضرب أحد غيره، فضرب سُمير اليهودي فأخذه الحجاج ليقتله، فقال له: «عيار دراهمي أجود من عيار دراهمك فلمَ تقتلني؟ فلم يتركه، فوضع للناس سنج الأوزان ليتركه فلم يفعل، وكان الناس لا يعرفون الوزن بل يزنون بعضها ببعض، فلما وضع لهم سُمير السنج كفّ بعضهم عن [غبن] بعض»[4]. وكانت الدراهم السُميرية الخفاف والثقال ينقش عليها نقش فارس[5]، ولهذا السبب أمر الحجاج بجمعها وصهرها لتضرب من جديد عملة عربية إسلامية شأنها في ذلك شأن الدراهم الزبيرية ودراهم الخوارج.

أما التي ضربها الحجاج سنة ٧٥ هـ فقد سُميت بالدراهم المكروهة لأنه نقش عليها سورة التوحيد فكرهها العلماء واستكبروا ذلك، وعرفت أيضاً بالبغلية، وقد كتب عليها «بسم الله الحجاج». وقد تطورت هذه الدراهم في سنة ٧٦ للهجرة بحيث كتب عليها «الله أحد الله الصمد»[6]. وبلغ من اهتمام الحجاج أن اتخذ داراً لضرب النقود على غرار دور الضرب الفارسية، فاتخذ دار ضرب وجمع فيها الطباعين، فكان يضرب المال مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٥.

(٢) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٨٨.

(٣) انظر: المقريزي: كتاب: النقود القديمة الإسلامية، ص٤٢ - ٤٣.

(٤) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ١، ص١٧٧، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٣، المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٥٤.

(٥) البيهقي (المحاسن والمساوىء) جـ٢، ص ٢٣٦.

(٦) ضرب الحجاج نقوداً عليها عبارات (بسم الله - لا إله إلا الله - وحده - محمد رسول الله - الحجاج بن يوسف) انظر حول هذا الموضوع:

J. Walker; A Catalogue of The Arab - Sassanian coins. P.118, No 229.

لهم الأوراق[١]. وهي العملة المضروبة من فضة.

وقد استمرت ولاية الحجاج في العراق إلى أيام الوليد بن عبد الملك الذي نهج نهج والده في مجالات التعريب. واستمر الحجاج أيضاً في متابعة إصلاحاته الإدارية، وخاصة فيما يتعلق بنظام العملة والمكاييل والضرائب وفي تنمية الزراعة، وكانت إصلاحاته هذه فاتحة عهد جديد[٢]. وتضافرت جهود الولاة الأمويين في الاهتمام بالنواحي المالية، إذ جاء بعد الحجاج ولاة حكموا العراق أمثال: عمر بن هبيرة، وخالد بن عبدالله، ويوسف بن عمر، فاق اهتمامهم بالسكة اهتمام الحجاج، فكانت النقود الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية ولم يكن أبو جعفر المنصور يقبل في الخراج من بني أمية غيرها[٣].

ويعتبر هؤلاء الولاة أول من تشدد في أمر الوزن ونوعية النقود فقد جوّد عمر بن هبيرة وحسّن فيه، ثم أكثر في ذلك خالد بن عبدالله ولما تولى يوسف بن عمر أفرط في الشدة، وامتحن العيار يوماً فوجد درهماً ينقص حبة، فضرب كل صانع ألف سوط، وكانوا مائة صانع، في حبة مائة ألف سوط[٤]. هذا وقد استمر ضرب الدراهم المعربة بنصوصها طوال العهد الأموي، ولم يطرأ عليها تغيير في نظام ضربها[٥].

أما في مصر فلا شك في أن عبد العزيز بن مروان قد أخذ بإصلاح أخيه عبد الملك للسكة على غرار ما فعله سائر الأمراء في مختلف الولايات[٦]. لأن الخلفاء أجازوا للولاة في مصر بضرب سكة على نفس وزن طراز السكة السائدة في الدولة[٧].

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٦.

(٢) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٤٦، نشر لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٨.

(٣) البلاذري، المصدر السابق ص ٦٥٧ - ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ ١، ص ١٧٧، ابن كثير (البداية والنهاية) جـ ٩. ص ١٥.

(٤) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ ١، ص ١٧٧.

(٥) محمد باقر الحسيني (تطور النقود العربية) ص ٥٠.

(٦) سيدة كاشف (عبد العزيز بن مروان) ص ٩٣.

(٧) Description de L'Egypte, vol. XVI. P.279.

ومن المرجح أن عبد العزيز بن مروان، استعمل دار الضرب القديمة في الإسكندرية لسك النقود، بالإضافة إلى تأسيسه داراً أخرى في الفسطاط، وذلك لتلبية حاجة السوق الاقتصادية من السيولة النقدية، لأنه من المعروف أن مصر كانت من كبريات الأمصار الإسلامية بما تمثله من كثافة سكانية كبرى.

ونظراً لما كان للنقود من أهمية في الاقتصاد القومي للدولة العربية، فقد كانت إدارة الولايات في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز[1]. وفي مقدمة ذلك إصلاح نظام الخراج.

ومما يستدعي الوقوف عنده أن ظاهرة التزييف والغش في العملة ظاهرة قديمة، حدثت في العهد الأموي وقدّر لبعض النقود المزيفة الانتشار، وكانت تلك زيوف ضربها الأعاجم فغشوا فيها. إذ إن الفرس خبروا هذه الصناعة منذ القدم فعرفوا مواطن صناعتها وإمكانية استغلالها. والزيوف كانت على نوعين، إما أن يكون عيارها رديئاً أو أن تضرب من النحاس وتبطّن بالفضة الخالصة[2].

ويروى أن عبد الملك بن مروان أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ثم ترك ذلك وعاقبه[3]. وأن عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده فطرحه في النار[4]. وقد أجمع الأئمة والقضاة في تلك الفترة على بطلان الغش قائلين: «نكره قطع الدراهم إذا كان على الوفاء، وننهى عنه لأنه من الفساد»[5].

وقد علل ذلك الفقهاء أنه نتيجة لسوء الأخلاق والفساد وعدم الأمانة،

---

(١) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٦٣.
(٢) ناصر النقشبندي (الدرهم الإسلامي) جـ ١ ص ٧.
(٣) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٦٥٧.
(٥) البلاذري، المصدر السابق، ص ٦٥٨.

وقد عاتبوا الناس بقولهم: «وكان الناس وهم أهل كفر قد عرفوا موضع هذا الدرهم من الناس فجوّدوه وأخلصوه، فلما صار إليكم غششتموه وأفسدتموه»[1]. ولم يقتصر الأمر على الغشوش بل تهرّب الناس من الضرائب أيضاً[2]، لا سيما في مصر.

وهكذا يلاحظ أن النظام الاقتصادي والنقدي في الإسلام، وحركة تعريب النقود المرتبطة بهذا النظام تعتبر من الناحية العملية من ملامح الحضارة الإسلامية التي كان لها دور أساسي في الاستقلال الاقتصادي للدولة الإسلامية.

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٦٥٩.

(٢) Lammens; un Gouverneur Omaiyade, P.107.

# الفصل الخامس

# عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ

**تعريف التأريخ:**

إن التأريخ لأمة أو لشعب أو لمرحلة تاريخية أو لعلم من الأعلام، إنما يهدف إلى إظهار تطور الحركة التاريخية للأمم والشعوب، وإظهار تطور الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والعلمي أيضاً. وهو دراسة لمراحل النمو والانحطاط التي مرّت بها تلك الشعوب، وبمعنى آخر فإن أهداف التاريخ إنما تكمن في العمل لمعرفة ماضي البشرية بإيجابياتها وسلبياتها مع الحرص على إحياء الإيجابيات، والابتعاد عن السلبيات والاستفادة من التجارب السابقة على قاعدة «**الانتفاع من التاريخ**» مما يعزز أهمية التاريخ في ميدان بناء المواطن والوطن.

والتاريخ كما يقول ابن خلدون هو «فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في

سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. . .» وفي مكان آخر يقول في التاريخ «. . . إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى. . . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق. . .»[1] واعتبر بعض المؤرخين القدامى بأن التاريخ هو صنف من علوم الخبر بما يتضمن من أخبار متنوعة ومتعددة[2].

وبالرغم من تعدد نظريات ومذاهب الفكر التاريخي، فإنها تتفق جميعها على أن مهمة المؤرخ هي في الكشف عن ماضي الشعوب، والغور في خفايا تاريخها الشامل، وتتبع تطورها منذ ما قبل التاريخ. وعلى هذا يمكن القول إن من الواجبات الأولى للمؤرخ أن يكشف ويجمع حقائق ووثائق الماضي. وقد عرفت الإنسانية مؤرخين من مختلف الأمم والبلدان أرخ كل منهم بأسلوب خاص، وبمنهج فكري مختلف عن الآخر، مع التأكيد على أن بعض المؤرخين تأثروا بسواهم فأرخوا تاريخ بلادهم وشعوبهم أو بلاد سواهم على غرار ما عرفوه من أساليب تأريخية.

### مدلول التأريخ والتاريخ

إن لفظ التاريخ يدل على معان متفاوتة، فيعتبر البعض أن التأريخ يشتمل على المعلومات الطبية والعلمية والكونية. وهنا يكمن أن يسمى تاريخ العلم، والمؤرخون يطلق عليهم اسم مؤرخو العلوم. وبذلك يتبين بأن بعض المؤرخين القدامي يبدأون تدوين التاريخ بدراسة تاريخ الأرض والكون، بينما يرى البعض الآخر بأن معنى التاريخ هو ما يتعلق بدارسة التفاصيل التاريخية البحتة،

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤، ٩.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول هذه الآراء انظر: د. عزيز العظمة: الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، الفصل الأول، ص ١٢ ـ ٤٢. هذا ويمكن الاستفادة أيضاً من كتاب د. حسين مؤنس: «التاريخ والمؤرخون» في مجال دراسة علم التاريخ وبشكل موسع. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٤.

واستقصاء الأحداث الماضية دون الإشارة إلى بدايات تكوين البشرية. والواقع فإن اللبس ما يزال موجوداً إلى الآن بين المعنيين بكتابة التاريخ سواء في البلدان العربية أو في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

فلفظة (HISTOIRE) الفرنسية و (HISTORY) الإنكليزية تستخدم لمعنى التاريخ والتأريخ، لذلك يميل بعض المؤرخين الفرنسيين إلى استخدام لفظ (HISTOIRE) (H) للدلالة على ماضي وأحداث التاريخ و (h) (histoire) للدلالة على تاريخ العلوم بينما يميل أغلب المؤرخين إلى أن التاريخ هو بحث وسبر أغوار الماضي، والاطلاع على حقائقه وهذا ما تعنيه الكلمة اللاتينية (HISTORIA)[1].

أما صناعة التاريخ أو طرق ومناهج التأريخ فيعرف باسم (Methodology) وهو الذي أسماه د. أسد رستم (مصطلح التأريخ) تأثراً بعلم (مصطلح الحديث). ولا بد من الإشارة أيضاً بأنه يوجد تمييز وفرق بين التأريخ وبين التاريخ، فالتأريخ كأحداث وماض وتطورات وواقع وجد قبل التأريخ، بينما كان التأريخ حاجة ملحة استلزمتها التطورات التاريخية، واستلزمتها الحاجة لتسجيل تلك التطورات والأحداث حفظاً لها وخوفاً عليها من الضياع، وللاطلاع على الماضي أو الحاضر. ولا بد من الإشارة بأن التأريخ كان يعرف منذ نشأته الأولى في اليونان باسم تسجيل الأخبار (Logographi) ولم تكن كلمة التأريخ أي (H) (HISTORIA) قد استخدمت لأن أصل استخدامها إنما يعود إلى كلمة (Histor) أي المحقق التي تعني «المحقق القضائي» ولم تستخدم كلمة (Historia) إلا في فترة تقدم ورقي الكتابة التاريخية في أيام هيرودوت. أما التأريخ أو علم تدوين التاريخ فيعرف باسم ((Historio - Graphy(ic)). وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية هي في جذورها تحقيق وتثبت من الأحداث والروايات.

إن أصحاب المذاهب والمناهج التاريخية في العصور اليونانية والرومانية

---

(١) د. قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ١٣.

والإسلامية وفي العصور الحديثة اتبعوا وسائل وقواعد في كتابة التاريخ وبين هذه الوسائل ـ التي ما يزال بعضها مستخدماً ـ على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ المشاهدات العينية: وهي تعبر عن الأحداث المعاصرة للمؤرخ أو سماع الأخبار بالتواتر، وإجراء المقابلات الشخصية لبعض الأشخاص المعاصرين للحدث، وإجراء المراسلات مع المهتمين والدارسين والمتخصصين سواء في الداخل أو في الخارج.

٢ ـ جمع المواد التاريخية من المخطوطات والكتب المتوفرة.

٣ ـ تسخير العلوم الأخرى لعلم وفن التاريخ كأن نستغل الجغرافيا في كتابة تاريخ المدن والبلدان وكأن يستفاد من علم الأجناس الطبيعي أو الحضاري في التأريخ للبشرية.

٤ ـ الاعتماد على الرحلات وكتب الرحلات ودراسة الآثار والنقوش (الأبيغرافيا) والمستندات الموثوقة.

٥ ـ معرفة فقه اللغة وهو علم «الفيلولوجيا» (Philology) إذ لا بد للمؤرخ من معرفة وفهم النصوص التاريخية ولغة العصر الذي كتبت فيه. ويرتبط بهذا العلم علم الكتابات القديمة أو قراءة الخطوط حيث يتعرف المؤرخ إلى الخطوط الكتابية القديمة التي تبدو أحياناً غير مفهومة أو غير مقروءة.

٦ ـ الاعتماد على الوثائق (Documents) أو على الوثائق القنصلية والدبلوماسية (Diplomatic) وهي الوثائق والمراسلات والتقارير الأصلية الرسمية.

٧ ـ دراسة المذكرات الشخصية التي تركها القادة ورجال السياسة في التاريخ القديم والوسيط والحديث وبعضها يعرف باسم «سيرة ذاتية» (Auto - Biography)، وبالرغم من أن الميول الذاتية تسيطر عادة على المذكرات الشخصية، غير أنها تعطينا في بعض الأحيان معلومات فريدة وهامة، وفي كل الأحوال لا يمكن الاستغناء عنها في كتابة التاريخ، ذلك لأن بعض الترجمات الذاتية تعتبر مساهمة جادة في التاريخ.

٨ ـ دراسة النقود أو ما يسمى النوميات أو النميات (Numismatiques) (Numismatics) والأختام وبواسطتها يمكن تحديد الحقب التاريخية وتحديد حكم الأباطرة والملوك والسلاطين، وذلك اعتماداً على التواريخ والصور والأسماء المسجلة عليها.

٩ ـ دراسة وتحقيق سجلات ووثائق المحاكم الشرعية الإسلامية، ووثائق الكنائس والأديرة والأماكن الدينية الأخرى، لأن دراستها تعبر عن التاريخ الاجتماعي والسياسي والديني والحضاري بشكل عام.

١٠ ـ وضع الهوامش (Footnote) وذكر المصادر المعتمد عليها.

١١ ـ التعريف بالأشخاص والأماكن الواردة في المخطوط وتفسير ما غمض من عبارات وألفاظ.

١٢ ـ دارسة التراجم (Biography) والسير الذاتية (Autobiography) والمذكرات الشخصية (Memoirs).

١٣ ـ اعتماد أسلوب المقارنة بين أكثر من مصدر للوصول إلى الحقيقة المتوخاة.

١٤ ـ البحث عن أسباب الأحداث وربطها بالنتائج والابتعاد عن التفصيلات الواهية.

١٥ ـ نقد الأصول نقداً داخلياً وخارجياً أي من حيث الشكل والمضمون، من حيث المعلومات الواردة في النص ومن حيث الوثيقة ذاتها[١].

---

(١) تتم عملية النقد عادة بواسطة النقد الخارجي والنقد الداخلي. فالنقد الخارجي يتضمن الاهتمام بمعرفة الوثيقة ومؤلفها وتاريخ تدوينها ومكانه. ثم ما هي الموضوعات التي تناولتها الوثيقة، وما علاقتها بنسخة أخرى للوثيقة نفسها؟ إن الإجابات عن هذه التساؤلات والتحقق منها تقودنا إلى وضعية الوثيقة فيما إذا كانت صحيحة أم مزورة. أما النقد الداخلي فيتضمن بحثاً في مضمون نص الوثيقة لمعرفة منهجية كاتبها واتجاهه الاجتماعي والسياسي، والبحث فيما إذا كان الكاتب معاصر للحدث ومشاركاً فيه أم مراقباً ومدوناً فحسب؟ ثم دراسة منهجيته من خلال الأساليب والأدوات التي استخدمها في كتابة الوثيقة أو المصدر بشكل عام. ونقد الأصول يهتم أيضاً بدراسة التزييف =

## نشأة علم التاريخ عند العرب والمسلمين

نشأ علم التاريخ العربي والإسلامي نتيجة لاهتمامات العرب بتدوين الأخبار والأحداث السابقة لعصرهم والمعاصرة لهم، ولم تكن كتابة التاريخ عندهم في الفترات الأولى بالمعنى نفسه الذي ساد وعرف فيما بعد، فقد كان قبل الإسلام يتمثل بتدوين الأخبار السالفة، كما كان في بداية العهد الإسلامي

---

= والانتحال، وفيما إذا كان الأصل بخط المؤلف أم لا. وقد قسم د. حسن عثمان النقد الباطني إلى قسمين: النقد الباطني الإيجابي ويهدف إلى التحقق من معنى الألفاظ ومن قصد المؤلف بما كتبه، والعناية التامة بقراءة النص التاريخي ومحتوياته، وعدم تسخير النص لآراء واتجاهات المحقق. أما النقد الباطني السلبي، فعلى المحقق أن يعي حقيقة وهي أن المؤرخين يخطئون ويصيبون كسواهم. ومن الخطأ الاعتقاد بأن كل المعلومات الواردة في جميع الأصول صحيحة. فبعضها غير صحيح. من هنا أهمية النقد الباطني السلبي من حيث هو عملية ضرورية لتصفية الحقائق واستبعاد الزائف منها، ووضع الشك للوصول إلى الحقيقة التاريخية. ويجب التمييز بين تزوير وكذب المؤرخ وبين خطأ ارتكبه أو معلومة خدع بها.

انظر: د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ١١٧ ـ ١٤٥.

انظر أيضاً: د. أسد رستم: مصطلح الحديث، ص ١٢ ـ ٤١، د. حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص ١٤ ـ ١٥.

ومن الأهمية بمكان القول في معرض الحديث عن النقد. فالنقد التاريخي سواء للوثائق أو للمخطوطات أو للمقالات أو للدراسات التاريخية يجب أن يكون نقداً تاريخياً بناء، يهدف إلى تصحيح المسار في مجال التأريخ والتدوين، وهذا النقد يفيد عادة صاحب الدراسة لتصحيح أخطائه، ويفيد القراء والمهتمين بالتأريخ.

وهناك نوع آخر من النقد السلبي الهادف إلى التشهير بمؤرخ ما لأهداف خاصة وشخصية، وليس هدف هذا النقد ـ التشهير سوى المس بالمؤرخ بسبب اتجاهاته السياسية أو الفكرية وبسبب دوره الفكري الذي يقوم به في المجتمع، فتتكون فئة حاقدة عليه ليس لها أي دور في الميدان الفكري، فتبدأ بالكتابة ضده بأسلوب النقد السلبي وأحياناً بأسلوب التشهير المقيت. إن من واجبنا كمؤرخين الابتعاد عن أساليب النقد السلبي، لأنها بعيدة كل البعد عن الأهداف والقواعد العلمية، وبعيدة كل البعد عن قواعد التأريخ. ثم علينا تعميق المفاهيم العلمية والأخلاقية لترسيخ قواعد النقد الإيجابي العلمي.

مهتماً بتدوين أحاديث الرسول محمد ﷺ وأعماله، فإن كلمة التاريخ التي يمكن اعتبارها منذ القرن التاسع الميلادي تعبيراً فنياً خاصاً مرادفاً من حيث العموم لكلمة (History) أو (Histoire) إنما هي بالنسبة لعلم التاريخ العربي القديم كانت كلمة مختلفة تماماً إذ يبدو أن أصول كلمة تاريخ مستمدة من الكلمة السامية «يرخ» التي تعني القمر أو الشهر وهي في الأكادية «أرخو» وفي العبرية «يرخ» أو «ياريخ» بمعنى القمر، غير أن ذلك يعني أن كلمة تاريخ مشتقة من الأكادية أو العبرية أو الأثيوبية أو الآرامية أو السريانية ولكن من الثابت أن المناطق العربية الجنوبية اليمنية استخدمت لفظ «ورخ» و «توريخ» قديماً ومنها جاءت كلمة تاريخ ومؤرخ ومؤرخ، وعلى هذا فإن كلمة تاريخ لفظ عربي أصيل وإن استخدمت الشعوب القديمة لفظاً مماثلاً له. وتأريخ مصدر من أرخ بلغة قيس وهذا اللفظ شائع عند العرب أو «ورخ» بلغة تميم. ومنهم من زعم بأن لفظ تأريخ تعريف لكلمة «ماه روز» الفارسية ومعناها حساب الشهور والأيام أو التوقيت حسب القمر(١). غير أن استخدام كلمة تاريخ وردت في بردية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ هـ مما يشير إلى أن اللفظ كان متداولاً في تلك الفترة. وقد أكد «جب» (H. Gibb) في كتابه (علم التاريخ) من أن تأريخ لفظ عربي بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت، أي تحديد الوقت وتحديد الشهر(٢).

ومن جهة ثانية فقد حملت كلمة تاريخ في الفكر العربي الأول بعض المعاني المنهجية منها:

١ ـ تاريخ الأعلام والرجال.

٢ ـ عملية التدوين التأريخي أو التأريخ ووصف التطور وتحليله.

٣ ـ سير الزمن والأحداث والتطور التاريخي.

٤ ـ علم التأريخ والمعرفة به.

---

(١) انظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٦.

(٢) جب (كب) (H.Gibb): علم التاريخ، ص ٢٦ ـ ٢٧.

٥ ـ تحديد وقت الحادثة باليوم والشهر والسنة.

ولا بد من الإشارة إلى أن كلمة تاريخ بدأت في صدر الإسلام تعني التقويم والتوقيت ثم أصبحت تعني تسجيل الأحداث على أساس الزمن وتحمل اسم الأخبار، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل تباعاً في الكتابة التدوينية العربية لا سيما في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري. ومن الأهمية بمكان القول أن العرب قبل الإسلام اهتموا بالتأريخ للأحداث الهامة والوقائع المشهورة مثل عام الفيل، وبناء الكعبة، وكانت بعض الأحداث التاريخية تحفظ بواسطة النقوش أو بواسطة الرواية الشفوية ولا شك بأن الأحداث الكبرى الهامة كانت تستثير اهتماماً تلقائياً من قبل العرب.

ومن النقوش القديمة نقش عربي باق وهو نقش امرىء القيس الذي يرجع إلى عام ٣١٨ م وقد وضع لتخليد الأعمال التاريخية للأمير المتوفى كما وجد نقش تدمير خيبر عام ٥٧٧ م، فضلاً عن ذلك فإن الهمداني يشير في كتابه «الإكليل» الجزء الأول إلى: «ما أدخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها وإلى زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية» وأشار إلى أمثلة كثيرة تؤكد على وجود تسجيلات لدى بعض الملوك والقبائل والأسر وإن ثمة عادة مألوفة بذلك استمرت بعد الإسلام. ويشير «الدينوري في الأخبار الطوال» إلى وجود نسخة حلف بين اليمن وربيعة نقلها أحدهم عن حفيد آخر الحميريين مما يدل على وجود عملية تسجيل وحفظ الوثائق للأمور العامة. ومن المؤسف أن أكثر هذه المحفوظات والوثائق قد اندثرت. وكشفت البعثات العلمية في شبه الجزيرة العربية عن وجود المئات من النقوش لتاريخ العرب قبل الإسلام. ففي عام ١٨٤٣ م، كشف العالم الفرنسي «توما آرنو» عن (٥٦) نقشاً من نقوش اليمن وكان أثر ذلك فك رموز الخط العربي القديم الجنوبي الذي أطلق عليه في البداية الحروف الحميرية، وفي عام ١٨٧٠ م، اكتشف العالم الفرنسي «جوزف هاليفي» (٦٨٦) نقشاً في نجران وصنعاء، كما اكتشف العالم النمساوي «إدوار غلاذر» في اليمن بين ١٨٨٢ ـ ١٨٩٤ م ألفي (٢٠٠٠) نص. وكانت أهمية

اكتشاف هذه النصوص هي في الكشف عن تاريخ المنطقة والأحداث التي تضمنتها والأحداث التي أرخ لها أبناء شبه الجزيرة العربية.

وفي واحة الجوف وغيرها من المواقع الأثرية عثر على العديد من النقوش النبطية والثمودية واللحيانية والسبئية. ومن بين النقوش المكتشفة في اليمن نص وجد منقوشاً في وادي بيهان أو (قتبان) من عهد الملك (شهر ياجل يهرجب) ملك بيهان وكشف النص عن بعض تاريخ الآلهة، وتعدادها في المنطقة كما وجدت نقوش أخرى في وادي (ماسل) وسط شبه الجزيرة وهو نقش سبئي يعود تاريخه إلى ٥١٦ م ويفيد عن تاريخ حملة الملك (معد يكرب يعفر) ضد المنذر الثالث ملك الحيرة.

ويرى بعض العلماء والمؤرخين بأن أقدم نقش عربي هو نقش امرىء القيس، غير أن الدراسات الحديثة أثبتت حتى الآن بأن أقدم نقش عربي وجد في مصر يعود إلى عصر البطالسة ٣٠١ ـ ٣٠ ق.م. ومدون بالخط العربي القديم على تابوت التاجر المعيني «زيد إيل».

والحقيقة فإن أقدم المؤلفات التاريخية العربية كانت بمثابة مؤلفات أحداث قبل أن تكون تراجم، ومما يؤكد ذلك كتاب «عوانة بن الحكم الكوفي» المتوفى ١٤٧ هـ/ ٧٥٨ م المسمى كتاب التاريخ وهو يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري وهو أول كتاب على ما يبدو يحمل اسم هذا العلم في الإسلام ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م كتاب التاريخ بعنوان أخبار الخلفاء كما كتب الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م كتاب التاريخ على السنين. وبعد هذه المرحلة استقرت تسمية ولفظ تاريخ ثم انتشرت وبدأت العشرات من الكتب التي تخلط ما بين التراجم والأحداث بينما كانت بعض الكتب تظهر في السابق تحت عنوان الطبقات. ويرى السخاوي بأن التقويم الهجري أخذ أصلاً من اليمن ومما قاله: بأن أول من أرّخ التاريخ يعلي بن أمية حيث كان في اليمن وذلك أنه كتب إلى عمر كتاباً من اليمن مؤرخاً فاستحسنه عمر فشرع في التأريخ وروى ابن أبي خيثمة عن

طريق محمد بن سيرين قال:

«قدم رجل من اليمن فقال رأيت باليمن شيئاً يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر هذا حسن فأرخوا».

والحقيقة فإن القرآن الكريم كان حافزاً ومشجعاً للمسلمين على الاهتمام في التاريخ فقد ورد فيه الكثير من الأحداث تسجيلاً لتاريخ المجتمعات السابقة على الإسلام فأوردها أحياناً بشيء من التعميم وأحياناً بشيء من الاختصار أو التفصيل لأن الهدف من إيرادها هو العظة وإعطاء أمثلة على الشعوب والقبائل والأنبياء قبل الإسلام. ومن هنا حاول المسلمون أن يبحثوا عن تاريخ هذه الشعوب والقبائل والأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فإلى جانب ذكره لقبيلة قريش التي كانت موجودة في القرن السابع الميلادي، فقد أورد القرآن الكريم قبائل عاد وثمود فأراد المسلمون أن يتوسعوا في فهم هذه القبائل ومكان إقامتها وتاريخها فعادوا إلى المصادر العربية واليونانية واللاتينية فأخذوا منها بعض المعلومات التاريخية وأضافوا إليها معلوماتهم البدائية[١].

هذا ويعتبر أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام كان على عهد معاوية بن أبي سفيان في أواسط القرن الأول الهجري، ويذكر ابن النديم في الفهرست بأن أول تدوين في العصر الإسلامي عن أخبار الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام هو عند «عبيد بن شُريه» الذي أمره معاوية أن يدون أخبار العرب

(١) انظر د. لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، ص ١٢٦، ١٦٠ ـ ٧١، ٢١٦. دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨. انظر أيضاً دراسة للدكتور عمر فروخ حول العلاقة بين الإسلام والتاريخ تجيب على تساؤلات عديدة، وهي تحت عنوان «الإسلام والتاريخ» (الإسلام في نظره إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ)، كما يمكن الاطلاع على كتاب د. محمد رشاد خليل (المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره)، وفيه موضوعات عديدة حول المنهج والمصادر والشروط والتفسير المتعلقة بدراسة المنهج التاريخي الإسلامي. انظر أيضاً: د. عثمان موافي: (منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي) ود. فرانتز روزنثال: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي.

والعجم وقيل إنه ألف كتاباً لمعاوية اسمه كتاب ملوك وأخبار الماضي وهو يتضمن الكثير من أخبار العرب في الجاهلية، كما تضمن الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة وأخبار بني إسرائيل. ويغلب على هذا الكتاب أخبار الإسرائيليات المأخوذة عن أساطير العهد القديم.

أما «وهب بن منبه» فقد كان يمنياً من أصل فارسي وقيل إنه كان يهودياً وأسلم وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية، وقد ركز وهب اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية. ومن الكتب المنسوبة إليه «الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» وتمتاز كتابات عبيد ووهب بالطابع الأسطوري والخرافي وينسب إلى وهب كتاب «المبتدأ» الذي يتحدث فيه عن بدء الخليقة وقد اعتمد عليه ابن قتيبة في كتاب «المعارف» والطبري في كتاب «تاريخ الرسل والملوك» والمقدسي في كتابه «البدء والتاريخ» والثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» وكان وهب بن منبه يتقن عدداً من اللغات القديمة ومنها السريانية والحميرية واليونانية والعبرية، وقد أكد المسعودي في مروج الذهب (الجزء الثالث) على اتقان وهب للغات القديمة وحل الرموز من أيام سليمان بن داوود.

أما العوامل التي ساعدت على نمو وتطور التأريخ عند المسلمين فهي عديدة منها:

١ ـ الأحداث التي وردت في القرآن الكريم، وحض أو حث الرسول محمد ﷺ على العلم والتعلم والتدوين وينسب إليه قوله: «لا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها» كما أن الرسول نفسه كان مطلعاً ومفسراً لبعض الأحداث التاريخية التي وردت في القرآن الكريم.

ولقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد ذلك في تقدم التاريخ الإسلامي فيما بعد على حد قول «روزنثال» فضلاً عن أن أحاديثه الشريفة شجعت المسلمين على تسجيلها. وأقدم من كتب في السيرة «عروة بن

الزبير بن العوام» المتوفى عام ٩٣ هـ و «أبان بن عثمان بن عفان» المتوفى ١٠٥ هـ ووهب بن منبه المتوفى ١١٠ هـ.

٢ ـ رأى المسلمون أهمية ظهور الإسلام والتحولات السياسية والاجتماعية التي أوجدها في المجتمع العربي ومدى تأثيراته على الدول المجاورة مثال الدولة الفارسية والرومانية والحميرية، ولذا رأوا أهمية تدوين الأحداث الهامة التي أحدثها الإسلام ضد الأوضاع القديمة السائدة.

٣ ـ إن المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون والتفصيلات والملابسات التي أحاطت بها، كانت من جملة العوامل التي شجعت على كتابة ونمو التاريخ العربي والإسلامي، وكانت معارك بدر وأحد ومكة واليرموك والقادسية والجمل وصفين وسواها من المعارك عاملاً هاماً من عوامل اتجاه العرب والمسلمين نحو التدوين.

٤ ـ حاجة المسلمين إلى معرفة الأنظمة السياسية والاقتصادية والمالية والاجتماعية السابقة على أنظمتهم، فتحولوا إلى المصادر القديمة وإلى التدوين للتمييز بين الأنظمة السابقة والأنظمة الإسلامية، وللاستفادة من تلك الأنظمة التي يمكن أن يتوافق بعضها مع الدين الجديد.

٥ ـ أن وضع التقويم الهجري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أدخل عاملاً مساعداً على فكرة التأريخ عند المسلمين، وارتبطت منذ ذلك الوقت أحداث التاريخ الإسلامي الأول بالتقويم الهجري كأن يقال إن حدثاً ما وقع في عام كذا من الهجرة، أو قبل الهجرة، فأصبح التقويم الهجري فاصلاً تاريخياً بين مرحلتين على غرار التقويم الميلادي.

٦ ـ تشجيع الخلفاء والحكام في العهود الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية وسواها على التدوين التأريخي، وكثيراً ما طلب الحكام أنفسهم من المؤرخين أن يؤرخوا تاريخ خليفة أو حاكم أو عصر أو مرحلة من المراحل.

والحقيقة أن هناك عوامل عديدة أدت إلى تطور ونمو علم التاريخ العربي الإسلامي، غير أنه لا يمكن في هذا المجال حصرها جميعها، فإن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الهجري الأبواب الأساسية للتاريخ عند المسلمين والعرب وهي لا تعدوا أموراً أربعة:

١ ـ أخبار الماضين.

٢ ـ أحوال العرب قبل الإسلام.

٣ ـ السيرة.

٤ ـ أخبار الدولة الإسلامية.

ولا بد أن نشير في هذا المجال بأن المفكرين المسلمين والعرب اهتموا بعلم هام من علوم الفهرسة والتوثيق مرتبط إلى حد كبير بالدراسات التاريخية، ويكفي أن نعطي مثالاً لهذا النوع ابن أبي أصيبعة الذي فهرس للأطباء وكتبهم تحت عنوان «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» وابن النديم الذي ألف كتاباً اسماه «الفهرست» ضمنه فهارس بأسماء كتب التاريخ وكتب الأخبار والسير وكتب عن الرسول وسيرته وعن أخبار الخلفاء الراشدين والخلفاء عموماً وكتب عن تاريخ وأخبار بني أمية وعن العباسيين وعن فتوح البلدان وكتب عن البلدان والمسالك والأسواق والجغرافية وعن الإدارة والمالية والسياسة وآداب السلطان. كما تضمن الفهرست كتب التاريخ عن حياة الوزراء والكُتَّاب والولاة والقضاة والشرطة وكتب عن العرب والعجم والروم.

وللطوسي فهرست آخر يماثل فهرست ابن النديم. والجدير بالذكر أنه عندما نتحدث عن المؤرخين العرب والمسلمين وعن علم التاريخ العربي والإسلامي فإن ذلك لا يعني بأن المؤرخ العربي والإسلامي كان مؤرخاً فحسب بل كان أحياناً مؤرخاً وأديباً وعالماً وجغرافياً، وكثيرة هي الكتب الأدبية التي تضمنت معلومات تاريخية والعكس صحيح، وكثيرة هي الكتب التاريخية التي تضمنت معلومات جغرافية والعكس صحيح.

ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل القرن الرابع يلحظ الدارس زيادة جوهرية في المادة التاريخية وفي دقتها وتحري مصادرها. فقد استقرت دواوين الدولة العباسية لا سيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد. واستطاع المشتغلون بالتاريخ الاستفادة من هذه الدواوين في صناعتهم، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث، من مواثيق وعهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات وفترات ولاية كبار رجال الدولة من خلفاء ووزراء وقادة وعمال وقضاة وولاة ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزوات وسوى ذلك مما يدخل في نطاق التاريخ.

والحقيقة فإن كثرة المادة التاريخية وتوفرها شجعت المؤرخين على الغوص في فترات تاريخية متباعدة ومتعددة، ثم أخذ التاريخ بالنماء كعلم من أجلّ العلوم عند المسلمين وأعظمها شأناً، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم مكانتهم بل وخطرهم في الحياة العامة السياسية والأدبية والاجتماعية. وتضاءل مدلول لفظ «الإخباري» الذي قال فيه السمعاني (المتوفى عام ٥٦٢ هـ): «ويقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر الإخباري». وقد برز من بين مؤرخي القرن الثالث ابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٠ هـ) صاحب كتاب «المعارف» والبلاذري (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) صاحب «فتوح البلدان» و «أنساب الأشراف» واليعقوبي (المتوفى عام ٢٨٤ هـ) صاحب «التاريخ» والدينوري (المتوفى عام ٢٩٠ هـ) صاحب «الأخبار الطوال» وابن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ) صاحب «تاريخ الرسل والملوك».

وبلغ من أهمية تقدير المسلمين للتأريخ أن ألف بعض مفكريهم كتباً خاصة عن التاريخ وأهدافه ومراميه وفوائده. كما تصدى بعضهم للدفاع عنه، ومن بين هؤلاء السخاوي الذي ألف كتابٌ خاصاً تحت عنوان «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»[١]. ومن الأهمية بمكان القول إنه نتيجة لأهمية علم التاريخ عند

---

(١) انظر ما قاله السخاوي، المصدر السابق، ص٥٠.

العرب، فقد قام عدد من المستشرقين بدراسة هذا العلم لكشف الجوانب الخفية في مناهج الفكر التاريخي العربي والإسلامي، ومن بين هؤلاء»[1].

١ ـ فردناند وستنفيلد (F. Wuestenfeld) الذي أصدر بحثاً هاماً في مؤرخي العرب عام ١٨٨٢ جمع فيه حوالي ٥٩٠ اسماً من أسمائهم وضمنه مصنفاتهم ومؤلفاتهم في القرون العشرة الأولى بعد الهجرة.

٢ ـ مرجُليوث (D. Margolioth)، وقد نشر عدداً من الدراسات والمحاضرات التي كان قد ألقاها في جامعة كلكوتا بالهند عام ١٩٢٩ عن مؤرخي العرب في القرون الستة الأولى للهجرة.

٣ ـ بروكلمان (C. Brockelmann) وقد أصدر معجماً لجميع مصنفات العرب في العصور الإسلامية، وتضمن مجلدين نشرهما في برلين ١٨٩٨ ـ ١٩٠٢، ثم أضاف إليهما ثلاثة مجلدات نشرها بين ١٩٣٧ ـ ١٩٤٢.

٤ ـ فرانز روزنثال (Franz Rosenthal) وأصدر مصنفين هامين الأول تحت عنوان «علم التاريخ عند المسلمين» (A History of Muslim Historiography) وقد تولى تعريبه الدكتور صالح أحمد العلي من جامعة بغداد عام ١٩٦٣، والثاني بعنوان (The Technique and Approach of Muslim) وقد تولى تعريبه الدكتور أنيس فريحة من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٦٠ ووضع له عنواناً هو «مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي».

بالإضافة إلى هؤلاء هناك بعض المستشرقين الذين بحثوا أيضاً في مناهج ومصادر الفكر التاريخ العربي ومنهم هاملتون جب (H. Gib) وبارتولد (W. Barthold) وكلود كاهن (Claude Cahen) وجان سوفاجيه (Jean Sauvaget) وليفي بروڤنسال (Levi - Provençal) الذي تخصص في تاريخ المغرب والأندلس.

ولا بد من الإشارة إلى أن المؤرخين والمفكرين العرب المحدثين اهتموا بدورهم بالكتابة عن مناهج الفكر التاريخ العربي ومصادره، فصدرت دراسات

---

(١) انظر: د. عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٦ ـ ٧.

هامة لبعض المفكرين منهم:

١ ـ أحمد أمين الذي أصدر كتابيه ضحى الإسلام وظهر الإسلام في عام ١٩٣٨.

٢ ـ حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، القاهرة ١٩٤٣.

٣ ـ عبد الحميد العبادي الذي ترجم كتاب هرنشو «علم التاريخ» وأضاف إليه فصلاً من وضعه عام ١٩٣٧.

٤ ـ عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند المسلمين، بيروت ١٩٦٠.

٥ ـ د. سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٦٠.

٦ ـ د. عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ١٩٨١.

٧ ـ د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون جزءان بيروت.

٨ ـ عبدالله العروي: العرب والفكر التاريخي.

٩ ـ د. عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية.

١٠ ـ د. أسد رستم: مصطلح التاريخ.

١١ ـ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ.

١٢ ـ د. محمود زايد: دراسة التاريخ.

١٣ ـ د. عزيز العظمة: الكتاب التاريخية، والمعرفة التاريخية (مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي). وسوى ذلك من مؤلفات عديدة أخرى.

## العلاقة العلمية بين التأريخ ومصطلح الحديث

ونظراً لتعدد وكثرة المؤرخين المسلمين العرب وكثرة نتاجهم التاريخي والأدبي والعلمي فإنه يتعذر علينا أن ندرسهم جميعاً دراسة وافية، لأنهم يقدرون بعشرات المئات في مختلف المراحل. وكان العلماء العرب أول من ربط بين التاريخ والعلوم المساعدة الأخرى، وقد استطاعوا ربط العلوم بشكل علمي بارز، وسنحاول دراسة نموذج من عطاءات العرب في مجال ربط العلوم ببعضها البعض، فقد يظن البعض أن لا علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين مصطلح الحديث وبين التأريخ، علماً أن العلاقة بين العلمين علاقة مباشرة وهامة

لارتباطهما ولارتباط قواعدهما معاً. وقد أكد الدكتور أسد رستم من أن مناهج البحث التاريخي الحديث والمعاصر عند علماء الغرب، ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية. «فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية»(١).

اعتبر د. أسد رستم منذ عام ١٩٣٩ أن مصطلح الحديث النبوي هو القاعدة الأولى والأساسية التي بني عليها كتابه «مصطلح التاريخ» وقد اقتبس الاسم أيضاً. ورأى أن يسمى كتابه «مصطلح التاريخ» وليس «منهج التاريخ» اقتداء بما فعله العلماء المسلمين من قبل في إطار «مصطلح الحديث». وأشار إلى أن مخطوط رسالة القاضي عياض في علم المصطلح ـ التي كتبها ابن أخيه عام ٥٩٥ هـ ـ هي أنفس ما صنف في موضوعها، وقد سما بها القاضي عياض إلى أعلى درجات العلم والتدقيق في عصره. وأضاف د. رستم قائلاً: «والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها».

فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان «تحري الرواية والمجيء باللفظ» يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في كتب الفرنجة في أوروبا وأميركا «والواقع أن المتودولوجية الغربية التي تظهر اليوم (أي عام ١٩٣٩) لأول مرة بثوب عربي ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية. فالتأريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية. وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها علماء أوروبا فيما بعد في بناء علم المتودولوجية(٢). . .

من هذا المنطلق يمكن ربط علم مصطلح الحديث وقواعده بعلم التأريخ

---

(١) د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، ص زمن المقدمة.
(٢) د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، ص و ـ ز، منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٣٩، الطبعة الثالثة ١٩٥٥.

وقواعده. إضافة إلى أن المضامين الواردة في الأحاديث النبوية، يمكن أن نستثمرها في كتابة التاريخ تبعاً للموضوعات التي يتناولها الباحث. فالأحاديث الشريفة لايمكن توظيفها في الموضوعات الشرعية والفقهية فحسب، وإنما في مختلف الموضوعات التاريخية لا سيما الإسلامية منها.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه بالإمكان تسخير أساليب وقواعد مصطلح الحديث في دراسة وكتابة التأريخ[1]. فمصطلح الحديث يتضمن موضوعات عديدة منها: وسائل اكتساب العلم، الأخلاق والآداب في اكتساب العلم، طرق الأخذ والتحمل، طرق الأداء، أسلوب جمع الحديث والمعلومات، المكاتبة، نقد السند، الجرح والتعديل، حجب الثقة العلمية عن البعض، العوامل التي لا تقبل بها رواية الراوي، التصحيف والتحريف عند المحدثين واللغويين (وبالتالي عند المؤرخين)، نقد المتن وأساليبه، تتبع التزوير، الأحاديث الموضوعة وكيفية كشفها وسواها من موضوعات علمية أساسية ينبغي على الباحث عدم إهمالها لأنها أدوات علمية هامة تساعد المؤرخ على فهم ودراسة مختلف الأساليب العلمية للوصول إلى كتابة تاريخية صادقة وأمينة، زاخرة بالفهم العلمي والموضوعي. فعلم مصطلح الحديث يمكن أن نصنفه في أنه الأبجدية الأولى لعلم التأريخ.

ومن الأهمية بمكان القول، إن العلاقة القائمة بين مصطلح الحديث وعلم التأريخ، تظهر عندما اهتم المحدثون بنقد السند بخطوات أهمها: البحث عن مصدر الخبر. من الذي نقله؟ من أين سمع الراوي الخبر، وكيف نقل إليه؟ ولذلك اهتم المحدثون بالراوي اهتماماً كبيراً وظهر عندهم «تاريخ الرواة»

---

(١) للمزيد من التفصيلات الوافية حول أساليب وقواعد مصطلح الحديث والشروط المستتبعة لهذا الموضوع.

انظر: المراجع الحديثة التالية: د. صبحي الصالح. علوم مصطلح الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٥، د. شرف الدين علي الراجحي: مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٣.

و «علم الجرح والتعديل» وكلاهما يهتم بتاريخ وعلم الرجال اللذين هما أساس السند، كما اهتموا بالتحقيق من نسبة الخبر إلى قائله.

ولتأكيد الربط بين نقد السند ـ وهو من علوم مصطلح الحديث ـ وبين التأريخ، فقد روي عن إسماعيل بن عياش قال: «كنت بالعراق فأتاني أهل الحديث، فقالوا ههنا رجل يحدث عن خالد بن معدان. فقال: سنة ثلاث عشرة ومائة. فقلت: أنت تزعم أنك سمعت من خالد بن معدان بعد موته بسبع سنين. وقال إسماعيل: مات خالد سنة ست ومائة.

وروي أيضاً عن الحاكم أبي عبدالله قال: «لما قدم أبو جعفر محمد بن حاتم الكشي، وحدث عن عبد الله بن حميد سألته عن مولده، فذكر أنه ولد سنة ستين ومائتين. فقلت لأصحابنا: سمع هذا الشيخ من عبد الله بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة![1].

من هنا ندرك بأن دراسة ومعرفة تواريخ الأشخاص والأحداث ومقارنتها بتواريخ أخرى، تمكننا من معرفة الحقيقة من الكذب ومعرفة الحقيقة من التزوير. ولذلك كان سفيان الثوري يقول: «لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ».

وروي عن حفظ بن غياث أنه قال: «إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، بمعنى احسبوا سنه وسن من كتب عنه» وكان يزيد بن أبي حبيب المصري المتوفى ١٢٨ هـ أول من غرس دراسة الحديث في مصر، فدقق في روايته ونبه تلاميذه إلى تمحيص السند ومعرفة رواته[2]. وفي هذا الإطار يمكن أن نربط بين التأريخ وعلم الجرح والتعديل «وهو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث قبول رواياتهم أو ردها، وهو يعتبر من أجلّ علوم الحديث وأهمها». ولعلم الجرح والتعديل رواد وأئمة منهم: يحيى بن معين (المتوفى عام

---

(١) العراقي: التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٢) د. شرف الدين علي الراجحي: مصطلح الحديث، ص ١٠٥.

٢٢٣ هـ) إمام الجرح والتعديل في عصره، والإمام أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١ هـ) والإمام البخاري (المتوفى عام ٢٥٦ هـ) وابن أبي حاتم الرازي (المتوفى عام ٣٧٧ هـ)[١].

ومن إسهامات وعطاءات العرب الحضارية ربطهم بين الصدق والتأريخ فقد اهتموا ورأوا ضرورة توأمة الحديث والصدق، وتوأمة التأريخ والصدق، حتى أن الرسول محمد ﷺ قال: «في اللسان الدِّيَة»، ذلك أن من يكذب أو يقتطع من الرواية أو يزور فيها فإن عليه دية. وقد أجمع على ذلك أهل العلم، من أهل المدينة، وأهل الكوفة، وأهل الحديث، وأهل الرأي[٢] وقال أكثر أهل العلم، يكون على الراوي والمتحدث من الدية بمقدار ما ذهب من كلامه. وعليه دية أكبر إذا ذهب الكلام كله. وأفتى بذلك الأئمة: مجاهد، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي[٣].

والحقيقة فقد حض القرآن الكريم والنبي ﷺ، كما حض أئمة الإسلام وعلماء الحديث والأصول على وجوب التثبت من الحقيقة وفي التثبت من الأنباء والروايات والأحاديث[٤]. وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى في ضرورة التثبت من الأنباء في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ(*) أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾[٥] ويقول عز وجل في سورة الطلاق: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٦] وللنبي أحاديث عديدة منها: «من حدث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». كما أن الإمام الغزالي قسم الخبر إلى مايجب تصديقه، وإلى ما يجب تكذيبه، وإلى ما يجب التوقف

---

(١) د. شرف الدين علي الراجحي: المرجع السابق، ص ١١٣.
(٢) الإمام الحافظ النيسابوري: الإشراف على مذاهب أهل العلم، جـ ٢، ص ١٦٣.
(٣) الإمام الحافظ النيسابوري: المصدر نفسه، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٤) د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ١٣٨.
(*) وفي قراءة «فتثبتوا».
(٥) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٦) سورة الطلاق، الآية: ٢.

عنه[١]. ومن هنا ندرك كم أكد الإسلام على ضرورة التحري عن الصدق، وكان ذلك نبراساً وقاعدة أساسية للمؤرخين ولسواهم من العلماء المسلمين، حيث انتقلت هذه القاعدة إلى مختلف العلوم.

## عطاءات المسلمين في ميدان التاريخ

هنا دلالات ومحاولات جادة قام بها بعض العلماء المعاصرين والقدامى لإيجاد فهارس بيبلوغرافية تهتم بجمع التراث والقيم الثقافية التاريخية وغير التاريخية الإسلامية والعربية، وما تزال المحاولات الجادة قائمة إلى اليوم في إصدار فهارس للمخطوطات العربية عن معهد المخطوطات العربية في الكويت، ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة. كما تسهم بعض المجلات والدوريات العربية بتعريف القارىء العربي إلى أهم المخطوطات، منهامجلة «آفاق الثقافة والتراث» الصادرة عن مركز «جمعة الماجد» في دبي.

وفي هذا الإطار يمكن التعرف إلى بعض ملامح التراث الفكري والعلمي الإسلامي من خلال بعض الفهارس وفي مقدمتها «الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية»[٢].

ومن بين المؤلفات التاريخية والإسهامات الحضارية الإسلامية على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ ابن النديم: الفهرست.

٢ ـ البغدادي (إسماعيل باشا): ١) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون.

---

(١) انظر الإمام محمد أبو حامد الغزالي: المستصفى من علم الأصول، جـ ١، ص ١٤٠ ـ ١٤٤.

(٢) انظر: الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية ـ نشر بالتعاون بين منظمة اليونسكو ومركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ـ القاهرة ١٩٥٦ (صفحات مختارة من الدليل). ولقد تم مقارنة هذا الدليل البيبلوغرافي مع كتب الفهارس وكتب البيبلوغرافيا العديدة.

٢) هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.
٣ ـ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.
٤ ـ البلاذري: فتوح البلدان.
٥ ـ البيهقي: تاريخ البيهقي.
٦ ـ الدمشقي (أبو الفضل جعفر): كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة.
٧ ـ الدينوري: الأخبار الطوال.
٨ ـ مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.
٩ ـ الشيباني (محمد): الاكتساب في الرزق المستطاب.
١٠ ـ الصابيء (أبو الحسن): كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.
١١ ـ القرشي (يحيى بن آدم): كتاب الخراج.
١٢ ـ الماوردي (علي): الأحكام السلطانية والولايات الدينية.
١٣ ـ المسعودي (أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر.
١٤ ـ ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن): الكامل في التاريخ.
١٥ ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
١٦ ـ ابن الخطيب (لسان الدين): الإحاطة في أخبار غرناطة.
١٧ ـ ابن الفرات (ناصر الدين): تاريخ الدول والملوك.
١٨ ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق.
١٩ ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق.
٢٠ ـ ابن أياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.
٢١ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
٢٢ ـ ابن خلدون: المقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر).
٢٣ ـ ابن خلكان (أحمد): كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
٢٤ ـ ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.
٢٥ ـ ابن عبد الظاهر: ١) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.

٢) سيرة الظاهر بيبرس المعروفة بالروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

٢٦ ـ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب.

٢٧ ـ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.

٢٨ ـ أبو الفداء: كتاب المختصر في أخبار البشر.

٢٩ ـ أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

٣٠ ـ أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار.

٣١ ـ الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

٣٢ ـ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

٣٤ ـ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

٣٥ ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك.

٣٦ ـ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

٣٧ ـ الأنصاري (عمر الأوسي): تفريج الكروب في تدبير الحروب.

٣٨ ـ المسعودي (أبو الحسن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٣٩ ـ مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم.

٤٠ ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

٤١ ـ هلال الصابىء: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.

٤٢ ـ اليونيني البعلبكي: ذيل مرآة الزمان.

وللمؤلفات الجغرافية دور بارز في صناعة التاريخ لارتباطهما ببعض، ومن بين تلك المؤلفات الجغرافية على سبيل المثال:

١ ـ ابن الحائك: صفة جزيرة العرب.

٢ ـ ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية.

٣ ـ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان.

٤ ـ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

٥ ـ ابن حوقل: صورة الأرض.

٦ ـ ابن خرداذبة: المسالك والممالك (وفاته ٩١٢ م).
٧ ـ الأصطخري: المسالك والممالك (وفاته ٩٥٠ م).
٨ ـ ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار.
٩ ـ ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار.
١٠ ـ أبو الفداء: تقويم البلدان.
١١ ـ الإدريسي: نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
١٢ ـ البكري: مُعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
١٣ ـ الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.
١٤ ـ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه.
١٥ ـ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد.
١٦ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
١٧ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان.

هذاوقد تركت لنا الحروب الصليبية في بلاد الشام على صعيد المؤلفات التاريخية إسهامات علمية يمكن أن نلخصها فيما يلي:

فالحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد أنجب نخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين، ويمثل كل منهم وجهة نظره في تلك الحروب، وقد تركوا لنا تراثاً فكرياً هاماً وسجلاً حافلاً وملامح من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري[(١)]. فمن بين المؤرخين الإفرنج «فوشيه دوشارتر» (F. de chartres) صاحب كتاب (Histoir a Hierosolimitana) ووصف فيه تاريخ مملكة القدس إلى سنة ١١٥٧ م. وكذلك فقد ترك مؤرخ فرنسي تاريخاً عن الحروب الصليبية وهو يعرف باسم النورماندي. ومنهم أيضاً غليوم (وليم) الصوري، وله «تاريخ فيما وراء البحار»

---

(١) انظر: د. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، انظر أيضاً كتابنا: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٢١ ـ ٤٢٣.

(Historia Transmarina) وهو (٣٣) مجلداً، تناول فيه الأحداث إلى سنة ١١٨٣ م، وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته إلى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية. وبالإضافة إلى تاريخ الإفرنج في بلاد الشام، فقد ألف غليوم الصوري أيضاً كتاباً عن تاريخ «الأمراء المسلمين منذ ظهور النبي»:

(History of the Muslims Princes to the Appearance of the prophet)

وظهر من المؤرخين الإفرنج المعاصرين غليوم الطرابلسي الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية، كما ترك كتاباً في «حالة العرب» (Tractatus de Statu Sarracenorum) وذلك سنة ١٢٧٣ م، ويضم هذا الكتاب أيضاً بعض ما جاء في كتاب غليوم الصوري «الأمراء المسلمون منذ ظهور النبي». كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحملات الصليبية ومنها كتاب صدر باللغة اللاتينية وعنوانه: (Tinerarium Regis Ricardi) وقد ألفه رجل إنجليزي من لندن اسمه (Richard of the Holy Trinity)، كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسية القديمة «لأمبراوز» وعنوانها:

«تاريخ الحرب المقدسة» (L'Estoire de la guerre Sainte)، ووجد تقرير يمثل وجهة النظر الفرنسية، كان قد أعده «ريجور» وعنوانه (Gesta a philipe Angusti) وهناك مؤلفات ألمانية تصف حملة فريدريك بربروسة الصليبية منها ما كان تحت عنوان: (Expedition Frideric). والأمر الملاحظ أن بعض الجنود الصليبيين تركوا لنا مذكراتهم ويومياتهم عن الحروب الصليبية كانت لها أهمية كبرى في التأريخ للحملات الصليبية على غرار مذكرات الحملة الصليبية الرابعة.

أما الحملة الصليبية الخامسة، فقد أستفيد من رسائل الكاردينال: جيمس فيتري وتاريخ دمياط الذي ألفه «أوليفر بادينورن» الذي كان كتاباً للكاردينال بيلاجيوس. وهناك كتاب «تاريخ القديس لويس» لمؤلفه «يوحنا سير جوانفيل» (Jean Sire de Joinville) (وهو يهتم بحملة لويس القديس).

كما اعتبرت المراسلات والتقارير البابوية القائمة من البابوات وزعماء

الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة. أضف إلى ذلك بأن الحروب الصليبية خلفت أيضاً مجموعة من المؤلفات الدستورية المهتمة بالإجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوروبا. كما خلفت لنا تلك الحروب المراسلات السياسية والاقتصادية والمعاهدات السلمية بين السلاطين المسلمين وملوك وأمراء أوروبا.

ولا بد من الإشارة إلى وجود بعض المصادر الأرمنية التي اهتمت بالتأريخ للحروب الصليبية، ومنها كتاب الأمير الأرمني هايتون (هيثوم كوريكوس) الذي ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه إلى فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وهو المعروف باسم (Flor des Estoires de la terre d'orient). كما كتب ابن العبري باللغتين السريانية والعربية وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القرن الثالث عشر (١٢٦٦ ـ ١٢٨٦). ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية. ومن مؤرخي تلك الحقب: ابن بيبي الذي أرخ لسلاجقة الروم، وتاريخ رشيد الدين عن المغول.

كما أفرزت الحروب الصليبية عدداً من المؤرخين الشرقيين ومنهم على سبيل المثال: أسامة بن منقذ، ابن جبير، ابن الأثير، ابن شداد، ابن واصل، ابن الفرات، ابن العميد القبطي، ابن عساكر، أبو شامة، القلقشندي، محمد بن علي بن نظيف (صاحب التاريخ المنصوري)، والمقريزي وسواهم. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه الكتب الغربية والشرقية، وذلك في موسوعة علمية تحت عنوان «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

(Recueil des Historiens des croisades) Paris 1841 - 1960.

وهي تنقسم إلى مجموعتين:

ـ المجموعة الأولى: وتضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون في خمسة مجلدات وهي تحت عنوان (Historiens Orientaux).

ـ المجموعة الثانية: وتضم ما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أخرى وهي تحت عنوان[1] (Historiens Occidentaux).

وأخيراً فإن من يطلع على كتاب ابن النديم «الفهرست» يدرك كم كان العطاء الحضاري للعرب في ميدان التاريخ والعلوم الأخرى، فقد جمع لنا مجموعات عديدة متجانسة في الكتابة التاريخية منها على سبيل المثال:

ـ مجموعة كتب التاريخ.
ـ مجموعة كتب الأخبار والسير.
ـ مجموعة كتب عن الرسول وسيرته.
ـ مجموعة كتب عن الخلفاء الراشدين.
ـ مجموعة كتب عن الخلفاء عموماً.
ـ مجموعة كتب عن الأمويين.
ـ مجموعة كتب عن العباسيين.
ـ كتب عن الفتوح.
ـ كتب البلدان والمسالك.
ـ كتب عن المدن (مكة، بغداد، مصر، البصرة، أصفهان، المدينة، . . .).
ـ كتب السياسة وآداب السلطان.
ـ كتب عن الوزراء.
ـ كتب عن الكتاب.
ـ كتب عن الولاة، القضاة، الشرطة، المالية، الأنساب، عن العرب والعجم والروم.
ـ مجموعة كتب الطبقات.
ـ مجموعة تراجم أعلام.

---

(١) للمزيد من التفصيلات الوافية عن مؤرخي ومصادر ووثائق الحروب الصليبية انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٨٥ ـ ٢٠٤. انظر أيضاً: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٦٨ ـ ٧٦.

ـ الشعراء.

ـ المغنون والمغنيات.

ـ سوى ذلك من مؤلفات.

ويمكن أخيراً أن نلخص أو نجمل عطاءات العرب الحضارية في ميدان التاريخ فيما يلي:

أولاً ـ استيعاب التاريخ لمختلف العلوم وحفظها في إطار الدراسات التاريخية، مما شكل عبر التاريخ مؤلفات جديدة أدت إلى إثراء بقية العلوم، فبات في المكتبة العربية والمكتبة الأجنبية مؤلفات منها: تاريخ العلوم، تاريخ الأدب، تاريخ الموسيقى، تاريخ العمارة، تاريخ الطب، تاريخ الهندسة، تاريخ الفلسفة، تاريخ القوانين...

ثانياً ـ نشأت علوم ودراسات لم يكن مقدراً لها أن تنشأ وتنمو لولا الكم الهائل من المخطوطات والمؤلفات التاريخية، من بين تلك العلوم والدراسات والمؤلفات: مناهج الفكر والبحث التاريخي، علم الوثائق أو علم الشهادات الكتابية (Diplomatics)، وعلم المخطوطات وتقنيات الحفاظ عليها وترميمها، علم الرنوك (العلامات والشعارات على الأختام والدروع والأعلام والملابس) (Heraldry)، علم المنمنمات (Numismatics) وهو علم النقود والمسكوكات، البيبلوغرافيا والموسوعات المتخصصة، علم الاجتماع وعلم العمران، وهي من العلوم التي كان للعلامة ابن خلدون الفضل في اكتشافها والكتابة عنها، وتعميق المفهوم حولها، ومن ثم نقلها إلى أوروبا.

ثالثاً ـ فضل علم التاريخ في معرفة نشأة اللغة واللهجات العربية، وتطور الأدب والشعر العربي ومختلف العلوم عند العرب التي اقتبستها وترجمتها أوروبا في العصور الوسطى من خلال المعابر الحضارية الثلاثة: الأندلس، صقلية، الشام، وقد اعتمدت أوروبا لقرون عديدة على العلوم عند العرب، وما تزال تدين حتى اليوم للحضارة العربية والإسلامية.

رابعاً ـ ساهم علم التاريخ في نشأة المكتبة العربية والإسلامية والعالمية، كما ساهم في نشأة علم المكتبات والتصنيف والتوثيق والفهرسة. بالإضافة إلى إسهامه في نشأة المعاهد والكليات وأقسام التاريخ في مختلف الجامعات، وكشف الكثير من التزوير والأكاذيب والأضاليل.

خامساً ـ أدت الدراسات التاريخية إلى اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والرؤساء بها، مما دعاهم إلى تشجيع العلماء على الكتابة سواء في العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة. وتشهد الدول العربية في التاريخ المعاصر عدداً كبيراً من معاهد الدراسات التاريخية الهادفة إلى تنشيط الكتابة التاريخية والحفاظ على الذاكرة التاريخية لارتباطها بالانتماء الوطني.

سادساً ـ لولا الرغبة في كتابة التاريخ لما استنبط الخليفة عمر بن الخطاب التاريخ الهجري الذي جعله مفصلاً تاريخياً في تاريخ العرب والمسلمين، ولما استنبط الأوروبيون المنهج الإسلامي والعربي في كتابة الأحداث التاريخية.

سابعاً ـ كشف التاريخ وأسهم في معرفة نشوء الأديان السماوية والمعتقدات الوثنية، وتاريخ الإنسانية بشتى وجوهها. ويكفي فخراً أن المؤرخين المسلمين كانوا الرواد الأوائل في موضوع ربط التأريخ بالعلوم الأخرى، مما أسهم في توسيع دائرة المعارف الإنسانية.

ثامناً ـ الاطلاع من خلال الدراسات التاريخية على تاريخ نشأة المدن، وحياة القادة والرجال والأعلام في مختلف المراحل التاريخية ، والأنساب، وتاريخ القبائل والشعوب. كما كان لها الفضل في إنجاب نخبة من المؤرخين أمثال: ابن خلدون، الطبري، البلاذري، ابن عساكر، ابن أياس، المقريزي وغيرهم الكثير.

تاسعاً ـ اعتماد المعاهد والكليات العسكرية على المصنفات التاريخية لا سيما العسكرية، للاستفادة منها في مجال التجارب والعمليات العسكرية والحروب والمعارك، والاطلاع على تجارب القادة السابقين في مجال الدراسات العسكرية والإستراتيجية.

عاشراً ـ أثمرت المخطوطات والمؤلفات التاريخية ما يعرف باسم «القادة القدوة» بحيث باتت الشخصيات التاريخية قدوة للشبان المعاصرين، في السياسة والرباط والجهاد. فقد كان خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي قدوة للعديد من القادة والرؤساء في السياسة والوحدة والجهاد. وما يزال هؤلاء القادة قدوة للكثير من القادة الشبان المعاصرين. وكان الإمام الأوزاعي يمثل قدوة للكثير من علماء بيروت وبلاد الشام والأندلس.

حادي عشر ـ أسهم علم التاريخ في نمو حركة الجهاد والنضال في العالم العربي، اعتماداً على المعارك التي انتصر فيها العرب والمسلمون في مختلف مراحل تاريخهم. كما اعتمد التراث الشعبي المعاصر، بما فيه التراث الأدبي واغاني القومية على تاريخ الانتصارات العربية لتوظيفها في حركة الجهاد والنضال في التاريخ المعاصر.

ثاني عشر ـ من عطاءات علم التاريخ والدراسات التاريخية نمو الشعور القومي والديني والوحدوي، ونمو الشعور بالحرية والديموقراطية وذلك من خلال دراسة الثورات والانتفاضات السياسة المختلفة سواء في العالم العربي أو في العالم.

ثالث عشر ـ إن الذاكرة التاريخية تعلم الشعوب والأجيال الانتماء الوطني، فكلما كانت الذاكرة التاريخية ضعيفة، كلما كان الانتماء الوطني ضعيفاً. وكلما كانت الذاكرة التاريخية قوية ومسؤولة، كلما كان الانتماء الديني والوطني والقومي قوياً ومسؤولاً.

رابع عشر ـ إن الدراسات والوثائق التاريخية يمكن أن تسهم في إعادة الحقوق إلى أصحابها. فالكثير من القضايا السياسية والعسكرية اعتمد في بحثها في المحافل العربية والدولية على الوثائق التاريخية منها على سبيل المثال: قضية فلسطين، قضية طابا، قضية لبنان، الجولان، الكويت، حلايب وقضايا عديدة لا يمكن حصرها في هذا المجال. بالإضافة إلى أن القضاء والتحقيقات القضائية

تعتمد في كثير من وجوهها على الأحداث التاريخية، وما يرتبط بها من وثائق ووقائع تاريخية.

خامس عشر ـ تأسيساً على أهمية التاريخ وكشف الحقائق أو المواقف التاريخية فإن كثيراً من الساسة والقادة العسكريين والمفكرين تركوا لنا مذكراتهم التاريخية التي لا تمثل سيرهم الذاتية فحسب، بل تمثل تاريخ دولهم والمراحل السياسية والعسكرية والاجتماعية التي عاصروها، وقد تركوا لنا من خلال مؤلفاتهم الكثير من المعلومات والوثائق التاريخية التي يمكن الاستفادة منها. وهذه المذكرات تمثل مختلف المراحل التاريخية منها على سبيل المثال: سيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شداد، سيرة الظاهر بيبرس، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني وسواها.

سادس عشر ـ أسهمت الكتابة التاريخية في تشجيع الكثيرين في الحفاظ على وثائقهم ومخطوطاتهم، مما سمح للمراكز العربية الوثائقية من الاحتفاظ واختزان الملايين من الوثائق والمخطوطات المتنوعة...

وأخيراً لا بد من التأكيد أنه لا بد من إسهام التاريخ لدى القادة والزعماء والشعوب بما نسميه «نفعية التاريخ» لأن المعرفة التاريخية يمكن أن تنقذنا من الكثير من الأزمات السياسية والعسكرية والطائفية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، ومما يؤسف له أن الكثير حتى الآن لا يدرك أهمية الذاكرة التاريخية في بناء الشعوب واستقرار الدول، وأهميتها في تعميق الانتماء الوطني والاستفادة من الماضي لبناء الحاضر والمستقبل.

ولقد أشار المؤرخ «ديودورس» الصقلي في كتابه «المكتبة التاريخية» في عام ٣٠ ق.م. إلى أهمية التأريخ والمؤرخين بقوله: «من واجب الناس جميعاً أن يدينوا بالشكر العظيم لأولئك المؤرخين الذين وضعوا للبشر تاريخاً عاماً، لأنهم بمجهوداتهم الفردية قدموا خدمة كبرى للجنس البشري برمته. وكما أن العناية الإلهية ربطت بين الحركات المنتظمة للأفلاك وبين طبائع الناس برباط واحد عام، ووجهت الكل من الأزل إلى الطريق الذي يسير فيه، ومنحت الكل

ما قدر له أن يكون، كذلك المؤرخون فإنهم بتسجيلهم الشؤون العامة لسكان هذا العالم، كما لو كانوا أهل مدينة واحدة، قد جعلوا من كتاباتهم سجلاً واحداً لأحداث الماضي، ومرجعاً نهائياً تصفى فيه معرفتنا بهذه الأحداث. ولذا حق لنا القول بأن لمعرفتنا بالتاريخ أعظم نفع في كل شأن من شؤون الحياة، لأنها تزود الشبان بحكمة الشيوخ، وتمد الشيوخ بتجارب يضيفونها إلى تجاربهم، وتهيء المواطنين لمهام القيادة والزعامة، وتلهم الزعماء القيام بأنبل الأعمال لما يخلعه التاريخ عليهم من صفات المجد الخالد».

# الفصل السادس

## ملامح من الحضارة الفكرية والتراث العلمي عند المسلمين

منذ أن بُلِّغ الرسول الكريم محمد (ﷺ) بالدعوة الإسلامية، تبين بأن الله عز وجل كرّم العلم والمتعلمين، ولهذا فقد حض الإسلام على التعلم والتفقه والاستزادة العلمية. وكان مطلع أول سورة من سور القرآن الكريم ﴿اقرأ﴾ وفي السورة ذاتها وردت كلمة ﴿علّم﴾ ووردت أيضاً كلمة ﴿القلم﴾. وبذلك تكون السورة قد ركزت على القراءة والكتابة والعلم وهي القائلة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

ومنذ بداية الدعوة طلب الرسول الكريم من المسلمين تعلم القراءة والكتابة، كما طلب منهم تعلم اللغات الأجنبية كالفارسية والبيزنطية والعبرية وقال للمسلمين: «من تعلّم لغة قوم أمن شرهم». ومما يشير إلى اهتمام المسلمين بالعلم بأن الرسول (ﷺ) بعد معركة بدر اشترط على كل أسير من قريش ليطلق سراحه، أن يعلم عشرة مسلمين أصول الكتابة والقراءة[2]. ولقد حض الرسول والخلفاء الراشدين على تحصيل العلم،

(١) سورة العلق، الايات ١ ـ ٥.

(٢) انظر: د. عبدالله الخالدي: شذرات فى مادة النظم الإسلامية، ص ١١٧.

لفهم القرآن الكريم وتفسير ما غمض منه وتحليل الأحداث التاريخية الواردة فيه. ويستدل أيضاً من الأحاديث الشريفة مدى اهتمام النبي محمد (ﷺ) بالعلم والعلماء، ومن أحاديثه الشريفة:

- إن العلماء ورثة الأنبياء.
- يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة.
- من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة.
- إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد يدعو له.
- إنما بعثت معلماً.

ومن يطلع على طبيعة الأوقاف الإسلامية منذ نشأتها إلى مختلف العصور والحقب التاريخية، وفي مختلف المناطق الإسلامية، يدرك مدى اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء، فما من منطقة إسلامية إلا ويجد المرء فيها: أوقاف على العلماء، أوقاف على طلبة العلم، أوقاف على المكتبات، أوقاف على المدارس، أوقاف على القضاةوسواها من الأوقاف التي تدر أموالاً ومداخيل ثابتة تصرف على وجوه العلم والعلماء[1].

من جهة ثانية فإن الآيات القرآنية الكريمة أكثر من أن تحصى في مجال وصف العلماء وذكر فضلهم وتميزهم عن الجهلاء، والآيات التي تحض على العلم والتعلم ومنها على سبيل المثال:

- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].
- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[3].
- ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[4].

---

(١) انظر كتابنا: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني - سجلات المحكمة الشرعية في بيروت.

(٢) سورة الزمر، الآية ٩.

(٣) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٤) سورة المجادلة، الآية ١١.

هذا وقد عرفت الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الطويل الكثير من المدارس والزوايا ومساجد التعليم والجامعات والمدارس النظامية، منها على سبيل المثال الجامع الأزهر في القاهرة، وجامع القرويين في فاس والزيتونة في تونس، وقرطبة في الأندلس والمدارس النظامية في بغداد ودمشق والبصرة وأصفهان ونيسابور وهراة وسواها.

إن الحركة العلمية التي شهدتها مختلف المناطق والولايات الإسلامية جعلت هذه المناطق مزارات علمية يحج إليها طلاب من مختلف بقاع العالم ومن مختلف الأجناس. ومن الأهمية بمكان القول بأن العلماء المسلمين لم يتركوا علماً إلا وكتبوا فيه وأضافوا إليه وابتكروا الكثير في المجالات العلمية. ومن يطلع على كتب البيبلوغرافيا الخاصة بمؤلفات المسلمين يدرك المجالات العديدة التي كتب فيها العلماء المسلمون سواء في الطب، في الهندسة، في الرياضيات، في الفلك، في الكيمياء، في الفيزياء، في الطبيعة، في الموسيقى، في التاريخ، في الجغرافيا، في الفلسفة، في علم النفس، في علم الاجتماع، في الفقه، في الحديث، وفي كل ما يتصل بالتراث الفكري الإسلامي.

وهناك دلالات ومحاولات جادة قام بها بعض العلماء المعاصرين والقدامى لإيجاد فهارس بيبلوغرافية تهتم بجمع التراث والقيم الثقافية الإسلامية والعربية، ولا تزال المحاولات الجادة قائمة إلى اليوم في إصدار فهارس للمخطوطات العربية في معهد المخطوطات العربية في الكويت ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة.

وفي هذا الإطار يمكن التعرف إلى بعض ملامح التراث الفكري والعلمي الإسلامي من خلال بعض الفهارس وفي مقدمتها «الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية»[1].

---

(١) نقلا عن. الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية ـ نشر بالتعاون بين منظمة اليونسكو ومركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ـ القاهرة ١٩٥٦ (صفحات مختارة من الدليل).

= ولقد تم مقارنة هذا الدليل البيبلوغرافي مع كتب الفهارس وكتب البيبلوغرافيا العديدة التالية، والتي يمكن الاعتماد عليها أيضاً لفهم ودراسة التراث الفكري والعلمي الإسلامي من مختلف جوانبه. من هذه الكتب ـ الفهارس ما يلي:

ـ ابن النديم: الفهرست، مكتبة خياط ـ بيروت (طبعة مصورة بلا تاريخ).

ـ أبو بكر محمد الأموي الأشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه، بهمة الشيخ فرنسشكه قداره زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوه، مطبعة قومش سرقسطة ١٨٩٣م.

ـ إسماعيل باشا بن محمد البابائي البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي ـ طهران ١٣٧٨هـ (انظر أيضاً طبعة بغداد).

ـ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (مجلدان) مكتب المثنى ـ بغداد (بلا تاريخ).

ـ طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٣ أجزاء) مراجعة وتحقيق: كامل كامل بكري ـ عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٨.

ـ فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية (٩ أجزاء) مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٦ ـ ١٩٥٩.

ـ فهرس مكتبة صاحب السمو المغفور له الأمير إبراهيم حلمي، مكتبة الجامعة المصرية، مطبعة بول باربيه ١٩٣٦.

ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (التاريخ وملحقاته) وضع: يوسف العش، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

ـ فهرس الخزانة التيمورية (٤ أجزاء) دار الكتب المصرية ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠.

ـ فهرس الكتب بالمكتبة الأزهرية (٧ أجزاء) الطبعة الثانية ـ مطبعة الأزهر ١٩٥٢ ـ ١٩٦٢.

ـ فهرس المخطوطات العربية (المحفوظة في الخزانة العامة برباط الفتح المغرب الأقصى) جمع، ي. س. علوش، عبدالله الرجراجي، المكتبة الشرقية والأميركية ـ باريس ـ ماكس بيسون ـ شارع سان جرمان ١٩٥٤.

ـ فهرس المخطوطات المصورة، جامعة الدول العربية، وضع: فؤاد سيد معهد المخطوطات العربية ١٩٥٤ ـ ١٩٧٠.

ـ فهرس المخطوطات العربية (٣ أجزاء) وضع: فؤاد سيد، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٦١ ـ ١٩٦٣.

ـ فهرس المخطوطات العربية، وضع د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٩.

ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (دمشق) جمع محمد ناصر الدين الألباني، =

# المؤلفات الإسلامية العامة

ـ **إبن النديم**، محمد بن أسحق. **الفهرست**،لإبن النديم. مع مقدّمة شائقة عن حياة إبن النديم وفضل الفهرست، بقلم أساتذة الجامعة المصرية. مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ ٦، ٥٢٨، ٨ ص

«. . أضيفت إلى هذا الكتاب تكملة قيمة لم تنشر من قبل وكانت بين الذخائر المصونة في المكتبة التيمورية».

عاش المؤلف في القرن العاشر الميلادي واشتغل بالوراقة وتجارة الكتب، وأتيحت له الفرصة ليتصل بالعلماء والأدباء ورجال الفرق والمذاهب وعشاق الكتب وأصحاب المكتبات الخاصة، والقائمين على خزائن الكتب في المساجد والمدارس. وكان من أجل ذلك قادراً على تأليف

---

= ومجمع اللغة العربية ـ دمشق ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م (وهناك عدة فهارس أخرى من مخطوطات المكتبة الظاهرية).

ـ فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة فى بغداد وضع عبدالله الجبوري. مطبعة الإرشاد ـ بغداد ١٩٧٤.

ـ فهرس أقدم المخطوطات العربية فى مكتبات العالم، وضع: كوركيس عواد، وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ١٩٨٢.

ـ فهرس الخزانة العلمية الصبيحية (بِسَلا) وضع: د. محمد حجى، معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م.

ـ فهرس المخطوطات العربية، مكتبة الجامعة الأميركية فى بيروت، وضع. د. يوسف حوري ـ بيروت ـ ١٩٨٥ (مركز الدراسات العربيه ودراسات الشرق الأوسط ـ الجامعه الاميركيه فى بيروت).

ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة (منذ ظهور الطباعة إلى ١٣٣٩هـ) وضع: يوسف إلياس سركيس، مطبعة سركيس ـ مصر ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م.

ـ مجموعات مخطوطة في مكتبات استانبول، جمع: د. طه محسن، معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

ـ نوادر المخطوطات (٨ أجزاء) وضع: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

ـ نوادر المخطوطات العربية فى مكتبات تركيا، وضع: رمضان ششين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٥.

هذه الببليوغرافية الشاملة حيث يقول في المقدمة : «هذا فهرست كتب جميع الامم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم ، وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم ، وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ، ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا» . وقد نظم كتابة في عشر مقالات غطت الوان المعرفة والعلوم السائدة في عصره ومن أهمها : اللغات ، والخطوط ، والأديان والشرائع ، والنحو ، والتاريخ والسمر ، والشعر ، والتوحيد ، والتصوف ، والفقه ، والفلسفة والمنطق ، والكيمياء والصناعات .

وفي الحق أن إبن النديم يعدّ الرائد الأول للببليوغرافيات في التراث العربي والإسلامي ، وقد تتابع الببليوغرافيون من بعده يسجلون أسماء الكتب على اختلاف بينهم في مدى السعة الببلوغرافي وفي طريقة التنظيم ، وفي طبيعة المعلومات التي يقدمونها ، على أن بعضهم يضع لببليوغرافيته نفس العنوان الذي وضعه إبن النديم لكتابه مثل محمد بن الحسن الطوسي الذي عاش في الفترة (٩٩٥ - ١٠٦٧ م) وكان أحد ائمة الشيعة فقد ألفّ كتاباً باسم **الفهرست** جمع فيه تراجم ومؤلفات حوالي ٩٠٠ من رجال الشيعة وقد صحح هذا الكتاب وعلق عليه ونشرة في النجف بالعراق محمد صادق آل بحر العلوم سنة ١٩٣٧م في ١٩٦ صفحة ضمن سلسلة «نشريات المكتبة المرتضوية» رقم ٩٥ .

أمّا كتاب إبن النديم فمصدر أصيل بالنسبة للمؤلفين العرب ومؤلفاتهم حتى القرن العاشر الميلادي وكذلك بالنسبة لما ترجم من كتب الهند والفرس واليونان والسريان إلى اللغة العربية حتى ذلك الوقت . وقد عني بطبعه ثلاثة من المستشرقين هم «فلوجل» و «رودينجر» و «مللر» وقد الحقوا بالجزء الثاني كشافين باللغة العربية مرتبين ترتيباً هجائياً وكشافاً ثالثاً بالحروف اللاتينية . وقد تمت هذه الطبعة الأولى في ليبزج في مجلدين ١٨٧١ - ١٨٧٢م .

- البغدادي، إسماعيل (باشا) . **إيضاح المكنون في الذيل على**

**كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون**. استانبول، وكالة المعارف التركية، ١٩٤٥م ٢مج.

ولد المؤلف في مدينة سليمانية بالعراق، وتقلب في كثير من المناصب في الدولة العثمانية، وتوفي (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) في إحدى ضواحي استانبول بعد أن أحيل إلى المعاش من وظيفة مدير الشعبة الثانية من دائرة الضبطية بالمحافظة، وكان محباً للبحث، قضى حوالي ٣٥ عاماً في مجهود علمي متواصل يبحث عن الكتب ومؤلفيها، وترك لنا عملين هامين من أعمال الببليوغرافيا : أحدهما**هدية العارفين**، والثاني **إيضاح المكنون**، وقد جمع في هذا الأخير بعض ما فات حاجي خليفة في كتابه **كشف الظنون** كما أنه أراد به أيضاً أن يكمل عمل حاجي خليفة فجمع الكتب التي أُلّفت بعد تاريخ الإقفال لكشف الظنون في منتصف القرن السادس عشر الميلادي حتى أوائل القرن العشرين والكتاب يحوي حوالي ١٩٠٠٠ كتاب، وقد اتبع في تنظيمه وفي مادته نفس الطريقة التي اتبعها صاحب كشف الظنون، وهي الترتيب الهجائي الكامل حسب عناوين الكتب الواردة به.

وقد نشرت وكالة المعارف التركية هذا الذيل في مجلدين في استانبول سنة ١٩٤٥م. والجزء الأول يصل إلى نهاية حرف الزاى ويبتدىء الثاني من حرف السين إلى النهاية.

ـ **البغدادي**، إسماعيل (باشا). **هدية العارفين : أسماء المؤلفين وأثار المصنفين**. استانبول، طبع بعناية وكالة المعارف في مطبعتها، ١٩٥١ - ١٩٥٥ ٢ مج صفحة عنوان إضافية باللغة التركية في هجائية لاتينية.

ولد المؤلف في مدينة سليمانية بالعراق وشغل عدداً من المناصب في الدولة العثمانية وتوفي (١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م) في ضاحية من ضواحي استانبول، وكان في حياته محباً للبحث وأنفق سنين طويلة يبحث عن الكتب ومؤلفيها. وهذا الكتاب ليس إلا ثمرة من ثمرات نشاطه الببليوغرافي الدائب، جمع فيه أسماء المؤلفين بما فيهم الشعراء منذ صدر الإسلام حتى

القرن العشرين، ويذكر لكل مؤلف إسمه وإسم والده ونسبته وشهرته ولقبه، ووطنه، ومذهبه، وتاريخ وفاته، وآثاره، وقد اهتم بالمؤلفين الأتراك فكان يميّزهم بكلمة (رومي).

وقد رتبت أسماء المؤلفين في الكتاب ترتيباً هجائياً حسب الحرف الأول فقط، فلما نشرته وزارة المعارف التركية الحقت بكل جزء فهرساً (جدول أسامي) يرتب أسماء المؤلفين ترتيباً دقيقاً ويشير إلى الصفحة التي ورد فيها من المجلد، ويضم المجلد الأول أسماء حوالي ٥٤٠٠ مؤلف. وذكر لهم البغدادي حوالي ٢٥٠٠٠ كتاب في مختلف العلوم والفنون، وتبلغ نسبة الشعراء حوالي ٢٥٪ وينتهي المجلد الأول بإسماء المؤلفين إلى حرف اللام، ويبدأ المجلد الثاني بحرف الميم إلى الياء شاملاً أسماء حوالي ثلاثة آلاف كاتب.

ـ **حاجي خليفة**، مصطفى بن عبد الله. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. استانبول، وكالة المعارف، ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

عاش المؤلف في القرن السابع عشر الميلادي وتوفي في سنة ١٦٥٨م، وقد ولد بمدينة القسطنطينية ونشأ بها ودرس العلوم والفنون السائدة آنذاك من حساب وهندسة وهيئة وجغرافيا وطب، ومارس التدريس بعض الوقت، واهتم كغيره من الببليوغرافيين العرب والمسلمين بالكتب والمكتبات، وكانت القسطنطينية غنية بالمكتبات التي امتلأت خزائنها بالكتب العربية وغيرها من اللغات الإسلامية، فأتيحت له الفرصة لرؤية كنوزها عن كثب، ثم ارتحل إلى حلب حيث كان يعمل موظفاً في الجيش التركي، وهناك اطّلع على أمهات الكتب المحفوظة بمكتباتها.

وقد اطّلع على الأعمال الببليوغرافية السابقة مثل **الفهرست** لإبن النديم، **ومفتاح السعادة** لطاش كبرى زاده، واراد أن يضع حلقة جديدة في سلسلة الببليوغرافيات العربية الإسلامية تكون أوسعها وأشملها فألّف هذا الكتاب الذي نتحدث عنه بعد أن عمل فيه ما يقرب من عشرين عاماً وجمع فيه زهاء ١٥٠٠٠ من أسماء الكتب والرسائل، وما يزيد على ٩٥٠٠ من أسماء

المؤلفين ، وتكلم عن حوالي ٣٠٠ علم وفن .

وقد تحدث في مقدمات الكتاب عن تعريف العلم وتقسيمه ، وعن منشأ العلوم والكتب ، وعن المؤلفين والمؤلفات ، وعن بعض الفوائد المتصلة بالعلم والمعرفة ، وبعد المقدمات تأتي مادة الكتاب وقد رتبها هجائياً بحسب حروف الكلمة الأولى من عنوان الكتاب الذي يذكره ، فإذا كان للكتاب شروح أو حواش أو تعليقات فإنه يذكرها تالية له . فإذا لم يكن الكتاب عربياً فإنه يفيده بأنه تركي أو فارسي أو مترجم . كما أنه قد يروي ما قاله العلماء بصدد الكتاب من رد أو قبول . أما حديثه عن العلوم والفنون فإنه يتحدث عن كل علم أو فن في مكانه الهجائي بإسقاط كلمة علم .

وقد عني بتحقيق هذه الموسوعة البيليوغرافية ليثرن ، وأوفى الطبعات هي طبعة «ليبزج» من سنة ١٨٣٥ إلى ١٩٥٨ بتحقيق المستشرق الألماني «فلوجل» وقد ألحق بها كشافاً هجائياً لجميع المؤلفين الذين ورد ذكرهم . وقد طبع في بولاق ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧/ ١٨٥٨م وطبع من هذه الطبعة مرة ثانية في القسطنطينية ١٣١١ هـ الموافق ١٨٩٣/ ١٨٩٤م . وقد رأت وزارة المعارف التركية أن تعيد تحقيق هذا الكتاب فأصدرت الطبعة الجديدة في مجلدين كبيرين ١٩٤١ - ١٩٤٣ وهي من أحسن الطبعات .

- **دير سانت كاترين،** سيناء . «**فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء**»، لمراد كامل . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥١ ٢مج .

في رأس العنوان : وزارة المعارف العمومية . إدارة أحياء التراث العربي .

مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء في مصر . وتعتبر مكتبة فريدة في نوعها ، غنيّة بمقتنياتها المخطوطة كتباً ووثائق . وقد رأى الدكتور طه حسين حينما تولّى وزارة المعارف العمومية ١٩٥٠ ، إن الوزارة تحمل مسئولية أدبية أمام العالم نحو التراث المحفوظ بهذه المكتبة فأشار بإرسال بعثة لتصوير وتسجيل مقتنيات المكتبة . وأشرف على هذا العمل الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والكتاب الذي

نقدمه هنا هو الثمرة الحقيقية لإشارة الدكتور طه حسين ولعمل البعثة. وقد كتب الدكتور مراد كامل مقدمة هامة وصف فيها حالة المقتنيات التي وجدوها بالمكتبة وطبيعة العمل الذي قاموا به والطريقة التي ساروا عليها في الحصر والترقيم والتنظيم. ويضم الجزء الأول مجموعات اللغات الشرقية، وهي العربية والسريانية، والسريانية الفلسطينية، والحبشية، والفارسية، والقبطية، والوثائق العربية، والوثائق التركية. أمّا الجزء الثاني فيضمّ مجموعات اللغات الغربية، وهي اليونانية والجورجانية، والسلافونية، واللاتينية، والأرمنية، والبولونية.

ـ **طاش كبرى زاده**، أحمد بن مصطفى. **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**. حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٨ ـ ١٣٥٦هـ ٣مج.

عاش المؤلف في القرن السادس عشر الميلادي، واهتم بالمعرفة الإنسانية في حدودها الواسعة، وبحصر المؤلفات التي تتناول كل فرع من فروع المعرفة، واستطاع بعد العمل الشاق والجهد المتواصل أن يترك لنا هذه الببليوغرافية الضخمة. وقد بدأ كتابه بعدة مقدمات من أهمها تلك المقدمة التي يتحدث فيها عن طريقته في حصر المعرفة حيث يقول: «إن العلوم مع كثرة فنونها وتعدد شجونها منحصرة في أربعة أنواع وذلك أن للأشياء وجوداً في أربع مراتب في الأعيان، وفي الأذهان، وفي العبارات، وفي الكتابة. وقد استقرأت أنواع العلوم وتتبع أقسامها فوجدتها ١٥٠ علماً ولعلي سأزيد عليها إن شاء الله».

وقد نظم المؤلف كتابه على أساس هذه الموضوعات حيث يذكر الكتب المشهورة في كل فن ونبذه عن مؤلفيها. وقد اعتمد صاحب **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** فيما اعتمد عليه حين جمع ببليوغرافيته على **مفتاح السعادة**، فقد كان ينقده في بعض المواضيع، ويزيد عليه في البعض الآخر، وينقل كلامه بالحرف في أحيان كثيرة.

والببليوغرافية طبعت في الهند في ثلاثة أجزاء، الجزء الأول سنة

١٣٢٨هـ، والثاني سنة ١٣٢٩هـ، والثالث سنة ١٣٥٦هـ، وبآخر الجزء الثاني فهرس للجزء الأول، وآخر للجزء الثاني أطلق عليهما إسم «فهرس مضامين مفتاح السعادة»، وفهرس ثالث للجزأين مرتب ترتيباً هجائياً بدون اعتبار لكلمة (علم) التي تسبق الموضوعات المقسم إليها الكتاب، وسمى هذا الفهرس «فهرس علوم مفتاح السعادة مرتب على حروف التهجي». أمّا الجزء الثالث فلم يعمل له مثل هذا الكشاف الهجائي المفيد وليس به إلا فهرس الأبواب التي وردت به.

## المؤلفات الإسلامية في التاريخ والإجتماع والسياسة

- **البلاذري،** أحمد بن يحيى بن جابر، **«فتوح البلدان»،** القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م، ٣ ج.

يطلق على المؤلف أحياناً أبو الحسن وأحياناً أبو بكر. وقد ولد البلاذري في أواخر القرن الثاني للهجرة وتاريخ وفاته غير ثابت ولكن الأغلب أنه مات سنة ٢٧٩هـ في أول خلافة المعتضد. وقد نشأ البلاذري في بغداد وتقرب من المتوّكل والمستعين والمعتز، وعهد إليه الأخير بتثقيف إبنه. وللبلاذري عدة مؤلفات أخرى مثل: كتاب جمل نسب الإشراف وهو من أشهر كتبه، وكتاب عهد أردشير ترجمه عن الفارسية شعراً. ولا عجب فقد كان البلاذري شاعراً وكاتباً ومترجماً ينقل من الفارسية إلى العربية.

أمّا الكتاب الذي نعالجه فتوح البلدان الصغير ويوجد منه عدة طبعات غير التي بين أيدينا منها: طبعة ليدن سنة ١٨٦٦م/ ١٢٨٣هـ وملحق بها فهرس بأسماء الرجال والقبائل وآخر بأسماء الرواة والفقهاء، طبعة أخرى لليدن سنة ١٨٠٧م هناك طبعة ثالثة نشرت بعناية المستشرق دي غويه سنة ١٩٠١م.

وقد ذكر البلاذري في هذا الكتاب أخبار الفتوح الإسلامية من أيام الرسول محمد ﷺ إلى آخرها بلداً بلداً لم يفرط في شيء منها مع التحقيق اللازم القائم على بحث تتبعي دقيق. ويزيد من أهمية الكتاب أنه فضلاً عن الفتوح وأخبارها فأنه يضم بحوثاً عدة في انتشار العمران والحضارة، وشئون

السياسة من زوايا يندر العثور عليها في كتب التاريخ . وقد ناقش أحكام الخراج والعطاء وكلاهما من أهم النواحي الإقتصادية في التنظيم الإسلامي حيث إنهما يتعلقان بالوضع الضريبي في الدولة الإسلامية وسياسة الأجور بها ، وهي نواح لم يتناولها مباشرة إلا القليل من كتّاب المسلمين أمّا غالبيتهم فقد تناولوها أثناء استرسالهم في أبحاثهم التاريخية أو خلافها .

وقد عالج البلاذري في كتابه نواحي أخرى في غاية الأهمية منها أحوال الدواوين والخط العربي وأضاف فصلاً مهما عن النقود وساهم بذلك مساهمة فعالة في تزويدنا بالمعلومات القيمة عن النقود العربية وأصلها وبداية ضربها والتطورات التي حدثت لها خلال الفترة التي عاصرها المؤلف وما قبلها .

- **البيهقي**، أبو الفضل محمد بن حسين ، «**تاريخ البيهقي**»، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٦م ، ٨١٣ص .

ولد المؤلف سنة ٣٥٨هـ/ ٩٩٥م في قرية بيهق بجنوب شرق خراسان ، وعاش في مطلع حياته في نيسابور حيث تعلم علوم القرآن والحديث والآداب العربية . والتحق بالعمل في ديوان الرسائل وتتلمذ فيه على يد أبي نصر مشكان رئيس هذا الديوان أيام محمود الغزنوي . وقد ظل البيهقي يعمل في هذا الديوان حتى أصبح رئيساً له في عهد السلطان عبد الرشيد ولكنه ما لبث أن سجن بعد مؤامرة أدت إلى مقتل هذا السلطان . ولما أفرج عنه بعد قليل عكف في بيته على القراءة والتأليف إلى أن مات سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م .

والكتاب الذي نعالجه في هذا التعريف هو جزء من سفر كبير للبيهقي يشهد على سعة إطلاعه وعمق ثقافتة وتمكنه من اللغتين العربية والفارسية وهو لا يمس التاريخ فقط كما يخيّل إلى القارىء من عنوانه بل هو موسوعة كبيرة . وقد طبع هذا الكتاب في الهند لأول مرة سنة ١٨٦٢م ثم طبع في طهران سنة ١٨٨٧م وظهرت منه عدة طبعات بعد ذلك .

ويرى الباحث في كتاب البيهقي بياناً عن العادات والنظم التي كانت شائعة في العصر الغزنوي وهذا يسد ثغرة في المعلومات التي تدور حول هذا

العصر الذي خضعت فيه أجزاء كثيرة من بلاد الفرس للغزنويين في ظل الدولة العباسية. وقد تكلم المؤلف عن طرق الإحتفال بالأعياد الإسلامية والفارسية ووصف مجالس السلطان فيها بدقة بالغة وتكلم عن أنواع الأطعمة والملابس وغير ذلك. ومن الأعياد الفارسية التي وصفها عيد السذق وهو من أعيادهم القديمة التي كانوا يحتفلون بها. كذلك تكلم البيهقي عن نظام السخرة الذي كان موجوداً في ذلك العصر كما ناقش أيضاً بعض الأنظمة التي كانت متبعة في إدارة الدولة كنظام الإستخبارات وتكلم عن العاملين فيه.

وقد تكلم البيهقي أيضاً عن الحفلات الرسمية التي كانت تعقدها الدولة بمناسبة تكريم موظفيها أو منحهم الخلع والأوسمة. كما وصف بالتفصيل الألقاب التي شاعت في عصر الغزنويين ووصف العادات التي كانت متبعة في المجتمع فتكلم عن طرق العزاء وتقبله. وقد أورد لنا البيهقي طرق إعداد الموظفين الحكوميين وتلقيهم المعلومات الأولى عن وظيفتهم في الدواوين الحكومية التي سوف يعملون بها على هيئة تلمذة مهنية.

- **الدمشقي**، أبو الفضل جعفر بن علي، «**كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديئها وغشوش المدلسين فيها**»، القاهرة، مطبعة المؤيد، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ٧٦ص[1].

يعتبر الدمشقي من أفاضل الباحثين في القرن السادس الهجري وقد انتهى من كتابه هذا سنة ٥٧٠هـ بمدينة دمشق حيث عثر على النسخة الأولى منه خلال القرن الحالي. ثم عثر على نسخة ثانية في المكتبة الخديوية بالقاهرة والطبعة التي بين أيدينا تم تحقيقها بناءً على مطابقة النسختين المذكورتين.

ويدل هذا الكتاب على أن العرب في العهود الأولى للإسلام اهتموا بالنواحي التجارية والإقتصادية وبحثوا في أفضل الطرق المؤدية لإستثمار رؤوس الأموال. وقد تكلم المؤلف عن عدة موضوعات تتعلق بالتجارة فتحدث عن المال وفسّر معناه ولم يقصره على النقود بل جعله يشمل العقارات

(١) ظهرت طبعة حديثة للكتاب في بيروت عام ١٩٨٣، تحقيق وتقديم د. فهمي سعد، دار الف ب، للطباعة والنشر والتوزيع.

والأملاك. وتحدث أيضاً عن حاجة الإنسان إلى مختلف السلع لكي تسير حياته وما يتصل منها بالمأكل والملبس وأدوات الحماية والعقاقير والأدوية. وقد ذكر المؤلف طرق شرائها وتمييز الجيد منها والرديء.

وتكلم الدمشقي عن أنواع المواد التي كان يتاجر فيها في عصره وذكر منها الأحجار الكريمة (ياقوت، ماس، عقيق) وزهور وعطور (قرنفل، عود، كافور). وذكر أيضاً أنواع النباتات التي تستعمل في الأقمشة كالكتان والقطن. كما تحدث عن الصوف والأبسطة كل ذلك مع ذكر الأنواع والأصناف ومدى الجودة ولم يغفل الدمشقي عن ذكر المعادن المختلفة وطرق تخزين المواد الغذائية والتموينية حتى لا تفسد.

وقد تكلم المؤلف أيضاً عن العقارات والممتلكات والحيوانات المستأنسة كما تكلم عن طرق الحصول على الأموال بالطرق الشرعية وغيرها ثم انتقل إلى الحديث عن المهن والصنائع وعقد فصلاً تكلم فيه عن أنواع التجار والخزان وضمنه عدة وصايا لضمان سلامة التجارة والموازنة بين عملية الإنفاق والدخل.

والكتاب في مجموعه وثيقة مهمة من وثائق الفكر الاقتصادي والتجاري يعطينا صورة عن مدى تقدم العرب في هذا الميدان في العصور المبكرة على خلاف ما يعتقد البعض.

- **الدينوري**، أبو حنيفة أحمد بن داود. **«الأخبار الطوال»**. تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، مكتبة البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ٤٦٧ ص.

مؤلف هذا الكتاب هو العلاّمة المؤرخ أحمد بن داود بن حنيفة الدينوري الذي ولد في العقد الأول من القرن الثالث الهجري بمدينة دينور من أعمال إقليم الجبال من أسرة من أصل فارسي وتوفي على وجه التحديد في سنة ٢٨١هـ. وللدينوري عدة كتب أخرى من أهمها: تفسير القرآن في أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية، كتاب النبات الذي يعتبر موسوعة علمية في نباتات بلاد العرب وغير ذلك كتب أخرى في الهندسة والجبر والفلك بلغت

حوالي ٢١ مؤلفاً وكتاباً. وقد طبع كتاب الأخبار الطوال عدة طبعات منها تلك التي طبعت بمدينة ليدن سنة ١٨٨٨م وموجود منها نسخة بدار الكتب المصرية.

ويعتبر كتاب الأخبار الطوال من أهم المصادر التاريخية التي تناولت الحياة الإجتماعية والسياسية والحربية عند الفرس. وقد تكلم عن الأخبار عند الأمم والملوك منذ آدم عليه السلام إلى انتهاء ملك يزد جرد بن شهريار بن كسرى ابرويز من ملوك فارس. واورد خلال ذلك أخبار ملوك قحطان وملوك الروم والترك في كل عصر. كما عالج الأحداث المختلفة في الدولة العربية من بعد ظهور الإسلام إلى آخر عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله.

وينقسم كتاب الأخبار الطوال في عرضه لهذه المواضيع إلى ثلاثة أقسام: الأول يبدأ بتاريخ آدم إلى ملك تبع، ويحاول أن يربط في هذا بين تاريخ العجم وتاريخ الدول المجاورة أما الباب الثاني فعن تاريخ بلاد الفرس منذ فتوحات الإسكندر. وتعرض الباب الثالث لذكر حروب العرب والعجم وما يلي ذلك إلى آخر ما وصل إليه.

وقيمة الكتاب تتضح في أن مؤلفه قد حاول أن يوضح جذور الحضارة العربية وعلاقتها الوثيقة بالحضارة الفارسية وذلك عن طريق عرض واسع لجوانب هذه الحضارة الأخيرة. ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب أن مؤلفه عاصر بعضاً من حوادثه ودون تفاصيل ما رأى. كم أنه تخيّر من حياة الفرس وتاريخهم فترات زودنا فيها بحديثه عنها بمادة تصلح للبحث المستفيض بالنواحي الإجتماعية والسياسية.

ـ **مسكويه**، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. «**تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**» القاهرة، مطبعة الشرقي، ١٣١٧هـ ١٨٩٩م، ١٨٧ ص (من التراث العربي).

ولد المؤلف بالري في حولي عام ٣٣٠هـ وعاش حياته كلها في ظل دولة بني بويه التي كانت من الدويلات الكثيرة التي انقسمت إليها الدولة

الإسلامية وكانت تحكم الجزء الجنوبي من فارس. واشتغل مسكويه أميناً لمكتبة ابن العميد الذي كان وزيراً لركن الدولة. وقد اتخذه بهاء الدولة البويهي ناصحاً ومرشداً له مما دعا إلى علو شأنه. وقد توفي مسكويه عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) بعد أن ترك كثيراً من المؤلفات التي ما زال الجزء الأكبر منها مخطوطاً حتى اليوم. ومن أشهر وأنفس كتبه كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» وقد طبع عدة طبعات في مصر في أعوام ١٣١٧، ١٣٢٦، ١٣٧٣هـ كما طبع في بيروت عام ١٩٦١م.

وكتاب التهذيب مقسم إلى سبع مقالات عالج المؤلف فيها على التوالي النفس، مراتب القوى وشرفها، الفرق بين الخير والسعادة وأقسام الخير، ظهور السعادة في الأفعال الناشئة عن الفضائل، في الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض، علاج أمراض النفس، رد الصحة على النفس ومعالجة أمراضها. وكثير من هذه الأبواب مقسم إلى فصول أصغر.

وفي هذا الكتاب حاول مسكويه تقويم الأخلاق والسلوك على أساس دراسة علمية سليمة وفي المستوى الذي وصلت إليه العلوم آنذاك. فكتاب التهذيب يمثل العصر الذي وجد فيه أصدق تمثيل حيث كان تيار الترف شديداً عند طبقات الأمراء والخلفاء إلى جانب البؤس الشديد لكثير من الطبقات الأخرى. فيعرض مسكويه في كتابه الأمراض الأخلاقية الاجتماعية التي انتشرت في عصره من العجب والخيلاء عند بعض الأمراء والملوك والكراهية التي انتشرت والحسد والغيرة والمشاحنات لأن عصره كان عصر تنافس بين عناصر الدولة من ترك وفرس وعرب. هذا في الوقت الذي كان يعيش فيه العامة في حالة فقر وإلى جانب المشكلات النفسية والاجتماعية يعالج مسكويه قواعد علاقات الأفراد بعضهم ببعض في شتى دقائقها أو ما يسميه الغرب الآن قواعد «البروتوكول» وقواعد «الأتيكيت» أو اللياقة والاناقة.

فكتاب التهذيب بالرغم من المسحة الفلسفية التي تغلب على بعض مباحثه ينهج النهج العلمي الاجتماعي السليم في كثير من المواضع عندما يعالج مثلاً سلوك المجتمع وأنواع السعادات التي يبتغيها الناس والعلاقات

الاجتماعية التي أساسها المحبة ثم الأمراض النفسية والاجتماعية وهو في كل ذلك يصف الظواهر الموجودة بالفعل وبشكل موضوعي صرف ويستنتج منها النتائج وذلك هو النهج العلمي.

ـ الشيباني، محمد بن الحسن. «**الاكتساب في الرزق المستطاب**». القاهرة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٩٣٨م/ ١٣٥٧هـ، ٨٩ ص.

المؤلف هو أبو عبدالله محمد بن فرقد الشيباني. وكان مولده بواسط بالعراق سنة ١٣٢هـ. وقد نشأ الشيباني بعد ذلك بالكوفة مع والده وسمع العلم بها وعاشر أبي حنيفة ثم اتصل بالإمام مالك بعد موت أبي حنيفة. وكان الشيباني من أكبر منافسي أبي يوسف القاضي صاحب كتاب الخراج إذا إنهما كانا زملاء في الدراسة. وقد رحل الشيباني إلى الري وتولى قضاءها وتوفي بها سنة ١٨٩. وللشيباني مؤلفات كثيرة منها كتاب البيوع، وكتاب الإيجارات، وكتاب الصرف وقد عالج في كثير من مؤلفاته جوانب من الاقتصاد الإسلامي وحللها وشرحها.

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب العلمية القائمة على الدراسة والبحث وقد كتب كثيرون في هذا المجال الاقتصادي في فروعه المختلفة فرأينا ابن سلام يكتب عن الأموال أما الشيباني فقد كتب في المال وطرق تنميته. وقد تكلم المؤلف عن طرق السعي لطلب الرزق وتكلم عن أنواع العمل وطرق التكسب وحصرها في أربعة وهي: الإجارة والتجارة والزراعة والصناعة وقد حصر بذلك أهم الأعمال التي كانت موجودة في هذه الفترة المبكرة من فترات العصر الإسلامي. وهو لم يذكرها منفصلة وإنما قارنها ببعضها موضحاً ما بينها من تشابه وفروق وقد عالج أيضاً حدود الإسراف في المأكل والملبس وغير ذلك وتكلم عن التعاون المفروض بين قطاعات المجتمع ممثلة في إعانة الرجل أخاه وتعرض في هذا المجال للتطبيق العملي للصدقة في التشريع الإسلامي.

وقد عالج الشيباني موضوع الإدارة فتكلم عن جانب مهم من جوانبها

وهو الدواوين فشرح معنى الديوان وبعض أنواع الدواوين. ولم يهمل المؤلف النواحي الاجتماعية فتكلم عن بعض مظاهر الحياة من مأكل وملبس ومشرب وتحدث عن بعض عادات أهل عصره.

وقد اتبع الكاتب ما كان معهوداً من أهل عصره في تلك الفترة المبكرة من العصر الإسلامي فنلاحظ إن مادة كتابه مصبوغة بالصبغة الفقهية. إلا إن الباحث المدقق يستطيع أن يعثر بسهولة على أسس النظريات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي. ويتيح الشيباني بذلك الفرصة للباحثين لاجراء الدراسات المقارنة مع ما كان موجوداً من أوضاع اقتصادية في العصور الإسلامية المتأخرة.

**الصابىء**، أبو الحسن الهلال بن الحسين بن إبراهيم. «**كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**». بيروت، مطبعة اليسوعيين، ١٩٠٤، ٥١٦ ص.

المؤلف من رجالات الإدارة في العصر العباسي، ومن طائفة الكتاب على وجه التحديد. وهو حفيد أبي إسحق الصابىء صاحب الرسائل المشهورة. وقد ولد الهلال سنة ٣٥٩هـ وتوفي سنة ٤٤٨هـ. والطبعة التي عالجها الناشر صححها المستشرق الإنجليزي آمدروز ووضع لها مقدمة باللغة الإنجليزية وفهرساً لأسماء الرجال وآخر لأسماء الأماكن.

وقد ذكر المؤلف أن هذا الكتاب قصد به أن يكون ذيلاً لكتاب الوزراء لأبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري وهو الذي جمع فيه أخبار الوزراء. وقصد الصابىء من وراء تأليفه كتاب تحفة الأمراء أن يذكر أخبار الوزراء ويشرح أحوالهم إلى نهاية أيامهم. ومحور الكتاب ترتيب ولاية الوزراء لا ترتيب عهود الخلفاء والأمراء وقد جمع فيه أحوال وزراء الدولة العباسية ومن تولى مثل وظيفتهم بالعراق وفارس والري من كتّاب الدولة البويهية.

وقد عالج الصابىء موضوع الوزارة في هذا الكتاب معالجة

موضوعية توحي بالدراسة الدقيقة وتتيح الفرصة لإجراء المقارنات. فقد تكلم عن الوزارة في عهد آل الفرات وآل الجراح بإسهاب كبير وحدد معالم هذه الوظيفة المهمة التي ظهرت في العصر العباسي نظراً لاتساع مجال الإدارة بعد أن كانت قد اختفت منذ ظهر الإسلام. وخلال كلامه تعرض الصابيء لكافة التطورات التي حدثت في هذه الوظيفة وفي الوظائف الأخرى المتصلة بها في الدواوين. كما أبرز الصراع الذي كان موجوداً بين موظفي الدولة بشكل واضح وعرض سليم مما أدى إلى أن اعتمد عليه الاستاذ هارولد باون في كتابه الذي أطلق عليه «عصر علي بن عيسى الوزير» والذي نشرته جامعة كمبردج سنة ١٩٢٨م.

وقد زودنا هذا الكتاب بصورة شاملة ودقيقة للجهاز الإداري في الدولة العباسية وخاصة في عهد الخليفة المقتدر وأوضح علاقة هذا الجهاز بالشؤون المالية وأوضح تأثير كل من النواحي الإدارية والمالية على الأخرى وخاصة فيما يتعلق بمطالب الجند والنفقات الباهظة التي كانت تخصص لدفع عطاياهم مما أخلّ بالميزان الموجود بين الإيرادات والنفقات.

- **الغزالي**، أبو أحمد محمد بن أحمد، **«إحياء علوم الدين»**. القاهرة، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٥٦/ ١٣٥٧هـ، ٤ جـ.

ولد الغزالي ببلدة طوس بخراسان عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٨م وقد ولّي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وتنقل في كثير من البلاد الإسلامية، فرحل من بغداد إلى الحجاز وتوجه إلى الشام وأقام بدمشق مدة ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث عاش فيها نحو عشر سنين ألّف فيها منها كتاب «إحياء علوم الدين» وقد زار مصر وأقام بالإسكندرية حيناً من الزمن ورجع إلى بغداد ومنها إلى خراسان حيث ولّي مرة ثانية التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور ثم عاد إلى بلدته طوس حيث توفي بها عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م.

ويعتبر الغزالي من أعظم علماء وفلاسفة الدولة الإسلامية وله مؤلفات كثيرة منها: «تهافت الفلاسفة» و «مقاصد الفلاسفة» و «المنقذ من الضلال»... ولكن من أنفس كتبه كتاب «إحياء علوم الدين» وقد نشر

في عدة طبعات منها طبعة بولاق عام ١٨٥٣ .

ويشمل هذا السفر الضخم على تجربة حياة الغزالي في التعليم والفلسفة والدين ، وقد قام هذا الكتاب على الوحي والسنة ولا سيما تديّن المؤمن الفطري وشعور التقوى فيه لا الاستدلال الفلسفي اللاهوتي ، ويتعرض الغزالي فيه للفلسفة والتعليم وعلم النفس وعلم الكلام .

وينقسم كتاب الأحياء إلى أربعة أقسام رئيسيةهي : قسم العبادات فيذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها كل ما يحتاج العالم إلى معرفته من وجوه الإخلاص فيها وإقامتها على الأسس التي يحبها الله سبحانه ورسوله وقد صدر هذا القسم بكتاب العلم والقسم الثاني : قسم العادات ، يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ووقائعها . والقسم الثالث : للمهلكات وهي الأخلاق المذمومة التي ورد القرآن بتطهير القلب منها يعرّف بها ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها ، أمّا القسم الرابع والأخير : فللمنجيات يذكر فيه كل خلق محمود ويشرع الوسائل التي يكتسب والثمار التي يجنى من التخلف به . وقد رتب هذه الأقسام إلى كتب وانقسمت الكتب إلى أبواب والأبواب إلى فقرات .

وقد وضع الغزالي في كتابه نظاماً تربوياً معتمداً على أن التربية نتيجة حتمية للفلسفة ، فإن الفيلسوف يعمل على نشر مذهبه ومبادئه التي يدين بها ، وقد رسم الهدف التربوي وفق نظرته للحياة وما فيها من قيم أي وفقاً لفلسفته ثم وضع المنهج العلمي الذي رآه مقياساً لتحقيق هدفه وغرضه من التربية ، فصنف العلوم وقسمها وبين فوائدها للمتعلم ثم رتبها ونظمها حسب أهميتها وفائدتها ثم بيّن المبادىء التي يجب أن يسير عليها المعلم في أثناء تأديته لوظيفة التعليم والتهذيب .

وكان الغزالي في كتابه أيضاً عالماً سيكولوجيا ، فقد أدخل على دراسة النفس ووظائفها الشيء الكثير من التعديل وسلك سلوكاً جديداً يختلف عن سلوك من سبقه من العلماء فاهتم بالجانب العملي من الحياة النفسية وأخضع

علم النفس للقياس المنطقي، فكان بذلك باحثاً سيكولوجياً يستشف أغوار النفس الإنسانية على النحو الذي يفعله علم النفس الحديث حين يدرس الظواهر النفسية. واستطاع الغزالي أن يجمع عدداً كبيراً من الملاحظات المتعلقة بالنفس والتجارب الشخصية التي حصلت له وللآخرين، كما تعرض للعواطف والانفعالات وحللها تحليلاً عميقاً. وعنى الغزالي أيضاً بالسلوك الفردي والاجتماعي فكان عمله بحق بداية ومقدمة لأسس علم النفس الحديث.

ـ **القرشي**، يحيى بن آدم. **«كتاب الخراج»**. صححه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، ٢١٩ ص.

مؤلف الكتاب هو يحيى بن آدم بن سليمان القرشي الأموي أبو زكريا الأحول من علماء القرن الثاني الهجري. وكان أحد أعلام عصره في القراءات والرواية. وقد عاصر خلافة المنصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد والأمين والمأمون وتوفي سنة ٢٠٣هـ. وكان القرشي متفرغاً للعلم لم يشتغل بمنصب أو وظيفة من وظائف الدولة. وهناك طبعة أخرى لهذا الكتاب غير التي نعالجها في هذا التعريف، نشرها الدكتور جوينبول سنة ١٨٩٥م طبع ليدن وقد بذل محقق النسخة التي بين أيدينا جهداً ملحوظاً في تصحيح كثير من الملاحظات التي أوردها المستشرق جوينبول في النسخة التي ذكرناها.

وكتاب الخراج أربعة أقسام: الأول في الفيء والغنيمة وأرض الخراج وأرض العشر. والثاني في طرق قسم الفيء وشراء أرض أهل الذمة وإصلاح الأرض والمهملة وجواز تعشير الخمر أما الباب الثالث فيعالج تحديد قيمة الجزية وأنواع القطائع وإحياء الأرض الميتة والتحير والزكاة ويحدد المؤلف في الباب الرابع الأكيال والأوزان التي يتعامل بها في تحديد الخراج والزكاة وتحديد ميعاد جمع الخراج.

ويلاحظ أن المؤلف قد ربط بين نواحي الفقه النظرية والنواحي

التطبيقية. فيما يتعلق بالتقدير الشرعي للضريبة ومقدارها وطرق فرض ذلك وجمعها من الناس. كما أنه شرح جانباً هاماً من جوانب المعاملات الإسلامية فيما يتعلق بعلاقة الذميين بالدولة الإسلامية في حدود معتقداتهم وما يمتلكون من أرض ومتاع.

ولا شك أن هناك عدداً من الكتب التي ألّفت في موضوع الخراج ولكن كتاب القرشي لم يقتصر على ذكر أحكام الأرض والصدقة بل تعداها باستعراض تاريخي في بعض الأحيان للتجارة وأحوال الزراعة وأصول العلاقات بين الناس.

**ـ الماوردي**، علي بن محمد بن حبيب، **«الأحكام السلطانية والولايات الدينية»**. القاهرة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠.

المؤلف هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي. وقد كان من علماء القرن الرابع الهجري (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م) وقد كان فقيهاً شافعي المذهب، ولد بالبصرة وانتقل إلى بغداد، وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وقد وليّ القضاء في بلدان كثيرة، ثم عيّن أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي، وقد كانت له مكانة رفيعة عند الخلفاء في زمنه، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء لإزالة ما قد ينشأ بينهم من خلاف. وقد كان من العلماء الباحثين، وله مؤلفات كثيرة، منها: كتاب الأحكام السلطانية الذي نحن بصدد الكلام عليه، وكتاب أدب الدنيا والدين، وأعلام النبوة. وكلاهما مطبوع، والاقناع في الفقه الشافعي، والحاوي في الفقه أيضاً ونصيحة الملوك، وسياسة الملك، وتسهيل النظر في سياسة الحكومات. وهي مخطوطة. وغير ذلك. وقد أخذ العلم عن ابن عدي، ومحمد بن المعلى الأزدي، وأخذ عنه أبو بكر الخطيب، وأبو العز بن كاوش وغيرهما. وقد أقام ببغداد إلى أن مات بها في ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ عن ست وثمانين سنة.

وكتابه مزيج من السياسة والفقه والشرع والتاريخ.

وقد نحى المؤلف في هذا الكتاب منحى بيّن أنواع الولايات في الإسلام، فبين الخلافة والوزارة وبين الولاية العامة مطلقاً، وهي الإمامة للمؤمنين، ثم بين ما يصدر عن إمام المؤمنين من ولايات خاصة ينتظم بها أمر الرعية كولاية الوزارة، والإمارة على البلاد المختلفة، والإمارة على الجهاد، وولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية النقابة على ذوي الأنساب، وولاية إمامة الصلوات، والولاية على الحج، وولاية الصدقات، وولاية قسم الفيء والغنيمة، وولاية وضع الجزية والخراج، ثم حكم إحياء الموات، وأحكام الإقطاع، وأحكام الجرائم . . . . إلى غير ذلك. وقد قسم الكتاب إلى عشرين باباً في كل باب ما يتعلق بالأمر المعهود له هذا الباب من أحكام. وقد كان منهجه في كتابه هذا على النحو الآتي:

أ ـ كان يعقد الباب لنوع من الولاية، ثم يضع تحته فصولاً بحسب ما يتصل بهذا الباب من مباحث، فمثلاً عقد للإمامة العامة باباً بدأه بالكلام على وجوب إقامة الإمام ثم وجوب مبايعته، وبين رأي العلماء من حيث وجوبها بمقتضى العقل، أم بمقتضى الشرع، ثم عقد فصلاً آخر بيّن فيه وجوب تشاور أهل الحل والعقد فيمن ينطبق عليه شروط الإمامة، وضرورة تفضيل من هو أكثر فضلاً وأكمل شروطاً ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته، ثم يعرضون الإمامة على من اختاروه، فإن أجاب بايعوه، وبذا تنعقد له البيعة، ويلزم بها الناس كافة، فإذا دار الأمر بين اثنين استويا في الشروط ومؤهلات الإمامة اختلف العلماء فقال بعضهم يقرع بينهما، وقال بعض آخر لا يقرع بل يكون لأهل الحل والعقد اختيار أحدهما ومبايعته، ثم عقد فصلاً ثالثاً بيّن فيه حكم ما إذا عقدت البيعة لأمامين في بلدين مختلفين. . . . وهكذا يعدد الفصول بتعدد المباحث التي تدخل تحت الولاية التي عقد لها الباب.

ب ـ إذا تكلم في مبحث ذكر أقوال العلماء في حكمه وذكر دليل كل عالم، ولا سيما الشافعية والحنفية ثم ردّ ما يراه ضعيفاً، وأكثر ما كان ينصر رأي الشافعي.

جـ ـ إذا كان المبحث الذي يتكلم فيه ينقسم ألى أقسام بيّن أقسامه في أول الكلام في هذا المبحث ، ثم ذكر ما قد يتعلق بكل قسم من الأحكام ، فإذا كانت أحكام قسم منها تدخل في أحكام الآخر بينّ ذلك ، وذكر أقسام هذه الأحكام ، ثم تكلم عن قسم منها بالتفصيل ، ويمثل لك ذلك ما ذكره في تقليد الولاية على الجهاد والإمارة فيه ، فإنه يقول : «والإمارة على الجهاد مختصة بقتال المشركين ، وهي على ضربين : أحدهما أن تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة ، والضرب الثاني أن يفوّض إلى الأمير فيها جميع أحكامها من قسم الغنائم وعقد الصلح فيعتبر فيها شروط الإمارة العامة (وكان قد تكلم عن شروط الإمارة العامة والخاصة قبل ذلك عند الكلام على تقليد الإمارة على البلاد) . . . . ثم قال : وحكمها إذا خصت داخل في حكمها إذا عمّت ، فاقتصرنا عليها إيجازاً ثم قسم الأحكام التي تتعلق بإمارة الجهاد العامة إلى ستة أقسام : تسيير الجيش ، وتدبير حرب المشركين على اختلاف حالهم ، إذ منهم من بلغته دعوة الإسلام ، ومنهم من لم تبلغه . والسياسة التي يتبعها أمير الجيش مع جيشه . وما يلزم المجاهدين من حقوق الجهاد ، ومصابرة أمير الجيش قتال العدو وأن طالت به مدة المصابرة ولا يولى عنه ، والسيرة في منازلة العدو وقتاله . ثم ذكر الأحكام التي تتعلق بكل قسم واستشهد لها من الكتاب والسنة وأعمال الصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدين .

د ـ كان إذا ذكر حكماً لشيء يتعلق به حدث تاريخي تكلم عن هذا الشيء من الناحية التاريخية وأفاض ، وإنك لتجد هذا ماثلاً حينما تكلم في الباب الرابع عشر عما تختلف أحكامه من البلاد ، فذكر إن مكة عظمت لما فيها من بيت الله الحرام الذي جعل فرضاً حج الناس إليه ، وهنا تكلم عن تاريخ بناء الكعبة والأدوار التي مرت بها .

أما من حيث مادة الكتاب فإنها ترجع في أصولها وأحكامها إلى الكتاب والسنّة وأعمال الصحابة في الموضوعات التي انتظمها ، وهي غزيرة في مباحثها ، جامعة لشتات ما يتعلق بها مما كان مبثوثاً في مؤلفات مختلفة الموضوعات .

وأمّا قيمته العلمية في محيطه فحسبه أنه جمع ما يتعلق بالسياسة الشرعية لإدارة الدولة ونظمها الإسلامية ، وربما كان هذا الكتاب أول كتاب جمع شتات هذا الموضوع ، وقد جاء الإمام السيوطي بعده فألّف كتابه الأحكام السلطانية أيضاً ، وهو مطبوع نشرته المكتبة التي نشرت كتاب الماوردي ، وهو وإن كان أكبر منه حجماً إلا أنه لا يغني عنه ، فجدير بكل من يريد التعرف على إن الإسلام قد وضع الأسس المتينة لسياسة الدولة أن يقرأ كتاب الماوردي هذا .

وقد طبع الكتاب سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٦م لناشره السيد أمين الخانجي .

**المسعودي،** أبو الحسن علي بن الحسين ، «**مروج الذهب ومعادن الجوهر**» . القاهرة ، المطبعة الأزهرية ، ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م ، ٢جـ.

يعرف المؤلف بالمسعودي الشافعي عاش في آخر القرن الثالث وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري ومات على وجه التحديد سنة ٣٤٦هـ. وهو من أهل بغداد وقد أقام بمصر فترة من الزمن . وله تصانيف كثيرة غير الكتاب الذي نعالجه في هذا التعريف من أهمها : كتاب أخبار الزمان ، كتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، كتاب أخبار الأمم من العرب والعجم وكتاب المقالات في أصول الديانات وغير ذلك كثير.

وكتاب مروج الذهب له أكثر من نسخة مطبوعة ومخطوطة . وهو يعالج شتى الموضوعات فهو يتكلم عن هيئة الأرض ، ومدنها ، عجائبها بحارها وأنهارها ، جزائر البحار ، البحيرات كما تكلم عن الممالك القديمة والدول الغابرة . وتكلم كذلك عن الأنبياء والرسل وأحوال العرب في الجاهلية وشئون الدول الإسلامية (الأموية ، العباسية) حتى عهد الخليفة المطيع العباسي . وقد شمل هذا الكتاب عدداً كبيراً من الأبواب ضمت النواحي التي تكلمنا عنها وقدم المؤلف في أوله عرضاً لمحتوياته .

وقد عالج هذا الكتاب الأحوال الإجتماعية والنظم الإدارية والمالية التي كانت موجودة عند العرب في الجاهلية والإسلام . واهتم بتصوير الحياة

الإجتماعية تصويراً وافياً عن طريق سرد القصص والأشعار التي يستطيع القارىء أن يستشف منها روح العصر وطابع الفترة التي يتكلم عنها ويطل منها على أحوال الناس في تلك الفترة.

كذلك تكلم المسعودي عن أحوال الزراعة وأسعار المحصولات وتصرفات الوزراء والحكام الإدارية والمالية مما يساعد القارىء على تكوين فكرة عامة عن أحوال الناس المعيشية من جهة وعن تطور الأحوال الإقتصادية والإدارية من جهة أخرى.

وتكلم المسعودي أيضاً عن تصرفات الخلفاء الشخصية في مجال السمر وفي معاملاتهم مع الناس، ويتحدث عن أحوال الغناء والمغنين والرق وطرق التجارة، واستعراض تطوّرات الأمور في هذه النواحي وما طرأ على الإدارة وعلى النواحي الإجتماعية من خلل أو انتظام.

- **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. «**نهاية الأرب في فنون الأدب**». القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م - ١٩٣١م، ١١ج.

إسم المؤلف بالكامل هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري النويري. ولد سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م بمدينة قوص بمصر ونشأ بها، واتصل بالسلطان الملك الناصر الذي عهد إليه ببعض أموره وتنقل في وظائف الدواوين وتوفي في مدينة القاهرة سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م.

وقد رتب النويري كتابه على خمسة فنون. تكلم في الفن الأول عن السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلي. وتكلم في الفن الثاني عن الإنسان وفي الفن الثالث عن الحيوان وفي الرابع عن النبات وفي الخامس عن التاريخ.

والذي يهمنا أن نعرض له من هذا الكتاب هو الجزء الخاص بالإنسان وهو يقع في هذه الطبعة من الجزء السادس حتى الجزء التاسع. وقد تناول

المؤلف في هذا الفن ببحث واسع شروط الأمامة وصفات الملك وعلاقة الحاكم بالمحكوم وواجبات وحقوق كلٍّ منهم. كذلك تكلم النويري عن أهمية مشورة الحاكم لمن حوله لضمان ثواب الرأي وحسن التدبير. وتناول المؤلف الموظفين الحكوميين بالبحث والتحليل وحدد اختصاصاتهم وطرق مزاولتهم لأعمالهم فتكلم عن الوزراء وقادة الجيوش والقضاة والولاة وأصحاب المظالم الكتّاب والمحتسبين. وقد أسهب في الكلام عن هذه النواحي بطريقة تمد الباحث في هذا الميدان بمعلومات غزيرة عن التنظيم الإداري في الإسلام عامة وفي الفترة التي عاصرها المؤلف خاصة. وقد اهتم النويري بوجه خاص بوظيفة الكتابة وفروعها وفنونها.

وقد أفرد المؤلف الجزء الثامن من فن الإنسان ليتكلم فيه عن أنواع الدواوين (بيت المال، الجيش، الإقطاعات). وتكلم عن أقسام هذه الدواوين وطرق العمل بها وخاصة في مصر. كما تكلم عن طرق جباية الخراج وموارد الدولة المالية وطريقة تعاملها مع الممولين في هذا المجال.

وقد تناول النويري في كلامه أنواع العقود والبيوع والمكاتبات المالية بشيء من التفصيل في الجزء التاسع. وتكلم فيه أيضاً عن الوصايا والمواريث وعقود الزواج والطلاق والوكالات وغير ذلك. وكتاب النويري في مجموعه وثيقة مهمة تحوي معلومات دسمة عن الأحوال الإجتماعية والسياسية في التنظيم السياسي وخاصة في الفترة التي عاصرها المؤلف.

**ومن كتب التاريخ الإسلامي أيضاً على سبيل المثال لا الحصر:**

ـ **ابن الأثير**، عز الدين أبو الحسن علي. «**الكامل في التاريخ**». تورنبرج، ليدن، ١٢ مج، ٢ مج للفهارس.

عاش المؤلف في الفترة ٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ/ ١١٦٠ ـ ١٢٣٤م واستقرت أسرته في الموصل. وهو أوسط الأخوة الثلاثة الذين نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية. وكان إبن الأثير حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم. ولذا كان أكثر ما اشتهر

به دراسة التاريخ . ويعتبر «الكامل في التاريخ» أهم مؤلفاته في هذا المجال . إذ تناول فيه دراسة التاريخ العام للعالم الإسلامي ، ابتدأ فيه بالخليقة ، وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨هـ ، ويعتبر من أهم الكتب في التاريخ الإسلامي . والتزم المؤلف في نهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي ، ومقارنة ما يقع من الأحداث في كلّ منها ، عاماً بعد عام . واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل إقليم . وتجلّت مواهب إبن الأثير في طريقة عرضه للحقائق ، إذ حذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها ، وأمعن في فحص المصادر ، واختار من النصوص ما يناسب الحقائق ، وألّف من كل ذلك خلاصة لكل ما وقع من الأحداث في السنة .

ولكتاب إبن الأثير ابتداءً من الجزء العاشر ، أهمية خاصة ، نظراً لأنه يؤرخ لأحداث قريبة العهد من زمنه ، سمع بها وشارك فيها ، وعالج في هذه الفترة الممتدة من سنة ٤٥٠هـ ما وقع من صدام بين الغرب المسيحي والعالم العربي ، فيما يعرف بالحروب الصليبية .

وما يلفت النظر في كتابة إبن الأثير ، ما كان من اهتمامه البالغ بأخبار الدولة الأتابكية بالموصل حتى سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١١م ، وامتداد سلطان الأتابكيين إلى حلب ودمشق ، ثم انحسار ملكهم حتى أصبح قاصراً على الموصل . أمّا رواياته عن صلاح الدين ، فإنها تنطوي عن كراهية له ، برغم الإشادة ببطولته ، فصوره إبن الأثير على أنه بطل سخّر كل مواهبه العسكرية لإشباع أطماع أسرته وإقامة أمبراطورية ، والواضح إن هذا الحكم تأثر بما كان يربطه من الولاء للأتابكيين .

ويتابع إبن الأثير أخبار المسلمين في المشرق والمغرب بعد صلاح الدين ، وما آل إليه أمرهم من تفكك ، وما ترتب على ذلك من تعرض لأخطار الصليبيين والتتار .

ويعتبر كتاب إبن الأثير من المصادر الأصلية للحروب الصليبية ، وقد قام المستشرق دى سلان بنشر كل ما أورده إبن الأثير مع ترجمة فرنسية في

مجموعة الحروب الصليبية، الجزآن الأول والثاني من مجموعة المؤرخين الشرقيين.

ومنه طبعة في بولاق، في ١٢ جزءاً، سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٢م. وطبعات أخرى بتواريخ مختلفة.

- **إبن الجوزي**، عبد الرحمن بن علي بن محمد. «**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**». حيدر آباد، الهند، ١٣٥٧ - ١٣٥٩هـ. مج ٥ - ١٠.

من أشهر علماء عصره في الفقه والحديث والتاريخ. ولد ببغداد سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م، واستقر بها بعد أن طاف ببلاد عديدة في طلب العلم، ومات ببغداد سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. وما اشتهر به من التعلق الشديد بمذهب أحمد بن حنبل، أدى إلى ما جرى من جدل ومناظرة بين الحنابلة وأصحاب مذهب أبي حنيفة، وبين أهل السنّة والشيعة.

وما صنفه من كتب ورسائل عديدة، شملت الفقه والحديث والتاريخ. ومن أشهر مؤلفاته التاريخية، كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الذي لم يطبع منه إلا ستة أجزاء، واتخذ نهج الطبري في الكتابة، إذ كان كتابه عبارة عن سجل لما جرى في كل سنة من الأحداث، وما حدث من وفيات الأكابر والأعيان. وما هو جدير بالملاحظة، إنه أسهب في ترجمة الأكابر من الفقهاء والمحدثين والصوفية.

- **إبن الخطيب**، لسان الدين أبو عبد الله محد السلماني. «**الإحاطة في أخبار غرناطة**». القاهرة، ١٣١٩هـ ٢ مج.

ولد في سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م في لوشا جنوب غرناطة، غير أنه أقام منذ صباه في غرناطة التي انتقل إليها أبوه باعتباره من موظفي بلاط بني نصر، وتلقى تعليمه على أشهر علماء عصره، فصار من أشهر المؤلفين، والشعراء ورجال السياسة، لا في غرناطة فحسب، بل في الأندلس. وتقلد منصب الوزارة، مرات عديدة، وتعرض للعزل والإعتقال، حتى لقي مصرعه سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.

لم يبق إلا نحو الثلث مما خلفه إبن الخطيب من المؤلفات العديدة في التاريخ والجغرافية والشعر والتصوف والفلسفة والطب.

ويعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة أهم مؤلفاته التاريخية، ترجم فيه من نشأ في غرناطة، إحدى عواصم الأندلس وحاضرة ملك بني نصر، لعهده من رجال السيف والقلم، منذ قامت في الأندلس دولة إسلامية إلى عصر المؤلف. وأسهب المؤلف في كل ما أورده عن رجال بني نصر، وأشار إلى من كان يعاصر ملوكهم، من الملوك في المغرب وتونس وإسبانيا.

وشرع الأستاذ محمد عبدالله عنان في إعادة طبع هذا الكتاب، بعد تحقيقه، نظراً لأن النسخة التي سبق الإشارة إليها والمطبوعة بالقاهرة سنة ١٣١٩ ليست كاملة، وقد حفلت بالأخطاء، فضلاً عن افتقارها إلى تحقيق الأعلام الأندلسية والإسبانية. فظهر الجزء الأول منه، مطبوعاً بدار المعارف (دون تحديد تاريخ الطبع).

- **إبن الصيرفي،** أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان. **«قانون ديوان الرسائل»**. نشره وعلق عليه، علي بهجت، القاهرة، ١٩٠٥.

لم ترد له ترجمة في كتب التراجم والتواريخ، غير أنه كان من كتاب الدولة الفاطمية زمن الخليفتين الآمر والحافظ، وإنه كان من وجوه الدولة وأعيانها سنة ٤٧٨هـ، وإنه ظل يعمل بديوان الرسائل نحواً من أربعين سنة، إذا أن من السجلات التي أوردها ما كان مؤرخاً سنة ٥٣٦هـ بينما يرجع أول سجل له إلى سنة ٤٩٧هـ، وله كتاب آخر بعنوان الإشارة إلى من نال الوزارة، زمن الفاطميين.

وقصد المؤلف بكتابه أن يكون دستوراً في اختيار من يؤهل للتوظف في ديوان الرسائل، رئيساً كان أو مرؤوساً، وأن يخلد كتابه في الديوان ليقتدي به الموظفون ويؤخذوا بالقراءة فيه وتدبره. وكتبه للوزير الأفضل إبن بدر الجمالي.

ويشمل الكتاب سجلات عن تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة

الهلالية العربية ، حتى توافق مواعيد استخراج الضرائب وجباية الأموال أبّان إدراك الغلات والثمار ، وعن البشارة بركوب الخليفة في موسم أول السنة وأول رمضان وأيام الجمع الثلاث منه ، وسجل عيد الفطر ، وعيد النحر ، ويوم قطع الخليج .

وتناول في فصول الكتاب ، ما ينبغي لرئيس الديوان (الرسائل) من صفات ، وما يؤديه من أعمال ، والمستخدمين في الديوان ، وما ينبغي أن يستخدم في المكاتبة عن الملك إلى الملوك المماثلين له والمخالفين للغته وملته ، ووصف من يؤهل لمكاتبة رجال الدولة وكبرائها أو لكتابة المناشير ، ومساعدي متولي الديوان . يضاف إلى ذلك أنه أشار إلى ما يوضع في الديوان من الدفاتر والتذاكر ، وإلى خازن الديوان ووظيفته ، وما يختص بالتوقيعات .

- **إبن الفرات**، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري . «**تاريخ إبن الفرات أو تاريخ الدول والملوك**» . تحقيق قسطنطين زريق . بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٤٢م ، مج ٧ - ٩ .

ولد بمصر سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤/ ١٣٣٥م) ، ودرس على جماعة من علماء زمانه ، وأجازه فريق منهم ، فحدث بما سمع ، واكّب على دراسة التاريخ وكتابته فوضع فيه مؤلفه الكبير، الذي أورد به الأحداث التاريخية ، ابتداءً من السنوات الأولى للهجرة ، حتى نهاية القرن الثامن الهجري (١٣٩٧م) . غير أنه ليس معروفاً من هذا التاريخ سوى تسعة أجزاء ، ومنه مخطوطة بالمكتبة الملكية بڤيينا . يبتدىء الأول منها بسنة ٥٠١هـ (١١٠٦ - ١١٠٧) وينتهي الأخير بالقرن الثامن (١٣٩٧) . وقام المستشرق جوردان بترجمة فقرات منه تتعلق بالحروب الصليبية .

وانتهى إبن الفرات في كتابته حتى سنة ٨٠٣هـ ، وقام بتبييض المائة الثامنة ، ثم المائة السابعة ، ثم السادسة ، فلما بلغ المائة الخامسة والرابعة أدركه الأجل . وعلى الرغم من إنكار المؤرخين ما اشتهرت به عبارة المؤلف من عامية فإنهم اعترفوا بأهمية كتابه .

وجرى إبن الفرات في تأليفه على قاعدة أكثر المؤرخين في عصره، فرتب حوادث تاريخه حسب السنين، وأورد الوفيات في آخر كل سنة. وماحفلت به الأجزاء المطبوعة من الوثائق التي تتمثل في المراسلات والمكاتبات بين سلاطين المماليك والأمراء المسيحيين في الغرب، والأمراء المسلمين في الشرق، وملوك التتار، وعهود الصلح والهدنة مع الصليبيين، ومناشير الإقطاعات، والعقود المتعلقة بولاية العهد للأمراء، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة النظم الإدارية والمالية والقضائية والعلاقات الدبلوماسية، وتضمن الجزء التاسع الذي يقع في المجلدين الأحداث الواقعة بين ٧٨٩، ٧٩٩ هـ (١٣٨٧، ١٣٩٧ م)، بينما عالج الجزء الثامن أحداث الفترة الواقعة بين سنة ٦٨٣، سنة ٦٩٦هـ (١٢٨٤، ١٢٩٧م). أما الجزء السابع، فتناول دراسة السنوات ٦٧٢ حتى سنة ٦٨٢هـ (١٢٧٣ - ١٢٨٤م).

- **ابن القلانسي**، أبو يعلى حمزة. **«ذيل تاريخ دمشق»**. يتلوه نخب تواريخ ابن الأزرق الفارقي، وسبط ابن الجوزي، والحافظ الذهبي، قام على نشره (H. F. Amedroz) ليدن، ١٩٠٨م.

هو أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، ينتمي إلى أسرة عريقة بدمشق، من قبيلة تميم، والقلانسي نسبة إلى يافع القلانسي. ونال ابن القلانسي من العلم ما توافر لأبناء البيوت العريقة من الدراسة، كالأدب والفقه وأصول الدين. وتولى الكتابة في ديوان الرسائل حتى صار عميداً له. وولّي مرتين منصب رئيس مدينة دمشق. ومات سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) بعد أن تجاوز التسعين من عمره.

وهذا الكتاب هو الوحيد الذي ألّفه ابن القلانسي، وعنوان الكتاب يدل على أن المقصود منه أن يكون ذيلاً على كتاب هلال الصابيء في التاريخ الذي يقف فيه عند سنة ٤٤٨هـ (١٥٠٦م). ووجه الاختلاف بينه وبين هلال الصابيء، إن ابن القلانسي أولى معظم اهتمامه بدمشق والشام، فضلاً عن الإشارات إلى ما يجرى من أحداث في بغداد ومصر، على حين أن هلالاً

عالج التاريخ العام. ويتناول ابن القلانسي دراسة فترة تزيد على قرن من الزمان، وتنتهي بوفاة المؤلف سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م).

والراجح إن ما تهيأ لابن القلانسي من الوسائل بفضل اتصالاته الرسمية كفلت له القيام بهذا العمل، مما أورده من روايات مستمدة من الوثائق والسجلات والأفراد الذين التقى بهم، فضلاً عن المشتركين في الأحداث. وعلى الرغم من أن اقتباساته من الوثائق قليلة، فإن مادته تحمل طابع الوثائقية. والراجح أنه كان يبادر إلى كتابة ما يبلغه من الروايات ثم يراجعها فيما بعد. ومن خصائص ابن القلانسي أيضاً ما التزمه من الدقة في ترتيب الأحداث من الناحية الزمنية. وفي ذلك يقول: «انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ، ورتبته، وتحفظت من الخطأ والخلل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، نقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث».

ويعتبر تاريخ ابن القلانسي من أهم المصادر الأصلية التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين المسلمين، إمثال سبط بن الجوزي وابن الأثير، وأبو شامة، ويصح الارتكان إليه، في تعرّف نمو وتطور إحساس المسلمين نحو الصليبيين وما كان من روح الجهاد التي بلغت الذروة زمن صلاح الدين. ويشرح ما كان من علاقة دمشق وإمارة بيت المقدس الصليبية، وتفاصيل نشاط المصريين ضد الصليبيين، وما كان من علاقات وثيقة بين دمشق ومصر زمن الفاطميين، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الأوضاع الداخلية بالشام، وحركة توحيد الجبهة الإسلامية، ومقاومة الصليبيين.

وقام الأستاذ (H. A. R. Gibb)، بترجمة ما يتعلق بالحروب الصليبية من فقرات، وأورد مقدمة طويلة للتعرف بالكتاب وشرح أحوال الشام قبيل الحروب الصليبية وذلك في كتابه بعنوان:

The Damascus Chronicle of Crusades, London 1932.

- **ابن أياس**، محمد بن أحمد بن أياس زين الدين الناصري الجركسي الحنفي. **«كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع**

الدهور». بولاق، القاهرة، ١٣١١ - ١٣١٢، ٣ أجزاء.

الجزء الرابع والجزء الخامس تحقيق كاله ومصطفى وسوبر نهيم. استانبول، ١٩٢١ - ١٩٣١.

ومولده بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، ومات بعد أن قارب الثمانين من عمره وانتهى في تاريخه إلى سنة ٩٢٨هـ. ينتمي إلى أسرة تركية، وجده لأبيه، واسمه أياس الفخري، كان من مماليك السلطان الظاهر برقوق، بينما تقلد جده لأمه وهوازدمر الخازندار، نيابة صفد وطرابلس وحلب. أما والده، فكان من الفئة المعروفة بأولاد الناس، التي لا يؤدى أربابها الخدمة العسكرية إلا بناء على أمر السلطان، ويظفرون بإقطاعات صغيرة، أو مبالغ صغيرة من المال تكفي لنفقاتهم. وكانت شهرته ترجع إلى ما ارتبط به من صلات القربى والمصاهرة، مع عدد من كبار الموظفين.

والراجح إن ابن أياس عاش على ما ناله من إقطاع من السلطان الغوري، فانصرف إلى الكتابة والتأليف في التاريخ، ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات. وعاش ابن أياس متتبعاً عن كثب حوادث المجتمع الذي تقلب فيه، وكان شديد الإحساس بما يجري في دولة المماليك من عوامل التداعي.

وأهم ما تبقى من مؤلفات ابن أياس، كتابه الشامل عن تاريخ مصر، والمعروف بإسم بدائع الزهور في وقائع الدهور. عالج باختصار تاريخ مصر حتى نهاية العصر الأيوبي، وما كتبه عن العصر المملوكي حتى زمن قايتباي، يغلب عليه العجلة والسرعة. على إن ابن أياس أخذ منذ بداية عهد قايتباي، يسهب في وصف الأحداث، ويورد بالتفصيل تراجم كبار الموظفين، وما جرى من الوفيات في كل شهر. واشتهر في الأجزاء المعاصرة من تاريخه، بدقة الملاحظة واستقصاء الحقائق وقسوته في الحكم على الناس. وكان على جانب كبير من القدرة على النقد، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على نحو ما جرى عليه المؤرخون السابقون، بل صار يشرح ويفلسف ما

يجري من الأحداث ، وشجعه على ذلك اتصاله بأعيان البلاط والسلطان ، وما كان يبلغه به أخوه من أخبار القلعة ، مقر السلطان ، ولا سيما ما يتعلق بالمدفعية وما كان من إهمال أمرها زمن السلطان الغوري. يضاف إلى ذلك ما أورده عن الإدارة المالية الفاسدة ، وقد تجاوز ابن أياس الحد في لوم الغوري على ما تعرضت له البلاد من أزمة مالية حادة.

وما يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة ، أنه المصدر العربي الوحيد الذي يعالج مستهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). فتناول الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال مصالح المصريين ، برغم ما أحاط السيادة العثمانية من هيبة ورهبة. والواضح أن كتاب ابن أياس يزخر بألفاظ وتعابير وجمل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، ولعلّ ذلك يرجع إلى ذيوع اللسان التركي بين طبقات الخاصة ، وإلى دخول كثير من الألفاظ الأجنبية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين.

- **ابن تغري بردي ،** جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي. **«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»**. كاليفورنيا ، نشر ١٩٠٩ - ١٩٣٥م ، ٧ مج.

احتل أبو المحاسن مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزي ، ومولده بالقاهرة سنة ٨١٣هـ/ ١٤١١م. كان أبوه من مماليك السلطان برقوق ، ثم ارتقى في الخدمة السلطانية ، فتولى نيابة دمشق ، وأسهم في مدافعة تيمور لنك عن مدن الشام. ثم تولى أتابكية العساكر زمن السلطان فرج ، الذي تزوج ابنته. كان أبو المحاسن أصغر أبنائه. وعلى الرغم من أنه يجيد فنون الفروسية والحرب على نحو ما كان معروفاً وقتذاك ، فإنه آثر الحياة العقلية فأحب التاريخ من دون العلوم التي درسها وأجيز له فيها ، فلازم المقريزي والعيني من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما في التحصيل والكتابة الغزيرة ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، فضلاً عن معرفته باللغة التركية. غير أن تفضيل أبي المحاسن لدراسة التاريخ خاصة ، يرجع في الغالب إلى ما كان للعيني من مكانة في بلاط برسباي ، وإلى ما كان لأبي

المحاسن من تنشئة وقرابات ومصاهرات وصداقات، وما تقلده من وظائف، كل ذلك جعله من رواد البلاط السلطاني. مات أبو المحاسن ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م.

ويعتبر كتاب النجوم الزاهرة أهم مؤلفات ابن تغرى بردى في التاريخ، إذ تناول دراسة تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي، حتى قبيل وفاته، إذ انتهى فيه إلى سنة ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٨ م، ولما اشتهر به ابن بردى من واسع المعرفة والتزام الدقة في كتابته، ولما جرى عليه من الإسهاب والتفصيل في الفترة التي عاشها، ولما كان له من صلات وثيقة بدوائر البلاط السلطاني وإدارات الحكومة فضلاً عما اشتهر به من سداد الحكم، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة، في دراسة الدولة المملوكية، وأسباب قوتها وعوامل ضعفها، ووصف الفئات المملوكية المختلفة، وما يقع من الشقاق والنزاع بينها وحياة الفارس المملوكي، وما تعرّضت له مصر من أوبئة ومجاعات.

- **ابن خلدون**، عبد الرحمن أبو زيد وليّ الدين. **«كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»**. بولاق، ١٢٨٤هـ / ١٨٦٨م، ٧ مج.

ينتمي ابن خلدون إلى أسرة استقرت بإشبيلية، إذ هاجر جده، من اليمن إلى الأندلس. ثم انتقلت الأسرة إلى تونس. وبهذه المدينة ولد عبد الرحمن ابن خلدون سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م. وبعد أن تلقى العلم على طائفة من علماء تونس والمغرب، تقلد وظائف في بلاط ملك تونس، غير أنه لم يلبث أن ارتحل إلى بسكوة بعد نشوب الاضطراب في تونس. ثم تنقل في وظائف هامة عند السلاطين في فاس وغرناطة وبجاية وتلمسان، غير أن ما دأب عليه من الاشتراك في المؤتمرات والدسائس، أدت آخر الأمر إلى نفيه إلى بسكوة.

وارتحل ابن خلدون سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٣مـ ليؤدي فريضة الحج، غير أنه توقف في مصر، فتولّى التدريس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية، ثم عيّنه السلطان برقوق قاضي قضاة المالكية. ولم يغادر مصر إلا للحج، وصحبه السلطان إلى دمشق حيث التقى بتيمور لنك. ومات بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م.

وكتاب ابن خلدون يقع في سبعة مجلدات، يعتبر الأول المقدمة التي تدرس ظواهر الاجتماع، أمّا الدراسات التاريخية فشملت ستة مجلدات. على أن ابن خلدون جعل التقسيم قائماً على مقدمة وثلاثة كتب. تناولت المقدمة فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبة والإشارة إلى مغالطة المؤرخين. وجعل الكتاب الأول في العمران، والملك والسلطان، والكسب والمعاش، والصنائع والعلوم، وقد جمعت المقدمة والكتاب الأول والخطبة في مجلد واحد، هو ما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون.

أما الكتابان الآخران فجعلهما للبحوث التاريخية الخالصة، تناول في احدهما أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ الخليقة، والتزم الإيجاز في تاريخ الأمم القديمة، غير أن دراسته للمسلمين في الشرق تتسم بالضعف نظراً لأنه لم يكن له دراية تامة بها ولم ينزل بها إلا لماماً، وأنه يعتبر غريباً عنها، وما كتبه عن شمال إفريقية والمغرب والأندلس، بالغ القيمة، نظراً لأن بحوثه استمدها من مشاهداته وتجاربه وقراءاته الخاصة التي لم يطّلع عليها مؤرخو العرب قبله، ومن بعض مصادر كانت معروفة في عصره ولم تصلنا، ويتجلّى ذلك فيما كتبه عن صقلية وتاريخ الطوائف والممالك النصرانية في إسبانيا، وتاريخ دولة بني الأحمر.

ونوّه بقيمة هذه الدراسات كثير من علماء الغرب، ومنهم دوزي الذي يصف دراية ابن خلدون بالمسيحيين في إسبانيا بأنها منقطعة النظير، ولا يضارعها ما كتبه فيها علماء الغرب المسيحيين في العصور الوسطى.

ويعدّ القسم الخاص بتاريخ البربر الذي عرضه ابن خلدون في الكتاب الثالث أكثر الأقسام إصالة، لأنه سجله من مشاهداته في أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر، ولذا كان أول قسم ترجم كاملاً إلى لغة أوربية، إذ نشر دي سلان له ترجمة فرنسية في الجزائر، ١٨٥٢، ١٨٥٦م، وفي باريس ١٩٢٥، ١٩٢٧م بعنوان:

Histoire des Berberes et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale. Alger 1857-1861.

ونهج ابن خلدون نهجاً جديداً يختلف عمّا اتبعه السابقون، إذ قسم مؤلفه إلى كتب وفصول متصلة، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية، وامتاز بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات والفهارس.

ـ **ابن خلّكان**، أحمد بن محمد بن إبراهيم، شمس الدين أبو العباس البرمكي الأربيلي الشافعي. «**كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**». القاهرة، ١٢٩٩ هـ، ٣ مج.

ولد بأربيل سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م، تلقى العلم على الجواليقي وابن شداد في حلب، ثم درس في دمشق. أمضى معظم حياته متنقلاً بين مصر والشام، متولياً القضاء أو قائماً بالتدريس، ومات بدمشق في ٦٨١هـ / ١٢٨١م وهو مدرّس بالأمينية.

وأهم كتاب له، ولعلّه الكتاب الوحيد الذي يغلب عليه طابع التاريخ، هو كتاب وفيات الأعيان، الذي يعتبر سجلاً للتراجم. بدأ في تأليفه سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م، وأتمّه في سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م. وإذ شغف المؤلف بالتاريخ، باطلاعه على أخبار المتقدمين، والإفادة ممّن لقيهم من الأئمة المتقنين للتاريخ، وبذل الجهد في تحرّي الحقائق وإثبات الصحيح منها، وحرص على انتقاء العبارات السهلة، كل ذلك جعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة عند القراء المتخصصين وغير المتخصصين، إذ لم يقتصر المؤلف على الترجمة للسلاطين والأمراء، أو الوزراء أو الشعراء، بل أثبت أيضاً كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه، وذكر من محاسن «كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة، ليتفكه به متأمله، ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيملّه». ورتبه على حروف المعجم لما في ذلك من السهولة واليسر. ونظراً لضياع معظم كتب المؤلفين السابقين عليه، صار مرجعاً يطّلع عليه من جاء بعده من العلماء، ويعتبر من أهم الكتب التي تعالج التاريخ الأدبي والتراجم.

طبع ببولاق ١٢٧٥ هـ، ١٢٩٩، والقاهرة سنة ١٣١٠ هـ، ومنه طبعة في

مجلد واحد بباريس ١٨٣٨م، وفي ٦ مجلدات، بالقاهرة، ١٩٤٨، بتحقيق محي الدين عبد الحميد. وبالفوتوغرافية في طهران سنة ١٢٨٤. وقام دي سلان بترجمته في ٤ أجزاء. وطبع في باريس ١٣٨٤ - ١٨٧١، بعنوان:

Ibn - khelikan: Biographical Dictionary. Paris - London 1834 - 1871.

- **ابن شداد**، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع. «**كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**». ومذيل عليه منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه، تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب. القاهرة، ١٣١٧هـ.

من مؤرخي التراجم. ولد بالموصل سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، وتعلم بها وببغداد، وتولّى التدريس في الموصل سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب، وذاع صيته. ولما اشتهر به من رجاحة العقل وسداد الحكم، عهد إليه أتابك الموصل بالسفارة في أمور سياسة بالغة الخطورة والأهمية، لما وقع من نزاع حاد بين صلاح الدين وأمير الموصل، أثناء قيام صلاح الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية، أدّى إلى التهديد بالاستيلاء على الموصل، فكان لزاماً على أمير الموصل التماس الوسطاء لتسوية هذا النزاع، وكان ابن شداد من بين هؤلاء الوسطاء، فعرف صلاح الدين عن كثب، ويشير ابن شداد إلى أن ثبت في نفس صلاح الدين، في تلك الدفعة (٥٧٩هـ/ ١١٨٤م) منى أمره، لم أعرفه إلى بعد خدمتي معه. ودخل في خدمة صلاح الدين ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م ومنذئذ لم يفارق ابن شداد، صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار، حتى حضر وفاته سنة ١١٩٣م. وبذل ابن شداد محاولات عديدة للتوفيق بين الأمراء الأيوبيين في مصر والشام، وتولّى القضاء في حلب، وما حدث في حلب من اضطراب الأمور عمل ابن شداد على أن يلزم داره، وأن يسمع الحديث لمن يقصده من المريدين، ونشطت في زمنه حركة الدراسة والعلم بفضل ما أنشأه من مدارس، وبفضل مركزه الديني والسياسي. ومات سنة ٦٣٢هـ بحلب.

وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد فيما وقع من أحداث ، وملازمة صلاح الدين وأولاده ، واتصاله بالعلماء والفقهاء ، وقيامه بالسفارات بين الأمراء ، وتولّيه مناصب رئيسية في الدولة ، وكل ذلك يؤلّف مادة تاريخية وخبرة ، فإنه لم يؤلف في التاريخ إلا كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، الذي يعتبر ترجمة لصلاح الدين ، التزم فيه الأسلوب السهل والعبارة المحددة ، ولم يلجأ إلى التعقيد والاسترسال مثلما فعل العماد الأصفهاني . اعتمد ابن شداد فيما أورده عن الأحداث السابقة على دخوله في خدمة صلاح الدين ، على ما توافر لديه بعد ٥٨٤هـ / ١١٨٨م من أخبار ومؤلفات تاريخية . أما القسم الثاني الذي يعتبر أعظم شأناً من الناحية التاريخية ، فيتضمن مشاهدات المؤلف ومعاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث . ولم يكتف ابن شداد في الفترة الواقعة بين ١١٨٨ ، ١١٩٣م بأن يعرض سجلاً أميناً لما شهده من أحداث ، بل أنه بفضل مكانته باعتباره صديقاً لصلاح الدين وملازماً له في كل تحركاته حتى يوم وفاته ، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في إدراك الحوافز ، التي أثارت صلاح الدين في كثير من القرارات الخطيرة . على أن ما أورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين ١١٦٩ ، ١١٨٨م يعتبر فيها مصدراً ثانوياً ، ولم يكن ينجوه من الخطأ في تفاصيل الحقيقة والتاريخ .

نشر هذا الكتاب لأول مرة (Schultens) في ليدن ١٧٣٢ ـ ١٧٥٥م ، وترجمه إلى الإنجليزية «كوندر» سنة ١٨٩٧م ، في مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين بعنوان (The Life of Saladin) ونشر أيضاً في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، الجزء الثالث . وظهرت أخيراً طبعة جديدة لكتاب النوادر السلطانية ، قام على تحقيقها ونشرها الدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ، ١٩٦٥م .

ـ **ابن عبد الظاهر**، عبدالله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السعدي ، محيي الدين . «**تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**» . بتحقيق مراد كامل . القاهرة ١٩٦١ .

ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م. وعلى الرغم من أنه لم يتوافر في المصادر ما يتوقفنا على ترجمة وافية له، فالمعروف أنه كان من أجلّ الكتّاب في عصره. وإنه خدم السلاطين الثلاثة الأوائل في الدولة المملوكية بمصر، بيبرس، المنصور قلاوون، خليل بن قلاوون، بأن تولّى لهم وظيفة الكتابة، وصارت له رياسة ديوان الإنشاء، حتى توفى ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م. وهو الذي سطّر عدداً كبيراً من الوثائق الرسمية الهامة، وقام بكتابة أهم ما جرى من اتفاقات وعهود سياسية ودبلوماسية بين مصر من جهة، وبين الصليبيين والمغول من جهة أخرى، في القرن الثالث عشر الميلادي.

وأفاد المؤرخون المتأخرون من هذه الوثائق ومن هذا الكتاب، بما نقلوه واقتبسوه، مع الإشارة إلى المصدر الذي نقلوا عنه، ولعلّ أكثر ما يتضح ذلك، في كتاب ابن الفرات.

ويعالج ما تبقى من هذا الكتاب، الأحداث الواقعة في السنوات، من ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، حتى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩٠م وهي السنة التي مات فيها المنصور قلاوون. وجرى المؤلف على النهج الذي سلكه في الكتاب الذي سبق الإشارة إليه، بأن أورد ما وقع كل سنة من الأحداث في داخل الدولة المملوكية، وما كان من علاقات مع الدول المجاورة، مثل التتار والتونه، والكرج والأرمن، والقفجاق، والصليبيين، والبيزنطيين. وحرص على أن يعزز رواياته بالوثائق كالرسائل والمعاهدات وعقود الصلح، ونصوص الإيمان.

- **إبن عبد الظاهر،** عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السعدي، محيي الدين. **سيرة الظاهر بيبرس المعروفة بالروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.** » نشر فاطمة صادق (Oxford University Press, Pakistan 1956).

وبفضل ما احتفظ به من ذكريات، وشارك فيه من أعمال، وما توافر في مخطوطات الحكومة من سجلات ووثائق، ألّف ثلاثة كتب عن السلاطين، بيبرس، والمنصور قلاوون، وخليل بن قلاوون، ومع أن هذه الكتب من

القيمة التاريخية ما لا يخفى ، فإنه لم يبق منها إلا شذرات ، وما ورد في كتب المؤرخين المتأخرين من اقتباسات منها .

على أن ما نشرته الدكتورة فاطمة صادق من هذا الكتاب ، ليس إلا شطراً صغيراً ، يتناول خمس السنوات الأولى من عهد السلطان بيبرس ، فأشار إلى بلاء بيبرس في قتال الصليبيين ، في حملة لويس التاسع ٦٤٧هـ ، وإلى موقف توران شاه من المماليك الصالحية ، ومصرع توران شاه ، وإلى جهود بيبرس حتى ارتقائه دست السلطنة . وأورد ما كان لبيبرس من صفات تؤهله للسلطنة ، وما بذله من جهود في إنشاء العمائر المدنية والعسكرية ، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر ، وهو في كل ذلك يورد الوثائق الرسمية من خطب ومراسلات . ثم شرح حروب بيبرس مع الصليبيين بالشام ، وما كان من العلاقات بين مصر والدول الإسلامية ، كدولة الروم السلاجقة ، واليمن ، وبين مصر والتتار في الشرق والشمال ، ووصف حملات السلطان لتأديب العربان ، ورحلاته للصيد .

- **إبن عذارى**، أبو عبد الله محمد المراكشي . «**البيان المغرب في أخبار المغرب**»[1] . نشره دوزي ، ليدن ، ١٨٤٩م ، ٢ مج .

وعنوان الكتاب بالفرنسية : - Histoire de L'Afrique et de L'Espagne Leyde 1849 - 1851.

مؤرخ أندلسي الأصل ، من أهل مراكش ، لم ترد له ترجمة في المراجع المتداولة وكل ما هو معروف عن ترجمته أنه كان يعيش أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وهو القرن الذي اختتم به كتابه ، وله مؤلف آخر ، عنوانه «تاريخ المشرق» أشار إليه في كتاب البيان المغرب .

---

(١) توجد دراسة متخصصة يمكن العودة إليها تتفصيل عن المصادر الاصلية الاندلسية والمغربية للأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي منشورة في محاضرات في الحضارة الإسلامية (نظم الحكم والإدارة في المغرب والأندلس) ص ١٤٥ ـ ١٨٩ . دار النهضة العربية (كريدية إخوان) بيروت ١٩٧٨ .

وكتاب البيان المغرب يقع في ثلاثة أجزاء، وصل في الثالث منه إلى سنة ٦٦٧هـ، ولم ينشر دوزي إلا الجزأين الأول والثاني، فانتهى إلى سنة ٤٦٠هـ.

شرح في الجزء الأول، ما كان من فتح العرب لأفريقية والمغرب، ومن ولهما من الأمراء، وقيام دولة الأغالبة، وظهور الفاطميين، وقيام الدولة الصنهاجية بأفريقية، والعداء بين الخلفاء الفاطميين والصنهاجيين، وزوال حكم الفاطميين بشمال أفريقية، والأمراء الذين حكموا تونس. وفي الجزء الثاني، يشير إلى دخول المسلمين إلى الأندلس وانتزاعها من أيدي الكفار، ويصف الفتوح الإسلامية في الأندلس، وعهد الولاية ثم يذكر استقلال عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس، وينتهي عند سنة ٣٨٧هـ.

واشتهر إبن عذاري بدأبه على التصنيف، وعلى الرغم من أنه يفتقر إلى ما يشتهر به المؤرخ من الحكم السليم والحاسة التاريخية، فإن ما زخر به كتابه من اقتباسات قيّمة، استمدّها من مصادر لم تصل إلينا، يجعل لهذا المؤلف أهمية تاريخية كبيرة. وحرص دوزي على أن يشرح المواضع والفقرات التي نقلها إبن عذاري عن المؤرخين السابقين.

ترجم (Fagnan) الكتاب كاملاً في جزأين نشرهما ١٩٠١ - ١٩١٤م وما يتعلق بغزو النورمنديين وغاراتهم على الأندلس أورده دوزي في مؤلفه:

Recherches sur L'Histoire Politique et Litteraire de L'Espagne Pendant le Moyen Age 2nd ed. 1881. Vol. II, pp. 288 - 289.

- **إبن واصل**، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم. «**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**». صدر منه ٣ أجزاء بتحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة.

كان مولده بحماه سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. برع في علوم كثيرة، مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقة والهيئة والتاريخ. كان أول الأمر مدرّساً بحماه، ثم استدعاه السلطان بيبرس، فأنفذه في سفارة إلى صقلية،

إلى الملك مانفرد ، فمكث بها زمناً غير قصير ، ومن نتائج هذه السفارة العلمية الموجز الذي ألّفه في المنطق ، المعروف بإسم الأنبرورية ، أو نخبة الفكر في المنطق . وأورد أبو الفدا وصفاً ممتعاً لرحلته في إيطاليا ، عند الحديث عنه في أحداث ٦٩٧هـ . ولما عاد عيّن قاضياً للقضاة ثم مدرّساً بحماه ، حيث مات سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م .

ومؤلفة عن الأيوبيين ، الذي لم ينشر منه إلا ثلاثة أجزاء ، يعتبر من أهم المصادر التاريخية في تلك المرحلة الحاسمة ، في العلاقات بين الشرق والغرب . وتناول في الجزء الأول دراسة الزنكيين ، وأفرد الجزء الثاني لصلاح الدين ، واختص خلفاء صلاح الدين بالجزء الثالث . وعلى الرغم من اعتماد إبن واصل على روايات المؤرخين السابقين ، وانتهاج طريقهم في التأليف ، بالتزام نظام الحوليات ، فإن ما أورده من وسائل ووثائق ، ووصف ما كانت عليه أحوال الفرنج ، وأحوال العالم العربي والإسلامي في زمنه ، يعطي صورة واضحة لدارس التاريخ في هذه الفترة ، يضاف إلى ذلك إن ما أشار إليه من تقسيم دولة صلاح الدين ، وما تعرضت له وحدة العالم الإسلامي من التداعي ، وما كان للصليبيين من اغراض تجارية ، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية بالغةفي دراسة العلاقات بين الشرق والغرب ، والتعرّف إلى الدبلوماسية بين السلاطين والأباطرة البيزنطيين ، والإحاطة بما يجري من أحداث في البلاد المجاورة . وتناولت الأجزاء الثلاثة ما وقع من الأحداث حتى وفاة العادل أيوب سنة ٦١٥هـ . أمّا الأجزاء الثلاثة التالية فتؤرخ للفترة الواقعة منذ هذا التاريخ إلى قيام دولة المماليك ، سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م .

ـ **أبو الفدا**، إسماعيل بن على بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي . «**كتاب المختصر في أخبار البشر**» . القاهرة ، ١٣٢٥هـ . ٤ مج في ٢ .

من الأمراء والمؤرخين والجغرافيين . ولد بدمشق في جمادى الأولى سنة ٦٧٢هـ (نوفمبر ١٢٧٣م) ، بعد أن انتقلت إليها أسرته . وكان عمه الملك

المنصور من البيت الأيوبي ، يحكم حماه وقتذاك فدخل في خدمته ، واشترك فيما نشب من حروب مع الصليبيين ثم تولى إمارة حماه سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م ، فصار يفعل فيها ما يشاء ، ليس لأحد من الدولة في مصر معه حكم ، ولما كان له من علاقة وديّة مع الدولة المملوكية لقي التبجيل والإحترام من السلطان المملوكي ، محمد بن قلاوون ، واشتهر بالملك المؤيد. ومات بحماه في محرم سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م .

وعلى الرغم من اهتمامه بتشييد العمائر في حماه ، ومشاركته في دراسة الفقة والطب والحكمة وعلم الهيئة ، فإن شهرته أسندت أساساً إلى نشاطه الأدبي ، وأشهر ما كتبه ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، وكتاب تقويم البلدان .

وفي مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى المصادر التي استقى منها رواياته ومنها المصادر التي جرت معالجتها في الصفحات السابقة ، فضلاً عن كتب اليهود ، التي ارتكن إليها فيما أورده عن تواريخهم في هذا الكتاب .

وصرّح أبو الفدا ، أنه جرى على نهج إبن الأثير في الكتابة ، بأن رتبه على السنين ، على غرار كتب تاريخية إسلامية كثيرة . وتناول في المقدمة ، تحديد تقاويم اليهود والمسيحيين ، ومعرفة نسخ التوراة السامرية والعبرانية واليونانية ، يضاف إلى ذلك ما أورده من جداول لتحديد العلاقة بين التواريخ .

وما كان لهذا المؤلف من مكانة وقتذاك بين بقايا الأيوبيين والسلاطين المماليك ، وما تعرض له العالم العربي من أخطار الصليبيين والتتار ، وزوال حكم الأيوبيين نهائياً من بلاد الشام ، فضلاً عن العلاقات بين مصر والبلاد الإسلامية كل ذلك لهذا الكتاب أهمية خاصة . وما أورده عن الحروب الصليبية ، جرى نشره في مجموعة الحروب الصليبية ، مجموعة المؤرخين الشرقيين ، المجلد الأول ، ابتداءً ص ١ ـ ١٦٥ ، وتلى ذلك ترجمة ذاتية له منقولة إلى الفرنسية شملت الصفحات ١٦٦ ـ ١٨٦ .

ومنه نسخة مطبوعة في مجلدين بالقسطنطينية سنة ١٢٦٦هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠م)، ونسخة مطبوعة في كوبنهاجن، ١٧٨٩ - ١٧٩٤.

- **أبو شامة**، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي. «**كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**». القاهرة، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ٢ مج في واحد.

ولد بدمشق ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م، ونشأ وتربى فيها، ولم يبرحها إلا للحج وزيارة بيت المقدس والاستماع إلى علماء مصر في دمياط والقاهرة والإسكندرية. وبعد أن فرغ من دراسته الدينية التي شملت، القرآن والفقة والحديث والعربية، انصرف إلى دراسة التاريخ.

وإذ عاش في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين، والتي سادت فيها الاضطرابات والفتن، التي كادت تقضي على الوحدة الإسلامية، عزم أبو شامة على أن يفرد «ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين، بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك المسلك».

تناول المؤلف الفترة التي تستغرق حكم أبطال الوحدة الإسلامية، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين. وتحدث المؤلف عن تنقلات الجيوش ووصف الأسلحة، والعدالة بين الناس، والمدارس، فضلاً عن القرارات والمنشورات والرسائل التي يعزز بها كتاباته. وجرى الكتاب على نظام الحوليات في الفترة الممتدة من سنة ٥٤٢هـ حتى سنة ٥٨٩هـ، في مدة حكم نور الدين وصلاح الدين.

ويعتبر الكتاب سجلاً حافلاً لتاريخ الدولتين من الجانب الرسمي، حرباً وسياسة وإدارة، فضلاً عن الجانب الشعبي، الذي يتمثل في تأييد العلماء ورجال الأدب والشعر.

ونظراً لما كان من اتصال سياسي وحربي أثناء تلك الفترة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، لقي الكتاب اهتماماً كبيراً من العلماء الأجانب، فظهر سنة ١٨٧٩م ترجمة المانية لبعض أجزاء الجزء الثاني، قام

بها (Georgens) ولم يهتم فيها إلا ما يتصل بالحروب الصليبية مع ترجمة فرنسية، وفي مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخين الشرقيين الجزء الرابع.

وفرغ الدكتور محمد حلمي أحمد من نشر الجزء الأول من هذا الكتاب، بالقاهرة، ١٩٥٦، وظهر الجزء الثاني بتحقيقه أيضاً والذي انتهى فيه إلى أحداث ٥٥٧هـ.

- **أسامة بن منقذ. «كتاب الإعتبار»**. تحقيق فيليب حتي. برنستون، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠م[1].

هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري، ينتمي إلى أسرة عربية أصيلة، بني منقذ من كنانة، أقامت لنفسها إمارة صغيرة شمال الشام، حول حصن شيزر، غربي حماه، على نهر العاصي. ولد سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وتناولت دراسته، النحو والخط والشعر والقرآن، فنشأ راوية كاتباً، وأديباً شاعراً. والواضح أنه شهد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، وما وقع من حروب بين المسلمين والصليبيين، إلى ما بعد استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١١٨٧م، إذ أنه مات في السنة التالية ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م بعد أن بلغ من العمر ٩٦ سنة، وترك مذكراته المعروفة بكتاب الإعتبار، التي تمثل فيها سيداً من سادات العرب.

وهذا الكتاب، يتضمن خلاصة تجارب أسامة، وكل ما صادفه في حياته من أحداث، دون أن يلتزم قاعدة معينة في الأسلوب أو الترتيب، ويعتبر قانون السيد الكامل، وعلى الرغم من أنه ألّفه أثناء شيخوخته، فإنه ينبض بروح الشباب وفتوته.

ومنذ أن خرج من شيزر، بعد الإضطرابات التي وقعت بين أفراد أسرته، أخذ يطوف بأرجاء الشرق الأدنى، فلم يشهد فحسب القتال في شيزر وحماه، بل مارسه في فلسطين ومصر والشام والجزيرة، واتصل بأمراء وملوك

(١) ظهرت طبعة جديدة للكتاب فى بيروت عام ١٩٨١ عن الدار المتحدة للنشر.

هذه الجهات، أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين وصلاح الدين، والخلفاء الفاطميين. وهذه الحياة المضطربة التي جرت في وقت سادت فيه المنازعات السياسية، وما هيأته من إثارة الفتن والمؤامرات، وما كان يربط أسامة من علاقات الصداقة بالفرنج، فضلاً عن خلاته وصفاته الشخصية من الأخذ بمبادىء الفروسية والشهامة، والصيد، والمغامرة، والنزعة الأدبية واتقان الفن القصصي، كل ذلك جعل من كتابه صورة متجددة حيّة للمجتمع الإسلامي الذي عاش فيه، ووصفا لحياة الصليبيين في الشرق الأدنى، ودراسة ما كان من الإختلاف بين المستوطنين منهم الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين، وبين من كان منهم قريب العهد بالبلاد الإفرنجية. يضاف إلى ذلك، ما أورده من عادات وتقاليد ونظم قضائية واجتماعية وعسكرية اختص بها الإفرنج، ومقارنة كل ذلك بما هو معروف عند المسلمين، ولذا كان لهذا الكتاب أهمية بالغة القيمة في تطور العلاقات بين المسلمين والإفرنج، لفترة تقرب من مائة عام (القرن الثاني عشر الميلادي).

ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية (Derenbourg) بعنوان: (Autobiographie d'Ousama) (باريس ١٨٩٥م)، وإلى الألمانية (أنسبروك ١٩٠٥م)، وإلى الروسية سالييه (وقدّم له كراتسكوفسلي - بتروغراد ١٩٢٢م، وإلى الإنجليزية، فيليب حتي، نيويورك ١٩٢٢، بعنوان:

An Arab-Syrian Gentelman and Warrior in the period of the Crusades.

وترجمه أيضاً إلى الإنجليزية سنة ١٩٣٠م(G.R. Potter) بعنوان:

Autobiography of Ousam ibn Mounqidh.

**البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي. «**كتاب فتوح البلدان**». قدّم له، وحقق عليه.(J. de Goeje) بريل، ليدن ١٨٦٦م، ٥٣٦، ٢٢٨ص. صفحة عنوان. إضافي باللاتينية.(Liber Expugnutionis Regionem)

عاش المؤلف في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وهو

ينتمي إلى أسرة من أصل فارسي، وكان جده من كتاب إبن الخصيب في مصر. ولد ببغداد، وتلقى تعليمه في العراق ودمشق وحمص. وكان من أقرب أصدقاء الخليفة المتوكل والخليفة المستعين، وتولى تربية وتأديب المعتز. ومات سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م بعد أن اختل عقله لتناوله حب البلاذر، ولذا قيل له البلاذري. لم يبق من مؤلفاته إلا كتابان هامان، الأول هو كتاب أنساب الأشراف، تناول فيه أنساب الأشراف حسب قرابتهم للنبي ﷺ وفتوح البلدان وهوالكتاب الآخر، ليس إلا موجزاً لكتاب شامل في هذا الموضوع. واستهله بما وقع من الحروب بين النبي واليهود، وحروبه مع أهل مكة والطائف. ثم يتلو ذلك ذكر حركة الردة، وفتوح الشام والجزيرة وأرمينية، ومصر والمغرب والعراق وفارس. وتخلل الرواية التاريخية ملاحظات بالغة الأهمية عن تاريخ الحضارة والأحوال الإجتماعية، ومثال ذلك ما أورد عن وظائف الدواوين، والصراع مع بيزنطة لأسباب منها: مسائل الضرائب، واستخدام الخاتم، والنقود، وتاريخ الكتابة العربية. ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ الفتوح الإسلامية.

وما اشتهر به البلاذري من الصدق وروح النقد، أقرّ به الجميع، إذ لم يكتف بسماع الروايات من أوثق علماء بغداد، بل كان يتكبد الأسفار بحثاً عن الحقيقة، يضاف إلى ذلك ما اشتهر به من سلامة الذوق في انتقاء ما يستحق الرواية من بين ما اجتمع له من المواد.

وطبع هذا الكتاب بمصر أكثر من مرة.

- **الجبرتي**، عبد الرحمن بن حسن الحنفي. «**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**». بولاق، ١٢٩٧هـ (١٨٧٩ - ١٨٨٠م)، ٤ مج.

ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م، لأسرة حبشية، موطنها جبرت، واستقرت بالقاهرة منذ أجيال عديدة، واشتهر أفرادها بالعلم، وتولّى جماعة منهم رواق جبرت بالأزهر، وأشهرهم والد المؤرخ الجبرتي، الذي كان يقوم بتدريس علم الفلك بالأزهر وكان بيته مركز التقاء العلماء ورجال الدين،

يضاف إلى ذلك أنه كان على صلة بالدوائر المملوكية العثمانية الحاكمة. وفي هذه البيئة نشأ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، فحافظ على تقاليد أسرته في العلم، إذ كان من أشهر العلماء، واتصل بالبكوات المماليك، وشهد ما وقع بمصر من أحداث زمن العثمانيين والحملة الفرنسية ومحمد علي.

امتاز الجبرتي عن سائر مؤرخي مصر العثمانية بأنه يعطي صورة كاملة للمجتمع المصري وقتذاك، وحرص على استقصاء الحوادث والموضوعية، ويشير إلى إنه: «لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، لميل نفسي أو غرض جسماني». وعلى الرغم مما توافر في كتاب الجبرتي من مادة عن الطوائف كالتجار وأرباب الحرف وأهل الذمة، إلا أنه يركز في تاريخه وتراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي. وكان شديد النقد لما حدث بمصر في زمن محمد علي، ولا سيما السنوات الأولى من حكمه. وعينه نابليون في الديوان الذي يتألف من أعيان البلاد، وفي السنوات الأخيرة من حياته كان مؤقتاً للصلاة وشهر رمضان. ولقي الجبرتي مصرعه سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م، في طريق شبرا أثناء رجوعه إلى القاهرة، وذلك فيما يقول بتدبير محمد علي.

ويؤلف كتاب الجبرتي، تاريخاً للأحداث والوفيات. واستهله المؤلف بمقدمة موجزة حتى العصر العثماني، وينتهي الجزء الأول بنهاية مشيخة محمد بك أبي الذهب. واستهلت حوليات سنة ١٠٩٩، فظل المؤلف حتى ١١٧٠هـ يركن في كتابته إلى ذاكرة الشيوخ والسجلات الرسمية والنقوش الواردة على المقابر. ومنذ ١١٩٠ شرع في أن يورد بإسهاب وصف ما يقع من أحداث، ولذا كان لكتابته قيمة وأهمية مذكرة الرجل المعاصر. ولا نشك مطلقاً فيما اتصف به الجبرتي من استقلال في الرأي وسلامة الحكم والتقدير فضلاً عن إدراكه ما للدقة والأمانة من مكانة، وما للمصدر الأصلي من أهمية.

ويعالج الجبرتي في الجزء الثالث أحوال مصر زمن الحملة الفرنسية، وألّف منه كتابه المعروف بإسم مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، وقد

طبع أخيراً بالقاهرة طبعة غير محققة. وللجبرتي الفضل فيما كان من ترجمة عربية لكتاب المرادي المعروف بسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، القاهرة، ١٢٩١، الذي أوحى له بما أورده في كتاب عجائب الآثار من تراجم. ولما لهذا الكتاب من أهمية في تصوير الحياة الإجتماعية، أفاد منه أدوارد لين في حواشيه على كتاب ألف ليلة وليلة.

وجرت ترجمة كتاب الجبرتي إلى الفرنسية (بالقاهرة ١٨٨٨م) بعنوان:

Merveilles Biographiques et Historiques du Sheikh el-Djabarti.

- **سبط الجوزي**، يوسف بن قزاوغلي. «**مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**» حيدر آباد، الهند، ١٣٧٠ - ١٣٧١هـ ١٩٥١/ ١٩٥٢م، ٢ مج.

وهو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي، حفيد ابن الجوزي من جهة الأم، كان أبوه قزاوغلي مملوكاً للوزير ابن هبيرة، الذي اعتقه.

ولد ببغداد سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م، وقام جده على تربيته وتعليمه. ثم أخذ منذ سنة ٦٠٠هـ يطوف بالبلاد، حتى استقر به المقام في دمشق، فصار يمارس بها مهنة التدريس والخطابة، حتى مات سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٥٧م.

ومن أشهر مؤلفاته العديدة، كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان الذي يقع في أجزاء، تناول الجزء الأخير منه، الذي طبع في الهند في قسمين، ما وقع من الأحداث بين سنة ٤٩٥، ٦٥٤هـ.

فشمل القسم الأول السنوات من ٤٩٥ حتى ٥٨٩هـ، وعالج القسم الثاني السنوات من ٥٩٠ حتى ٦٥٤هـ. ولم يختلف في نهجه عن الطريق الذي سلكه جده. على أن هذه الفترة التي يعالجها هذا الكتاب تعتبر من الفترات الحاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، إذ شهدت نشوب الحروب الصليبية، ولذا ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبيين، المؤرخين المسلمين، في الجزء الثالث، كل ما وقع من أحداث في الفترة بين ٤٥٢ - ٥٣٢هـ. واتفق في كثير من الروايات مع ابن الأثير والمؤرخين البيزنطيين.

قام (J. R. Gewett) على نشر هذا الجزء بالفوتوغرافيا، في شيكاغو ١٩٠٧م.

- **السخاوي**، محمد بن عبد الرحمن بن محمد. «**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**». القاهرة، ١٣٥٣ - ١٣٥٥، ١٢ مج.

مؤرخ، ومحدث، ومفسّر وأديب، ينتمي إلى بلدة سخا الحالية بمحافظة كفر الشيخ ومولده ووفاته بالقاهرة (٨٣١ - ٩٠٢هـ / ١٤٢٧ - ١٤٩٧م). وكان معظم شيوخ السخاوي من رجال الدين، ومن أشهرهم ابن حجر العسقلاني، الذي أخذ عنه أكثر تصانيفه في الحديث والتاريخ والتراجم، وتنقل السخاوي بين مصر والشام والحجاز، ودرس الحديث بالقاهرة، ودأب أثناء ذلك كله على التأليف في الحديث والتاريخ.

صنّف السخاوي نحو مائتي كتاب في الحديث والفقه والطبقات والتاريخ، وأهم ما كتبه في التاريخ «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع»[1]، وهو معجم زاخر في إثني عشر جزءاً، خصّ للنساء جزءاً منه. وتناول فيه الترجمة لأهل القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي)، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء، والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء، وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي، شرقاً وغرباً، بل أنه أورد بعض المشهورين من أهل الذمة، ورتبه على حروف المعجم، على أن مؤلفه لقي النقد من المؤرخين المعاصرين أمثال ابن أياس والسيوطي، نظراً لما ابتلى به كتابه من تصغير الكبير، وتحقير الصغير، ممّن ترجم لهم.

- **سعيد بن بطريق**، البطريرك افتيشيوس. «**كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق**». نشره لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٥، ٢ مج.

وهو من منشورات:

Corpus Scriptirum christianorum Ouentrium

(١) للسخاوى كتاب اخر مهم تحت عنوان «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ويبحث فى أصل التاريخ وتعريفه والفرق بينه وبين بعض العلوم الأخرى وموضوعات عديدة متصلة بالتاريخ. وقد نشر مجددا فى بيروت عام ١٩٨٣ عن دار الكتاب العربى.

Scriptores Arabici Textus Series Tertia - Tomus VI

وعنـوان الكتـاب في هذه السلسلـة ما يأتـي : Eutychu patriarchal Alexandrini Annales. Edit. L. Cheikho, Beryti 1906.

وهو طبيب مؤرخ من أهل مصر. ولد بالفسطاط سنـة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م وصـار بطـريركاً للإسكنـدرية سنـة ٣٢١هـ / ٩٣٣م، واتخـذ لقـب (Outoquious) وهو تحريف للفظة (Eutychius) ، وهـو الـذي أطلق إسـم اليعاقبة على السريان الذين اتبعـوا تعـاليم يعقـوب البرادعي المتوفـى سنـة ٥٧٨م. واستمر في بطريركية الإسكندرية سبع سنوات، ومات سنـة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م.

وبرع سعيد بـن البطـريق في كل ما اتقنه النصارى من العلوم، وكان عالماً بأمور دينهم، وألف كتاباً في الطب، غير أن شهرته ترجع إلى مؤلفاته في التـاريخ، ومنهـا نظـم الجوهـر في التـاريخ، الجـدل بين المخـالف والنصراني.

وتناول في كتابه الـذي أهـداه إلـى أخيه عيسـى، وعالـج فيه تواريخ المسيحيين وأعيادهم منذ الخليقة إلى سني الهجرة الإسـلامية، وجمعـه من التوراة والإنجيل وباقي الكتب القديمة والمحدثـة، كيمـا يفيد منـه شبـاب المسيحيين. وأورد فيه قصص أنبياء اليهـود، وملـوك الفـرس واليونـان والرومان. وتناول ظهور المسيحية، وما تفرع عنها من مذاهب دينية مختلفة، والمجامع الدينية وقراراتها، وشرح ما كان من الاختلاف بين المسيحيين في المسيح، والطبيعة البشرية والطبيعة الآلهية في المسيح.

- **السيوطـي**، جلال الـدين. كتـاب «**حسـن المحاضـرة في أخبـار مصـر والقاهرة**». القاهرة، مطبعة الوطن، ١٢٩٩هـ/١٨٨٧م. جزءان في مجلد واحد.

يعتبر السيوطي أغزر المؤلفين كتابة في العصر المملوكي وفي الآداب العربية. ينحدر من أسـرة فارسية استقـرت بأسيوط منـذ زمـن بعيد. وولّـي وظائف عديدة، ومولده بالقاهـرة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، لزم أحـد الصـوفية من أصدقاء أبيه. درس الفقه والنحو وجرت إجازته بتدريس العربية والافتـاء،

ويشير إلى أنه تبحر في سبعة علوم، التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء. ومات سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

وما كان للسيوطي من نشاط أدبي، بدأه منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره امتاز بالوفرة والتنوع، إذ أن مؤلفاته بلغت نحو ٥٦١، غير أنها شملت إلى جانب الكتب الهامة، رسائل قصيرة. وما صنفه من كتب تعتبر في الوقت الحاضر بالغة الأهمية، لما زخرت به من المادة، ولما انطوت عليه من اقتباسات من كتب كثيرة مفقودة.

ومن أشهر ما كتبه في التاريخ، كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تناول في الجزء الأول منه ما ورد عن مصر في القرآن والحديث وعند المؤلفين القدامى، وتاريخ مصر منذ الخليقة، وما بها من عجائب، ثم ما كان من فتوح مصر، وما أقامه المسلمون من منشآت. ثم أشار إلى من كان بمصر من طبقات الفقهاء والمحدثين والزهاد والصوفية وائمة النحو واللغة والحكماء والأطباء والمنجمين والقصاصين والمؤرخين والأدباء. وعالج في الجزء الثاني أخبار أمراء مصر حتى زمن الفاطميين، ثم أورد باختصار تاريخ الفاطميين والأيوبيين، وأشار إلى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر، وإلى ما كان للسلاطين المماليك من نظم ورسوم وتقاليد، ووصف معالم مصر في زمنه، كالجوامع والمدارس، وفيضان النيل، وما كان بمصر من أشجار ونباتات وخضروات. يضاف إلى ذلك اهتمامه بفئات القضاة على اختلاف مذاهبهم.

هذا الكتاب طبع بالحجر بالقاهرة ١٨٦٠م، وعن هذه الطبعة جرى نشره ١٢٩٩، ١٣٢١هـ بالقاهرة.

- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير. «**تاريخ الأمم والملوك**». نشره وقدّم له، وحققه، دي جويه وجماعة من المستشرقين، ليدن، ١٨٧٦ - ١٩٠١م، ١٣ مج، ٢ مج للفهارس والتعليقات.

عاش المؤلف في الفترة (٢٢٤ - ٣١٠هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م) ولد بآمل

بطبرستان، بدأ شغفه بالعلم في سن مبكرة، واشتهر بمتانة الخلق والأباء وعزة النفس وتلقى دراسته في التاريخ والفقه وتفسير القرآن واللغة والنحو والأخلاق والرياضيات والطب، على شيوخه بمصر والشام وبغداد والكوفة والبصرة والري.

لم تصل إلينا كل مؤلفات الطبري، وأشهر ما بلغنا منها، تفسيره للقرآن المعروف بإسم جامع البيان في تفسير القرآن، وكتابه في التاريخ العام المعروف بتاريخ الأمم والملوك أو أخبار الرسل والملوك.

والكتاب في صورته الحالية ليس إلا مختصراً لمؤلف يبلغ في الضخامة عشرة أمثال هذا الكتاب.

واستهل الطبري تاريخه بعد المقدمة، بتاريخ الخليقة والأنبياء وملوك العصور الغابرة، ثم تلى ذلك الساسانيين، ثم السيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين ثم تاريخ الأمويين، واختص العباسيين بالقسم الأخير من كتابه الذي يبلغ أربعة أجزاء في طبعة ليدن.

ومنذ بداية التاريخ الإسلامي، جرى ترتيب المادة على حسب السنوات، وانتهى هذا الكتاب عند سنة ٣٠٢هـ / ٩١٥م، ثم ذيل عليه مؤرخين آخرون، منهم تلميذه أبو محمد القرغاني، وأبو الحسن الهمداني الذي ألّف تكملة تاريخ الطبري حتى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، غير أن الجزء المعروف منه ينتهي عند ٣٧٤هـ / ٩٨٧م. وفي طبعة ليدن يتلو أجزاء تاريخ الطبري، كتاب صلة تاريخ الطبري لغريب بن سعد الكاتب الذي يعالج الفترة الممتدة من (٢٩٠ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٣ ـ ٩٣٢م).

والواقع أن تاريخ الطبري يعتبر أول كتاب في التاريخ العام، أكمل به الطبري، ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو الطبقات كابن سعد، واليعقوبي والدينوري والواقدي والبلاذري وابن إسحاق. وإذ ضاع أكثر ما دون سابقوه، احتفظ بما سجله عن هؤلاء، ويعتبر أيضاً تمهيداً لمن جاء بعده، ومصدراً أصيلاً من مصادرهم.

وما أورده الطبري من الروايات أسندها إلى أصحابها، فحفظها بذلك من الضياع، وصارت بالغة الأهمية للمؤرخين الذين يدرسون تاريخ صدر الإسلام. ولذا قال المؤرخ الإنجليزي «تريفليان» إن محافظته على الروايات المختلفة هي أعظم ما أهداه إلى الباحث في العصر الحديث.

وجرى طبعه بالقاهرة، المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٦، في ١٣ جزءاً، وفي دار المعارف منذ ١٩٦٠ بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

**عبد الرحمن بن نصر الشيزري. «كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة»** نشره الباز العريني. القاهرة ١٩٤٦.

نشأ وتربى بشيزر بالشام، وتولى وظيفة القضاء في طبرية، ولعله كان يجمع إلى جانب عمله بالقضاء، مباشرته لوظيفة المحتسب، ومات الشيزري حوالي سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين.

ـ **عماد الدين الأصفهاني**، أبو عبدالله محمد بن حامد بن عبدالله. **«كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي»**. ليدن، لندبرج ١٨٨٨م.

ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م. وينتمي إلى أسرة ولي كثير من أفرادها وظائف هامة في الدولة السلجوقية، وفي حكومة الخلافة العباسية. درس الفقه والحديث على أساتذة المدرسة النظامية ببغداد، وبرع في نظم الشعر وصناعة الكتابة وتقلب في بعض الوظائف في حكومة الخلافة العباسية، ثم انتقل إلى دمشق بعد اضطراب الأمور في بغداد، فدرس بالمدرسة النورية بدمشق، فذاع صيته ودخل في خدمة نور الدين ثم ابنه الصالح. ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين بإشارة القاضي الفاضل ٥٧٠هـ / ١١٧٥م. فلم ينقطع عن مصاحبة صلاح الدين، حتى إذا مات ٥٨٩هـ / ١١٩٣م اختلفت أحوال العماد، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف، حتى مات بدمشق سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م.

خص العماد الكاتب، صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته التي يبلغ عددها أحد عشر كتابا، وهما كتاب البرق الشامي، وكتاب الفتح القسي.

وأشهرهما، كتاب الفتح القسي، الذي استهله بوصف الاستعدادات لمعركة حطين التي دارت سنة ١١٨٧م، وانتهى فيه إلى وفاة صلاح الدين، وتقسيم دولته سنة ١١٩٣، فتناول نفس الفترة التي عالجها ابن شداد.

يمثل كتاب الفتح كل خصائص الأسلوب السائد وقتذاك في كتابة الرسائل، لما تضمنه من نماذج البيان والبلاغة من الوقائع والأحداث، وبما انطوى عليه من استهلالات ومقدمات حافلة بالسجع في رواية الأحداث، وبما اتصفت به عباراته من الحلية والزخرف، التي اعتبرها القراء في الغرب، مجردة من المضمون، وكل ذلك يعلن إلى حد كبير ما أصاب هذا الكتاب من الإهمال النسبي، على الرغم من أهميته كمصدر تاريخي له قيمته.

وعلى الرغم من عيوب عماد الدين في الكتابة، فإن ما ساقه من فقرات كان يزينها ويزيد في اتقانها وأحكامها بين براعته في اللغة ومهارته اللفظية، ومن الخطأ الاعتقاد في أن كتاب عماد الدين ليس ألا تمجيداً لأعمال صلاح الدين. فمن العسير أن نصادف فيه فقرة واحدة، أفردها لمدح صلاح الدين على النحو المعروف في المبالغة في المدح. فالأحداث وتحركات الجيوش وسائر الناس، كل ذلك اهتم به عماد الدين. فما حازه صلاح الدين من مكانة، يرجع في الواقع إلى أنه الروح المحركة لكل هذه الأحداث. يضاف إلى ذلك إن عماد الدين كان يعجب بصلاح الدين عن إيمان، فصوّره على أنه رجل بالغ الإنسانية، مفطور على السخاء، تجاوز سائر الأمراء في إنسانيته، واشتهر بالتواضع. وعلى الرغم من أنه لم يكن معصوماً من الخطأ، فإنه تغلغل في نفسه من الاعتقاد الراسخ ما سانده في حروبه، وما صادفه من فشل. ولم يكن في هذا شيء من المبالغة إذ أن صلاح الدين ليس سوى ذلك.

طبع هذا الكتاب أيضاً مرتين بالقاهرة، ١٣٢١، ١٣٢٢هـ.

ـ **عمر بن إبراهيم الأوسي الأنصاري. «تفريج الكروب في تدبير الحروب»** تحقيق وترجمة دكتور جورج سكانلون. من منشورات الجامعة الأميركية بالقاهرة، ١٩٦١م، نشره وترجمه إلى الإنجليزية مع مقدمة طويلة بعنوان:

A Muslim Manual of War.

كل ما هو معروف عن حياة المؤلف ما أشار إليه الناشر من أنه عاش زمن السلطان فرج بن برقوق، وإنه ينتمي إلى أسرة عريقة في حلب، ثم صار قاضي قضاة الحنفية بمصر. ومات بالقاهرة سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م.

ونظراً لأنه شغل وظيفة عسكر، عرف نظام الجيش المملوكي، ولما وقع في أسر تيمورلنك بالشام، وقف على ما عند المغول من نظام حربي وخطط وفنون عسكرية، وأشار إلى ما كان معروفاً عند المغول من طريقه لتعبئة الجيش للقتال. ويشير إلى أنه ألّف الكتاب ليفيد منه الطلاب الذين يتلقون الفنون العسكرية في القلعة. وتناول المؤلف في الفصل الأول ما ينبغي اتخاذه من الحذر والتحرز من العدو، وشرح في الفصل الثاني الاستحكامات وأساليب الدفاع، بينما عالج في الفصل الثالث، استطلاع أخبار العدو، بإيقاد النيران على رؤوس الجبال، واستخدام الحمام الزاجل، والجواسيس، وما هو ملحوظ في هذا الكتاب، إن المؤلف لم يشر إلى كبار المؤلفين في الفنون الحربية، أمثال نجم الدين الأحدب، ولا جين الحسامي، أو طيبغا أو محمد بن منكلي، أو محمد بن عيسى الحنفي مؤلف كتاب السؤال والأمنية.

وقام لويس مرسييه سنة ١٩٢٢ في باريس بنشر كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسي، والحق به ثبتاً يضم ما جرى تصنيفه في البيطرة والبيزرة والفروسية، وأضاف ريتر إلى هذه المؤلفات مافات مرسيه من المصنفات، وذلك في المقال الذي نقد فيه كتاب مرسييه، والمنشور في(Der Islam XVIII 1929).

ـ المسعودي، أبو الحسن علي. «**مروج الذهب ومعادن الجوهر**». بولاق. ١٢٨٣هـ، ٢ مج.

ولد ببغداد من أسرة عربية، وشغف بالسفر منذ حداثته، فطاف بفارس، والهند، وسيلان، وسار بصحبة التجار إلى بحر الصين، وإلى زنزبار

وعمان، وبلغ في طوافه بحر قزوين، وفلسطين والشام ومصر، ومات بالفسطاط سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٦م.

لم يكن يدفعه للسفر والرحيل ميله للمغامرة فحسب، بل الرغبة في الاستزادة من العلم، فأحاط بما كان معروفاً في زمنه من المعرفة، كالفقه وأصول الدين، والفلسفة والسياسة، فضلاً عن ملاحظاته وتجاربه أثناء حله وترحال.

وعلى الرغم من كثرة مؤلفاته، التي أوردها دى جويه في تصديره لكتاب التنبيه والإشراف (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية)، والتي ضاع معظمها، فإن شهرة المسعودي جاءت من اشتغاله بالتاريخ.

وتضمّن كتابه في التاريخ، وهو المعروف بمروج الذهب، خلاصة ما كتبه في مؤلفه الضخم، أخبار الزمان، وكتاب الأوسط، ولم تصلنا منهما نسخ كاملة. وفرغ من تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م، وراجعه في ٣٤٦هـ / ٩٥٦م.

واستهل الكتاب بذكر الخليقة، وبعد عرض قيم قصير للأوضاع الجغرافية، للبلاد الواقعة على أطراف العالم الإسلامي، أخذ يناقش أخبار الملوك والأمراء السابقين على الإسلام، في الشرق والغرب، وفي البلاد العربية، وما كان عندهم من ديانات، وأسهب في التاريخ الأسطوري لمصر، وأخبار عجائبها. ثم جرى على النهج التقليدي في كتابه التاريخ الإسلامي، مبتدئاً بسيرة النبي، ثم الخلفاء الراشدين، وأعقب ذلك بتاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية، حتى سنة ٣٣٦هـ. ويشير المسعودي في خاتمة كتابه، إلى أنه «أتى على أخبار كل عصر، وما حدثَ فيه من الأحداث، وما كان فيه من الكوائن، مع ما أسلف من ذكر البر والبحر والعامر منهما والغامر، والملوك وسيرها، والأمم وأخبارها». وإلى أنه تجشم كثيراً من التعب في الحصول على الروايات، وأنه لم ينتصر فيه لمذهب، ولم يتعصب لقول، ولا حكى عن الناس إلا مجالس أخبارهم.

ونشر هذا الكتاب في باريس مع ترجمة بالفرنسية ، في ٩ أجزاء، بين ١٨٦١ - ١٨٧٧م بعنوان : Les prairies d'or

وقام على هذا النشر: .C. Barbier de Meynard et pavet de courteille

وطبع بالقاهرة أيضاً سنة ١٣١٣هـ، وعلى هامش ابن الأثير: الكامل ، (بولاق ١٣٠٣هـ) ، وعلى هامش المقريزي : نفح الطيب . القاهرة ، ١٣٠٢هـ، جـ ١ - ٣.

- **مسكويه**، أبو علي أحمد بن محمد. «**تجارب الأمم وتعاقب الهمم**». القاهرة، ١٩١٥ - ١٩١٦ ، ٣ مج .

(الجزء الأخير ذيل على كتاب تجارب الأمم ، للوزير أبي شجاع ، وتليه قطعة من تاريخ هلال الصابيء إلى سنة ٣٩٣هـ) .

كان جده مجوسياً ثم أسلم ، لم نعرف إلا النذر اليسير عن حياته ، وكل ما يصح معرفته عنه ، إنه كان خازن كتب الوزير المهلبي ، ثم ظفر بعطف الوزير ابن العميد، ثم ابنه من بعده ، أبي الفتح ، زمن عضد الدولة وصمصام الدولة بويه ، وتقلد وظيفة بالري زادت من قدره ونفوذه . وعكف أول الأمر على دراسة الفلسفة والطب والكيمياء. واشتهر مسكويه بالإصالة والصدق فيما يورده من الروايات .

وكتابه في التاريخ المعروف بتجارب الأمم يتناول تاريخ الدولة العباسية منذ سنة ٢٩٥هـ (خلافة المقتدر) ، حتى سنة ٣٦٩هـ، وأسهب في شرح أحوال الدولة في تلك الحقبة ، وما كان من نزاع بين العناصر المختلفة ، ووصف النزعات الاستقلالية ، والحروب مع الدول المجاورة ، كالبيزنطيين ، فضلاً عن اعتباره تاريخاً للدولة البويهية ، ويعتبر من المصادر الأصيلة لهذه الفترة الحاسمة من التاريخ الإسلامي ولا سيما فيما يتعلق بالنظم الإدارية والمالية والعسكرية . وتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) وترجمه إلى الإنجليزية أيضاً في ٣ أجزاء مارجليوث وأمدروز، بعنوان :

"The Eclipse of the Abbasif Caliphate"

ونشر بلندن، ١٩٢٠ - ١٩٢١م.

- **المقريزي**، أبو العباس أحمد بن علي بن القادر الحسيني. «**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**». بولاق، ١٢٧٠هـ ٢ مج.

كتاب عني فيه صاحبه قبل كل شيء بدراسة الخطط، حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن، على أنه يظهر أن المقريزي اعتمد، إلى حد كبير في تأليف هذا الكتاب على كتاب صنفه قبله الأوحدي المؤرخ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يعترف بأخذه منه.

وصدّر المقريزي هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق مبتدئاً بالإسكندرية، وعني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة، فجاء الجزء الثاني منه، وهو نصف الكتاب، ثبتاً زاخراً بأحوال القاهرة وأخبارها، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى. فشرح ما تحتويه القاهرة من الخطط وما يقع بها من الآثار، فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والقيساريات والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين والقلعة وما بها من منشآت، والجوامع والمساجد، والمعابد، والمقابر، وأرباب المذاهب الدينية المختلفة. وحرص المقريزي على أن يستند في وصفه إلى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخي، فاحتوى كل فصل على ما يلائمه ويشاكله من الأخبار، فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدّد من أخبار مصر. ولم يتردد المقريزي في تكرار الخبر إذا احتاج إليه، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب.

وقام «فييت» (Wiet) على نشر الكتاب نشراً علمياً، فأعاد طبع أجزاء منه في القاهرة في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار المصرية ١٩١١ - ١٩٢٣، ونشر أيضاً بالقاهرة في أربعة أجزاء ١٣٢٤، ١٣٢٥هـ.

**هلال الصابيء**، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابيء. «**تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وما تبقى من كتابه في التاريخ**». بتحقيق H. F. Amedroz بيروت، ١٩٠٤م.

ولد سنة ٣٥٩هـ، وكان صابئاً كأهل بيته، ثم اعتنق الإسلام سنة ٣٩٩هـ، وكانت أمه أخت المؤرخ الطبيب ثابت بن سنان بن قره. كان كاتباً لفخر الملك أبي غالب محمد بن خلف. مات سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م.

لم يبق من أعماله سوى ما نشره أمدروز، سنة ١٩٠٤م، من أجزاء تشمل كتاب التاريخ، وهو عبارة عن تذييل لكتاب صهره ثابت بن سنان، ويعالج ما وقع من الأحداث بين سنة ٣٦٠هـ، وسنة ٤٤٧هـ. وما نشره أمدروز اقتصر على السنوات ٣٨٩ - ٣٩٣هـ. وكان لهذا الجانب المنشور من القيمة ما أثار الأسى لما فقد منه. وعلى الرغم من أنه يعالج ما وقع من الأحداث في بغداد، فالواضح أنه أفاد من الوظيفة التي تقلدها، وهي كاتب الإنشاء، فيما توافر له من الوثائق الأصلية، وما ترامى إليه من الروايات، واستطاع أن يجمع الأحداث وينسقها في لغة سليمة وأسلوب رصين، وعبارة دقيقة.

أما كتاب الوزراء، فإنه، حسبما أشار المؤلف في مقدمه، ليس إلا تذليلاً على ما كتبه عن هذا الموضوع كل من الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١هـ، والصولي المتوفى ٣٣٥هـ/ ٩١٦م.

وهذا الجزء المطبوع من كتاب الوزراء يعالج الأفراد والأحداث الواقعة زمن وزارة ابن الفرات، والوزيرين اللذين خلفاه، وهما ابن خاقان، وعلي بن عيسى بن داود. ويشير المؤلف في المقدمة إلى أن الغرض، هو ذكر أخبار الوزارة في رواية متصلة غير منقطعة.

وظهرت طبعة جديدة لكتاب الوزراء، قام على تحقيقها ونشرها بالقاهرة سنة ١٩٥٨ الأستاذ عبد الستار فراج.

- **يحيى بن سعيد الأنطاكي**. كتاب «**ذيل التاريخ**». بيروت، ١٩٠٩.

وهو من أقارب سعيد بن البطريق، ولد بإنطاكية سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢ حيث درس بعض المؤلفات الشهيرة.

استهل كتابه بهجرة النبي ﷺ، وانتهى فيه عند سنة ٤٢٥هـ. عالج في

هذا الكتاب ما وقع من أحداث سياسية وعسكرية ودبلوماسية في الدولة البيزنطية، والخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، وأشار إلى ما كان من العلاقات بين بطريركيات الإسكندرية وإنطاكية والقسطنصينية، وإلى حروب الدولة البيزنطية في البلغار، وما وقع من الفتن والاضطرابات الداخلية.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى حرص المؤلف على أن يصنف حياة المجتمع والعلاقات بين العناصر المختلفة في هذه البلاد التي تعرض لها. ودأب أيضاً على أن يورد نصوص قرارات المجامع الدينية، والعهود والهدنات التي تقررت بين الأطراف المختلفة، وعالج الأحوال الاقتصادية ولا سيما عند اضطراب أحوالها بسبب انخفاض النيل أو سلوك بعض الخلفاء. وأشار إلى ما حدث من امتداد حدود الدولة البيزنطية زمن الأسرة المقدونية. ولما لهذا الكتاب من أهمية، اعتبره من المصادر الأصلية، كل المؤرخين البيزنطيين، الذين حرصوا على أن يطابقوا بين ما أورده من روايات، وما انطوت عليه كتابات البيزنطيين من أخبار، يضاف إلى ذلك ما يلمسه المؤرخ في هذا الكتاب من إدراك سليم عند مؤلفه، لطبيعة العلاقات وقتذاك بين الأمراء والملوك والأباطرة في الشرق والغرب.

- **اليونيني**، موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين، «**ذيل مرآة الزمان**». حيدر آباد، الهند، ١٣٧٤ - ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٤ - ١٩٥٥م. ٢ مج.

أصله من بعلبك، ولد سنة ٦٤٠هـ، وعاش بدمشق، وتلقى العلم عن جماعة من شيوخها، ثم صار شيخ بعلبك بعد وفاة أخيه. كان فاضلاً مليح المحاضرة، معظماً جليلاً، شديد المروءة والكرم، وتوفي سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م. له مختصر مرآة الزمان، في جزءين، تناول أحدهما أحداث سنوات ٤٩٣ - ٤٩٩هـ، وفي الثاني عالج الفترة من ٥٩٠ إلى ٦٥٤هـ.

أما ذيل مرآة الزمان فيقع في ٤ مجلدات، نشر منها مجلدان، الأول يورد الوقائع من سنة ٦٥٤ إلى أثناء سنة ٦٦٣هـ، ويشمل المجلد الثاني ما جرى في السنوات من ٦٥٨ إلى ٦٧٠هـ، ويشير في مقدمة المجلد الأول إلى

أنه بعد أن فرغ من اختصاره مرآة الزمان، أدرك أن المؤلف وقف عند سنة ٦٥٤هـ، وهي السنة التي توفي فيها، فآثر اليونيني أن يذيل بما يتصل به سببه إلى حيث يقدره الله تعالى من الزمان.

والواضح أن الدارس لهذا الكتاب، يدرك ما دأب عليه المؤلف من الإطالة في بعض المواضيع، والاقتصار في بعضها، غير أن المؤلف يبرر ذلك بأنه جمع هذا الذيل لنفسه، وذكر ما اتصل بعلمه، وسمعه من أفواه الرجال، ونقله من خطوط الفضلاء.

وهذه الفترة التي يعالجها ذيل مرآة الزمان، حافلة بما حدث من تغييرات سياسية واقتصادية وعسكرية في العالم العربي، فضلاً عن تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب، عند مقارنته بالمصادر المعاصرة في الغرب للحروب الصليبية.

## المؤلفات الإسلامية الجغرافية

- **ابن الحائك**، الحسن بن أحمد الهمداني. «**صفة جزيرة العرب**».
تأليف العلامة أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني اليمني المعروف بابن الحائك. ليدن، ١٨٨٤ م، بتحقيق هنري مولر.

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني نسبة إلى قبيلة همدان اليمنية. ولقد لقبه خصومه بإبن الحائك. ولا نعرف من تاريخه أكثر من أنه ولد بصنعاء ومات في سجنها عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وكانت معرفته بالجغرافيا الفلكية كبيرة، فضلاً عن خبرته الواسعة بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية. وقد استطاع أن يفك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوب جزيرة العرب. ترك عدة مؤلفات في الفلك والطبيعيات والجغرافية وغيرها وصلنا منها «كتاب الأكليل» وهو عظيم الفائدة في وصف اليمن وآثارها، ولم يعثر على سوى جزء منه. وكتاب صفة جزيرة العرب، وهو كتاب فريد في بابه حتى أن شبرنجر يعده هو وكتاب المقدسي أقيم ما ألف العرب في الجغرافية.

ويبدأ الكتاب بمقدمة وافية في الجغرافية الرياضية ، ثم يعقب ذلك وصف عام لمناطق الأرض بحسب توزيعها على الأقاليم السبعة . أما صلب كتاب الهمداني فهو وصفه لجزيرة العرب الذي يقع في خمسة أبواب رئيسية في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . ويعتمد في وصفه لليمن على معرفته بالبلاد وملاحظاته الشخصية بينما يعتمد في وصفه لسائر أقسام شبه الجزيرة على ما خلفه الجغرافيون اللغويون وعلى ما وقف عليه من أقوال الرحالة والحجاج ، ويختتم كلامه عن اليمن بفصل خاص يتحدث فيه عن عجائبها أو بمعنى أصح خصائصها التي لا يشاركها فيها بلد آخر . ويذكر مجموعة من الأشعار التي استخرجها من أقوال القدماء والتي ترد فيها أسماء جغرافية . ثم يضيف أرجوزة طويلة يصف فيها صاحبها أحمد بن عيسى الرادعي طريق الحج .

ويعتبر كتاب الهمداني أحسن مصنفات الجغرافية الإقليمية في القرنين التاسع والعاشر ولا يتفوق عليه في القرن العاشر إلا كتاب البيروني عن الهند . نشر الكتاب هنري مولر في ليدن سنة ١٨٨٤م مع ملحق للشروح والتعليقات .

- **ابن الجيعان** ، شرف الدين يحيى . «**التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية**» . جمع الشيخ الإمام شرف الدين يحيى بن المعتز . طبع في مصر ، ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م .

هو القاضي شرف الدين يحيى بن الجيعان[1] مستوفي ديوان الجيش في عهد السلطان قايتباي . وقد توفي في سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م .

ألف كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه المصدر الأول الذي يفصل مساحة الأراضي المصرية ومقدار خراجها بعناية ودقة دون أن يسقط منها شيئاً كما فعل إبن دقماق الذي له فضل السبق . ويتناول الكتاب الديار المصرية فيقسمها إلى قسمين رئيسين : الوجه

---

(١) هو غير القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد المعروف بابن الجيعان المتوفى ٩٠٢ هـ ، صاحب كتاب «القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف» تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، جروس - برس - طرابلس ١٩٨٤ . ويظن أن القاضي شرف الدين هو والد القاضي بدر الدين .

البحري ثم الوجه القبلي ويذكر عدد الأعمال في كل منها، ومقدار الخراج عليها، وعدد النواحي التي يشتمل عليها كل عمل. ثم يفصل الأعمال بذكر ما تحتويه من البلاد مرتباً على حدود الهجاء، ومن كان يمتلك تلك البلاد، ومن يمتلكها على عهده، ومقدار المخصص من أراضيها للرزق.

نشره سلفستر دى ساسي كتذييل لكتاب عبد اللطيف البغدادي «الإفادة والإعتبار» وسماه «ما بإقليم مصر من البلدان» ثم نشرته المكتبة الخديوية بمصر سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م بعناية المستشرق موريتز الذي راجع أسماءه على الأسماء الواردة في كتاب الإنتصار لواسطة عقد الأمصار وذيله بثلاثة فهارس أحدهما لأسماء الأماكن والآخر لأسماء الأعلام. أما الثالث فللمساجد والأضرحة وما شابهها.

**إبن الفقيه،** أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمداني.

**مختصر «كتاب البلدان»**. تأليف أبي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بإبن الفقيه. طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م. بعناية دى جويه. وهو الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية. يقع في ٣٣٠ صفحة وبه فهرست لأسماء الأماكن والأمم وآخر لأسماء الرجال والقبائل. ومقدمة باللغة اللاتينية.

أحد أهل الأدب في أواخر القرن الثالث الهجري. وهذا هو كل ما نعرفه عن الرجل ولعله ولد في همدان بإيران، وقد ذكروا له عدة كتب وصلنا منها كتاب البلدان الذي ألفه حوالي سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م وقد فقد الكتاب الأصلي الذي كان يتكون من خمسة مجلدات في أكثر من ألفي صفحة فلم يصلنا سوى المختصر الذي وضعه علي بن حسن الشيزري في عام ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م. وقد أشار ياقوت والمقدسي إلى الكتاب الأصلي وينقد الأخير منهجه العلمي نقداً قاسياً ولكنه لا يخلو من حقيقة، ولعل أكبر عيوبه أنه لا يسير على خطة سليمة فهو يبدأ بالحديث عن الفرق بين الصين والهند ثم يعود فيتناول بالوصف مكة والكعبة، والطائف والمدينة ومسجدها ثم تهامة ونجد والفرق بينهما، واليمامة، والبحرين، واليمن. ثم يعود فيكتب فصلاً عن انقلاب الهزل إلى

جد، والجد إلى هزل، وآخر في مدح التجوال. وينتقل مرة أخرى إلى الميدان الجغرافي فيتناول مصر والنيل، وبلاد النوبة والحبش والبجة، والمغرب والمقدس، ودمشق، والعراق، والروم، والبصرة، وفارس، وأذربيجان، وأرمينيا، وتركستان، والقوقاز. ويختلف الكتاب عن المصنفات التي سبقته في أنه لم يقصد إلى خدمة الإداريين وعمال الدواوين وإنما كان هدفه إمتاع المثقفين ولذلك غلب عليه الأسلوب الأدبي وخلط بين المعلومات الجغرافية والطرائف الأدبية.

نشره دى جويه في جملة المكتبة الجغرافية العربية سنة ١٨٨٥م.

- **ابن بطوطة**، محمد بن عبد الله. «**تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار**». المعروفة برحلة إبن بطوطة. تأليف محمد عبد الله بن محمد. أملاها علي محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبى الغرناطي. نشرها ش. ف. دفريمري، ب. ر. سانجيتني بنفقة الجمعية الآسيوية في باريس، ١٨٥٣ - ١٨٥٨م/ ١٢٦٩ - ١٢٧٤هـ.

٤ مج في كل صفحة ترجمتها بالفرنسية.

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، اللواتي قبيلة، الطنجي مولداً، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، واشتهر بإبن بطوطة. ولد في طنجة في السابع عشر من رجب سنة ٧٠٣هـ/ ٢٤ فبراير ١٣٠٤م. طوف بكل أرجاء العالم الإسلامي في أفريقية وآسيا وأوربا، وتعداه إلى غيره من بلاد المسيحيين والوثنيين فزار بلاد الروم والصين والهند وسيلان حتى أصبح بحق شيخ الجوابين المسلمين. توفي في فاس سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م.

أملى أخبار رحلاته بأمر السلطان إبن عنان المريني سلطان فاس علي محمد بن جزى الكلبى وأسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وفيها يتحدث عن رحلات ثلاث قام بها، الأولى أهم الرحلات وأطولها ولذا كان حديثها يستغرق معظم صفحات الكتاب، وقد قضى فيها ما يقرب من ربع قرن، وقد بدأها من طنجة قاصداً مكة لغرض الحج، ولكنه

أخذ يطوف بالبلاد فزار مصر والشام وبلاد العرب والعراق وبلاد الروم وفارس وشرقي أفريقية والهند وسيلان والصين، وبلاد ما وراء النهر وأرض الفلجا ثم عاد إلى فاس. أما الرحلة الثانية فكانت إلى الأندلس وقضى فيها شهوراً في وقت كان المسلمون يعانون فيه أخطر مرحلة من تاريخهم بعد زوال معظم ملكهم في إسبانيا. وحديثه عن هذه الرحلة مقتضب بعكس حديثه عن رحلته الأولى. وكانت الرحلة الثالثة والأخيرة إلى السودان الغربي، وبلغ فيها أعالي نهر النيجر واستغرقت الرحلة عامي ٧٥٣ ـ ٧٥٤هـ/ ١٣٥٢ ـ ١٣٥٣م. وتعد رحلة إبن بطوطة من أهم كتب الرحلات في العصور الوسطى نظراً لإتساع ميدانها فقد قطع إبن بطوطة في أسفاره ما يربو على ١٢٠ ألف كيلو متر أو نحو ثلاثة أمثال محيط الكرة الأرضية. وأنفق من عمره ثمانية وعشرين عاماً لا يقر له فيها قرار.

نشرت الرحلة كاملة لأول مرة في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية ومقدمة علمية تحليلية طويلة في أربعة أجزاء فيما بين عامي ١٨٥٣، ١٨٥٨م بعناية دفريمري وسانجينتي. وعن هذه الطبعة طبعت الرحلة في القاهرة مرتين، الأولى فيما بين عامي ١٨٧١، ١٨٧٥، والأخرى في سنة ١٩٠٤م وقد ترجمت أجزاء منها إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والمجرية والإيطالية والتركية.

ـ **ابن حوقل**، أبو القاسم محمد. **«كتاب صورة الأرض»**. تأليف أبي القاسم بن حوقل النصيبي. الطبعة الثانية، القسم الأول طبع في ليدن، بمطبعة بريل ١٩٣٨م، القسم الثاني بنفس المطبعة ١٩٣٩م. بعناية كرامرز J.H. Kramers الذي نشره ضمن مجموعة "Opus Georgrap-hicum" وهو الجزء الثاني في هذه المجموعة.

هو من مدينة نصيبين بالجزيرة. وقد اشتغل بالتجارة فزار أفريقية الشمالية والأندلس ونابلي وصقلية، وعرف عن كثب العراق وفارس وجزءاً من الهند. ألف كتاب «صورة الأرض» الذي تحمل بعض مخطوطاته عنوان «كتاب المسالك والممالك» وقد احتذى في تنظيمه نهج السابقين وبخاصة الأصطخرى الذي التقى به ونقل عنه، ولكنه يعرض مادته عرضاً دقيقاً

مفصلاً. وقد حصر اهتمامه في وصف بلاد الإسلام «إقليماً إقليماً، وصقعاً صقعاً. وكدرة كدرة لكل عمل» فبدأ بذكر ديار العرب لأنها عنده واسطة هذه الأقاليم ثم أتبعها بفارس، ثم ذكر المغرب ومصر، والشام وأجناده وجباله ومياهه من أنهاره وبحره وما على ساحله من المدن، ثم بحر الروم وكيفيته في ذاته، وشكله في نفسه وما عليه من المدن، ثم تكلم عن الجزيرة وكيفية دجلة والفرات عليها، ثم بلاد العراق ومياهها وبطائحها، وبلاد السند ومدنها وطرقها وما يصاحبها من بلاد الهند، ثم أذربيجان وطبرستان ومايليهما من الخزر، وخرسان ونهر جيجون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنه والشاس وخوارزم. ويعد كتاب إبن حوقل أوفى كتب المدرسة الجغرافية الكلاسيكية بشئون المغرب والأندلس، فهو يعطي صورة من أدق الصور للأندلس في العصر الأموي ويورد معلومات وافية عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية في تلك الديار، ويبين المحصولات المصدرة منها إلى المغرب ومصر، ويتحدث عن تجارة الرقيق الأوربي التي كان يقوم بها تجار متفرغون لها.

ترجم الكتاب إلى الإنجيليزية وطبع في لندن سنة ١٨٠٠م، وترجم الجزء الخاص بأفريقيا إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٤٢م، كما ترجم إليها القسم الخاص ببالرمو وطبع في باريس سنة ١٨٤٥م. ثم نشر نصه الكامل دى جويه ضمن المكتبة الجغرافية العربية. ثم أعاد نشره في ليدن المستشرق كرامرز ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م معتمداً على نص المخطوطة المحفوظة في خزانة السراي العتيق باستنبول برقم ٣٣٤٦ والتي يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م أي بعد مائة عام من تأليف الكتاب.

ـ **ابن خرداذبة**، أبو القاسم عبد الله بن أحمد. «**كتاب المسالك والممالك**». طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م. بعناية المستشرق دى جويه ١٨٣ ص. المجلد السادس من المكتبة الجغرافية العربية.

لا نعرف على وجه اليقين ميلاده أو وفاته. ولكن يظهر أنه ولد في نحو

عام ۲۰٥هـ/ ۸۲۰م. وتوفي حوالي ۳۰۰هـ/ ۹۱۲م. شغل وظيفة صاحب البريد والخبر بنواحي الجبال بفارس، وربما كان هذا هو الذي دفعه لوضع كتاب في الجغرافية. ذكرت له أسماء عشرة كتب في أدب السماع واللهو والشراب والطبيخ وجمهرة أنساب الفرس وغيرها. ولم يصلنا إلا كتابه المسالك والممالك الذي يعتبر أول مصنف كامل يصلنا في الجغرافية الوصفية، واستغرق تأليفه الفترة من ۲۳۲ إلى ۲۷۲هـ/ ۸٤٦ - ۸۸٥م وقد وضع الكتاب فيما يبدو لخدمة الإداريين وعمال الدواوين. ويتضمن القسم الرئيسي من الكتاب وصف طرق العالم الإسلامي بدرجات متفاوتة من التفصيل وإحصاء جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث الهجري، وملاحظات عن التقسيمات الإدارية، وقد يستشهد بالشعر عند الحديث عن بعض الأمكنة. وقد أفاد المؤلف من وظيفته الحكومية وإطلاعه على الوثائق الرسمية فاتسمت بيانات كتابه بالدقة ولكنها تفتقر إلى التبويب السليم. ولم يقتصر الكتاب على وصف الطرق وبيانات الخراج بل تتلو ذلك فصول عن تقسيم الأرض وعجائب العالم والأبنية المشهورة. واهتم المؤلف بالرحلات فحفظ لنا مادة مفيدة عن وصف الطرق في العهود الإسلامية الأولى. وظهر أثر الكتاب في مؤلفات من جاء بعده من الجغرافيين المتقدمين أمثال اليعقوبي وإبن رستة وإبن حوقل والمسعودي. وكانت المادة التي جمعها مصدراً لما كتبوه فيما بعد.

نشر الكتاب دي جويه في ليدن ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م معتمداً على مخطوطات ثلاث ومعه ترجمة فرنسية ومقدمة عن الكتاب وصاحبه وفهارس مفصلة بأسماء الأماكن والأمم والرجال والقبائل، فيكون هو وكتاب «نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، المجلد السادس من المكتبة الجغرافية العربية. Bibliotheca Geographorum Arabicorum

- **ابن دقماق**، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي. «**كتاب الإنتصار بواسطة عقد الأمصار**». تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن

محمد بن أيدمر العلائي الشهير بإبن دقماق عفا الله عنه ورحمه آمين يا رب العالمين. الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٨٩٣م.
جزء رابع وخامس في ١ مج.

الجزء الرابع في ١٣٦ ص (١٣٠٩هـ)، والجزء الخامس في ١٢٧ ص (١٣١٠هـ).

نشرته المكتبة الخديوية بعناية دكتور فولرز الذي أعطاه عنوان Description de L'Egypte

اشتهر المؤلف بإسم إبن دقماق وهو مشتق من تقمق التركية ومعناها المطرقة. عاش في زمن الظاهر برقوق. وتختلف الروايات في تاريخ وفاته، والأرجح أنه مات سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م.

ألف كتابه «الإنتصار بواسطة عقد الأمصار» وأتمه في سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، وكان الكتاب يتكون من عشرة أجزاء لم يعثر منها إلا على الجزأين الخاصين بمصر. ويبدأ الجزء الرابع بالباب السابع فيذكر عدد كور الديار المصرية على عهده وتقسيم البلاد إلى قسمين: الوجه القبلي أو الصعيد، والوجه البحري أو أسفل الأرض. ثم يذكر الفسطاط على اعتبار أنها أول الوجه القبلي، فيذكر سبب تسميتها، ويعدد دورها وحاراتها وخططها وحماماتها وقيسارياتها وفنادقها وبعض الحوادث الشهيرة المرتبطة بهذه الأماكن. ثم ينتقل إلى ذكر الوجه القبلي ويفصل بين بلاد كل كورة وقراها بحسب حروف المعجم. ويذكر مقدار الخراج المربوط عليها ومن يمتلكها وإسم الشهرة إن وجد وبعض الأخبار المأثورة عنها. ثم يعقب ذلك بذكر القاهرة. ويلاحظ أن المؤلف يذكر مساحة عدد كبير من بلاد الوجه القبلي وقراه على حين يسقط المساحة في معظم كور الوجه البحري. وينهي إبن دقماق الجزء الخامس بذكر ثغر الإسكندرية المحروس. ويتميز الكتاب بأن صاحبه كان كاتباً جاداً يتحرى الصدق في كل ما يذكر. وينسب ما ينقله إلى مصادره الأصلية.

نشرت الكتاب المكتبة الخديوية في سنة ١٨٩٣م بإشراف فولرز، ثم

نشرت ملحقاً له في سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٨م في ١١١ صفحة بعنوان «فهرست الأسماء الأعلام الواردة في الجزء الرابع والخامس من كتاب الإنتصار بواسطة عقد الأمصار لإبن دقماق» جمع وترتيب العالم الفاضل السيد محمد علي البيلاوي بمساعدة علي أفندي صبحي.

- **ابن رستة**، أبوعلي أحمد بن عمر. **«كتاب الأعلاق النفيسة»**. تصنيف أبي علي أحمد بن عمر. طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل ١٨٩٢م.

وهو القسم الأول من المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية (من صفحة ١ إلى صفحة ٢٢٩) التي عنى بنشرها المستشرق دي جويه.

لا نعرف عنه سوى أنه من أصفهان. وقد ألف كتابه الأعلاق النفيسة في نحو سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م وهو كالموسوعة منه سبعة مجلدات في تقويم البلدان، ولم يصلنا منه سوى الجزء السابع.

ويبدأ بالجغرافية الفلكية والرياضية، وكتابته في هذا الميدان وافية تتسم بالإحتراس ثم يخلص إلى وصف مكة والمدينة في أسلوب تعوزه الحيوية ولكنه يتصف بالدقة المتناهية وبخاصة فيما يتصل بتحديد الأبعاد، ثم يتحدث عن العجائب في المملكتين النباتية والحيوانية والمباني الشهيرة، ثم يتبع ذلك بوصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة بما فيها من المدن المشهورة، ويصف بلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء، والعراق ومدينة بغداد، ومصر. ولكنه لا يهتم بهذه الأمصار اهتمامه بإيران، ويرجع هذا إلى أصله الفارسي. وفي الكتاب فصل في الأوائل الذين أحدثوا الأشياء واقتدى بهم سواهم، وآخر في المتشابهين في أحوال شتى والمشتركين في كنية واحدة يتناول وصف صنعاء والأمبراطورية البيزنطية وبلاد الصقالبة ونواحي أصفهان، ثم وصفه للأنهار ولنواحي طبرستان. وفي آخر الكتاب وصف للطرق دقيق. والكتاب ككتاب المسالك والممالك لإبن خرداذبة يقصد به انتفاع كتبة الدواوين ولكن أسلوب إبن رستة أرقى وأدق.

نشر الكتاب المستشرق دي جويه ضمن المكتبة الجغرافية العربية في

ليدن سنة ١٨٩٢م. وللكتاب ترجمة ألمانية ظهرت سنة ١٩٠٥م.

ـ **أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود. «تقويم البلدان»**. تأليف إسماعيل بن محمود بن محمد بن عمر الملك المؤيد عماد الدين المعروف بصاحب حماه. باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م/ ١٢٥٦هـ. تصحيح وطبع م. رينو، ومالك جوكين دى سلان. ٣٥٩ ص، ومقدمة ٤٧ ص.

هو السلطان الملك المؤيد صاحب حماه، إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي، إبن جمال الدين محمود، بن المنصور محمد، بن المظفر تقي الدين عمر، بن نور الدين شاهنشاه، بن نجم الدين أيوب. ولد بمدينة دمشق في سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م وتوفي في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، ودفن بمدينة حماة. لم تحل حركته الدائبة كأمير وفارس محارب دون اشتغاله بالكتابة والتأليف، فترك كتباً نفيسة أهمها المختصر في أخبار البشر في التاريخ، وتقويم البلدان في الجغرافية الذي فرغ من تأليفه في سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، ومنه مخطوطة بمكتبة ليدن.

وينقسم الكتاب إلى قسمين: الأول منهما عرض عام يتناول فيه الأرض بعامة والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض ومساحتها والمصطلحات المستخدمة في الجغرافية ووصف البحار والبحيرات والأنهار والجبال، ثم يشرح المنهج الذي وضعه لكتابه. أما القسم الآخر وهو لب الكتاب فينقسم إلى ثمانية وعشرين قسماً كل قسم خاص بإقليم. وأقاليم أبي الفدا هي: بلاد العرب، مصر، المغرب، السودان، الأندلس، جزر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، الشمال، الشام، الجزيرة، العراق، خزستان، فارس، كرمان، سجستان، السند، الهند، الصين، جزر البحر الشرقي، الروم، أرمينيا، العراق العجمي، الديلم، طبرستان، خراسان، زابلستان، طخارستان، خوارزم، ما وراء النهر. ويهتم أبو الفدا بصفة خاصة بالشام والبلاد المجاورة لها. وطريقته في دراسة كل إقليم هي أن يعطي مقدمة عامة يصف فيها الإقليم وسكانه وعاداتهم وآثارهم القديمة، وتطول هذه المقدمة أو تقصر

بحسب أهمية الإقليم ومدى توافر المعلومات عنه في كتب الأقدمين، ثم يتبع ذلك بجداول تحتوي على أسماء بلاد الأقاليم والجهات المأهولة فيه، وتحديد طولها وعرضها والإقليم الجغرافي والفلكي الذي تقع فيه. وقد بلغ عدد البلاد التي ذكرها ٦٢٣ بلداً مرتبة على الأقاليم.

وطريقة الجداول التي استخدمها أبو الفدا طريقة مبتكرة لم يستخدمها جغرافي من قبل. كذلك يحرص أبو الفدا على أن يذكر المصادر التي اعتمد عليها واستقى منها مادته. وقد حفظ لنا بهذه الطريقة أسماء كثيرة من المصادر التي ضاعت فلم تصل إلينا. ويتميز كتاب أبي الفدا بصفة عامة بالأصالة، وبالدقة والوضوح مما حدا برينو كاتب مقدمته الفرنسية إلى القول بأن العصور الوسطى الأوروبية لم تعرف كتاباً يمكن أن يقارن بجغرافية أبي الفدا. وكان كتاب أبي الفدا من أقدم الكتب العربية التي عرفتها أوربا واهتمت بها فنشرت أجزاء منه وترجمت أجزاء. ثم نشره رينو ودي سلان كاملاً في باريس سنة ١٨٤٠م، وبعد ذلك بثمانية أعوام ظهر المجلد الأول من ترجمة الكتاب وفيه مقدمة طويلة عن تاريخ الجغرافية عند العرب بقلم رينو، وهي لا تزال حتى اليوم من أحسن ما كتب في الموضوع. ثم ظهر بعد ذلك المجلد الثاني وفيه ترجمة النصف الأول من الأصل العربي، ثم الثالث وفيه بقية الكتاب والفهارس. وكان الذي قام بهذه الترجمة هو المستشرق الفرنسي جيار الذي فرغ من نشرها في سنة ١٨٨٣م. ويعرف الكتاب في الترجمة الفرنسية بإسم «جغرافية أبي الفدا».

- **الإدريسي**، أبو عبدالله محمد بن محمد. «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**». تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الصقلي. ٤ مج مأخوذة بالتصوير الشمسي من نسخة مخطوطة بخط حسن بن حسن العجمي. فرغ من كتابتها في يوم الجمعة أول رجب سنة ٨٧٢هـ في ٢٩٩ لوحة. محفوظة بدار الكتب بالقاهرة.

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف العلوي، ولد بسبتة في سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، وتعلم في قرطبة، وتنقل في

أرجاء العالم الإسلامي وأوربا، ثم وفد على صقلية في عام ١١٣٨م فحبب إليه ملكها روجر الثاني الإقامة في بلاطة ببالرمو، فبقى بها إلى ما بعد وفاة روجر في سنة ١١٥٤م، ثم عاد في شيخوخته إلى مسقط رأسه سبتة وتوفي فيها في سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م.

ألف كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بتكليف من روجر، ولذلك يعرف الكتاب أحياناً بإسم «كتاب روجار» أو «الكتاب الروجاري»، وأنفق في تأليفه خمسة عشر عاماً جمع له فيها روجر كتب من سبقه، والعارفين بشئون البلاد المختلفة يدلون له بمعلوماتهم عنها، وفرغ من كتابه في العشر الأول من يناير الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. وقد بدأ الأدريسي عمله بأن نقش صور الأقاليم السبعة على قرص من الفضة الخالصة وفقاً للمعلومات التي تجمعت لديه، وبين فيها بلادها وأقطارها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وما بين بلادها من الطرقات المطروقة والمسالك المحددة. ثم رسم خرائط على الورق للأقاليم السبعة بعد أن قسم كل منها إلى عشرة أقسام، فتجمعت له من ذلك سبعون خريطة استخرج منها ميلر خريطة جامعة للعالم كما رسمه الأدريسي، وهي الخريطة التي عنى المجمع العلمي العراقي بتحقيقها وتصحيحها وإعادتها إلى أصلها العربي وطبعها في بغداد عام ١٩٥١. وضمن الأدريسي الخرائط السبعين كتابه الكبير الذي بدأه بمقدمة يصف فيها الأرض التي يتصورها على كل كرة محيطها إثنان وعشرون ألفاً وتسعمائة ميل، وهي معلقة في الفضاء كالمح في البيضة، وبعد وصف مجمل للأقاليم والبحار والخلجان يأخذ في وصف سطح الأرض بالتفصيل على الأساس السباعي للأقاليم، بيد أنه يقسم كل إقليم إلى عشرة أقسام رأسية ثم يتكلم على كل إقليم منها مبتدئاً من الشرق إلى الغرب. وأهم أقسام الكتاب هي التي أفردها للحديث عن شمال أفريقية وإسبانيا وصقلية وإيطاليا، فهو يصفها عن مشاهدة وخبرة شخصية، وكذلك تعتبر معلوماته عن أوربا الشمالية والبلقان معلومات وافية بمقاييس عصره، وهو فى هذا يمتاز عن سائر من سبقه من الجغرافيين المسلمين. وترجع أهمية

كتاب الأدريسي بصفة خاصة إلى أنه ظهر في جهة كانت مركزاً لإلتقاء الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وقد ظهر أثر هذا الإلتقاء الحضارى في كتاب الأدريسي.

ولم يطبع الكتاب حتى الآن طبعة كاملة. وكانت أول طبعة له هي الطبعة المختصرة التي ظهرت في روما سنة ١٥٩٢م تحت إسم «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق»، ثم ترجم هذا المختصر إلى اللاتينية جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني وهما من الآباء المارونيين ونشراه في باريس سنة ١٦١٩م. ثم تبع ذلك ظهور أجزاء متفرقة من الكتاب، فنشر دوزي القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس في ليدن سنة ١٨٦٤م، وطبع ميلر وصف الشام وفلسطين في ليبزج سنة ١٨٨٢م، وطبع أماري القسم الخاص بإيطاليا في روما سنة ١٨٨٥م. وترجمت بعض أجزاء الكتاب، ومنها ترجمة كوندى الإسبانية لوصف الأندلس التي نشرت مع الأصل في مدريد سنة ١٧٩٩م، وترجمة جوبير الفرنسية التي تناولت جزءاً كبيراً من الكتاب ونشرت في باريس سنة ١٨٤٠م.

- **الأصطخرى**، إبراهيم بن محمد الفارسي. **«المسالك والممالك»**.
تأليف أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخرى (المعروف بالكرخى) تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال. نشرته الإدارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م، ٢٥٠ ص.

هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي والمعروف بالكرخى في بعض الأحيان، وينسب إلى اصطخر من أعمال فارس. وقد توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي). ويبدأ الأصطخرى كتابه بمقدمة يشرح فيها الغرض من الكتاب والمنهج الذي أتبعه في تأليفه، والأقسام التي يقسم إليها بلاد الإسلام. ثم يدرس الخريطة السياسية للعالم المعروف له أي صورة الأرض مقسومة على الممالك، وهو يرى أن عماد ممالك الأرض أو ما يعبر عنه في مصطلحنا الحديث بالدول

العظمى أربعة هي: مملكة الصين، ومملكة الهند، ومملكة الروم، ومملكة الإسلام. وبالإضافة إلى هذه الدول الأربع يوجد عدد آخر من الشعوب ولكن الأصطخرى لا يحفل بها لأن انتظام الممالك في نظره إنما يكون بالديانات والآداب وتقويم العمارة وهذه لا حظ لها من ذلك كله. ويتناول الكتاب بعد ذلك الجغرافية الطبيعية في إيجاز، ثم يفصل الحديث عن بلاد الإسلام التي يقسمها إلى عشرين إقليماً يخص كلاً منها بفصل مستقل يعالج فيه العلاقات المكانية للإقليم، والأقسام الفرعية التي ينقسم إليها، والمظاهر الطبيعية المختلفة الموجودة فيه، والمدن الكبرى وأهميتها، والطرق وأطوالها، وربما عنى بين الحين والحين بأمور أخرى أقل أهمية في نظره كالنقود والمكاييل والموازين المستعملة في إقليم ما، أو القبائل التي تعيش في الإقليم ومنازلها، وربما استطرد أحياناً فذكر بعض النواحي التاريخية وسير الرجال.

وترجع أهمية الكتاب إلى عناية صاحبه بالخريطة كأساس للدراسة الجغرافية، وقد سبقه إلى ذلك أبو زيد البلخى ولكن الأصطخرى امتاز بخرائطه الإقليمية إذ أفرد لكل إقليم صورة على حدة، ولم يتناول العالم الإسلامي كأحزمة عريضة تضم عدداً من درجات العرض بل كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات. ويخلط كثير من الكتاب بين مؤلفي البلخى والأصطخرى. وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التي تنسب إلى البلخى في فهارس المخطوطات إنما تمثل مسودات لمصنف الأصطخرى. وكان ج. هـ. موللر أول من عنى بكتاب الأصطخرى في العصر الحديث فنشره مختصراً في سنة ١٨٣٠م وزوده بمقدمة باللغة اللاتينية. ثم نشره دى جويه كاملاً في ليدن سنة ١٨٧٠م بإعتباره المجلد الأول في مجموعة المكتبة الجغرافية العربية، وأخيراً أعادت نشره في سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م وزارة الثقافة في مصر ضمن السلسلة التي تصدرها بعنوان «تراثنا».

- **البكري**، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. «**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**». لأبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري. بتحقيق مصطفى

السقا. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٤ - ١٣٧١هـ/ ١٩٤٥ - ١٩٥١م، ٤ مج.

ولد في قرطبة سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، وتوفي فيها سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م هو من بيت شرف وإمارة، فقد كان آباؤه أصحاب ولبة وشلطيش حتى أخذهما منهم المعتضد بن عباد، فانتقلت الأسرة إلى قرطبة وعاشت فيها. وكان أبو عبيد من أهل اللغة والفقه والأنساب والأخبار والعلوم المختلفة. ترك عدة كتب في اللغة والطب والنبات والجغرافية ضاع معظمها وبقي منها شرحه لأمالي أبي علي القالي المسمى «سمط اللآلي» وجزء من كتابه الكبير «المسالك والممالك» وهو الجزء الخاص بوصف أفريقية وبلاد المغرب، ثم كتابه معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع وهو أول معجم جغرافي عربي مرتب بحسب حروف الهجاء، يتناول أسماء البلاد والمواضع الواردة في القرآن والحديث والشعر القديم وأخبار المغازي الأولى. وقد صدره بمقدمة طويلة درس فيها حدود الجزيرة العربية ومقاطعها ونواحيها، ثم تكلم على القبائل العربية المستوطنة فيها وعن هجراتها.

والكتاب كما يقول عنه دونري فريد لا يمكن مقارنته بشيء آخر، وهو يمثل مرجعاً لا يستغنى عنه من يشتغل بالتاريخ القديم والجغرافية والشعر الجاهلي. طبع الكتاب في جوتنجن سنة ١٨٧٦م، ثم طبع في القاهرة في أربعة أجزاء ١٣٦٤ - ١٣٧١هـ/ ١٩٤٥ - ١٩٥١م.

- **الدمشقي**، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب. «**نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**». تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ حطين وشيخ الربوة. طبع مدينة بطر سبرج، ١٨٦٦م.

ولد في دمشق سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م وأمضى بها معظم حياته وتوفي أماماً لمسجد الربوة فيه سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م. ونعت بالصوفي لميوله الصوفية. ألف عدة كتب أشهرها نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. وقد كتبه في نحو سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، أي قبل وفاته بعامين.

يقع الكتاب في تسعة أبواب خصص الأول منها للمقدمة التقليدية في هيئة الأرض وأقاليمها السبعة، واختلاف القدماء في ذلك. وعالج في الباب الثاني المعادن والجواهر والأحجار الكريمة، بينما تحدث في الباب الثالث عن الأنهار والعيون والآبار، ثم خصص ثلاثة أبواب للحديث عن البحار، فتناولها تناولاً عاماً في باب وأفرد باباً لكل من البحر المتوسط والمحيط الهندي (بحر الجنوب)، ثم تناول في الباب السابع الممالك المشرقية مبتدئاً من الشرق الأقصى حتى بلاد الشام. وفي الباب الثامن الممالك المغربية من مصر إلى المحيط الأطلسي. أما الباب الأخير ففي وصف انتساب الأمم إلى سام ويافث وحام أولاد نوح. ومع أن المؤلف قد رجع إلى الجغرافيين القدماء من أمثال إبن حوقل والمسعودي وياقوت الحموي فإن كتابه يمتاز بما يضم من معلومات عن مواضع كثيرة لم ترد في كتب من تقدموه. ويعتبر وصفه للشام أكمل ما عرف في هذا الموضوع حتى زمانه.

وقد طبع الكتاب في بطرسبرج (لننجراد) سنة ١٨٦٦م. كما طبع مع ترجمة فرنسية من عمل المستشرق الدانيمركي ميرن Mehren في كوبنهاجن سنة ١٨٧٤م.

ـ **الزمخشري**، أبو القاسم محمود بن عمر. «**كتاب الجبال والأمكنة والمياه**». تأليف محمود بن عمر بن محمد أبي القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي. نشره سالفروا دى جرافه في ليدن، ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦م/ ١٢٧١ ـ ١٢٧٢هـ، ٢٠١ص. كتب له مقدمة تحليلية باللاتينية ج. ج. جوينبول في ٣١ ص.

ولد الزمخشري في عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م، وتوفي بجرجانية خوارزم في سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م. اكتسب شهرته في تاريخ الثقافة العربية كمفسر معتزلى من الطراز الأول، ولكنه بجانب اهتمامه بالتفسير ترك كتباً في النحو واللغة والفنون المختلفة.

ومن كتبه في الجغرافية كتاب الجبال والأمكنة والمياه، رتبه على حروف المعجم، واهتم فيه بتحقيق الأعلام الجغرافية في جزيرة العرب بوجه

خاص. كما تناول بعض مواضع أخرى في الشام والعراق ومصر، ولكنه لم يهتم بها اهتمامه بالمواضع في الجزيرة العربية. وترجع أهمية الكتاب إلى عناية المؤلف بضبط الأعلام التي وردت في الحديث والسيرة النبوية. نشره سالفروا دى جرافه في ليدن ١٨٥٥ - ١٨٥٦م.

- **القزويني**، زكريا بن محمد. **«آثار البلاد وأخبار العباد»**. تأليف زكريا بن محمد بن محمود أبي عبد الله جمال الدين أبي يحيى الأنصاري القزويني. تقديم فرديناند وسنفيلد. جوتنجن، ١٨٤٨م/ ١٢٦٤هـ.

٤١٨ ص مع مقدمة بالألمانية ١٠ ص.

ولد في قزوين من إقليم الجبال بفارس سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م. وطاف بفارس والعراق والشام، وشغل منصب قاضي واسط الحلة بالعراق. وتوفي في سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م ترك كتابين كبيرين أحدهما في الطبيعيات وهو عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، والآخر في الجغرافية والتاريخ وهو آثار البلاد واخبار العباد، ويسمى أحياناً عجائب البلدان. وقد كتبه حوالي سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٠م، ويعطي فيه وصفاً للأرض بحسب التقسيم السباعي والمعروف للأقاليم. وفي داخل كل إقليم يصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار وفقاً لحروف المعجم، وبذلك فإن الكتاب سبعة معاجم صغيرة مستقلة كل منها خاص بإقليم. وهو لا يقف كما فعل كثير من الجغرافيين عند المملكة الإسلامية، بل يتعداها إلى ذكر البلاد الأوروبية، ويجمع من هنا وهناك طرفاً عن السكان وحياتهم، ويذكر غرائب كثيرة عن العالم في أوروبا وآسيا وافريقية وبلادها البعيدة مثل إيرلندة والهند والصين. ويبدو من كتاباته أنه اتصل بكثير من الرحالة الذين أتيحت لهم زيارة بعض المدن الأوروبية، فأورد في كتابه ذكر بعض المدن الفرنسية والألمانية والهولندية مثل إيطرخت Utrecht وأبولده Fulda ومغانجه Mainz وشلشويق Schleswig وأطربورونه Paderborn

- المسعودي، علي بن الحسين بن علي. **«كتاب التنبيه والإشراف»**.

لأبي الحسن علي بن علي المسعودي. طبع بعناية دي جويه. ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م.

وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية العربية. يقع في ٤٠١ ص، وملحق به فهرست بأسماء الأماكن والأمم وآخر بأسماء الرجال والنساء والقبائل.

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ - ٩٥٦ م[1] نشأ في بغداد، وجاء إلى مصر، وطاف بأقصى البلاد في طلب العلم، فزار فارس وكرمان والهند، ومنها ركب البحر إلى الصين، ثم عاد إلى مدغشقر فعُمان. وفي رحلة أخرى زار أذر بيجان وجرجان والشام، ثم استقر بالفسطاط وبها مات. وجمع في رحلاته العديدة من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد. وألف كثيراً من الكتب المفيدة في موضاعات شتى. وأشهر مؤلفاته الباقية «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في التاريخ، ومنها «كتاب التنبيه والإشراف» الذي أتم تأليفه في العام الذي توفى فيه. وهو سابع كتاب يؤلفه ومن ثم فهو يقدم فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلاً لكل مؤلفاته. وقد أودعه كما يقول في مقدمته لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها، وأقسام الأزمنة وفصول السنة، والرياح ومهابها وأفعالها، والأرض وشكلها ومساحتها وعامرها وغامرها، والنواحي والآفاق وتأثيراتها في سكانها، والأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، والإقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم. والأهوية وتأثيراتها، والبحار وأعدادها، ومصبات عظام الأنهار وما يحيط بها من الممالك. ثم يتكلم بعد ذلك عن تاريخ الأمم القديمة وملوكها. ومع أن حديث التاريخ يشمل الجزء الأكبر من الكتاب فهو يعد من عيون كتب المكتبة الجغرافية العربية، إذ يلخص فيه المؤلف نظريات القرن العاشر في الجغرافية الفلكية، ويفرد مكانة خاصة لنظرية الرياح، ثم يصف صناعات مصر

(١) ورد خطأ في الدليل الببليوغرافي ص ٥٤٧، في تاريخ وفاة المسعودي على أنه ٣٠٩ هـ - ٩٢١ م، فأثبتنا تاريخ وفاته الصحيح. انظر: يوسف أسعد داغر (ضبط وتحقيق): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ز، دار الأندلس - بيروت ١٩٦٥. انظر أيضاً مقدمة كتاب المسعودى: أخبار الزمان - ص ٢٠، دار الأندلس بيروت ١٩٦٦.

وتجارتها ومحصولاتها، ويقوم بمحاولة لتفسير المميزات النفسية حسب تأثير المناخ على الناس، وهي نظرية لم يلتفت إليها الجغرافيون الغربيون إلا في القرن العشرين. ويتناول المسعودي الجغرافية الوصفية بالطريقة القديمة المألوفة أي على أساس الأقاليم السبعة. ويفصل الحديث في وصف الإقليم الرابع الذي يقع فيه العراق. أما وصف البحار والأنهار فيصحبه وصف موجز للأقطار التي تجري فيها. ونجد في الكتاب أول محاولة لتصنيف سكان العالم حيث يقسم المسعودي الشعوب إلى سبع مجموعات أتنولوجية هي: الفرس، الكلدانيون ومعهم العرب، سكان أوروبا، الليبيون والأفارقة، الترك، سكان السند والهند، الصينيون.

طبع الكتاب في ليدن بعناية المستشرق دى جويه سنة ١٨٩٣م.

- **المقدسي**، شمس الدين محمد بن أحمد البشاري. «**كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**». جمع الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل الأديب الأريب المفنن المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه. الطبعة الثانية، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل ١٩٠٦م، ٣٩٨ ص.

يحمل عنواناً لاتينياً هو: "Descriptio Imperii Moslemici"

ولد في بيت المقدس عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦ - ٩٤٧م وهو حفيد بنّاء اشتهر ببنائه لميناء عكا في عهد أحمد بن طولون، وساح في أكثر بلاد الإسلام شرقاً إلى السند والهند، وغرباً إلى الأندلس، وعول في كثير مما كتبه على مشاهداته الشخصية واستفاد أيضاً من سابقيه.

ألف في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٦م كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» صدره بمقدمة فريدة في تاريخ علم الجغرافية عند العرب إلى أيامه ضمنها نقداً للباحثين في هذا العلم ممن سبقوه. ويلي المقدمة وصف للبحار والأنهار، ثم يعقد المؤلف فصلاً للحديث عن الأماكن وأسمائها فيتناول المواضع المختلفة التي يجمع بينها إسم واحد ثم الموضع الواحد الذي يحمل أكثر من إسم، ويتبع ذلك بفصلين يتحدث فيهما بإيجاز عن خصائص الأقاليم

المختلفة والمذاهب الإسلامية وعن الأقاليم السبعة المعروفة وموضع القبلة وامتداد دولة الإسلام. وتشغل هذه الفصول التي يمكن أن نعدها مدخلاً للكتاب نحو سدس عدد صفحاته، ينتقل بعدها إلى وصف البلاد الإسلامية وفقاً لمنهج ثابت، فوصف كل قطر عنده ينقسم إلى ثلاثة أقسام تتفاوت في طولها، يتحدث في الأول عن أقسام القطر ومدنه والمواضع العامرة فيه، وفي الثاني عن المناخ والزرع واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والوضع السياسي والمزاج. أما القسم الأخير فيخصصه لذكر المسافات وطرق المواصلات. وهو يبدأ بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام ثم يعود إلى المشرق فيقسمه إلى بلاد الهياكلة وخراسان والديلم وأرمينيا ومعها أذربيجان والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند ومفازة فارس. وقد أوضح لكتابه بالخرائط الملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم البلاد إلى أقاليم «ورسمنا حدودها وخططها، وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها، المشهورة بالغبرة». لكن هذه الخرائط لا توجد في الطبعة التي بين أيدينا. ويقتصر المقدسي على وصف بلاد العالم الإسلامي ولا يتعداها إلى غيرها لأنه على حد قوله لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها ولكنه يذكر مواضع المسلمين فيها. وترجع أهمية الكتاب إلى سلامة منهجه وإلى أنه خلاصة دراسات قامت على المشاهدة والعيان فضلاً عن استفادتها من دراسات المتقدمين حتى لقد عده المستشرق كرامرز أكثر المصنفات الجغرافية العربية قيمة، وقال اشبرنجرر عن مؤلفه إنه أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة ولم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وعرضه للمادة التي جمعها في صياغة منظمة. ولعل المقدسي نفسه كان يحس بذلك وهو يضع كتابه، فأظهر فخره واعتداده بنفسه في أكثر من مكان من الكتاب، بل وقد يتعسف أحياناً في نقد كتب الآخرين.

طبع الكتاب مرتين في ليدن ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية العربية

الأولى بعناية دى جويه سنة١٨٧٧م، والأخرى بعناية كرامرز سنة ١٩٠٦م.

-**ياقوت الحموي**، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. كتاب «**معجم البلدان**» للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. نشره فستنفيلد في ليبزج، في الفترة من ١٨٦٦ إلى ١٨٧٣م،

هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الجنس، أسر صغيراً واشتراه عسكر الحموي التاجر البغدادي فنسب إليه، وأدخله الكتاب ليتعلم حتى يخدمه في تجارته فقرأ شيئاً من النحو واللغة، ثم شغله بالأسفار في تجارته، ولم يلبث أن أعتقه وأبعده عن العمل في سنة ٥٩٦هـ، فاشتغل بنسخ الكتب بأجر ليحصل على قوته، ثم عاد إلى خدمة عسكر وسافر بتجارته. فلما رجع وجده قد مات، فأخذ من تجارته نصيبه الذي مكنه من الأتجار لحسابه الخاص. وأخذ يتنقل بين البلاد حتى استقر في خوارزم، فلما أغار عليها جنكير خان رحل إلى الموصل ثم إلى حلب، وبقي بها إلى أن مات في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م.

ترك عدة كتب أشهرها معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ومعجم البلدان، الذي فرغ من تأليفه في سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، وهو معجم جغرافي كبير في أسماء البلدان والجبال والأودية والقعيان والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران.. الخ. وقد كتب له مقدمة في نحو خمسين صفحة اشتملت على خمسة أبواب، الأول في ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها وما روى عن المتأخرين في صورتها، والثاني في وصف اختلافهم في الإصطلاح على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة في كل ناحية، والثالث في ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها في الكتاب ويحتاج إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة وغير ذلك، والرابع في بيان حكم الأرضين والبلاد المفتتحة في الإسلام وحكم قسمة الفيىء والخراج فيما فتح صلحاً أو عنوة، والخامس في جمل من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع. وبعد المقدمة يعود

ياقوت إلى الغرض الرئيسي من الكتاب فيقسمه ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف المعجم. وطريقة ياقوت في التعريف بالإعلام هي أن يورد الإسم ثم يوضح طريقة نطقه نطقاً صحيحاً، وقد يحاول تفسير اشتقاقه، ويتمثل بشواهد من أقوال الشعراء الذين يمكن الإحتجاج بكلامهم، ثم يبين طول المكان وعرضه، ويتبع ذلك بذكر نبذة عن تاريخه وما عرف عنه من أخبار ويبين مواضع ذكره في القرآن والحديث ثم يذكر أسماء كبار العلماء الذين ينتمون إليه.

والكتاب خلاصة وافية للجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات التي تجمعت خلال القرون الستة الأولى للهجرة. ولم يقصر ياقوت نفسه على العالم الإسلامي وحده كما فعل جغرافيو المدرسة الكلاسيكية، ولم يعط جزيرة العرب أهمية استثنائية كما فعل جغرافيو المدرسة اللغوية، بل وزع اهتمامه على كل جهات العالم المعروف، وهو بذكره للمصادر التي استقى منها معلوماته قد حفظ لنا كثيراً من أسماء الكتب التي فقدت وشذرات من هذه الكتب.

وقد نشر الكتاب لأول مرة في ليبزج في الفترة من ١٨٦٦ إلى ١٨٧٣م في ستة مجلدات بعناية فستنفيلد. ثم نشره في القاهرة في سنة ١٩٠٦م/ ١٣٢٣ - ١٣٢٤هـ أمين الخانجي وأضاف إليه ذيلاً بعنوان «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان» يستدرك فيه على ياقوت ويضيف بعض المعلومات عن البلاد والمدن الحديثة. كما نشرته في بيروت دار صادر بالإشتراك مع دار بيروت للطبع والنشر في الفترة من ١٣٧٤ - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٥ - ١٩٥٧م.

- **اليعقوبي**، أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
**«كتاب البلدان»**. تأليف أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبي. طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل ١٨٩٢م.

وهو القسم الثاني من المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية التي

نشرها دي جويه (من صفحة ٢٣٢ إلى صفحة ٣٧٣) .

جغرافي مؤرخ ، ولد ببغداد ، وطاف بكثير من بلاد العالم الإسلامي فزار أرمينيا وخراسان والهند وفلسطين ومصر والمغرب . وتوفى في سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وقيل في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. وله كتابان أحدهما تاريخ اليعقوبي في جزأين ، وهو يهتم فيه بالأثنوجرافية إلى جانب التاريخ ، والآخر كتاب البلدان ، ألفه حوالي سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م وجمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلاد الإسلامية في عصره نتيجة لأسفاره الطويلة ، وقد حدد منهج الكتاب في مقدمته فقال : «وذكرت أسماء الأمصار ، والأجناد والكور ، وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر . . ومبلغ خراجه ، وسهله وجبله ، وبره وبحره ، وهوائه في شدة حره وبرده ، ومياهه وشربه . . . » . ومن ثم كان كتابه جديداً في عرضه ، وهو من أمهات الكتب لأنه غير منقول من كتاب آخر وإنما يعتمد على الدراسة الميدانية . وقد بدأه بدراسة مستفيضة شملت نحو ربع الكتاب لبغداد وسر من رأى كما كانتا في عصره «لانهما مدينة الملك ودار الخلافة» . ثم انتقل إلى وصف بلاد المشرق وهي في اصطلاحه بلاد فارس شرقي العراق إلى تركستان ، ثم تناول بلاد العرب فالشام فمصر والنوبة فالمغرب إلى الأندلس . ويعنى اليعقوبي بطرق المواصلات وطول المراحل . وهوفي هذه الناحية أقل دقة من معاصره إبن خرداذبة ولكنه أحسن منه عرضاً . كذلك يهتم اليعقوبي بالجوانب الإحصائية وخاصة ما يتصل منها بالخراج ، وبالنواحي الأتنولوجية والصناعية والفنون . وينفرد بذكر كثير من المعلومات التي لا نجدها في المصادر السابقة أو المعاصرة ، ونزعة المؤلف العلمية التحليلية ةاضحة ، ولهذا فقد خلا كتابه من الحديث عن العجائب التي كان يهتم بها كثير من أقرانه . ووصف اليعقوبي لبغداد وسامرا هو أدق وصف للبلدين في عصره . طبع الكتاب في ليدن في سنة ١٨٦١م بعناية المستشرق جوينبول ، ثم نشره دي جويه في ليدن أيضاً سنة ١٨٩٢م ضمن المكتبة الجغرافية العربية .

ثم ظهرت له في سنة ١٩٣٧ ترجمة فرنسية بقلم جاستون فييت تحتوي على كثير من الهوامش والتعليقات المفيدة.

## الأطباء والمؤلفات الإسلامية في الطب.

عرف العرب قبل الإسلام الطبابة التي تطورت تطوراً بارزاً مع ظهور الإسلام ونشأة الدولة الإسلامية في مختلف مراحلها وتكويناتها السياسية.

ويروي أبو القاسم صاعد الأندلسي في كتاب «طبقات الأمم» «إن العرب والمسلمين اهتموا بالطب بجانب اهتمامهم البالغ بلغتهم ومعرفة أحكام شريعتهم عملاً بقول الرسول (ﷺ): «تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير واحد» سئل: يا رسول الله ما هو؟ قال: «الهرم».

وأخذ المسلمون ينهلون من مختلف العلوم ومن ضمنها الطب طاعة لأوامر الله عزوجل ورسوله الكريم في طلب العلم، فنبغوا في الطب حتى صار العلماء يأتون من جميع أنحاء العالم إلى مدارس المسلمين، لنهل العلم من طبه وصيدلته وكيمائه وغيرها من العلوم.[1]

ونظراً لكثرة الأطباء المسلمين ـ الذين اشتغلوا في ميادين أخرى غير الطب ـ فقد ظهرت مؤلفات خاصة عن أسماء الأطباء وحياتهم وأهم أعمالهم في ميادين الطب والمعالجة والأدوية، يأتي في مقدمتها كتاب البيبليوغرافيا الطبي لإبن أبي أصيبعة[2] المعروف بإسم «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

(١) أنظر مؤلفات د. على عبد الله الدفاع: اعلام العرب والمسلمين فى الطب، ص ١٩، العلوم البحتة فى الحضارة العربية الإسلامية، إسهام علماء العرب والمسلمين فى الكيمياء، اثر علماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك، اعلام الفيرياء فى الإسلام (بالإشتراك مع د. جلال شوقى) تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين. انظر أيضاً. د. عمر فروخ: عبقرية العرب فى العلم والفلسفة.

(٢) ابن أبى أصيبعة (٦٠٠ ـ ٦٦٨هـ): هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الحزرجى. من أطباء العرب المعروفين ومن مواليد دمشق، تعلم الطب على والده الطبيب، ثم سافر للقاهرة طلباً للأسترادة فى المارستان الناصرى الذى أنشأه الملك الأيوبى الناصر صلاح الدين. ثم سافر بعدئذٍ إلى صرخد إحدى مدن جبال حوران حيث استمر إلى أن وافته المنية فيها عام ٦٦٨هـ. ويعتبر مؤلفه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» من أهم ما تم =

وكتاب إبن جلجل: «طبقات الأطباء والحكماء» وكتاب علي بن عباس الأهوازي «كامل الصناعة في الطب» وكتاب ظهير الدين البيهقي «تاريخ الحكماء» وكتب أبو بكر الرازي «الحاوي في الطب»، وكتاب «سر الأسرار» وكتاب «الطب الروحاني».

وظهرت مؤلفات إسلامية أخرى تعرضت لأوضاع الطب والأطباء عند المسلمين منها على سبيل المثال: كتاب إبن النديم «الفهرست» وكتاب إبن خلدون «المقدمة» وكتاب إبن سينا «الإشارات والتنبيهات» وكتاب إبن النفيس «شرح تشريح القانون» وكتاب موفق الدين البغدادي «الإفادة والإعتبار» وكتاب أبو الريحان البيروني «القانون المسعودي» وكتاب الجاحظ «البيان والتبيين» وكتاب طاش كبري زاده «مفتاح السعادة» وكتاب أبو القاسم الزهراوي «التعريف لمن عجز عن التأليف» وسواها من مؤلفات عن إبن النفيس وإبن سيناء والرازي وسواهم.

ونظراً لأهمية الإطلاع على التراث الطبي عند المسلمين، لما يمثله من حيز هام على صعيد الحضارة الإسلامية، فإننا سنختار بعض الأطباء المسلمين وأعمالهم في ميدان الطب والمعالجة. على أن نضمن هذه المجموعة بعض الأطباء المسلمين الأوائل وأطباء العراق والجزيرة وديار بكر وأطباء المغرب ومصر وبلاد الشام وهم على سبيل المثال لا الحصر:

## ١ ـ طبقات الأطباء الذين كانوا في أول ظهُور الإسْلاَم من أطباء العَرب وَغيرهم[١]

**الحرث بن كلدة الثقفي** كان من الطائف، وسافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك، وعرف الداء والدواء. وكان يضرب

= تأليفه في مجال الطب ولا ينافسه في هذا المجال إلا كتاب «أخبار وتاريخ الحكماء» لكنه يمتاز عليه بأنه أوسع وأوفر مادة. وقد ترجم فيه ما يزيد عن ٤٠٠ ترجمة لأطباء من اليونان والرومان والهنود والعرب والمسلمين عامة أنظر مقدمة الكتاب، ص ٥ ـ ٦ شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥.

(١) نقلاً عن: ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (صفحات متفرقة بتصرف) مع

بالعود، تعلم ذلك أيضاً بفارس واليمن. وبقي أيام رسول الله، ﷺ، وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهم. وفي الحديث أن عمر، رضي الله عنه، سأل الحرث بن كلدة ما الدواء؟ فقال: الأزم. يعني الحمية. قال: وكان طبيب العرب.

ويروى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، إنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله ﷺ، فقال: أدعوا له الحراث بن كلدة فإنه رجل يتطبب. فلما عاده الحراث نظر إليه، وقال: «ليس عليه بأس اتخذوا له فريقة بشيء من تمر عجوة وحلبة بطبخان، فتحسّاها فبرىء.

وكانت للحارث معالجات كثيرة، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة. وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره.

## كلام الحارث مع كسرى

من ذلك، إنه لما وفد على كسرى أنو شروان[1] أذن له بالدخول عليه. فلما وقف بين يديه منتصباً قال له: من أنت؟ قال: أنا الحرث بن كلدة الثقفي.

قال: فما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعربيٌ أنت؟ قال: نعم من صميمها وجبوحة دارها قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟ قال: أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها. فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه. ويميز موضع دائه، ويحتزر عن الأدواء كلها بحسن سياسته لنفسه. قال كسرى: فكيف تعرف ما تورده عليها؟ ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل قال: الطفل يناغي فيداوى، والحية ترقى فتحاوى. ثم قال: أيها الملك، العقل من قِسَم الله تعالى قسَمه بين عباده، كقِسمه الرزق فيهم. فكلٌ من قسمته أصاب، وخص بها قوم وزاد،

---

= مقارنتها بالكتب الطبية الإسلامية السابقة الذكر.

فمنهم مثر ومعدم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، وذلك تقدير العزيز العليم.

قال كسرى: فأي اللحمان أفضل؟ قال الضأن الفتي. والقديد المالح مهلك للآكل. واجتنب لحم الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كلها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها. وأفضل الفواكه: الرمان والأترج[1]؛ وأفضل الرياحين: الورد والبنفسج؛ وأفضل البقول: الهندباء والخس. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم شرر. أفضله أمرأه، وأرقه أصفاه.

وقال الواثق بالله في كتابه المسمى «البستان»: إن الحرث بن كلدة مر بقوم وهم في الشمس فقال: عليكم بالظل فإن الشمس تنهج الثوب، وتنقل الريح، وتشحب اللون، وتهيج الداء الدفين.

ومن كلام الحرث: البطنة بيت الداء والحمية راس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد. ـ وقيل هو من كلام عبد الملك بن أبجر. وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ واوله «المعدة بيت الداء» وهو أبلغ من لفظ البطنة ـ

## النضر بن الحرث بن كلدة الثقفي

هو إبن خالة النبي ﷺ، وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه. واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها، وعاشر الأحبار والكهنة. واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه، أيضاً، ما كان يعلمه من الطب وغيره.

وكان مشهوراً بين العرب بالفلسفة والحكمة والطب والمعالجة والتداوي.

## إبن أبي رمثة التميمي

كان طبيباً على عهد رسول الله ﷺ، مزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح.

---

(١) نوع من أنواع الليمون.

وروى نعيم عن إبن أبي عيينة عن أبي أبجر، عن زياد عن لقيط عن إبن أبي رمثة قال: اتيت رسول الله ﷺ، فرأيت بين كتفيه الخاتم، فقلت: إني طبيب فدعني أعالجه، فقال: أنت رفيق، والطبيب الله. قال سليمان بن حسان: علم رسول الله أنه رفيق اليد ولم يكن فائقاً في العلم، فبان ذلك من قوله والطبيب الله.

## عبد الملك بن أبجر الكناني

كان طبيباً عالماً ماهراً. وكان في أول أمره مقيماً في الإسكندرية لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم. وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى. ثم أن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم إبن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذٍ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران وتفرق في البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب إبن أبجر، ويعتمد عليه في صناعة الطب.

روى الأعمش عن إبن أبجر أنه قال: دع الدواء ما احتمل بدنك الداء. وهذا من قول النبي ﷺ: «**سر بدائك ما حملك**».

وروى سفيان عن إبن أبجر أنه قال: المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه، فما ورد فيها بصحة صدر بصحة، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم.

## إبن أثال

كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الإفتقاد له والإعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً. وكان إبن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قواتل. وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً.

## أبو الحكم

كان طبيباً عربياً نصرانياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة. وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه.

وعمّر أبو الحكم هذا عمراً طويلاً حتى تجاوز المائة سنة.

## حكم الدمشقي

كان يلحق بأبيه في معرفته بالمداواة والأعمال الطبية والصفات البديعة. وكان مقيماً بدمشق. وعمّر أيضاً عمراً طويلاً. قال أبو يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسى بن حكم أن والده توفي، وكان عبد الله بن طاهر بدمشق في سنة عشر ومائتين؛ وإن عبد الله سأله عن مبلغ عمر أبيه فأعلمه أنه عمره مائة وخمس سنين، لم يتغير عقله، ولم ينقص علمه. فقال عبد الله: عاش حكم نصف التاريخ.

## تياذوق

كان طبيباً فاضلاً وله نوادر والفاظ مستحسنة في صناعة الطب. وكان في أول دولة بني أمية ومشهوراً عندهم بالطب. وصحب أيضاً الحجاج بن يوسف الثقفي، المتولي من جهة عبد الملك بن مروان، وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد عليه، ويثق بمداواته، وكان له منه الجامكية (المال السلطاني) الوافرة والإفتقاد الكثير.

ومن كلام تياذوق للحجاج: قال:

لا تنكح إلا شابة؛ ولا تأكل من اللحم إلا فتياً؛ ولا تشرب الدواء إلا من علة؛ ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها. وأجد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهاراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة. فقال له بعض من حضر: إذا كان الأمر كما تقول فلم هلك بقراط؟ ولم هلك جالينوس وغيرهما ولم يبقَ أحد منهم؟ قال: يا بني قد احتججت

فاسمع! إن القوم دبّروا أنفسهم بما يملكون وغلبهم ما لا يملكون ـ يعني الموت ـ وما يرد من خارج كالحر والبرد والوقوع والغرق والجراح والغنم وما أشبه ذلك.

وأوصى تياذوق أيضاً الحجاج فقال: لا تأكلن حتى تجوع. ولا تتكارهنَّ على الجماع. ولا تحبس البول. وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك.

وقال أيضاً للحجاج: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة؛ والمجامعة على الإمتلاء؛ وأكل القديد الجاف؛ وشرب الماء البارد على الريق. وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن.

## زينب طبيبة بني أود

كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات، مشهورة بين العرب بذلك.

قا أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني الكبير: أخبرنا محمد بن خلف المرزبان قال، حدثني حماد بن أسحق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جده قال: أتيت أمرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني فكحلتني، ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك، فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر:

أمخترمي ريب المنون ولم أزر  طبيب بني أود على النأي زينبا

## ٢ ـ طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم: ومنهم على سبيل المثال:

**جورجس**: وهو أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية إلى اللسان العربي عندما استدعاه المنصور وكان كثير الإحسان إليه، وقد ذكرت أخبار جورجس فيما تقدم.

**حنين بن إسحق**: كان عالماً باللغات الأربع غريبها ومستعملها: العربية والسريانية واليونانية والفارسية. ونقله في غاية من الجودة.

**إسحق بن حنين**: كان أيضاً عالماً باللغات التي يعرفها أبوه، وهو يلحق به في النقل، وكان إسحق عذب العبارة فصيح الكلام، وكان حنين مع ذلك أكثر تصنيفاً ونقلاً وقد تقدم ذكر إسحق وأبيه.

**حبيش الأعسم**: وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه. ناقل مجود يلحق بحنين وإسحق. وقد تقدم أيضاً ذكره.

**عيسى بن يحيى بن إبراهيم**: كان أيضاً تلميذاً لحنين بن إسحق، وكان فاضلاً. اثنى عليه حنين ورضي نقله، وقلده فيه. وله مصنفات.

**قسطا بن لوقا البعلبكي**: كان ناقلاً خبيراً باللغات فاضلاً في العلوم الحكمية وغيرها.

**ابن شهدي الكرخي**: كان مثل أبيه في النقل، ثم أنه في آخر عمره، فاق أباه، ولم يزل متوسطاً. وكان ينقل من السرياني إلى العربي. ومن نقله كتاب الأجنة لأبقراط.

**الحجاج بن مطر**: نقل للمأمون. ومن نقله كتاب إقليدس، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني ابن ناعمة، وإسمه عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي، كان متوسط النقل، وهو إلى الجودة أميل.

**أيوب الرهاوي**: ليس هو أيوب الأبرش المذكور أولاً، ناقل جيد عالم باللغات إلا أنه بالسريانية خير منه بالعربية.

**يوسف الناقل**: وهو أبو يعقوب بن عيسى المتطبب الناقل، ويلقب بالناعس، وهو تلميذ عيسى بن صهر بخت وكان يوسف الناقل من خوزستان وكانت في عبارته لكنة، وليس نقله بكثير الجودة.

**إبراهيم بن الصلت**: كان متوسطاً في النقل يلحق بسرجس الرأسي.

**البطريق**: كان في أيام المنصور، وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة.

وله نقل كثير جيد، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحق. وقد وجدت بنقله كتباً كثيرة في الطب كتب أبقراط وجالينوس.

**أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي**: أحد النقلة المجيدين، وكان منقطعاً إلى علي بن عيسى أحد الأطباء المشهورين في صناعة الكحل.

**أبو الحسن علي بن إبراهيم بن بكس**: كان أيضاً طبيباً مشهوراً. وكان مثل أبيه في النقل.

**محمد بن موسى المنجم**: وهو أحد بني موسى بن شاكر الحساب المشهورين بالفضل والعلم والتصنيف في العلوم الرياضية وكان محمد هذا من أبر الناس بحنين بن إسحق، وقد نقل له حنين كثيراً من الكتب الطبية.

**علي بن يحيى المعروف بابن المنجم**: أحد كتاب المأمون وكان نديماً له، وعنده فضل. ومال إلى الطب فنقلوا له كتباً كثيرة.

**محمد بن موسى بن عبد الملك** نقلت له كتب طبية وكان من جملة العلماء الفضلاء يلخص الكتب، ويعتبر جيد الكلام فيها من رديه.

**أحمد بن محمد المعروف بابن المدبر الكاتب**: وكان يصل إلى النقلة من ماله وأفضاله شيء كثير جداً.

**إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب**: وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب ومشتملاً على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة.

**محمد بن عبد الملك الزيات**: وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار، ونقل بإسمه كتب عدة

وكان أيضاً ممن نقلت له الكتب اليونانية، وترجمت بإسمه جماعة من أكابر الأطباء، مثل: يوحنا بن ماسويه، وجبرائيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع، وداؤد بن سرابيون، وسلمويه بن بنان، واليسع، وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري، وحبيش بن الحسن.

**٣ ـ طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر: ومنهم على سبيل المثال:**

**يعقوب بن إسحق الكندي**: فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها. كان طبيباً وفيلسوفاً حاذقاً، ومن كلام الكندي قال في وصيته: وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض، وقال: وكما يجب أن يقال له إنه كان سبب عافية العليل وبرئه كذلك فليحذر أن يقال أنه كان سبب تلفه وموته، وقال: العاقل يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة؛ والجاهل يظن أنه قد تناهى، فتمقته النفوس لذلك.

ومن كلامه مما أوصى به لولده أبي العباس نقلت ذلك من كتاب «المقدمات» لابن بختويه ـ قال الكندي: «يا بني، الأب رب، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب. وقول لا، يصرف البلا؛ وقول نعم، يزيل النعم؛ وسماع الغناء، برسام حاد، لأن الإنسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت. والدينار محموم، فإن صرفته مات والدرهم محبوس فإن أخرجته فر؛ والناس سخرة، فخذ شيئهم واحفظ شيئك. ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة، فإنها تدع الديار بلاقع.

وليعقوب بن إسحق الكندي من الكتب: **كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد. كتاب الفلسفة الداخلة والمسائل المنطقية والمعتاصة وما وافق الطبيعيات. رسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضيات. كتاب الحث على تعلم الفلسفة. رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس** وما يحتاج إليه في تحصيل علم الفلسفة مما لا غنى في ذلك عنه منها وترتيبها، وأغراضه فيها. **كتاب في قصد ارسطو طاليس في المقولات** إياها قصد والموضوعة لها. **رسالته الكبرى في مقياسه العلمي**. والمئات من الكتب مما لا يتسع المجال لذكرها[1].

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

**أحمد بن الطيب السرخسي**: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسي، ممن ينتمي إلى الكندي، وعليه قرأ، ومنه أخذ. وكان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف والتأليف، أوحداً في علم النحو والشعر. وكان حسن العشرة، مليح النادرة، خليعاً ظريفاً. وسمع الحديث أيضاً وروى شيئاً منه. له مؤلفات كثيرة في الطب والحسبة والموسيقى والنجوم والعقل وسواها.

**أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني**: كان من الصابئة المقيمين بحران، ويقال الصابئون إلى صاب ـ وهو طاط ابن النبي إدريس عليه السلام ـ وثابت هذا هو بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سالايونوس. وكان ثابت بن قرة صيرفياً بحران، ثم استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلد الروم لأنه رآه فصيحاً. وقيل أنه قرأ على محمد بن موسى فتعلم في داره، فوجب حقه عليه. فوصله بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين. وهو أصل ما تجدد للصابئة من الرآسة في مدينة السلام، وبحضرة الخلفاء. ولم يكن في زمن ثابت بن قرة من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع أجزاء الفلسفة. وله تصانيف مشهورة بالجودة. وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومن أهله يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرج والتمهر في العلوم. له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم[1].

**أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة**: كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم واشتغاله بها وتمهره في صناعة الطب. وله قوة بالغة في علم الهيئة. وكان في خدمة المقتدر بالله، والقاهر، وخدم أيضاً بصناعة الطب الراضي بالله.

**أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة**: كان طبيباً فاضلاً، يلحق

---

(١) انظر ابن أبي أصيبعة، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

بأبيه في صناعة الطب. وقال في التاريخ الذي عمله ـ وهذا التاريخ ذكر فيه الوقائع والحوادث التي جرت في زمانه، وذلك من أيام المقتدر بالله إلى أيام المطيع لله ـ: إنه كان وولده في خدمة الراضي بالله. وقال بعد ذلك أيضاً عن نفسه: إنه خدم بصناعة الطب المتقي بن المقتدر بالله، وخدم أيضاً المستكفي بالله والمطيع لله.

**أبو إسحق إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة:** كان كاملاً في العلوم الحكمية فاضلاً في الصناعة الطبية، متقدماً في زمانه، حسن الكتابة، وافر الذكاء. مولده في سنة ست وتسعين ومائتين. وكانت وفاته في يوم الأحد النصف من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ببغداد وكانت العلة التي مات فيها ورم في كبده.

**أبو إسحق إبراهيم بن زهرون الحراني:** كان طبيباً مشهوراً، وافر العلم في صناعة الطب، جيد الأعمال، حسن المعاملة، وكانت وفاته في ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وثلثمائة ببغداد.

**أبو الحسن الحراني:** هو أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني، كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية، وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعاً على أسرار الطب. وكان مع ذلك ضنيناً بما يحسن.

## ٤ ـ طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها ومنهم على سبيل المثال:

**إسحق بن عمران:** طبيب مشهور وعالم مذكور ويعرف بإسم ساعة. وقال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: إن إسحق بن عمران مسلم النحلة، وكان بغدادي الأصل، ودخل إفريقية في دولة زيادة الله بن الأغلب التميمي وهو استجلبه وأعطاه شروطاً ثلاثة لم يف له بأحدها.

ولإسحق بن عمران من الكتب: كتاب الأدوية المفردة. كتاب العنصر والتمام في الطب.. مقالة في الاستسقاء مقالة وجيزة كتب بها إلى سعيد بن توفيل المتطبب في الإبانة عن الأشياء التي يقال أنها تشفي الأسقام، وفيها يكون

البرء، مما أراد اتحافه به من نوادر الطب ولطائف الحكمة. كتاب نزهة النفس. كتاب في المالنخوليا كتاب في الفصد وكتاب في النبض، مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته وهي الرسالة التي كتب بها إلى العباس وكيل إبراهيم بن الأغلب. كتاب في البول من كلام ابقراط وجالينوس وغيرهما. كتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب. مسائل له مجموعة في الشراب على معنى ما ذهب إليه ابقراط وجالينوس في المقالة الثالثة من كتاب تدبير الأمراض الحادة وما ذكر فيها من الخمر. كلام له في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المنى.

**إسحق بن سليمان:** الإسرائيلي، كان طبيباً فاضلاً بليغاً عالماً مشهوراً بالحذق والمعرفة، جيد التصنيف عالي الهمة، ويكنى أبا يعقوب. وهو الذي شاع ذكره وانتشرت معرفته بالإسرائيلي. وهو من أهل مصر، وكان يكحل من أوليته. ثم سكن القيروان ولازم إسحق بن عمران وتتلمذ له. وخدم الإمام أبا محمد عبيدالله المهدي صاحب إفريقية بصناعة الطب. وكان إسحق بن سليمان مع فضله في صناعة الطب بصيراً بالمنطق، متصرفاً في ضروب المعارف. وعمر عمراً طويلاً إلى أن نيف على مائة سنة، ولم يتخذ امرأة ولا أعقب ولداً. وقيل له أيسرّك أن لك ولداً؟ قال: أما إذا صار لي كتاب الحميات، فلا يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد.

ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد وهي كتاب الحميات، وكتاب الأغذية والأدوية وكتاب البول، وكتاب الأسطقسات وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلثمائة.

**ابن الجزار:** هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، ويعرف بابن الجزار من أهل القيروان طبيب ابن طبيب وعمه أبو بكر طبيب وكان ممن لقي إسحق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه. وكان ابن الجزار من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، حسن الفهم لها. وقال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: إن أحمد بن أبي خالد كان قد أخذ لنفسه

مأخذاً عجيباً في سمته وهديه وتعدده ولم يحفظ عنه بالقيروان زلـة قط، ولا أخلد إلى لذة. وكان يشهد الجنائز والعرائس، ولا يأكل فيها.

ولابن الجزار من الكتب: كتـاب في علاج الأمـراض، ويعـرف بزاد المسافر مجلدان. كتاب في الأدوية المفردة، ويعرف باعتمـاد، كتـاب في الأدوية المركبة، ويعرف بالبغية، كتاب العدة لطول المدة، وهو أكبر كتاب وجدناه له في الطب. وحكى الصاحب جمال الدين القفطي أنه رأى له بقفط كتـاباً كبيـراً في الطـب إسمـه قوت المقيم، وكان عشـرين مجلـداً. كتـاب التعريف بصحيح التاريخ، وهو تاريخ مختصر يشتمـل علـى وفيات علمـاء زمانه، وقطعة جميلـة من أخبارهـم. رسالـة في النفس وفـي ذكر اختـلاف الأوائل فيها، كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها. كتـاب طب الفقـراء. رسالة في إبدال الأدوية. كتاب في الفـرق بين العلل التـي تشتبـه أسبابهـا وتختلف أعراضها. رسالة في التحذر من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه رسالة في الزكام وأسبابه وعلاجه. رسالة في النوم واليقظة. مجربات في الطب، مقالة في الجذام وأسبابـه وعلاجـه. كتـاب الخـواص. كتـاب نصائح الأبرار. كتاب المختبرات. كتاب في نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه. رسالة إلـى بعض إخوانه في الاستهانة بالمـوت. رسالـة في المقعـدة وأوجاعهـا وأوجاعهـا. وكتـاب المكلل في الأدب. كتـاب البلغـة في حفـظ الصحـة. مقالـة في الحمامات. كتاب أخبار الدولة يذكر فيه ظهور المهـدي بالمغـرب. كتـاب الفصول في سائر العلوم والبلاغات.

**ابن السمينة**: ومن أطبـاء الأنـدلس يحيى بـن يحيى المعـروف بابـن السمينة من أهـل قـرطبة. وقال القاضي صاعد بـن أحمد بـن صاعـد، في كتاب «التعـريف في طبقـات الأمـم»: إنـه كان بصيراً بالحسـاب والنجـوم والطب، متصرفاً في العلوم، متفنناً في ضروب المعارف، بـارعاً فـي علـم النحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدل.

وكان معتزلي المذهب. ورحل إلى المشرق، ثم انصرف وتوفي سنة خمس عشرة وثلثمائة.

**أبو القاسم مسلمة بن أحمد**: المعروف بالمرحيطي من أهل قرطبة، وكان في زمن الحكم. وقال القاضي صاعد في كتاب «التعريف في طبقات الأمم»: إنه كان أمام الرياضيين بالأندلس في وقته وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب، وشغف بتفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي. وله كتاب حسن في تمام علم العدد المعروف عندنا بالمعاملات. وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمي وصرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة على أنه أتبعه على خطأه فيه ولم ينبه على مواضع الغلط منه. وقد نبهت على ذلك في كتابي المؤلف في إصلاح حركات الكواكب، والتعريف بخطأ الراصدين.

وتوفي أبو القاسم مسلمة بن أحمد قبل مبعث الفتنة في سنة ثمان وتسعين وثلثمائة. وقد أنجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم. فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوي والكرماني وابن خلدون.

ولأبي القاسم مسلمة بن أحمد من الكتب: كتاب المعاملات، اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني.

**ابن السمح**: هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي، وكان في زمن الحكم. قال القاضي صاعد: إن ابن السمح كان محققاً لعلم العدد والهندسة، متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم. وكانت له مع ذلك عناية بالطب، وله تآليف حسان منها: كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب أقليدس. ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات، ومنها كتاب طبيعة العدد، ومنها كتابه الكبير في الهندسة يقضي فيه أجزاءها من الخط المستقيم والمقوس والمنحني، وسواها من الكتب في مختلف العلوم.

**ابن الصفار**: هو أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عمر، كان أيضاً متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم. وقعد في قرطبة لتعليم ذلك. وله زيج مختصر على مذهب السند هند، وكتاب في العمل بالأسطرلاب موجز حسن العبارة قريب المأخذ، وكان من جملة تلامذة أبي القاسم مسلمة بن أحمد المرحيطي. وخرج ابن الصفار من قرطبة بعد أن مضى صدر من الفتنة، واستقر بمدينة دانية قاعدة الأمير مجاهد العامري من ساحل الأندلس الشرقي وتوفي بها رحمه الله. وقد أنجب من أهل قرطبة جماعة، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الأسطرلاب لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعاً لها منه.

ولابن الصفار من الكتب: زيج مختصر على مذهب السند هند. كتاب في العمل بالأسطرلاب.

**أبو الحسن علي بن سليمان الزهراوي**: كان عالماً بالعدد والهندسة، معتنياً بعلم الطب. وله كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان، وهو الكتاب المسمى بكتاب الأركان. وكان قد أخذ كثيراً من العلوم الرياضية عن أبي القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيطي وصحبه مدة.

ولأبي الحسن علي بن سليمان الزهراوي من الكتب: كتاب في المعاملات على طريق البرهان وهو الكتاب المسمى بكتاب الأركان.

**الكرماني**: هو أبو الحكم عمرو بن أحمد بن علي الكرماني من أهل قرطبة، أحد الراسخين في علم العدد والهندسة. رحل إلى ديار المشرق وانتهى منها إلى حران من بلاد الجزيرة وعني هناك بطلب الهندسة والطب، ثم رجع إلى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة من ثغرها، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفاء. ولا نعلم أحداً أدخلها الأندلس قبله. وله عناية بالطب ومجربات فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبط (شق الجرح) وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبية.

**أبو مروان بن زهر**: هو أبو مروان عبد الملك بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الآيادي الأشبيلي، كان فاضلاً في صناعة الطب خبيراً

بأعمالها مشهوراً بالحذق، وكان والده الفقيه محمد من جملة الفقهاء والمتميزين في علم الحديث بإشبيليه. وقال القاضي صاعد أن أبا مروان بن زهر رحل إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمناً طويلاً. ثم رجع إلى الأندلس وقصد مدينة دانية. وكان ملكها في ذلك الوقت مجاهداً. فلما وصل أبو مروان بن زهر إليه أكرمه إكراماً كثيراً، وأمره أن يقيم عنده ففعل وحظي في أيامه، واشتهر في دانية بالتقدم في صناعة الطب، وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس. وله في الطب آراء شاذة منها منعه من الحمام، واعتقاده فيه أنه يعفن الأجسام، ويفسد الأمزجة قال: هذا رأي يخالفه فيه الأوائل والأواخر، ويشهد بخطئه الخواص والعوام بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب بالتدريج الذي ينبغي يكون رياضة فاضلة، ومهنة نافعة لتفتيحه للمسام وتطريقه وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات.

وانتقل أبو مروان بن زهر من دانية إلى مدينة إشبيلية، ولم يزل بها إلى أن توفي وخلف أموالاً جزيلة، وكان غني إشبيلية محط أنظارها في الرباع والضياع.

**أبو العلاء بن زهر**: هو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان، مشهور بالحذق والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة الطب وإطلاعه على دقائقها. وكانت له نوادر في مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم، وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخدم عن ذلك بل بنظره إلى قواريرهم، أو عندما يجس نبضهم. وكان في دولة الملثمين (قبائل صنهاجة)، ويعرفون أيضاً بالمرابطين وحظي في أيامهم، ونال المنزلة الرفيعة والذكر الجميل. وكان قد اشتغل بصناعة الطب وهو صغير في أيام المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن عباد. واشتغل أيضاً بعلم الأدب، وهو حسن التصنيف جيد التأليف. وفي زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا إلى المغرب.

ولأبي العلاء ابن زهر من الكتب: كتاب الخواص، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان فيما رده

على حنين بن إسحق في كتاب المدخل إلى الطب. كتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس، مجربات، مقالة في الرد على أبي علي بن سينا في مواضع من كتابه الأدوية المفردة، ألفها لابنه أبي مروان. كتاب النكت الطبية، كتب بها إلى ابنه أبي مروان. مقالة في بسطه لرسالة يعقوب بن أسحق النكدي في تركيب الأدوية، وأمثلة ذلك نسخ له ومجريات أمر بجمعها علي بن يوسف بن تاشفين بعد موت أبي العلاء. فجمعت بمراكش، وبسائر بلاد العدوة والأندلس، وانتسخت في جمادي الآخرة سنة ست وعشرين وخمسمائة.

**أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر:** هو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء، زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، لحق بأبيه في صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، قد ذاع ذكره في الأندلس وفي غيرها من البلاد، واشتغل الأطباء بمصنفاته. ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطب. وله حكايات كثيرة في تأتيه لمعرفة الأمراض ومداواتها مما لم يسبقه أحد من الأطباء إلى مثل ذلك. وكان قد خدم الملثمين، ونال من جهتهم من النعم والأموال شيئاً كثيراً.

ولأبي مروان بن أبي العلاء بن زهر من الكتب: كتاب التيسير في المداواة والتدبير، ألفه القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد. كتاب الأغذية ألفه لأبي محمد عبد المؤمن بن علي. كتاب الزينة تذكرة إلى ولده أبي بكر في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه، وذلك في صغر سنه، وأول سفرة سافرها فناب عن أبيه فيها. مقالة في علل الكلى. رسالة كتب بها إلى بعض الأطباء بإشبيلية في علتي البرص والبهق. كتاب تذكرة ذكر بها لابنه أبي بكر أول ما تعلق بعلاج الأمراض.

**الحفيد أبو بكر بن زهر:** هو الوزير الحكيم الأديب الحسيب أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، مولده بمدينة إشبيلية ونشأ بها وتميز في العلوم، وأخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها، وكان معتدل

القامة صحيح البنية ، قوي الأعضاء. وصار في سن الشيخوخة ونضارة لونه وقوة حركاته لم يتبين فيها تغير، وإنما عرض له في أواخر عمره ثقل في السمع. وكان حافظاً للقرآن ، وسمع الحديث ، واشتغل بعلم الأدب والعربية ، ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة. ويوصف بأنه قد أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه. وله موشحات مشهورة ويغني بها ، وهي من أجود ما قيل في ذلك.

وكان ملازماً للأمور الشرعية ، متين الدين ، قوي النفس ، محباً للخير. وكان مهيباً وله جرأة في الكلام ، ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب ، وذكره قد شاع واشتهر في أقطار الأندلس وغيرها من البلاد.

**أبو جعفر بن هارون الترجالي**: من أعيان أهل إشبيلية ، وكان محققاً للعلوم الحكمية ، متقناً لها معتنياً بكتب أرسطو طاليس وغيره من الحكماء المتقدمين ، فاضلا في صناعة الطب ، متميزاً فيها ، خبيراً بأصولها وفروعها؛ حسن المعالجة ، محمود الطريقة. وخدم لأبي يعقوب والد المنصور. وكان من طلبة الفقيه أبي بكربن العربي لازمه مدة واشتغل عليه بعلم الحديث. وكان أبو جعفر بن هارون يروي الحديث وهو شيخ أبي الوليد بن رشد في التعليم والطب ، وأصله من ترجالة من ثغور الأندلس. وهي التي أصابها المنصور خالية ، وهرب أهلها وعمرها المسلمون. وكان أبو جعفر هارون أيضاً عالماً بصناعة الكحل ، وله آثار فاضلة في المداواة.

حدثني القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي ، ثم الباجي: أن أخاه القاضي أبا عبدالله محمد بن أحمد لما كان صغيراً أصاب عينه عود ، واخترق السواد حتى أنه يئس له من البرء فاستدعى أبوه أبا جعفر بن هارون ، وأراه عين ولده وقال له: أنا أدفع لك ثلثمائة دينار وتعالجها. فقال والله ما حاجة إلى هذا الذي ذكرته ، وإنما أداويه ويصلح إن شاء الله تعالى. وشرع في مداواته إلى أن صلحت عينه وأبصر بها ، وأصاب ابن هارون خدر وضعف في أعضائه فالتزم داره بإشبيلية وكان يطبب الناس ، وتوفي بإشبيلية.

**ابن رشد:** هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد؛ مولده ومنشؤه بقرطبة مشهور بالفضل معتن بتحصيل العلوم، أوحد في علم الفقه والخلاف، واشتغل على الفقيه الحافظ أبي محمد بن رزق. وكان أيضاً متميزاً في علم الطب، وهو جيد التصنيف حسن المعاني. وله في الطب كتاب الكليات، وقد أجاد في تأليفه. وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة. ولما ألف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب.

## ٥ ـ طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر منهم على سبيل المثال:

**إبراهيم بن عيسى:** كان طبيباً فاضلاً معروفاً في زمانه متميزاً في أوانه، صحب يوحنا بن ماسويه ببغداد وقرأ عليه وأخذ عنه. وخدم بصناعة الطب الأمير أحمد بن طولون، وتقدم عنده وسافر معه إلى الديار المصرية، واستمر في خدمته ولم يزل إبراهيم بن عيسى مقيماً في فسطاط مصر إلى أن توفي، وكانت وفاته في نحو سنة ستين ومائتين. ومن أطباء أحمد بن طولون الحسن بن زيرك وسعيد بن تيوفيل وهما من أطباء مصر المشهورين.

**خلف الطولوني:** هو أبو علي خلف الطولوني مولى أمير المؤمنين، كان مشتغلاً بصناعة الطب، وله معرفة جيدة في علم أمراض العين ومداواتها.

ولخلف الطولوني من الكتب: كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما، ونقلت من خطه في كتابه هذا، وجملة الكتاب بخطه، إن معاناته كانت لتأليف هذا الكتاب في سنة أربع وستين ومائتين، وفراغه منه في سنة اثنتين وثلثمائة.

**نسطاس بن جريج:** كان نصرانياً عالماً بصناعة الطب، وكان في دولة الأخشيد بن طغج،. ولنسطاط بن جريج من الكتب: كناش. رسالة إلى يزيد بن رومان النصراني الأندلسي في البول.

**إسحق بن إبراهيم بن نسطاس:** هو أبو يعقوب، إسحق بن

إبراهيم بن نسطاس بن جريج ، نصراني فاضل في صناعة الطب. وكان في خدمة الحاكم بأمر الله ويعتمد عليه في الطب وتوفي إسحق بن إبراهيم بن نسطاس بالقاهرة في أيام الحاكم ، واستطب بعده أبا الحسن علي بن رضوان ، واستمر في خدمته وجعله رئيساً على سائر الأطباء .

## سعيد بن البطريق

**سعيد بن البطريق**: من أهل فسطاط مصر، وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعملها متقدماً في زمانه ، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم ، ومولده في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين ومائتين للهجرة. ولما كان في أول سنة من خلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد بالله ، صير سعيد بن البطريق بطريركاً على الإسكندرية .

ولسعيد بن البطريق من الكتب: كتاب في الطب، علم وعمل. كناش. كتاب الجدل بين المخالف والنصراني. كتاب نظم الجوهر، ثلاث مقالات. كتبه إلى أخيه عيسى بن البطريق المتطبب في معرفة صوم النصارى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم ، وتواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين؛ وذكر البطاركة وأحوالهم ، ومدة حياتهم ومواضعهم ، وما جرى لهم في ولايتهم. وقد ذيل هذا الكتاب نسيب لسعيد بن البطريق يقال له يحيى بن سعيد بن يحيى ، وسمى كتابه كتاب تاريخ الذيل.

**التميمي**: هو أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمي. كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيها وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته والكلام فيه. وكان متميزاً أيضاً في أعمال صناعة الطب والإطلاع على دقائقها؛ وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة؛ واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه وركب منه شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة. وانتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى أن توفي رحمه الله.

**ابن الهيثم**: هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم أصله من البصرة ،

ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى آخر عمره. وكان فاضل النفس قوي الذكاء متفنناً في العلوم. لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه. وكان دائم الإشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد، محباً للخير. وقد لخص كثيراً من كتب أرسطو طاليس وشرحها، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب. وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية إلا إنه لم يباشر أعمالها، ولم تكن له دربة بالمداواة، وتصانيفه كثيرة الإفادة. وكان حسن الخط، جيد المعرفة بالعربية. له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم[1].

**المبشر بن فاتك**: هو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك الآمري من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها. دائم الإشتغال، محب للفضائل، والإجتماع بأهلها ومباحثهم، والإنتفاع بما يقتبسه من جهتهم وكان ممن اجتمع به منهم، وأخذ عنه كثيراً من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو محمد بن الحسن بن الهيثم. وكذلك أيضاً اجتمع بالشيخ أبي الحسين المعروف بإبن الآمدي، وأخذ عنه كثيراً من العلوم الحكمية، واشتغل أيضاً بصناعة الطب، ولازم أبا الحسن علي بن رضوان الطبيب.

وللمبشر بن فاتك تصانيف جليلة في المنطق وغيره من أجزاء الحكمة، وهي مشهورة فيما بين الحكماء. وكان كثير الكتابة. وقد وجدت بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين.

## ٦ ـ طبقَات الأطبَاء المشهُورين منْ أطباء الشَام ومنهم على سبيل المثال:

**أبو نصر الفارابي**: هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، مدينته فاراب، وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان، وكان أبوه قائد جيش، وهو فارسي المنتسب. وكان ببغداد مدة ثم انتقل إلى الشام وأقام بها

(١) أنظر: إبن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٥٥٤ ـ ٥٦٠.

إلى حين وفاته. وكان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً وإماماً فاضلاً قد اتقن العلوم الحكمية، وبرع في العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين. وكانت له قوة في صناعة الطب، وعلم بالأمور الكلية منها. ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها.

وحدثني سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي الآمدي أن الفارابي كان في أول أمره ناطوراً في بستان بدمشق وهو على ذلك دائم الإشتغال بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها. وكان ضعيف الحال حتى إنه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس. وبقي كذلك مدة. ثم أنه عظم شأنه وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه، وصار أوحد زمانه وعلامة وقته. واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي وأكرمه إكراماً كثيراً، وعظمت منزلته عنده وكان له مؤثراً.

ونقلت من خط بعض المشايخ أن أبا نصر الفارابي سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، ورجع إلى دمشق، وتوفي بها في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة عند سيف الدولة علي بن حمدان في خلافة الراضي، وصلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلاً من خاصته. له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم[1].

**عيسى الرقي**: كان طبيباً مشهوراً في أيامه، عارفاً بالصناعة الطبية حق معرفتها. وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة، وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان ومن جملة أطبائه.

**جابر بن منصور السكري**: من أهل موصل، وكان مسلماً ديناً، عالماً بصناعة الطب، من أكبر المتميزين فيها. وكان قد لحق أحمد بن أبي الأشعث

(١) للمزيد من التفصيلات عن حياته ومؤلفاته انظر: إبن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٠٣-٦٠٩.

وقرأ عليه. ثم لازم محمد بن ثواب تلميذ إبن أبي الأشعث وقرأ عليه، وذلك في نحو سنة ستين وثلثمائة. واشتهر بصناعة الطب وأعمالها، وعمر وكان أكثر مقامه بمدينة الموصل، وإنما إبنه ظافر انتقل إلى الشام وأقام بها.

**ظافر بن جابر السكري**: هو أبو حكيم ظافر بن جابر بن منصور السكري، كان مسلماً فاضلاً في الصناعة الطبية، متقناً للعلوم الحكمية، متحلياً بالفضائل وعلم الأدب، محباً للإشتغال والتضلع بالعلوم. وكان قد لقي أبا الفرج بن الطيب ببغداد، واجتمع به، واشتغل معه. وكان ظافر بن جابر قد عمر مثل أبيه، وكان موجوداً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وهو موصلي، وإنما انتقل من الموصل إلى مدينة حلب، وأقام بحلب إلى آخر عمره. ومن خلفه جماعة مشتغلين بصناعة الطب ومقامهم بحلب.

وبرز من عائلة السكري الأطباء: موهوب بن الظافر السكري وجابر بن موهوب السكري.

**جمال الدين بن الرحبي**: هو الحكيم الأجل العالم الفاضل جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي. مولده ومنشؤه بدمشق من أكابر الفضلاء وسادة العلماء، أوحد زمانه وفريد أوانه. اشتغل بصناعة الطب على والده وعلى غيره، واتقنها اتقاناً لا مزيد عليه. وكان حسن المعالجة، جيد المداواة. وخدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله لمعالجة المرضى، وبقي به سنين. وكان يحب التجارة ويعانيها، ويسافر بها في بعض الأوقات إلى مصر، ويأتي من مصر بتجارة. ولما وصلت التتر إلى الشام وذلك في سنة سبع وخمسين وستمائة توجه الحكيم جمال الدين بن الرحبي إلى مصر، وأقام فيها ثم مرض وتوفي بالقاهرة، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وستمائة.

**كمال الدين الحمصي**: هو أبو منصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي من الفضلاء المشهورين، والعلماء المذكورين. وكان كثير الخير، وافر المروءة، كريم النفس محباً لإصطناع المعروف. واشتغل بصناعة الطب

على الشيخ رضي الـدين الرحبـي، وعلى غـيره وشرع في قراءة كتـاب القانون على الحكيم القاضي بهاء الدين أبي الثناء محمود بن أبي الفضل منصور بن الحسن بن اسمعيل الطبري المخزومي، لما أتى إلى دمشق. وقرأ عليه منه إلى علاج الإسهال الدماغي. ثم سافر الشيخ بهاء الدين إلى بلدالروم في سنة ثمان وستمائة. ولكمال الدين الحمصي من الكتب: مقالـة في البـاه وهـي مستقصاة في فنها. شرح بعض كتاب العلل والأعراض لجالينوس. الرسالة الكاملة في الأدوية المسهلة. اختصار كتاب الحاوي للرازي لم يتم. مقالة في الإستسقاء. تعاليق على الكليات من كتاب القانون. تعاليق في الطب. تعاليق في البول ألفها في أول رجب سنة ثلاث وستمائـة. اختصـار كتـاب المسائل لحنين بن أسحقٰ وقد أجاد فيه.

**موفق الدين عبد اللطيف البغدادي:** هو الشيخ الإمام الفاضـل موفـق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بـن محمد بـن علي بـن أبـي سعـد ويعرف بإبن اللباد. موصلي الأصل بغدادي المولد. كان مشهـوراً بالعلوم، متحلياً بالفضائل، مليح العبارة، كثير التصنيف. وكان متميزاً في النحو واللغة العربية، عارفاً بعلم الكلام والطب. وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها. وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه، وكان والده قد أشغله بسمـاع الحـديث في صبـاه من جماعة منهم أبو الفتح محمد بن عبد الباقي المعروف بإبن البطي، وأبو زرعة طاهر بن محمد القدسي، وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل وغيرهم.

**سديد الدين أبو منصور:** هو الحكيم الأجـل العالـم أبـو منصور بـن الحكيم موفـق الـدين يعقوب بـن سقـلاب، ومـن أفاضـل الأطبـاء وأعيان العلماء، متميز في علم صناعة الطب وعملها، متقن لفصولها وجملها. اشتغل على والده وعلى غيره بصناعة الطب، وقرأ أيضاً بالكرك على الإمـام شمس الدين الخسروشاهي كثيراً من العلوم الحكمية. وخدم الحكيم سديد الدين أبو منصور الملك الناصر صلاح الدين داود إبن الملك المعظم عيسى بن أبـي بكر بن أيوب. وأقام في صحبته بالكرك، وكان مكيناً عنده معتمـداً عليه في

صناعة الطب. ثم أتى أبو منصور إلى دمشق وتوفي بها.

**رشيد الدين بن الصوري**: هو أبو المنصور بن علي الصوري، قد اشتغل على جمل الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجلية والخفية. وكان واحداً في معرفة الأدوية المفردة وما هياتها واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها، ومولده في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بمدينة صور ونشأ بها. ثم انتقل عنها واشتغل بصناعة الطب على الشيخ موفق الدين عبد العزيز، وقرأ أيضاً على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي. وتميز في صناعة الطب، وأقام بالقدس سنتين. وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيه. وصحب الشيخ أبا العباس الجياني، وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة متفنناً في علوم أخرى، خيّر الدين، محباً للخير. فانتفع بصحبته له، وتعلم منه أكثر ما يفهمه. واطلع رشيد الدين بن الصوري أيضاً على كثير من خواص الأدوية المفردة حتى تميز على كثير من أربابها، وأربى على سائر من حاولها واشتغل بها. هذا مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصبية التي لم يسبق إليها، والمعارف المذكورة، والشجاعة المشهورة. وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمائة لما كان الملك العادل متوجهاً إلى الديار المصرية واستصحبه معه من القدس، وبقي في خدمته إلى أن توفي الملك العادل رحمه الله. وتوفي رشيد الدين بن الصوري رحمه الله يوم الأحد أول شهر رجب سنة تسع وثلاثين وستمائة بدمشق.

**بدر الدين بن قاضي بعلبك**: هو الحكيم الأجل العالم الكامل بدر الدين المظفر بن القاضي الإمام العالم مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم. كان والده قاضياً ببعلبك، ونشأ هو بدمشق، واشتغل بها في صناعة الطب. وقد جمع الله فيه من العلم الغزير والذكاء المفرط والمروءة الكثيرة ما تعجز الألسن عن وصفه. قرأ صناعة الطب على شيخنا الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي رحمه الله، واتقنها في أسرع الأوقات. وبلغ في الجزء العلمي والعملي منها إلى الغايات، وله همة عالية في الإشتغال، ونفس جامعة

لمحاسن الخلال. ووجدت له في أوقات اشتغاله من الإجتهاد ما ليس لغيره من المشتغلين، ولا يقدر عليه سواه أحد من المتطببين كان لا يخلي وقتاً من التزيد في العلم والعناية في المطالعة والفهم. وحفظ كثيراً من الكتب الطبية والمصنفات الحكمية. ومما شاهدته من علو همته وجودة قريحته: إن الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي كان قد صنف مقالة في الإستفراغ، وقرأها عليه كل واحد من تلامذته. وأما هو فإنه شرع في حفظها، وقرأها عليه من خاطره غائباً من أولها إلى آخرها. فأعجب الشيخ مهذب الدين ذلك منه. وكان ملازماً له مواظباً على القراءة والدرس. عمل لدى إبن الملك العادل في دمشق واشتغل في بيمارستانها الكبير.

هذه بعض النماذج عن الأطباء والمؤلفات الإسلامية وبعض أساليب التداوي والمعالجة ـ كما أوردها ابن أبي أصيبعة وبعض المؤلفات الإسلامية ـ وهي تعطي فكرة عن مميزات الحضارة الإسلامية في مختلف مراحلها.

# الفصل السّابع

# أثر الحضارة الإسلاميّة في الأندلس

## مقدمة

كان لانطلاقة المسلمين من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ومن ثم إلى إسبانيا وبعض بلدان أوروبة وجزيرة صقلية، الأثر البارز في نقل الحضارة الإسلامية إلى البلدان الأوروبية وكان لانطلاقة الحملات الصليبية باتجاه الشرق الأثر الحضاري البارز بالإضافة إلى الآثار والنتائج الحربية والعسكرية.

والحقيقة فإن الإسبان استطاعوا إخراج المسلمين من الأندلس، واستطاع الإفرنج الصقالبة إخراج المسلمين من صقلية، كما استطاع المسلمون إخراج الصليبيين من الشام، غير أن النتائج الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإدارية والسياسية استمرت ولقرون عديدة في المجتمعات الأوروبية والعربية على حد سواء. ثم إن إخراج المسلمين من الأندلس وصقلية لا يعني إخراج ثقافاتهم وعلومهم وحضارتهم، بل على العكس فقد استمر الإسبان والصقليون في الاستفادة من هذه الثقافات والعلوم وهذه الحضارة. كما أن الصليبيين عندما خرجوا من الشام ـ أو أثناء

وجودهم ـ استفادوا كثيراً من المسلمين، ونقلوا معهم من الشرق إلى أوروبا الكثير من علوم المسلمين ومن التراث الإسلامي والعربي، ومن الحضارة الإسلامية.

ولا بد من الإشارة إلى أن للحضارة الإسلامية العربية فضلاً كبيراً في نقل العلوم وتطورها في بلدان أوروبية عبر المعابر الثلاثة: الأندلس، صقلية، بلاد الشام، ومعابر حضارية أخرى كالبندقية وجنوى وبيزا وقبرص ورودوس وسواها في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من وطأة التخلف العلمي والحضاري، وفي وقت كانت لا تزال فيه تحيا حياة الركود والانحطاط[1].

(١) انظر: مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، تعريب: حسين أحمد أمين، دار الشروق بيروت ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

# مقدمة في أثر الحضارة الإسلامية في الأندلس

تقع بلاد الاندلس (اسبانيا) في شبه الجزيرة الايبيرية، وايبيرية نسبة الى أمة قديمة يقال لها «الايبير» (Ibere) وهي أقدم أمة سكنت وعمرت بلاد اسبانيا والبرتغال. أما لفظة «الأندلس»، فهي مشتقة من اسم «الفاندالس» أو «الوندال» وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر «الاودر» (Oder) ونهر «الفيستول» (Vistule) في شرقي المانيا. وهؤلاء «الفاندالس» زحفوا سنة ٤١١ ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقية (المغرب العربي)، وقد أطلق أهل أفريقية والمغرب على اسبانيا التي استقر فيها «الفاندالس» اسم «فانداليسيا» (Vandalicia) نسبة لاسم «الفاندالس». ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عرّبوا الاسم وأطلقوا عليها اسم «أندلس». واعتبر العرب أن «الأندلس» هي جميع الجزيرة الايبيرية. ويذكر الرحالة العرب، بأن عدد المدن الأندلسية في فترة الحكم العربي الاسلامي بلغ حوالي أربعين مدينة عربية، كانت تضم ما يقارب خمسة عشر مليوناً من السكان في عهد عبد الرحمن الناصر (الثالث). وكانت قرطبة وحدها تضم مليون نسمة. وهذه البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين: الأندلس العليا وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوبي الوادي الكبير. ويجري في هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر «ابرة».

أما سكان اسبانيا، فهم في الأصل خليط من الفانداال والكلتيين والايبيريين والفينيقيين القرطاجيين، وعناصر اغريقية يونانية ورومانية وجرمانية ويهودية. كما

استقر فيها القوط الذين سيطروا على إسبانيا فترة من الزمن ثم جاءت الجيوش الاسلامية والعربية فسيطرت على بلاد الأندلس في اطار عناصر متعددة ومتمايزة، استطاع العرب خلال حكمهم ان يمزجوها في بوتقة الحضارة العربية والاسلامية، فهذه العناصر «تأسلمت» أو «تعربت» أو كما يقال «تأندلست».

وكان فتح المسلمين لاسبانيا في أوائل القرن الثامن للميلاد نتيجة مخطط سياسي وعسكري اتفق عليه زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق، بالاتفاق مع قائده في المغرب موسى بن نصير. وبدأت أولى المعارك بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا، ثم تكررت في شهر رمضان سنة (٩١ هـ ـ ٧١٠ م) على يد طريف بن مالك. ثم بدأت مرحلة غزو اسبانيا بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير براً وبحراً.[١] وقد اجتاز الجبل الذي عرف باسمه «جبل طارق» المعروف سابقاً باسم (Mons Calpe)[٢] وهي تسمية فينيقية تعني «الجبل المجوف» سنة ٩٢ هـ. وقد أرسل موسى أعداداً من جنوده لمساعدة طارق، وبذلك أصبح عدد الجنود المسلمين في اسبانيا ما يقارب اثني عشر ألفاً. وبهذا يقول صاحب «أخبار مجموعة»: «وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل اليه خمسة آلاف فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً».

وكانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والاسبان هي معركة «كورة شدونة» (من ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال سنة ٩٢ هـ ـ ١٩ ـ ٢٦ تموز (يوليه) ٧١١ م) وانتهت بانتصار المسلمين على ملك اسبانيا القوطي رودريك (لذريق) (Rodrigo). ثم تكررت المعارك بين المسلمين والاسبان في مختلف المناطق الاسبانية مثال: ليون وقشتالة (Castilla) (منطقة القلاع) حتى انتهى الأمر إلى قيام حكم

---

(١) انظر:

Dozy; Histoire des Musulmans d,Espagne, T. I, p p. 274-275.

(٢) Lévi-Provençal; Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 18.

إسلامي في اسبانيا. ولقد قسم الحكم الاسلامي في الأندلس إلى العصور التالية[1]:

١ ـ عصر الولاة: وهو أزهى العصور الأندلسية، وكانت الأندلس خلاله إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في بغداد والمشرق، ويمتد هذا العصر من عهد عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى عهد عبد الله بن محمد (من ١٣٨ ـ ١٣٦ هـ، ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م). علماً أن البعض يرى أن عصر الولاة يبدأ سنة ٧١١ م مع عبد العزيز بن موسى بن نصير، وينتهي سنة ٧٥٦ م مع عبد الرحمن الداخل.

٢ ـ عصر الخلافة: وقد أصبحت الأندلس إمارة مستقلة روحياً وسياسياً عن الخلافة العباسية من عهد عبد الرحمن الداخل، وتأكد ذلك مع عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله (الثالث) إلى عهد هشام الثاني المؤيد لحكم المستنصر (من ٣٠٠ ـ ٤٢٢ هـ، ٩١٢ ـ ١٠٣١ م). وبعد هشام تولى الحكم عدد من الخلفاء قبل أن يقوم عهد الطوائف.

٣ ـ عصر ملوك الطوائف: يبدأ هذا العصر بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات سياسية وطائفية متنازعة. وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الإسبان في معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م. ويمتد هذا العصر من (٤٢٢ ـ ٤٧٩ هـ، ١٠٣١ ـ ١٠٨٦ م). ثم انتهى بشكل واضح سنة ١٠٩١ م.

٤ ـ عصر المغاربة: وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين. وكانت عاصمتهم مدينة مراكش في جنوب المغرب. وانتهى هذا العصر بهزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش المسيحية الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م ويمتد هذا العصر من (٤٧٩ ـ ٦١٢ هـ، ١٠٨٦ ـ ١٢١٤ م).

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ر. دوزي: تاريخ مسلمي اسبانيا، جـ ١، ص ١٥٤ ـ ١٦٧. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٦٦ ـ ١١٦.

٥ - **عصر مملكة غرناطة (عصر بني الأحمر)**: وهو آخر عهد إسلامي في الأندلس ويمتد من ١٢٣١م إلى ١٤٩٢م وهي السنة التي سقطت فيها غرناطة بأيدي الاسبان.

لقد بقي المسلمون في بلاد الأندلس من عام ٧١١م إلى عام ١٤٩٢م أي حوالي (٧٨٠) عاماً. وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الاسبانية في الغرب وبالبيئة العربية في الشرق في كافة الأصعدة الحضارية. ولم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة مع الحضارة الاسلامية ومع العرب. وأدى هذا التمازج الحضاري إلى ولادة وتبلور الحضارة الأندلسية.

وكان المسلمون قد اختلطوا بالعناصر الإسبانية (الرومانية والقوطية) وسواها، ونشأ من جراء ذلك طبقة اجتماعية جديدة من «المولدين» و «المسنعربين». ومن اعتنق الدين الإسلامي من الاسبان فقد سمّوا باسم «المسالمة»[1]. وقد اختلطت بهذه العناصر الرقيق من الصقالبة الذين جلبوا من أوروبا منذ صغرهم، ثم ربوا تربية عسكرية إسلامية وانخرطوا في وظائف القصر والجيش حتى صاروا قوة لها نفوذها في الدولة الأموية. وكانت هذه العناصر مجتمعة قد بدأت تتأثر بعضها بالبعض الآخر في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والثقافية. ومن الأهمية بمكان القول بأن العرب تعايشوا مع الاسبان منذ بدء الفتح، وقد اختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين بواسطة المصاهرة والزواج، خاصة وأن أكثر القادة والجنود من المسلمين لم يصحبوا معهم زوجاتهم. ولهذا فقد أقبلوا على الزواج بعد استقرار الفتوحات من الاسبانيات. وكان أول من تزوج اسبانية عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي تزوج من ايلة «اخلونا» (Egilona) أرملة لذريق آخر ملوك القوط. وقد أسلمت بعد زواجها وتكنت بأم عاصم، ثم أقامت مع زوجها في اشبيلية.

---

(١) انظر حول هذا الموضوع:

Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 32, 106;

Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 73.

بالإضافة الى ذلك فقد ظهر جيل من أولاد المسلمين الذين تزوجوا من اسبانيات. وكانت الدماء الاسبانية تجري في عروق بعض خلفاء بني أمية في الأندلس، وفي مقدمة هؤلاء الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد كانت جدته الأميرة «انيجا» (Iniga) ابنة «فرتون غرسيس» (Fortun Garces) ملك بنبلونة. وقد يفسر ذلك ما ذكره المؤرخون في وصف الخليفة الناصر من أنه كان أبيض الوجه أزرق العينين[1].

ويذكر المستشرق «ليفي بروفنسال» (Lévi Provençal) بأن الاسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين، سواء في الداخل أو الخارج. وكانت طليطلة ـ عاصمة القوط القديمة ـ قد احتفظت بين أسوارها بعدد كبير من المسيحيين الذين رفضوا في البدء الإذعان للحكم الأموي. وأضاف بروفنسال: «غير أن العناصر غير الاسلامية من المسيحيين واليهود «تعربت» أو بعبارة أصح «تأندلست» فقد طبعتهم الحضارة الاسبانية الاسلامية العربية بطابع قوي جداً. وبالرغم من أن هذه العناصر بقيت وفية لدينها الأول (المسيحي واليهودي) غير أن الأمر انتهى بهؤلاء إلى نظام إسلامي متحرر، ارتضوا أن يعيشوا في ظلّه كرعايا لدولة إسلامية».

وفي الوقت الذي سيطر المسلمون على إسبانيا كانت لا تختلف كثيراً عن بقية بلدان غربي أوروبا من حيث انتشار الجهل والتقهقر العلمي والاجتماعي بسبب طول فترة النزاعات الداخلية والفتن بين المذاهب الدينية المسيحية. ومما يدل على هذه النزاعات أن بعض أمراء اسبانيا ورئيس أساقفة أشبيلية ساعدوا المسلمين على فتح اسبانيا، وما أن استقر المسلمون حتى بدأوا بتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وأصبحت مدن الأندلس من أغنى وأهم المدن الأوروبية لاسيا قرطبة[2].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ١، ص ٣٠. لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا، ص ٢٤ ـ ٢٥، د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الاوروبي في عصر النهضة، ص ١٧-١٨.

(٢) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ٤٩.

والحقيقة فإن الأندلسيين لم يدخروا وسعاً في تحصيل العلوم العربية الاسلامية، التي وفدت اليهم بواسطة العلماء المشرقيين الذين جاؤوا مع أو بعد الحملات العسكرية أو بواسطة استدعاء الخلفاء والأمراء لعلماء مشرقيين إلى الأندلس. وقد بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها في الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، بعد أن أصبحت قرطبة - حاضرة الخلافة الأموية - من أعظم مدن العالم المتحضر، وفيها ما يزيد على مائة ألف منزل ويقطنها حوالي مليون نسمة، علماً أن سكانها كانوا يتجولون في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة التي كان ينيرها موظفون مختصون، في حين كانت شرطة العسس (الليل) مسؤولة عن حماية الممتلكات والسكان، بينما ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك ولم يوجد مصباح عام واحد يضيء شوارعها. وبينما كانت صحيفة «كولونيا» (Colognia) الألمانية في عددها الصادر في ٢٨ آذار (مارس) ١٨١٩ تعتبر وتصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهي، كانت شوارع قرطبة عام ٩٥٠ م تزدان بثمانين ألف متجر وتضاء ليلاً بمصابيح تثبت على جدران المنازل، كما مورست فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران. وبعد مضي قرنين من الزمن اتخذت باريس سنة ١١٨٥م من قرطبة مثالاً وقدوة لها، فرصعت شوارعها ونظفتها، وقد نقل زوار الأندلس من الأوروبيين إعجابهم بالحضارة الأندلسية، فنقلوا مظاهرها ومعالمها إلى منازلهم وشوارعهم ومدنهم [١].

ومما ساعد على التطور الحضاري في البلاد الأندلسية سياسة التسامح الاسلامية التي اتبعها المسلمون تجاه العناصر غير الاسلامية من مسيحيين ويهود، فأقبل المستعربون الإسبان على تلقي العلوم وتعلم اللغة العربية، كما تتلمذ بعض اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين، فأصبح المستعربون رسلاً جدداً للحضارة الاسلامية، نتيجة اتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معاً، فاستطاعوا نقل العلوم

---

(١) د. سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٥٠ هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة، ص ٤٩٩.

العربية والاسلامية إلى الاسبان والأوروبيين، وأصبح إقبال الغربيين على تعلم العلوم العربية من الأمور اللافتة للنظر، مما دعا الكاتب المتعصب « الفارو » (Alvaro) الذي عاش في القرن التاسع الميلادي للقول:

« إن أخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، واسفاه أنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية. ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في فهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها.. »[1].

ومما قاله ألفارو أيضاً: « ... لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية، بينما نجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم »[2]. علماً بأن المسلمين حرصوا بدورهم على إتقان اللغة اللاتينية لا سيما لغة جيرانهم القشتاليين والأراجونيين. ويروى لسان الدين بن الخطيب بأن العالم محمد بن لب الكناني المالقي، كان يطوف بالبلاد الاسبانية. ويناقش قساوستها في أصول الديانتين الاسلامية والمسيحية. وكان العالم الغرناطي محمد الرقوطي زمن الملك الاسباني الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية، فكان يعلم المسيحيين واليهود في مدرسة مرسية. كما كان العالم الغرناطي عبد الله بن سهل في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية وله شهرة واسعة في العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي اسبانيا كانوا يرحلون الى داره في

---

(١) جروينباوم: حضارة الإسلام، ص ٨١ ـ ٨٢. انظر ايضاً: د. سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢، زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(٢) زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

مدينة بياسه (Baeza) لمجادلته والاستفادة من علمه [1].

كما استفادت اسبانيا وغربي أوروبا من الطب العربي المشرقي الذي شهد تطوراً بارزاً في المشرق. ثم انتقل بواسطة الاطباء والمؤلفات إلى الأندلس، وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الاطباء، وكان في مقدمتهم بنو زهر، وهي العائلة التي انجبت عدداً كبيراً من الاطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة. وبنو زهر قطنوا إشبيلية القاعدة الأندلسية الشهيرة. وأهم طبيب في بني زهر الشيخ محمد بن مروان بن زهر المتوفى سنة ١٠٣١م عن عمر يناهز ٨٦ عاماً، ومنهم عبد الملك بن محمد ابي مروان الذي مارس الطب في القيروان في تونس وفي القاهرة، ومات في الأندلس سنة ١٠٧٨ م. وكان أبو العلاء بن زهر ثالث سلالة الاطباء الإشبيليين المتحدرين من القبيلة العربية أيّاد، وقد عاش في قصر المعتمد. أما حفيده ابو بكر محمد بن زهر، فكان أيضاً من أشهر أطباء عصره، فذاع صيته في المشرق والمغرب وقد استفادت أوروبا كثيراً من علومه الطبية. ويذكر في هذا المجال بأن الملك سانشو (Sancho) ملك ليون الذي قدم إلى قرطبة لأسباب سياسية ومثل بين يدي الخليفة عبد الرحمن الثالث، طلب من الأمير بعد انتهاء مباحثاتها السماح لطبيب البلاط القرطبي بالكشف عليه وفحصه إثر مرض عضّال أصابه من جراء السمنة المفرطة. وبالفعل فقد استطاع طبيب الخليفة عبد الرحمن معرفة مرض سانشو ومداواته، وكان هذا الطبيب حسداي بن شبروط اليهودي.

ومن المؤثرات العلمية الإسلامية في الأندلس، انتقال علم الرياضيات إلى الغرب بواسطة المسلمين. فمن المعروف ان قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد عاصمة للبحث العلمي، فعالم الرياضيات «غربرت» الذي اصبح فيما بعد البابا سلفستروس الثاني (٩٩٩ ـ ١٠٠٣) قضى ثلاثة أعوام (٩٦٧ ـ ٩٧٠ م) في الأندلس واحتك بالعلماء المسلمين واستفاد من

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، ص٩٩ هامش ٢. تحقيق د. أحمد مختار العبادي

علومهم، وتعمق هناك في درس الرياضيات والفلسفة والفقه[1]. ولما عاد «غربرت» إلى رومية كان علمه العربي الذي تعلمه في الأندلس غريباً على قومه حتى لقبوه بالساحر. ومن بين علماء الغرب الذين تعلموا اللغة العربية للإطلاع على مؤلفات العرب في الفلك والرياضة «روبرت ريتيننسيس» (Robertus Retenensis) و«هرمانوس دلماتا» (Hermanus Delmata). واستجابة لطلب بطرس المبجل (Petrus Venerabilis) (١٠٩٤ ـ ١١٥٧) رئيس دير كلوني، قام هذان العالمان بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وقد أنجزا هذه الترجمة في سنة ١١٤٣[2].

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية بواسطة العرب، لذا يقال لها في أوروبا إلى الآن «الأرقام العربية» ولفظوا الصفر كما يلفظه العرب، فأصبح في الانجليزية صفر (Cipher) وفي الألمانية تسفر (Ziffer) وفي الأفرنسية (Zero) وفي الايطالية شيفرا (Cifra). كما نقل المسلمون إلى اوروبا الكسر العشري الذي استخدموه في عملياتهم الحسابية.

ومن بين علماء الرياضيات في الأندلس مسلمة المجريطي (المدريدي) إمام علماء الرياضيات في الأندلس (المتوفى ٣٩٨ هـ ـ ١٠٠٧ م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤م) وابن الصفاء والكرماني وأمية بن أبي الصلت. ومن العلماء المسلمين البارزين في الأندلس في علم الرياضيات ومن الذين أثروا في أوروبا أبو الحسن علي بن محمد علي القلصادي المولود بمدينة بسطة في الأندلس (٨٢٥ هـ ـ ٨٩١ هـ) ومن كتبه «كشف الأسرار عن علم الغبار» وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية، واقتبسته أوروبا عنه[3].

---

(١) د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ص٧٣.

(٢) د. جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣. للمزيد من التفصيلات حول التمازج الحضاري والترجمات بين المسلمين والغرب انظر المرجع نفسه، ص١٨ ـ ٢٤.

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: د. علي الدفاع: تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، ص ٢٠١...

والواقع فإن هناك الكثير من المؤثرات العلمية والطبية والفيزيائية والكيمائية العربية في بلاد الأندلس وأوروبا. وقد أقام العرب الكثير من المراصد الفلكية في غرناطة وطليطلة وقرطبة واشبيلية. ومن بين علماء الفلك والجغرافية والرياضيات في الأندلس كل من:

ـ **مسلمة المجريطي**: عالم الرياضيات والفلك والجغرافيا الذي قام بعمل اختصر فيه جداول البناني واستفاد كثيراً من هذا المختصر فيما بعد، واضعوا جداول الفونس الملكية (الازياج، التقاويم)، ومن بين كتب المجريطي: رسالة الاصطرلاب، ثمار علم العدد، تعديل الكواكب.

ـ **الزرقالي**: ويعرف باسم «الزرقيل» عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (تقريباً ١٠٢٩ ـ ١٠٨٨م) وهو صاحب (زيج طليطلة) وصانع الاصطرلاب.

ـ **جابر بن أفلح الإشبيلي**: المتوفى بين ١١٤٠ ـ ١١٥٠م وهو صاحب مؤلف (الفلك) و(الهيئة أو اصلاح المجسطي).

وهناك علماء آخرون مما لا يتسع المجال لذكرهم ومنهم ابن رشد وابن باجة والبطروجي من علماء الفلك والجغرافية والعلوم الأخرى المتنوعة، الذين أثروا بعلومهم البلدان الأوروبية عبر الأندلس[١]. غير أننا نستطيع ان نذكر مجموعة من هؤلاء العلماء وهم على سبيل المثال:

ـ **في الطب**: احمد بن اياس القرطبي، ابو عبد الله محمد بن عبدون العدرى القرطبي، ابو القاسم الزهراوي، ابن وافد، خلف بن عباس، ابن البيطار، ابن زهر..[٢].

ـ **في الأدب**: ابن عبد ربه، ابن زيدون، ابن عمار، ابن عباد، ابن عبدون،

---

(١) نفيس احمد: الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي، ص ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر: د. علي الدفاع: اعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٧٧ ـ ١٨٧.

ابن حمديس، الفتح بن خاقان، ابن بسام، ابن سهل...

- **في التاريخ**: عبد الملك بن حبيب، محمد بن موسى الرزي، ابن القوطية القرطبي، ابن الفرضي، ابن حيان، الحميدي، ابن بشكوال، ابن الآبار، ابن سعيد المغربي، لسان الدين بن الخطيب، ابن خلدون، ابو حامد الغرناطي الأندلسي، ابن جبير البلنسي...

- **في الجغرافية**: أبو عبيد البكري، الإدريسي، المازني، ابن سعيد، ابن جبير البلنسي...

- **في علوم الدين**: ابن مخلد، ابن عبد البر، الباجي، الشاطبي...

- **في الفلسفة**: ابن مسرة، ابن حرم، الطرطوشي، ابن طنيل، ابن رشد، ابن ميمون، ابن عربي، ابن سبعين، ابن باجة..

- **في علوم اللغة**: ابو علي القالي، الزبيدي، ابن سيده، ابن عصفور، ابن مالك، ابن إدريس الفراني، ابو حيان.

**في الترجمة:**

برز في الأندلس الكثير من العلماء الذين اهتموا بالترجمة والتعريب، منهم جيرارد الكريموني (١١١٤ - ١١٨٧) الذي كان يترجم من العربية إلى اللاتينية، وقد نسب إليه ترجمة واحد وسبعين كتاباً في مختلف العلوم. ويأتي في مقدمتهم خلال النصف الأول من اقرن الثاني عشر يوحنا الأشبيلي، وكان يترجم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، وقد ترجم الكتب الآتية:[1]

١ - كتاب الحساب للخوارزمي.

٢ - بضع رسائل عن الفلك وأحكام النجوم.

٣ - كتاب في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم للفرغاني.

---

(١) انظر: د. محمد عبد السلام كفاني. الحضارة العربية، طابعها ومقوماتها ال... ٦٢، ٦٣.

٤ ـ كتاب لأبي علي الخياط عن أصل الكواكب.

٥ ـ بضع رسائل للكندي.

٦ ـ كتاب المدخل إلى علم هيئة الأفرك لأبي معشر.

٧ ـ كتاب عن الفلك لأبي الفخّان.

٨ ـ شرح كتاب بطليموس عن الفلك، لأحمد يوسف المعروف بابن الداية.

٩ ـ كتاب عن الفلك للبتاني.

١٠ ـ كتاب عن الفلك لثابت بن قرّة.

١١ ـ كتاب المدخل إلى صناعة أحكام النجوم للقابسي.

١٢ ـ كتاب الفلك لمسلمة بن أحمد المجريطي.

١٣ ـ قسم من كتاب سر الأسرار.

١٤ ـ كتاب الفصل بين الروح والنفس لقسطا بن لوقا.

١٥ ـ كتاب إحصاء العلوم للفارابي.

١٦ ـ قسم من كتاب الشفاء لابن سينا.

١٧ ـ كتاب ينبوع الحياة لابن غبيرول.

١٨ ـ كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالي.

ويلاحظ من خلال هذه الترجمات مدى تطور الحضارة الإسلامية والعربية ومدى استفادة أوروبا من هذه المؤلفات التي غطت مختلف العلوم.

ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء العلماء لم يكتبوا بالضرورة في علم واحد، ولهذا لا يمكن تصنيفهم في علم واحد من العلوم، لأن الواحد منهم، قد يكون كتب في التاريخ والجغرافية معاً، وفي الرياضيات والطب والكيمياء، وفي الفلسفة والسياسة والأدب. ومن يطلع على كتب التصانيف مثال: الفهرست لابن النديم وجذوة المقتبس للحميدي وتراجم علماء الأندلس لابن الزبير وتاريخ علماء

الأندلس لابن الفرضي وكتاب القضاة بقرطبة للخشني وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي وطبقات الفقهاء لمحمد بن خالد الأندلسي وسوى ذلك من مصنفات، يرى مئات من العلماء والأطباء والأدباء والقضاة وأهل العلم في الأندلس والمغرب والمشرق على السواء.

هذا وقد حدث نوع من المؤثرات والتمازج الحضاري بين المشرق والمغرب من خلال الأندلس يمكن دراسة بعض ملامحها ومظاهرها[1].

(١) للمزيد من التفصيلات حول واقع الاندلس ووصف مدنها واحوالها انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٤ ـ ١١٢.

## ١ ـ التبادل الحضاري بين الشام والأندلس

خضعت الأندلس للمسلمين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وظلت ولاية تابعة للقيروان إلى أن استقل بها الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (صقر قريش) مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. وهو أول من أسس ووضع جذور الحضارة الإسلامية الشامية في الأندلس، وقد حرص منذ قيام دولته في الأندلس على تجديد ما زال من حضارة بني امية في المشرق، وعلى نقل النظم الإدارية المعروفة في المشرق الإسلامي في العهد الأموي، وطبقها في الأندلس تطبيقاً مشابهاً وعملياً، لأن العرب الأوائل نقلوا معهم أنظمتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ويذكر ابن القوطية في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» أنه منذ عهد هشام بن عبد الملك نزل الشاميون في كور الأندلس «وتفريقهم على قرطبة، إذ كانت لا تحملهم، فانزل اهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن برية، وأهل مصر بباجة، وقطيعاً منهم بتدمير»[١].

وكان من الطبيعي ان تتأثر الدولة الناشئة بالحضارة الشامية والتقاليد والأنظمة الشامية، فالحياة الأدبية في الأندلس كانت صدى لحياة الشام الأدبية، فالشعر الأندلسي مثلاً كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير. ويقول المستشرق كارل بروكلمان «تاريخ الشعوب الإسلامية» بان الشعر في الأندلس كالشعر في الشام، وأول ما دار على محور العصبية القبلية التقليدي فهو

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٤.

في معظمه مدح وهجاء. وفي بلاط الأمويين تفتحت ـ تحت تأثير الفن البغدادي ـ براعم المديح المثقل بالاطراء الغريب المستهجن، ولكن المزاج الأندلسي استطاع أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة[1].

أما أهم شعراء الأندلس فبينهم على سبيل المثال القاضي والوالي والأمير وابناء الامارة ومنهم: أبي الخطار بن ضرار الكلبي، الصميل بن حاتم وعبد الرحمن الداخل وابنه سليمان وحفيده الحكم الربضي، والقاضي الشاعر معاوية بن طليح الحضرمي الحمصي (قاضي حمص سابقاً وقاضي الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل) وسواهم. ومما ذكره الأمير عبد الرحمن الداخل متشوقاً إلى بلاده الشام مبدياً حنينه إليها[2]:

| | |
|---|---|
| أيها الراكب الميمم أرضي | أقر من بعضي السلام لبعضي |
| ان جسمي كما علمت بأرض | وفؤادي ومالكيه بأرض |
| قدّر البين بيننا فافترقنا | وطوى البين عن جفوني غمضي |
| قد قضى الله بالفراق علينا | فعسى باجتماعنا سوف يقضي |

ولما نقل عبد الرحمن الداخل اشجار النخيل من الشام وزرعها في الأندلس أثار منظر النخيل في نفسه الحنين للشام مجدداً فقال شعراً بالمناسبة:

| | |
|---|---|
| تبدت لنا وسط الرصافة نخلة | تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل |
| فقلت: شبيهي في التغرب والنوى | وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي |
| نشأتِ بأرض انت فيها غريبة | فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي |
| سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي | يسحّ ويستمري السماكين بالوبل |

وفي الوقت الذي بدأ الشعر العربي يؤثر في البيئة الاسبانية المسيحية كانت اللغة العربية ومصطلحاتها قد سادت الأندلس، ولقد اندفع سكان اسبانيا وأساقفتها

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٠٠.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٨ ـ ٩.

لدراسة العربية، وكانت كلما مرت السنون ضاعت اللغة اللاتينية بشكل اكثر ـ كما فصّلنا سابقاً ـ بحيث ترجمت فيما بعد بيانات البابا وقرارات المؤتمرات والمجامع المسيحية في القرن التاسع الميلادي إلى اللغة العربية، للأسبان المسيحيين في الاندلس الذين لم يعودوا يفهمون اللاتينية.

والحقيقة أن الامير عبد الرحمن الداخل حاول أن يجعل من عاصمته قرطبة[1] صورة من دمشق من حيث منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية (Patios) وفي أشجارها وحدائقها. وكان يرسل رسلاً إلى بلاد الشام خصيصاً لجلب أشجار النخيل والفاكهة واشتال (شتلات) الأشجار المثمرة مثل التين والرمان والعنب وهي أثمار لا تزال معروفة إلى الآن في اسبانيا. وبالقرب من قرطبة زرع الأمير عبد الرحمن أول شجرة نخيل في الأندلس في حديقة قصره الذي بناه على نظام قصور أجداده في الشام لا سيما جده الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد بنى قصره خارج مدينة قرطبة على غرار القصور الأموية التي انشأها هشام خارج دمشق بين تدمر ودمشق ومن قصور عبد الرحمن قصر الرصافة (La Ruzafa)[2]. وهو قصر صيفي شمالي غربي قرطبة، وهو شبيه برصافة جده هشام الذي بناه خارج دمشق سنة ١١٠ هـ. وقد أطلق عليه اسماً آخر هو «قصر الدمشق» الذي أحاطه عبد الرحمن بأشجار النخيل والتين والرمان. وهو الذي اتخذه مقراً لراحته وأفراحه، وقلد به قصور بني أمية في المشرق وكان يعرف أيضاً باسم «منية الرصافة» أي

---

(١) انظر وصف المقدسي لقرطبة في: احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦. انظر أيضاً:
Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 199.

(٢) د. احمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٩. د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٢٠٧. للمزيد من التفصيلات حول العمارة العربية في اسبانيا انظر: د. الطاهر احمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ١٥ـ٨٨، ١١٠ـ١١٦، ١٥٣ـ١٨٥.

«قصر الرصافة». ومن أشهر فواكه هذا القصر ـ المنية الرمان السفري الذي ينسب إلى سفر ابن عبيد الكلاعي من جند الأردن الذي زرعه في كورة رية فأثمر واينع[1]. ونظراً للتشابه بين قصور بني أمية في المشرق وقصر الدمشق في الأندلس، فقد أحبه بنو أمية وقال ابن عمار الشاعر فيه:

كل قصر بعد الدمشق يـذم    فيـه طـاب الجنى ولـذ المشم
منظـــر رائــق ومـــاء نمير    وثــرى عــاطــر وقصر اشم

أما المسجد الجامع في قرطبة الذي اقامه عبد الرحمن الداخل عام ١٦٩ هـ، فتظهر فيه أيضاً المؤثرات الشامية الإسلامية، في زخارفه المعمارية ونظام سقفه وعقوده (البوائك) (Arcades) أو (Arqueria). وهذه العقود تزيد من ارتفاع السقف وتجعله ارتفاعاً مناسباً مع اتساع مساحة المسجد، وكذلك نجد هذا التأثير في الممر الذي يصل المسجد بقصر الأمارة وهو المعروف باسم (الساباط). كما أن مئذنة مسجد قرطبة تماثل مآذن مساجد الشام لا سيما مساجد دمشق والقدس. وكان الأمير عبد الرحمن قد استعان بالبنائين والمهندسين الشاميين في بناء قصوره ومساجده ومقصوراته. وكان هذا التشابه في الفن المعماري بين الأندلس والشام ليس إلا وليـد الوجـود الشـامـي في الأنـدلس، ومحاولـة مـن امـراء بني أميـة الأندلسيين التشبه ببلادهم الأصلية. وهكذا طعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع الشامي، وإليه يرجع الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة[2].

هذا وقد تمتع فن البناء العربي وفن النقوش العربية (Arabesqua) بمميزاته البسيطة وأشكاله الهندسية البديعة. وقد ظل هذا الفن على قوته يشكّل ما وجد من فنون في اسبانيا والبلاد المفتوحة، ويؤثر على الفن الجرماني والفن الأوروبي إلى عصر النهضة. وبلغ تأثر الغرب الأوروبي بـالفـن المعماري الإسلامـي والنقـوش

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٢٠٨.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

العربية أن تأثر المهندس الأوروبي تأثراً بالغاً بحيث انه نقل الآيات القرآنية معجباً بخطوطها الجميلة التي رآها على جدران المساجد، فنقلها ووضعها على جدران الكنائس دون ان يدري معانيها، مما يشير إلى تأثر المهندس الأوروبي بهذه الفنون والخطوط التي كتبت بأسلوب فني راق وجميل [1]. كما تأثر الغرب بالفن المعماري الإسلامي في تزيينه للسقوف والأقبية والأركان والعمد المستديرة. وقد أخذ الغرب عن العرب الأقواس المدببة العالية واطلقوا عليه اسم «الطراز القوطي»، وانتقل هذا الطراز الإسلامي إلى أوروبا عبر المهندسين المسلمين والمسيحيين. كما ساهم في نشره كهنة اسبانيا لا سيما رئيس الدير «هوغو فون كلوني» الذي سبق له ان زار كنيسة «مونت كاسينو» سنة ١٠٨٣ م وشاهد أقواسها العالية المدببة التي بناها «دسيداريوس» (Desiderius) بمساعدة المهندسين المسلمين، فأعجب ببنائها وأمر بنقل طرازها إلى كلوني جنوب البرانس في الجزء المسيحي من اسبانيه. ومن الآثار المعمارية الإسلامية الخالدة في اسبانيا التي لا تزال آثارها ماثلة إلى الآن قصر الحمراء ومسجد قرطبة الذي يضم ١٤٠٠ عود من أقواس الدائرة، وقد تحول إلى كنيسة، ويوجد في إشبيلية «الجيرالدا» (Giralda) التي كانت برجاً لرصد النجوم والأفلاك. ويذكر الأديب والمؤرخ الرحالة أمين الريحاني الذي زار اسبانيا سنة ١٩١٧ من أن مدرسة إشبيلية أخذت الكثير عن الفن الشامي، وأشار إلى بروز الأثر السوري في فن الرسم والتصوير والعمارة الأندلسية، لا سيما في القصور والأبراج والأسوار. وعلى هذا فإن المؤثرات الشامية لم تنتقل إلى الأندلس فحسب، وإنما بعد أن تطورت وتأندلست انتقلت إلى الغرب الأوروبي والممالك المسيحية.

وعلى صعيد المؤثرات الشامية والتشابه بين الشام والأندلس، فقد تبين بأن موقع مدينتي غرناطة وقرطبة [2] يشبه إلى حد كبير موقع مدينتي دمشق وبغداد،

---

(١) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ١٩٢ـ١٩٣.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول قرطبة وحضارتها ودورها العلمي انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: =

فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ويطل على دمشق جبل قاسيون، بينما يطل على قرطبة جبل الشارات، هذا بالإضافة إلى التشابه بين البلدين في بيوتهما وأسلوب الحياة فيهما. ومن هنا قول الجغرافيين العرب بأن الأندلس « شامية في هوائها وشامية في حياتها »[1] وبهذا يقول المقري (نفح الطيب) نقلاً عن أبي عبيد البكري واصفاً الأندلس: « الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، اهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة.. » ويذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ». جـ ١، نقلاً عن الشقندي: « غرناطة، دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء اكابر وشعراء أفاضل... وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس وتسمى بدمشق الأندلس، لأنها اشبه شيء بها، ويشقها نهر حدرة، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير... ونزل بها أهل دمشق لما جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور »[2].

ويذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة في كتابه الموسوم « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جـ ٢، الذي زار الأندلس « إثر موت طاغية الروم ادفونس » كما يسميه، فوصف مدينة مالقة ومزروعاتها بقوله: « .. فوصلنا إلى مدينة مالقة، إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين والزيتون فيجلبان منها ومن اهوازها إلى بلاد المشرق والمغرب. وبمالقة يصنع

---

= تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص٢٩٢ـ ٣١٥. بالإضافة إلى أن للدكتور سالم كتاباً متخصصاً في تاريخ قرطبة تحت عنوان « قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ».

(١) د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص٣٠.

(٢) الأمير شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥

الفخار المذهب العجيب.. ومسجدها كبير الساحة شهير البركة.. فيه اشجار النارنج البعيدة.. ثم سافرت منها إلى مدينة بلش... بها مسجد غريب، وفيها الأعناب والفواكه والتين». ثم وصف غرناطة التي زارها في زمن السلطان ابو الحجاج يوسف «والبساتين والجنات والرياض والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة»[1]. ويذكر لسان الدين الخطيب في معرض وصفه لمدينة مالقة زراعاتها وصناعاتها مشيراً إلى استخدام المدينة الصناعات الشامية واستخدام اليمن للصناعات المالقية مما يشير إلى التبادل التجاري بين المشرق والأندلس بقوله: «... والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة، حيث الآواني تلقى لها يد الغلب، صنائع حلب، والحلل التي تلح صنعاء فيها بالطلب...»[2].

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس، فقد كانت في الفترة الأولى متأثرة بالحياة الدينية السائدة في الشام، فقد كان في الأندلس الكثير من فقهاء وقضاة الشام، منهم فقيه أهل الشام صالح الخضر، وشيخ العرب الشاميين القاضي مصعب ابن عمران الحمداني والقاضي معاوية بن طليح وسواهم الكثير. وقد اعتنق الأندلسيون في البدء مذهب الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أمام الشام المتوفى سنة ١٥٧ هـ. وكان الامام الأوزاعي من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد البيزنطيين. ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذه التشريعات كانت تناسب وضع الأندلسيين في الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والجهاد. إضافة إلى انه من الطبيعي ان ينقل امراء بني

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، جـ ٢، ص ٧٦٧-٧٦٨. ومن الملاحظ ان لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ - ١٣١٣ - ١٣٧٤م) وزير ملوك بني الأحمر يذكر في مشاهداته في بلاد المغرب والأندلس الكثير من الزراعات والصناعات الموجودة سواء في بلاد الشام أو في الاندلس، ص٧٦ - ٩١ وصفحات متفرقة. تحقيق د. احمد مختار العبادي.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس، ص ٧٧.

امية المذهب الديني الذي اقاموا عليه احكامهم في بلادهم الأصلية. ولهذا اعتنقوا في الأندلس مذهب الامام الأوزاعي الذي كان في الوقت نفسه مذهب اهل الشام. ويذكر ابن حزم بأن أول من نقل مذهب الإمام الأوزاعي إلى الأندلس هو الفقيه صعصعة بن سلام الشامي سنة ١٥٠ هـ[١]. ويذكر الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس » بهذا الخصوص قوله: « صعصعة بن سلام اندلسي فقيه من أصحاب الأوزاعي، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي، مات سنة اثنين وتسعين ومائة... أن صعصعة بن سلام دمشقي.. قدم مصر وروى عن الأوزاعي. ويروى عنه من اهل مصر فيما علمت موسى بن ربيعة الجمحي.. »، ويضيف الحميدي في موقع آخر بأن الفقيه الأندلسي زهير بن مالك البلوي أبو كنانة كان « يفتي بقول الأوزاعي » وكان معاصراً لعبد الملك بن حبيب السلمي، وقد مات زهير قبل سنة ٢٥٠ هـ، بعد موت عبد الملك.

وشهدت الأندلس الكثير من الفقهاء الشاميين والأندلسيين الذين رحلوا إلى الشام، منهم ابو عبد الله محمد بن وضّاح بن بزيع المتوفى سنة ١٨٦ هـ، مولى عبد الرحمن بن معاوية، وكان من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين، رحل إلى المشرق وطوّف البلاد في طلب العلم. ومن الذين قصدهم عبد الرحمن بن ابراهيم قاضي دمشق المعروف بدحيم. كما رحل إلى المغرب والمدينة المنورة، وقصد الكثير من العلماء، ولما عاد إلى الاندلس حدّث فيها وأصبح له تلامذة كثر[٢].

كما شهدت الأندلس الكثير من الأدباء القادمين من الشام والمشرق، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم شغوفاً بالبيان مؤثراً لأهل الأدب، وقد قرّب إليه الأدباء والشعراء ومنهم أدباء الشام. وكان أبو اليسر الشاعر المعروف بالرياضي قد وصل من الشام قاصداً الأندلس، حيث ألّف فيها كتاباً على لسان ابن الشيخ في الشام، وأقام فترة في بلاط ابن الحكم الذي أكرمه. ثم توجه الرياضي

---

(١) د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٠.

(٢) الحميدي، المصدر السابق، ص ٩٣ - ٩٤.

بعد ذلك إلى مصر ناقلاً معه أيضاً ملامح من الحضارة الأندلسية. وقد شهدت الفترة وفود جماعات من العلماء من الشام إلى الأندلس لنشر العلم والدين، كما ذهب الأندلسيون إلى المشرق للتعلم والتزود.

وكان الحكم بن عبد الرحمن الثالث الملقب بالمستنصر بالله «جامعاً للعلوم محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في انواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان..».

ويذكر انه بعد وفاة وغياب الرعيل الأول لا سيما عبد الرحمن الداخل المتوفى ١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م (وهو في الستين من عمره)، تبيّن بأن المؤثرات الشامية بدأت تتقلص في الأندلس، لا سيما وأن الأجيال الطالعة الجديدة لم يسبق لها أن رأت الشام أو ارتبطت بها كما ارتبط بها الجيل الأول. وزاد من تقلص المؤثرات الشامية في الأندلس الصراع بين ابناء عبد الرحمن لا سيما بين ابنه الأكبر سليمان وابنه الأوسط هشام. فقد كان سليمان شامياً ومن مواليد الشام، عيّنه والده حاكماً على طليطلة (Toledo)، بينما كان هشام اسبانياً ومن جارية اسبانية، كما نشأ في تلك البيئة الأسبانية، وعيّنه والده حاكماً على مدينة ماردة (Merlda)، وبينما كان سليمان يمثل الحزب الشامي، كان هشام يمثل الحزب الأندلسي[1]. وقد جرت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار هشام وهزيمة سليمان الذي نفي إلى المغرب سنة ١٧٤ هـ. وكان معنى ذلك هزيمة الحزب الشامي. غير أنه بالرغم من هذا الواقع، إلا أن الخليفة هشام استمر معتمداً على الشاميين بصورة اساسية، ولما أراد محاربة البربر، ارسل لقتالهم (٢٧) ألفاً من الشاميين وانضم إليهم ثلاثة آلاف من المصريين.

ويذكر بأن الأجيال اللاحقة من الشاميين تأقلمت بالبيئة الأندلسية، وزاد من بعدها عن المؤثرات الشامية الخلافات بين الحكام المسلمين العباسيين وبين أباطرة القسطنطينية، واضطراب الأوضاع في المشرق. ويذكر ليفي بروفنسال في كتابه

---

(١) د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٣٠ ـ ٣١.

(Islam D'occident) مصوراً هذا الواقع بقوله: « وقد ساعد الزمان وبعد المكان على زيادة العداء المعهود بين الأمويين باسبانيا، وبين خلفاء بغداد، بحيث بدأ الشام يفقد في نظرهم صفة « الفردوس المفقود » بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها المميزات نفسها والثراء والخصوبة والطبيعة التي لا تقل عن الشام تنوعاً وانسجاماً . . . ».

## ٢ ـ التبادل الحضاري بين العراق والأندلس

بدأت المؤثرات العراقية المتواضعة في الأندلس تظهر منذ أيام الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور الذي أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ ـ ١٤٩هـ ، وجعلها عاصمة لدولته ومقراً لخلافته، وأصبحت بغداد مدينة حضارية عالمية امتزجت فيها مختلف الثقافات وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والأقوام كالفرس والهنود والروم والصينيين. وكانت هذه العناصر قد بدأت بالمساهمة في إيجاد حضارة متمازجة ، فساهمت في الترجمات والمؤلفات والعلوم الفارسية والهندية والسريانية والأغريقية والمصرية ، فجرى تعريب أحكام سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما ترجمت من العربية إلى اللاتينية الكثير من المؤلفات العلمية وتم تعريب كتب الرياضيات اليونانية وتصحيحها والإضافة إليها وتعريب القصص الهندية والفارسية مثال: قصة السندباد الهندية ، وكليلة ودمنة ( من الهندية إلى الفارسية ) الذي ترجمه ابن المقفع من الفارسية إلى العربية في زمن ابي جعفر المنصور . وتم تعريب كتاب « هزار افسانة » أي « ألف خرافة » وهو المعروف باسم ألف ليلة وليلة[١] ... وقد أشار المقدسي واصفاً العراق بقوله : « هذا اقليم الظرفا ، ومنبع العلما ، لطيف الما ، عجيب الهوا ، ومختار الخلفا ، اخرج أبا حنيفة فقيه الفقها ، وسفيان سيد القرا ، ومنه كان أبو عبيدة ، والفرا ، وابو عمر صاحب المقرا ... »[٢] .

---

(١) د . احمد مختار العبادي : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٦ . د . سعيد عاشور : المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٢ .

(٢) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١١٣ .

وقد ارتبط هذا التطور العلمي بتطور صناعة الورق وتجليد الكتب ونسخها وتصحيحها مما ساعد على انتشار الحضارة العراقية المتازجة والمتفاعلة مع سواها من الحضارات. وقد اصبحت بغداد ـ كما قيل ـ كعبة علمية يحج إليها طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وكانت الأندلس إحدى مناطق هذا العالم، فشهد العراق موجات أندلسية لتلقي العلم والفقه والمعرفة. وقد آثر الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٧ ـ ٢٣٨ هـ) الابتعاد عن سياسة من سبقه من الامراء الأمويين، وهي السياسة القائمة على الابتعاد عن العراق، فبدأ بالأخذ من الحضارة العراقية، ثم بدأ نفسه بتقليد الخليفة العباسي في مظهره وملبسه، كما فتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين، فامتلأت اسواق الأندلس بالبضاعة والصناعات العراقية.

ولقد استمر هذا التقليد إلى عهد عبد الرحمن الثالث، الذي رغم معارضته لدعوة الفاطميين في المشرق، غير انه خلع على نفسه تبعاً للتقليد المشرقي والعراقي لقب «الناصر لدين الله». كما اقتدى بخلفاء بني العباس، فانشأ جيشاً من الأجانب، وبينما اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم على العناصر التركية، نجد الأمويين في الأندلس يعتمدون على الصقالبة السلاف.

وفي عهد عبد الرحمن الثاني شهدت قرطبة مؤثرات فنية وأدبية عراقية، ومما ساعد على ذلك ان الأمير عبد الرحمن كان محباً للعلم والعلماء فأحسن استقبالهم وأكرم ضيافتهم وقد نقل علماء وفقهاء العراق معهم الكثير من المؤثرات الأدبية والعلمية العراقية، اختلطت بالمؤثرات الشامية والحجازية والمصرية. ومن قضاته المقربين سعيد بن محمد بن بشير، ومحمد بن شراحيل المعافري، وأبو عمر بن بشير، وفرج بن كنانة الشذوني، ويحيى بن معمر اللاهاني الاشبيلي، وكان أخص الناس بعبد الرحمن من أهل الأدب عبيد الله بن قرلمان بن بدر الداخل[١]. ويذكر صاحب أخبار مجموعة بأن عبد الرحمن «كان له حظ من أدب وفقه وحفظ للقرآن

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٧٥.

ورواية للحديث...»[1] وحكى بعض نقلة الأخبار انه لم يصل احد إلى روايته « مشافهته ». غير أنه أصبح فيما بعد متأثراً ببعض الأمراء في المشرق والأندلس، فقيل بأنه أمر مرة لجارية من جواريه بعقد ثمنه عشرة آلاف دينار، وعمل عبد الرحمن الثاني على اقتناء الكتب النادرة، فأرسل العلماء الأندلسيين إلى العراق وبعض بلدان المشرق لهذه الغاية، وبين مبعوثيه عباس بن ناصح الجزيري، الذي أتاه بكتاب « السند هند ». واعتبر عباس بن ناصح أول من أدخل هذا الكتاب إلى الأندلس وعرّف أهلها به. ومن فقهاء الموصل الذين وصلوا إلى إشبيلية ابراهيم بن بكر الموصلي الذي حدّث بها عن أبي الفتح محمد بن الحسين بن احمد بن الحسين الأزدي الموصلي بكتابه « الضعفاء والمتروكين » وأصبح له تلامذة كثر من الفقهاء منهم اسماعيل بن عبد الرحمن بن علي المعروف باسم أبي محمد القرشي العامري المتوفى بعد سنة ٤٠٠ هـ. وسواه، كما أن بني حجاج بإشبيلية تأثروا بالمؤثرات العراقية، فقد استضاف الامير ابراهيم بن حجاج العالم النحوي أبو محمد العذري البغدادي والمغنية البغدادية قمر اضافة الى العالم العذوبي الحجازي.

وكان الحكم الثاني (المستنصر بالله) محباً أيضاً للعلوم متأثراً بعلماء بغداد، فقد طلب كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار. فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مخطوطة من الكتاب قبل نشره في بغداد. كما طلب الحكم من أبي الفرج تأليف كتاب عن سلالة الأمويين، فألّف له كتاباً في أنساب بني أمية.

أما المنصور بن أبي عامر، فقد استقدم بدوره من بغداد الشاعر سعيد البغدادي (أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي) ـ الذي جاء من الموصل منذ أيام هشام بن الحكم ـ أقام في بلاط المنصور بن أبي عامر في حوالي سنة ٣٨٠ هـ. وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار والشعر. وقد ألف للمنصور كتاب «الفصوص» على نحو كتاب «النوادر» لأبي عالي القالي، كما ألّف له عدة كتب أخرى.

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الاندلس، وذكر أمرائها، ص ١٢٢.

ومن وصل الأندلس وحدّث فيها أبو الفتوح ثابت بن محمد بن الجرجاني العدوي الذي قدم الأندلس سنة ٤٠٦ هـ ، وهو إلى كونه قائداً عسكرياً عند غزو المسلمين لسردينية، فهو أيضاً « كان أماماً في العربية متمكناً في علم الأدب، مذكوراً في التقدم في علم المنطق. دخل بغداد وأقام فيها في الطلب، وأملى بالأندلس في شرح كتاب « الجمل » لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ». ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا إلى العراق طلباً للعلم والتزود. عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد المؤمن الفقيه الأندلسي الذي رحل إلى العراق وسمع على فقهاء منهم: ابن داسة واحمد بن مالك ومحمد بن عثمان بن ثابت الصيدلاني وسواهم. وقد عاد إلى الأندلس وحدّث فيها. ومن فقهاء الأندلس الذين توجهوا للعراق عبد الله بن محمد بن قاسم القلعي الذي عاد إلى الأندلس وحدّث فيها[1]. كما وصل من العراق إلى قرطبة العالم الفقيه علي بن سعيد بن حزم بن غالب (٣٨٤ ـ ٤٥٠ هـ) الذي نظم شعراً عن علمه وعن حنينه للعراق بقوله :[2].

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو اكتاف العراق صبابة ولا غرو ان يستوحش الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس[3]، فقد تأثرت في بعض فتراتها بالمؤثرات الدينية السائدة في العراق. فبالرغم من ان البعض يعتبر أن انتشار المذهب المالكي في الأندلس هو من المؤثرات الحجازية، غير أن المذهب المالكي الذي انتشر في العراق أيضاً، نقله بعض الفقهاء إلى الأندلس عبر العراق وليس عبر الحجاز والمدينة فحسب. ومن فقهاء ورواة الحديث الأندلسيين الذين زاروا

---

(١) الحميدي، المصدر السابق، ص ١٨٤ - ٢٤٠.

(٢) الحميدي، المصدر السابق، ص ٣١٩ - ٣١٠.

(٣) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ٦٧ - ٦٨، ٩١ - ٩٢.

بغداد ونقلوا معهم مذهب الامام مالك، الفقهاء: يحي بن يحي الليثي، وفرغوس ابن العباس، وسعيد بن أبي هند، وعيسى بن دينار، وسواهم..، وقد نقل هؤلاء بعد عودتهم فضل مالك وسعة علمه وجلال قدره علماً أن بعض فقهاء الأندلس زاروا العراق ودرسوا وأطلعوا على المذهب الحنبلي والمذهب الحنفي مذهب العباسيين في بغداد، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً في الأندلس بسبب الخلافات بين الأمويين والعباسيين..ومن الذين زاروا العراق أبو عبد الله محمد بن الملك بن أيمن بن فرج (المتوفى ٣٣٠ هـ) الذي رحل إلى العراق، وكما يقول الحميدي «جذوة المقتبس» وسمع بها أبا عبد الرحمن عبد الله بن احمد بن حنبل وطبقته، وحدّث بالمشرق والأندلس وصنف السنن» ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ابن ثعلبة بن الحسن بن كليب الخشني (المتوفى ٢٨٦ هـ) الذي عاد من العراق وبلاد المشرق إلى الأندلس، وحدث زمناً طويلاً وانتشر علمه، ومن شيوخه الذين سمع منهم بالمشرق محمد بن يحي بن ابي عمر العدني، ومحمد بن المثنى، ومحمد بن بشار بندار وسلمة بن شيب، وأبو إبراهيم اسماعيل بن يحي المزني صاحب الشافعي ومحمد بن المغيرة ومحمد بن وهب. وقال الحميدي: «قال لي بعض المشايخ: انه سمع الإمام أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل..»، وممن رحل إلى العراق طلباً للعلم والتفقه أبو عبد الله محمد بن مطرف وهو فقيه فاضل ومشهور.

ومن العراقيين الذين وصلوا الأندلس، الرحالة التاجر الموصلي ابن حوقل الذي زار الأندلس ومدنها[1]، ووصفها لنا في كتابه «صورة الأرض» معتبراً أن بعض مدنها وصناعاتها مشابهة للمدن والصناعات العراقية، ومما قاله عن مدينة قرطبة: «أعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل، وسعة رقعة وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق. ويزعم قوم من سافرتها الواصلين إلى مدينة السلام انها كأحد جانبي بغداد... وقرطبة وإن لم تك كأحد

(١) في القرن الثالث الهجري ـ القرن العاشر الميلادي.

جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة بـه . . »، وحـول بعـض الصنـاعـات الأندلسية المماثلة للصناعات العراقية قال ابن حوقل: « . . ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه »[1]. وتشير المصادر إلى أن عهد عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) قد حفل بالمؤثرات الصناعية العراقية، كما استجلب من العراق التحف الفنية والحلي والجواهر.

أما من الناحية الفنية، فقد اشتهرت بغداد بالموسيقى والغناء، ووفد منها الى الأندلس الكثير من المغنيات. وبدأت الموسيقى العراقية تنتشر في مـدن ومنـاطـق الأندلس، بالإضافة إلى الموسيقى المدنية. وفي أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الثاني وصل إلى قرطبة مغن عراقي كردي فارسي الأصل اسمه زرياب (أبو الحسن علي ابن نافع) (زرياب طائر أسود حسن التغريد). وكان زرياب أسود اللون حسن الصوت، وهو تلميذ للموسيقي العراقي الكبير اسحق الموصلي. وقد ترك زرياب العراق في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) مضطراً بعد خلاف مع أستاذه. واستغرقت رحلة زرياب إلى الأندلس ثلاث عشرة سنة أي من سنة ١٩٣ إلى ٢٠٧ هـ[2].

هذا ونقل زرياب إلى الأندلس المقومات الموسيقية العراقية، وطغى بذلك على مدرسة الحجاز الموسيقية، وقد علّم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في كيفية التأليف والأداء وكيفية الإبتداء والإنتهاء، وجعل المضراب من قوادم النسر بدلاً من الخشب مما ساعد على نقاء الصوت، وأضاف وتراً خامساً للعود. ومما ذكره الحميدي عن زرياب وموقعه في الأندلس: « وزرياب عندهم كان يجزي مجزى الموصلي في الغناء. وله طرائق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه، وألفت الكتب بها، وعلا عند الملوك بضاعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً، وشهر شهرة ضرب بها

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٧ - ١٠٩.

(٢) د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٣٧ - ٣٨.

المثل في ذلك ». ونظراً لأهمية زرياب الفنية فقد ألّف أبو الحسن أسلم بن أحمد بن السعيد كتاباً هاماً في أغاني زرياب وقيل فيه: « وأسلم هذا من بيت جليل وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب » وأصبح زرياب في الأندلس والمشرق مضرب الأمثال، فلما استمع ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » الى صوت جميل يغني قال شعراً :[1].

يا من يضن بصوت الطائر الغرد    ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو كان زرياب حياً ثم اسمعه    لذاب من حسد أو مات من كمد

والأمر اللافت للنظر ان موسيقى زرياب لا يزال أثرها ماثلاً الى الآن في الموسيقى الاسبانية والمغربية والجزائرية والتونسية والليبية. وقد بلغ اهتمام الأمير عبد الرحمن الثاني بموسيقى زرياب أن أنشأ له خصيصاً مدرسة لتعليم فن الموسيقى والغناء واستخدام الآلات الموسيقية. وكان الطلبة الأندلسيون في مدرسة زرياب يعزفون بإتقان على العود والغيتار (القيثارة). ثم قاد العرب الغرب الى الموسيقى متعددة الأصوات (الهارموني) بالعزف على أكثر من وتر. ثم ازدادت الموسيقى العربية انتشاراً بواسطة المستعربين والنساء الأندلسيات والمغنين الرحالة (التروبادور) (Troubadours)، وبدأ أثرها يظهر بوضوح في الموسيقى اللاتينية لا سيما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهناك رأي يشير إلى أن كلمة « تروبادور » ذاتها المستعملة في الأسبانية مشتقة من الكلمتين العربيتين « دور طرب ». والتروبادور « في الأصل نظام غنائي شعري على النسق العربي، وضعه الشاعر الغنائي العربي ابن قزمان الذي اصبح شاعر البلاط الكبير في بطليوس، ثم قسا عليه الدهر، فأصبح مغنياً متجولاً يصحب قرداً ويسير في الشوارع يستجدي الناس. كما انتقل فن الغناء العربي في الأندلس الى صقلية بواسطة الملك وليم التاسع وفريدريك الثاني، حيث وجدت في بلاطها الكثير من المغنيات والشاعرات الأندلسيات. أضف الى ذلك أن فريدريك نفسه كان قد تزوج من اميرة اسبانية

(١) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ١٠١ - ١٠٢، ١٤٦.

من ارغون، وقد نقلت معها وصيفاتها وفرسانها الذين نقلوا معهم مميزات الحضارة الأندلسية.

والواقع فإن أثر زرياب وزوجته وبناته لم يقتصر على الموسيقى والغناء، وإنما كان اثرهم واضحاً أيضاً في الحياة الإجتماعية الأندلسية. فقد قامت عائلة زرياب بتعليم الأندلسيات أسلوب تنظيم المظهر الخارجي للنساء وكيفية ترتيب الألبسة، والأوقات المناسبة لارتداء أنواع منها، أو ارتداء ألبسة وفق الألوان والأشكال في فصول معينة من السنة وفي وقت معين من اليوم. وقد عرفت هذه المراسم واللياقات (الاتيكيت) باسم «مراسم زرياب». من جهة ثانية فقد نظم زرياب أسلوب تقديم الأطعمة وعمل على إضافة مأكولات جديدة نقلها من العراق، كما أدخل الى الأندلس أنواعاً من الخضراوات لم تكن شائعة فيها وحرص هو وعائلته على تعليم الفتيات والوصيفات الأندلسيات أسلوب الجلوس على طاولة الطعام وتراتبية تقديم الأطعمة... واقتداء بزوجته وبناته تعلمت النساء أناقة الملبس فأصبحن يلبسن الثياب فاتحة الألوان في الربيع، والملابس البيضاء في الصيف والمعاطف والقبعات من الفرو في الشتاء. وفيما بعد شوهد الأسبان المسيحيون يلبسون الزي العربي الأنيق. وكان عبد الله بن قاسم أسقف إشبيلية ومطران طليطلة والوليد قاضي المسيحيين في قرطبة لا يحملان اسماء عربية فحسب، ولكن يلبسان الزي العربي ويتلوان كسواهما من المسيحيين الإنجيل باللغة العربية. وكان الأسقف يوحنا هو الذي قام بترجمة الإنجيل إلى العربية.

ويذكر بأن عبد الرحمن الثاني قد أعجب بالأزياء العراقية، فبدأ يلبس الثوب العراقي والغفارة العراقية (كوفية وغطاء للرأس)[1]. كما يشار إلى أن منصب الوزير استحدث في الأندلس تأثراً بالأنظمة العباسية في العراق. وكان عبد الرحمن هو أول من رتّب مسألة مجيء ودخول الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي حسب ما هو معمول به في بغداد «وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده

---

(١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص٧٦.

مثلهم». ويذكر ابن القوطية بأن زرياب حل من عبد الرحمن بن الحكم بكل محل، وكان أهلاً لذلك في أدبه وروايته وتقدمه في الصناعة التي كانت بيده. ومن اخباره انه غناه يوماً صوتاً استحسنه فقال: «يؤمر الخزان ان يدفعوا اليه ثلاثين ألف دينار فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد... فقال لصاحب الرسائل: نحن وإن كنا خزان الأمير، ـ أبقاه الله ـ فنحن خزان المسلمين، نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم، لا والله ما ينفذ هذا، ولا منا من يرضى ان يرى هذا في صحيفته غداً، أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مغن في صوت غناه. يدفع إليه الأمير ـ أبقاه الله ـ ذلك مما عنده، فأنصرف صاحب الرسائل وأعلم الأمير بما قاله له الخزان. فتعجب زرياب من عدم الطاعة. فقال عبد الرحمن: «هذه الطاعة. ولأولينهم الوزارة على هذا الأمر، وصدقوا فيما قالوا، ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده»[1].

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٨٣ ـ ٨٤.

## ٣ ـ التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس

كان الحجاز في القرن الثاني الهجري مركزاً ثقافياً للعلوم الدينية والفنية والموسيقية، ويكفي الاطلاع على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لتكوين فكرة حقيقية عن مدى الإزدهار الفني الذي بلغته مكة والمدينة في تلك الفترة. ففيها ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، ثم انتقلت مؤثراتها وخصائصها الى الأندلس بواسطة المغنين والمغنيات والجواري، الذين نقلوا أيضاً العادات والتقاليد الحجازية.

ومن بين مغنيات المدينة التي وفدت الى الأندلس « عجفاء »التي أثارت إعجاب الأندلسيين بغنائها في عهد هشام، والثنائي الغنائي علون وزرقون اللتين وفدتا في عهد هشام أيضاً. وقد بنى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام قصراً خاصاً للمغنيات أطلق عليه اسم « دار المدنيات » نسبة الى المدينة. وكان بعض الفتيات القادمات من الحجاز لا تهتم إلا بقراءة القرآن الكريم، ونشد المدائح والموشحات الدينية والشعر المتزن الملتزم. وقد ذكر الحميدي بأن رجلاً مشرقياً يدعى الشيباني دعا مرة قاضي قرطبة محمد بن اسحق بن السليم (أبو بكر) وقال له: « عندي جارية مدينية لم يسمع بأطيب من صوتها، فإن أذنت اسمعتك عشراً من كتاب الله عزّ وجلّ وأبياتاً. فقال: إفعل، وأمر الجارية، فقرأت ثم أنشدت، فأستحسن ذلك القاضي وعجب منه »

أما من الناحية الدينية[1]، فقد ظهر أثر المدينة المنورة واضحاً في الأندلس،

---

(١) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٨٤.

ومن بين المؤثرات الهامة دخول مذهب الإمام مالك بن أنس الى الأندلس. والإمام مالك عاش في المدينة وتوفي فيها سنة ١٧٩ هـ. وألّف كتاباً في الفقه والحديث معا أسماه «الموطأ» (أي السهل الواضح)، وقد ذاعت اجتهاداته في مختلف الأمصار الإسلامية. وانتشر مذهبه في الأندلس في عهد الأمير هشام، وكان أول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف باسم «شبطون» المتوفى سنة ١٩٣ هـ. ومما ساعد على انتشار هذا المذهب في الأندلس الخلافات السياسية بين العباسيين اتباع المذهب الحنفي وبين الأمويين الذين اعتنقوا المذهب المالكي ـ بعد أن تخلوا عن مذهب الإمام الأوزاعي ـ لأن الإمام مالك كان معادياً للحكم العباسي. وقد ساعد الفقهاء الأندلسيين على نقل مذهبه إلى الأندلس بعد أن قاموا بزيارات علمية الى المدينة وبلدان المشرق الإسلامي. ولعل وجود عناصر عسكرية كثيرة من الحجازيين من الذين وصلوا الأندلس بقيادة موسى بن نصير، ثم وجود تشابه في طبيعة الحجازيين والأندلسيين وبساطة حياتهم، كانت من جملة الأسباب التي أدت الى انتشار واعتناق الأندلسيين للمذهب المالكي.

ويذكر ابن القوطية، انه في أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل «الغازي بن قيس» الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ وبقراءة نافع بن أبي نعيم. وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الأندلس، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين، وكانت رحلتها من المشرق الى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية اليها. وأضاف ابن القوطية، بأن زياد بن عبد الرحمن اللخمي رحل الى المدينة المنورة واجتمع هناك بالإمام مالك بن أنس الذي سأله عن هشام، فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته فقال مالك: «ليت الله زيّن سمتنا بمثل هذا». وممن اجتمع بمالك قاضي الأندلس في عهد هشام القاضي محمد بن بشير الذي رحل الى المشرق وحج البيت، «وسمع من مالك بن أنس سماعاً يسيراً»[1].

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٥٦، ٦٢، ٦٤.

هذا وقد حل المذهب المالكي محل مذهب الإمام الأوزاعي باستثناء بعض المسائل التي تمسك بها الأندلسيون كإجازة غرس الأشجار في صحون المساجد. وفي عهد «المرابطين» في القرن الثاني عشر الميلادي، انتشر المذهب المالكي في دولتهم. وكان انتشاره في المغرب الإسلامي (شمالي افريقيا) منذ القرن التاسع الميلادي، بينما كان عام ٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م هو عام الانتصار الكامل للمذهب المالكي في المغرب. وكانت وحدة المذهب التي حظي بها الفقهاء المغاربة في جميع انحاء البلاد قد اضفى على ممارساتهم وحدة في الأحكام والأعمال. ويقول المؤرخ عبد الرحمن المراكشي في هذا المجال «لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفعت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها...»، على أن عصر المرابطين شهد في زمن علي بن يوسف تاشفين حادثة مؤسفة تدل على أن فقهاء دولته لم يعد يهمهم سوى اعتناق آرائهم ونبذ ما يناقضهم. ففي عـام ٥٠٣ هـ ـ ١١٠٩ م وبأمر من علي بن يوسف تاشفين قام نفر بإحراق مؤلفات الغزالي المشهورة «احياء علوم الدين» التي أثارت حفيظة ونقمة فقهاء المغرب، لأنها فضحت نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء الزهاد.

من جهة أخرى فقد ظهرت في الأندلس مؤثرات مشرقية مذهبية أخرى، ففي طليطلة ظهر مذهب الخوارج. وقال ابن القوطية انه «ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ومن بعدهما. فكتب عباس بن ناصح الى الحكم شعراً يغري بهم ويحض على إنكار ما احدثوه..»[1] وبالفعل فقد أجهز الحكم بن هشـام عليهـم وأعمـل بهم السيـف والقتل. ثم عمد الحكم الى تقريب الفقهاء المالكيين وفي مقدمتهم طالوت بن عبد الجبار المعافري «وهو احد من روى عن مالك ونظرائه من اهل العلم».

---

(١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٦٧.

ومن الملاحظ أن الأثر الحجازي واضح في الأندلس اكثر من بقية المؤثرات، وذلك نظراً لكثرة الفقهاء والتلامذة الأندلسيين الذين وفدوا الى مكة والمدينة، وانتقال الفقهاء الحجازيين إلى الأندلس أيضاً. ومن الفقهاء المكيين الذين دخلوا الأندلس حاملاً معه المؤثرات المكية والمشرقية محمد بن عبد الواحد بن الزبير الزبيري المولود في مكة سنة ٣٥٧ هـ. وقد مر ببغداد والشام ومصر وسمع بها، ثم دخل الأندلس وحدث بها. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين وقدوا إلى الحجاز والمشرق ثم عادوا إلى الأندلس وحدثوا فيها: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن اسد الجهني البزاز الذي تفقه في الأندلس ثم رحل الى المشرق وسمع الفقه على بعض الفقهاء مثال: أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي الموت المكي، وأحمد بن محمد بن اشته الأصبهاني صاحب كتاب (المحبر) في القراءات. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز والعراق عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي وهو من كبار أصحاب الحديث والفقه، وقد سمع على فقهاء المشرق، ثم عاد إلى الأندلس محدثاً. كما أن الفقيه أبا محمد عبد الله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري وهو فقيه محدث زاهد، قد وصل من الأندلس إلى مكة قبل سنة ٣٨٠ هـ، وسمع فيها كثيراً، وأقام فيها مدة ثم انتقل الى مصر وبيت المقدس حيث توفي فيه. ومنهم الفقيه الأندلسي عبد الملك بن زيادة الله أبي مضر بن علي السعدي التميمي الذي رحل اكثر من مرة الى الحجاز ومصر، وكان من أهل الحديث والأدب، وإماماً في اللغة والشعر ومن بيت جلالة ورياسة وله رواية وسماع بالأندلس. عاد إلى الأندلس وتوفي في قرطبة بعد سنة ٤٥٠ هـ. وكان شعره على طريقة العرب. كما أن الفقيه عبد الملك بن سليمان الخولاني سافر الى مكة ومصر، ثم عاد وتوفي في ميورقة في الأندلس قبل سنة ٤٤٠ هـ.

## ٤ ـ التبادل الحضاري بين مصر والأندلس

انتقلت المؤثرات العربية المصرية الى بلاد الأندلس بواسطة الجنود والرحالة والفقهاء والمغنين والمغنيات والمهنيين وسواهم. ومن المعروف أنه وجد في الأندلس الكثير من المصريين الذين وصلوا إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر، كما أن القائد كلثوم بن عياض القشيري قد قاد من مصر في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك الى الأندلس وأفريقية ثلاثة آلاف مقاتل لمقاتلة البربر، ثم اتبعهم بثلاثين ألف من أهل الديوان (من الشاميين) واعداد أخرى تبعتهم فيما بعد [1]. ولذا فإن المؤثرات الاجتماعية والثقافية والدينية انتقلت من مصر الى الأندلس بصورة أو بأخرى. وكانت المؤثرات الإسلامية بوجه عام ظاهرة في العادات والتقاليد الأوروبية. فبعد تشدد الحاكم بأمر الله في مصر في منع النساء من الخروج من المنازل، وبعد أن كانت عادة التزام النساء المسلمات أدباً شرعياً، صارت هذه العادة أسلوب الأشراف والكبراء في اسبانيا. واستمرت هذه الظاهرة الى فترة متأخرة، وبتأثير الأسبان كانت لا تُرى امرأة قط في شوارع ايطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي [2].

كما ان المؤثرات الصناعية والفنية المصرية بدت واضحة في الصناعة الأندلسية

---

(١) انظر: مؤلف مجهول: اخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢) آدم متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (او عصر النهضة في الاسلام)، جـ٢، ص ١٧٦.

والفن الأندلسي، فقد انتقل الى الأندلس بعض الصنّاع المصريين، الذين أدخلوا معهم بعض الصناعات المصرية وبينها صناعة السجاد والمنسوجات والمطرزات والنحاسيات. كما نقل المصريون معهم لهجتهم وألفاظهم وعاداتهم وتقاليدهم العربية التي «تمصّرت» فأثروا وتأثروا بالأندلسيين. ومن العادات المصرية السيئة التي انتشرت في الأندلس شرب وأكل «حشيشة الكيف». فالرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن السابع الهجري، عاب على المصريين أكلهم الحشيشة وتباهى بأن بلاده نظيفة من هذه الآفة، ولكن بعد قرن من كلام ابن سعيد (أي في القرن الثامن الهجري) نجد نصوصاً كثيرة تشير الى انتشار الحشيشة في غرناطة في عهد السلطان محمد السادس، الذي أصبح بدوره من المدمنين[1]. ومن المرجح أن المصريين هم الذين نقلوا معهم هذه العادة إلى الأندلس. ويبدو أن المؤثرات والتبادل التجاري كان واقعاً بين مصر والأندلس. وبذلك يقول ابن حوقل الذي زار الأندلس سنة ٣٣٧ هـ، زمن عبد الرحمن بن محمد «وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من سبي أفرنجة... فأما إرديتهم المعمولة ببجانة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها»[2] كما أشار المقدسي إلى الضرائب المفروضة على صناعة الألبسة والقش والزيت المنقولة بواسطة السفن سواء الى الغرب أو بلاد الشام[3].

بالإضافة الى ذلك فإن المؤثرات المعمارية المصرية انتقلت الى الأندلس، بواسطة المهندسين والعمال الاسكندرانيين، وقد ظهر الأثر الاسكندراني المعماري واضحاً في العمارة الأندلسية لا سيما في مدينة مدريد (مجريط). وقد تميزت مدينة مجريط بكثرة المجاري (ومن هنا اشتق اسمها) على غرار مدينة الاسكندرية.

---

(١) انظر: د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) ابن حوقل: صورة الارض، ص ١٠٥ - ١٠٦.
(٣) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢١٣.

ويشير المقري بأن أحد المشرفين على بناء مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة كان مصرياً من أهل الاسكندرية واسمه علي بن جعفر.

هذا وقد استقدم خلفاء بني أمية في الأندلس المغنيين والمغنيات من المشرق ومن هؤلاء عبد الواحد الاسكندراني الذي كان مغنياً وأديباً، ولهذا فقد قرّبه عبد الرحمن بن الحكم وولاّه أخيراً الوزارة وأمور المدينة. كما استقدم عبد الرحمن الثالث سنة ٣٤٤ هـ، من الاسكندرية عدداً من أهل الغناء والطرب والموسيقى. واستقدم من المشرق آخرين منهم ومن العلماء والفقهاء بينهم أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي العالم اللغوي سنة ٣٣٠ هـ، الذي استمر مكرماً زمن الحكم المستنصر والذي ألّف له كتاب «الآمالي»، وكان الحكم كسابقيه محباً للعلم، فهو الذي طلب كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار.

ويذكر بأن الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) قد استجلب من مصر وبغداد وبلاد المشرق عيون التآليف والمصنفات العربية في مختلف العلوم، وقد بلغت مكتبته الآلاف من الكتب، وقيل إله اجتمع في خزانة كتبه ما يقارب أربعمائة ألف مجلد، ليس هذا فحسب بل عمل على نشر العلم والمعرفة، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة وادخل إليها الطلاب الفقراء مجاناً. وكان الأساتذة في هذه المدارس من المصريين والشاميين والعراقيين. كما قرّب الحكم إليه محمد بن يوسف (أبو عبد الله) التاريخي الورّاق الذي ألّف له كتاباً ضخماً في «مسالك افريقية وممالكها» وألّف في أخبار ملوكها وحروبهم. وألّف له كتباً في تاريخ تيهرت (تاهرت) ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة.

ومن بين المؤرخين المصريين الذين اهتموا بأخبار الأندلس المؤرخ عبد الله بن لهيعة الذي كان يلاحق القادمين من الأندلس، فيسألهم ليدون مشاهداتهم ومعارفهم، غير أن كتاباته ضاعت وورد ذكرها في مصادر أخرى. أما أقدم كتاب وصل الينا عن تاريخ المغرب والأندلس، فهو الذي كتبه المؤرخ المصري

عبد الرحمن بن عبد الحكم (١٨٧ ـ ٢٥٧ هـ) وعنوانه « فتوح مصر والأندلس » . وقد انتشر هذا الكتاب في الأندلس وأخذ عنه الكثير من المؤرخين الأندلسيين أمثال ابن الفرضي وابن خير والحميدي وسواهم . وكان ابن عبد الحكم ابن الفقيه عبد الله المتوفى ٢١٤ هـ ، الذي كان إماماً للمالكية في مصر ، بينما كان ابن عبد الحكم عالماً بالتاريخ فقيهاً صديقاً للإمام الشافعي . وقد تضمن كتابه معلومات هامة عن تاريخ مصر والاقباط وبني اسرائيل وذكر ملوك مصر والروم والفرس وبناء الاسكندرية والفسطاط ، ومعلومات هامة عن بلاد الأندلس وأفريقية والمغرب والنوبة . والأمر اللافت للنظر أن الاندلسيين تأثروا بمنهج عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في التاريخ لا سيما تأريخ بلادهم ، بحيث يمكن القول إن أقدم كتاب كتبه الأندلسيون عن تاريخ بلادهم هو تاريخ عبد الملك بن حبيب الألبيري الذي عاش في القرن الثالث الهجري ودرس في مصر فترة طويلة ، ونقل في كتابه كل ما سمعه من روايات عن شيوخه المصريين ، ثم عاد الى قرطبة حيث كان يعقد حلقات دروسه في مسجدها الجامع ، فحدّث فيه وكان له سماع[1] . وكان للمدرسة التاريخية الأندلسية آثار واضحة في الكتابات التاريخية الأوروبية . وكان أول مؤرخ للأندلس الاسلامية عبد الملك بن حبيب (١٧٩ ـ ٢٣٨ هـ ، ٧٦٦ ـ ٨٥٣ ـ ٨٥٤ م)[2] .

أما فيما يختص بالناحية الدينية والفقهية ، فقد ساد في مصر المذهب المالكي بعد أن انتقل من المدينة والعراق، والبعض من الفقهاء نقله معه إلى الأندلس. وبالرغم من أن الإمام الليث بن سعد كان مصرياً من بلدة قلقشندة من أعمال القليوبية، وكان يعيش في مصر، غير أن المصريين فضّلوا مالك عليه، وقد علّق على ذلك الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ في مصر بقوله : « اللّيث بن سعد أفقه من مالك ، إلا أن اصحابه لم يقوموا به » ، نغير أن الأندلسيين الذين

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر كتاب ابن الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس .

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر : د. جمال الدين الشيال : التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي ، ص ٢٨ ـ ٤٤ .

درسوا في مصر على الإمام الليث بن سعد ، فقد نقلوا مذهبه إلى الأندلس ، حيث ظلت بعض تعاليمه وأحكامه معمولاً بها إلى جانب المذهب المالكي حتى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس. كما انتقل إلى الأندلس أيضاً مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعي بواسطة الفقيه يقي بن مخلد في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً بسبب معارضة المالكية وبعض الأمراء لأحكامه. ولما تحدث المقدسي عن اقليم مصر وشرح فيه بعض المذاهب الدينية قال : « ... إن أكثر فقهائهم مالكيون » [1]. ولما تحدث عن الأندلس قال : « ... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف الا كتاب الله، وموطأ مالك... » [2].

والحقيقة فإن المؤثرات المذهبية في مصر قد انتقلت إلى الأندلس بواسطة التبادل الحضاري والعلمي والرحلات القائمة بين البلدين ، وبواسطة بعض الفقهاء والتلامذة الذين وفدوا من الأندلس والمغرب ، والذين تلقوا علومهم على فقهاء مصريين أمثال : عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ونصر بن مرزوق المصري الذي أخذ عنه محمد بن فطيس بن واصل الغافقي الألبيري. كما أن الفقيه الأندلسي محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري الطليطلي درس الفقه ـ بالإضافة إلى مكة والقيروان ـ في مصر على فقهاء أمثال أبي محمد ابن النحاس، وأبي القاسم يحيى بن علي بن محمد بن ابراهيم.

ويذكر الحميدي [3] الكثير من الفقهاء الأندلسيين الذين تتلمذوا في مصر ، أو فقهاء من مصر رحلوا إلى الأندلس ومن الفقهاء الذين رحلوا الى مصر : محمد بن هارون بن عبد الرحمن بن عبد الفضل بن عميرة العتقبي ، وهو من فقهاء الأندلس، رحل الى مصر وسمع من الفقيه أبي يزيد يوسف بن يزيد بن كامل بن

---

(١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٠٢.

(٢) المقدسي ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٦.

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٩٥.

حكيم القراطيسي ثم عاد الى الأندلس وحدث فيها ، ثم توفي سنة ٣٠٦ هـ ، كما أن أبا العباس أحمد بن محمد الحاج بن يحيي الأشبيلي ، كان فقهياً ومحدّثاً مكثراً . رحل الى مصر وسكن فيها وحدث فيها طويلاً ثم توفي في الفسطاط سنة ٤١٥ هـ . وقد أشار إلى علمه القاضي المصري الحسن علي بن الحسن بن الحسين الفقيه المصري المعروف بابن الخلعي . ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا الى مصر وبغداد ومكة أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي أبو عمر الفقيه المعروف بابن الباجي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠ هـ ، وقال أحد الفقهاء فيه : « كان أبو عمر الباجي أمام عصره وفقيه زمانه جمع الحديث والرأي والبيت الحسن والهوى والفضل . ولم أرَ بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلاً يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه . كان يذاكر بالفقه ويذاكر بالحديث .. رحل متأخراً للحج فكتب بمصر عن أبي بكر أحمد بن محمد بن اسماعيل المعروف بابن المهندس .. » .

هذا وقد رحل أيضاً إلى مصر الفقيه الأندلسي ابراهيم بن موسى بن جميل (أبو اسحاق مولى بني أمية ) ، وسمع فيها محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ( شقيق المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ) كما رحل الى العراق وسمع من فقهائها ، ثم عاد الى مصر فحدّث فيها ، ثم مات سنة ٣٠٠ هـ ، كما أن الفقيه العالم أبا العباس القمري الوليد بن بكر بن مخلد بن أبي زياد ، رحل من سرقسطة الى طرابلس الغرب ، ثم استقر فترة في مصر فدرس على فقهائها . ثم تابع رحلته الى الشام والعراق وخراسان ، طلباً للعلم ما لبث أن توفي سنة ٣٩٢ هـ .

وعن التبادل الأدبي والمؤثرات الشعرية بين مصر والأندلس ، فقد سافر الكثير من الأدباء والشعراء في رحلات متبادلة بين البلدين ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : الشاعر الأندلسي محمد بن هاني الذي رحل الى مصر ، والتقى هناك بشعرائها وأدبائها . والشاعر والأديب الأندلسي سعيد بن أحمد بن خالد الذي رحل أيضاً إلى مصر والتقى بعلمائها وشعرائها وأدبائها . وقد طلب بعض الشعراء المصريين استنشاد الشعر لأهل الأندلس ، فأنشد شعراً جميلاً . فقال أحد شعراء مصر : « لا يخفى أشعاركم إلى جانب أشعارنا ، كما لا يخفى البدر في سواد الليل »

قال الشاعر سعيد: «وأين لأهل الأندلس بمثل قول الحسن بن هاني؟ وأنشده أبيات يحيى بن حكم الغزّال..» فلما سمعها المصري طرب واهتز وقال: لله در الحسن. فلما أكثر قال له: الشعر والله ليحيي بن حكم الأندلسي، وإنما أردت تجربة نقدك، والنقض عليك. فرد ذلك وأنكره حتى صحّ ذلك عنده، فخجل وأظهر التعجب، ولم يراجع بعد في اشعار أهل الأندلس قال: وكان كثيراً ما يستنشدني لهم»[1].

من جهة ثانية لا بد من الإشارة بأن مصر شهدت تمازجاً سكانياً مع الأندلسيين في بعض الحقب التاريخية. ففي القرن التاسع الميلادي، وبعد أن تم قمع الفتنة في قرطبة سنة ٨٠٥ م وفي طليطلة سنة ٨٠٧ م، وبعد اضطرابات قرطبة سنة ٨١٨ م، اضطر بعض السكان الأندلسيين إلى الرحيل الى شواطيء المغرب العربي والى مصر. وقد قصد مصر خمسة عشر ألفاً ما عدا النساء والأطفال على ما قاله الكندي «تاريخ الولاة والقضاة»، فاستقر هؤلاء في ضواحي الاسكندرية بين ٨١٤ ـ ٨١٥ م (١٩٩ هـ). ولم يلقوا معارضة عند نزولهم إلى مصر. ثم ما لبثوا أن تفاعلوا مع سكانها، فنقلوا عاداتهم وتقاليدهم، وأخذوا من العادات والتقاليد المصرية. وبلغ نفوذهم حداً أنهم استطاعوا السيطرة على الاسكندرية سنة ٨١٨ ـ ٨١٩ م، وتنصيب واحد منهم عليها هو أبو حفص عمر بن شعيب. غير أن الخليفة المأمون أمر بطرد هؤلاء المهاجرين الأندلسيين، وأرسلهم سنة ٨٢٦ ـ ٨٢٧ م إلى جزيرة كريت حيث احتلوها وأعملوا بها السلب والنهب. ثم استطاع زعيمهم أبو حفص اتخاذ كريت مقراً له ولجماعته فيما بعد[2].

ومن الأهمية بمكان القول بأن المؤثرات المشرقية التي «تأندلست» عادت مجدداً الى بلدان المشرق بعد هجرة المسلمين من اسبانيا إثر حركة الاسترداد

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩. أنظر أيضاً حول المؤثرات المصرية الأدبية والفقهية في بلاد الأندلس، الحميدي، ص٩٦ ـ ١٠٨، ١٢٨ ـ ١٢٩، ١٥٦ ـ ١٥٧، ٣٦١.

(٢) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

المسيحية، فانتقلت العائلات أو بعضها إلى بلدان المغرب، ومنها انتقلت عائلات إلى الحجاز ومصر والعراق وبلاد الشام وقد شهدت بيروت والمناطق الساحلية الشامية حركة نزوح من المغرب، علماً أن أكثر العائلات البيروتية تعود بنسبها وأصولها إلى المغرب والأندلس، وقد حملوا معهم لهجات وأسماء وعادات وتقاليد مغربية وأندلسية.

## ٥ ـ السفارات الإسلامية ـ المسيحية في الأندلس

لم تكن العلاقات الإسلامية ـ المسيحية كلها علاقات حربية وعداء، إنما تخللها علاقات حضارية وتبادل علمي وثقافي وفترات من السلام، وتبادل في السفارات السياسية والعلمية بين الممالك الإسلامية والمسيحية في الأندلس وفي المشرق، أو بين المسلمين في الأندلس وحكام بيزنطة[1]. ففي سنة ٣٤٤ هـ ـ ٩٥٥ م وصلت الى قرطبة سفارة اسبانية مسيحية من قبل الملك « أردون الثالث (Ordono III.) ٩٥١ ـ ٩٥٦ م، ابن ردميره الثاني (Ramiro II.) ٩٣١ ـ ٩٥١ م، ملك مملكة ليون، وبسبب الأوضاع الداخلية السيئة والصراعات العائلية بين أردون الثالث وبين أخيه شانجه السمين (سانشو) (Sancho) طلب أردون الثالث اقامة معاهدة سلام مع عبد الرحمن الثالث، وقد استجيب لطلبه، بعد أن الزم نفسه دفع الجزية.

ثم ما لبث سانشو أن جاء الى قرطبة سنة ٣٤٧ هـ ـ ٩٥٨ م على رأس وفد هام يلتمس من الخليفة الناصر مساعدته في استعادة ملكه، فاستقبله الناصر استقبالاً حافلاً. وانتهى اللقاء بعقد معاهدة بين الطرفين، كسب الناصر من جرائها امتيازات ومراكز استراتيجية في مملكة ليون، مثل تمركز الجيوش الاسلامية في الحصون الهامة. وبالفعل وبفضل المساعدة العسكرية التي قدمها الناصر

(١) استمرت العلاقات ومعاهدات السلام بين المسلمين والقوى الأوروبية طيلة عهود طويلة، بالرغم من استمرار التوترات العسكرية. ومنها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدت في عهد المماليك عام ٨٣٣ هـ ـ ١٤٣٠ م بين الأشرف برسباي وبين ألفونسو الخامس ملك ارغون. انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٥٧٩ ـ ٥٨١.

لسانشو استطاع في سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م استرداد ملكه. وكثيراً ما كان أمراء وملوك اسبانيا يلجأون إلى الحكام المسلمين لمساعدتهم على استعادة اماراتهم وممالكهم على غرار ما فعل فيما بعد أردون الرابع.

وفي سنة ٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م وفد إلى قرطبة سفارة ملك برشلونة وملك طركونة، وطلبت هذه السفارة من الحكم المستنصر تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه من علاقات. وكانت هذه السفارة تضم هدية للحكم مؤلفة من عشرين صبياً من الصقالبة وعشرين قنطاراً من فراء السمور وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة دروع صقلبية ومائتي سيف فرنجية. فتقبل الحكم الهدية، ثم وافق على التماسهما، شرط هدم الحصون التي تضر بالمسلمين، وشرط عدم التعاون مع الملوك المسيحيين ضد المسلمين. ووفد عليه أيضاً سفارات غرسية بن شانجة (بن سانشو) ملك نبرة، وسفارة أم رودريك (لذريق) بن بلا شك أعظم قوامس جليقية.

وفي أثناء سفارة الملك أردون ملك جليقية إلى قرطبة واجتماعه مع الحكم المستنصر بالله قال له: «أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك [المعتمد] على فضله، القاصد إلى مجده، الحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة، ونصيحة خالصة» ثم شكا له مشكلته مع ابن عمه شانجه الذي «تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني»[1] وطلب أردون من الحكم التأييد ودعم حكمه على أعدائه من عائلته ومن سواهم.

وفي عهد الحاجب عبد الملك بن المنصور، طلبت إليه الممالك المسيحية التوسط بينها، فتوسط بين قشتالة وجليقية بواسطة مبعوثه الخاص النصراني أصبغ بن عبد الله بن نبيل. وكذلك توطدت العلاقات بين المنصور وبين بعض ملوك إسبانيا مثل ملك نبره (Naverra) سانشو اباركا (Sancho) (٩٧٠ - ٩٩٥ م)

---

(١) المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

وقد تزوج المنصور ابنته التي اعتنقت الإسلام وتسمت باسم عبدة، وأنجب منها المنصور ابنه عبد الرحمن الذي أطلقت عليه أمه اسم سانشويلو (Sanchuelo) أي سانشو الصغير، وقد حرفت العامة هذا اللفظ إلى شنجول[1]. كما أقام المنصور علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية زمن الأمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م) وكانت علاقته سلمية مع الأمبراطور أوتو الثالث ملك ألمانيا وإيطاليا والأمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان هذا الأمبراطور رجلاً محباً للسلام مشجعاً للعلوم يجيد عدة لغات كالألمانية واللاتينية واليونانية[2]. ولما تولى رودريجو دياز (Rodrigo Diaz) أو لذريق النصراني كما سماه ابن علقمة، والملقّب بلقب السيد والقنبيطور (Campeador) قيادة جيش الفونسو السادس والسياسة العليا في البلاد، تمت المراسلات والسفارات بين الفونسو والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية بواسطته. ولما طرد رودريجو دياز من قشتالة، أقام علاقات جيدة مع المدن الإسلامية وحارب إلى جانب أمرائها وملوكها مثل ملك سرقسطة. وكان للسيد في بلنسية ممثلاً مباشراً له هو ابن الفرج (Aben Alfarex) وهو رجل مسلم شديد الإخلاص له.

وفي طليطلة (Toledo) استقبل الملك المأمون يحيى بن اسماعيل ذي النون ملك طليطلة الفونس السادس ملك قشتالة، بعد خلافات وحروب مع أخيه الملك سانشو الثاني الذي هزمه سنة ١٠٧٢ م. وقد استقبل المأمون الملك الفونس بالتكريم وأعطاه بيتاً في القصر الملكي، بعيداً عن الحي المأهول بالسكان المسلمين، وكانت إقامته بين البساتين وفي حقول الصيد، ولم يكن متضايقاً أو متذمراً، بل كان في بعض الأحيان مقاتلاً ضد أعداء المأمون من المسلمين. واستمر الفونس في بلاط المأمون إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٧٢ م إلى حين مقتل أخيه سانشو. وصار الفونس حراً طليقاً، وقد تبادل والمأمون الوعود الودية ومواثيق المحالفة، ثم

---

(١) د. احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٥٧. انظر أيضاً: د. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٤٣.

(٢) د. احمد مختار العبادي، المرجع نفسه، ص ٤٥٦.

صحبه المأمون وأوصله إلى آخر حدود دولته. غير أن الفونسو قابل استضافة المأمون بالاستعدادات العسكرية ضد المسلمين بعد أن تسلم حكم قشتالة وليون. وبدأ يتباهى بأنه بطل حركة الاسترداد المسيحي. وبالفعل فقد استطاع احتلال طليطلة بالذات بعد ثلاثة عشر عاماً من خـروجـه منهـا أي في أيـار (مـايـو) ١٠٨٥ م. وكان المأمون قد توفي في قرطبة في حزيران (يونيه) ١٠٧٥ م أي بعد ثلاث سنوات من رحيل الفونسو.

والحقيقة فإن هناك العديد من الوثائق والمراسلات السياسية تشير الى العلاقات السلمية بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وبقية الممالك الأوروبية أو الممالك الاسبانية، بما فيه رسالة أرسلها الخليفة الموحدي المرتضى الى البابا أنوصان الرابع في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ، ومما جاء فيها: «.. فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا، وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمنا به بركم ووفينا... ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن ايثاركم لجانبنا وتردد» وعـن السفير البـابـوي قـال الخليفـة الموحـدي عبـد الله عمـر «قـد وصـل بكتابكم الينا، انصرافاً لم يعده منا فيه بر واكرام، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده أثناءها بالاحسان والانعام، ومتى سنح لكم - أسعدكم الله بتقواه - أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين - أعزّهم الله - من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم، فتخيروه من أهل الفضل الراجح والسمت الحسن، وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن.. وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصناعات المذكورة ومتحلياً بـالخلال المشكـورة حسـن في كـل مـا يستخدم.. وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعـدة الصـادرة فيكـم عـن كـرم الضرايـب، وتبادرون الى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في تحلتكم من انافة المناصب..».

وفي سنة ٧٠١ هـ، أرسل سلطان غرناطة محمد الثالث بن محمد الثاني (أبو عبد الله) رسالة الى الدون خايمة (دون جايم) ملك أراغون وبلنسية ومرسية

وكندبرجلونة رداً على رسالته إليه جاء فيها: « ... ننعم لكم أيها السلطان المعظم دون جايم... بأن نكون لكم صاحباً وفياً، ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة، يكون فيها أصحابكم أصحابنا، وأعداؤكم - أهل قشتالة - أعداءنا. ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلاً لأحد من ناسنا لا في البر ولا في البحر عليكم، وإن اتفق أن أصدر لأحد أو لموضع من ناسكم وبلادكم ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا، فنحن ننصف منه بالحق الواجب، على أن تكونوا أنتم لنا كذلك، صاحباً وفياً كما ذكرتم في كتابكم وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلحاً ثابتاً.. وكذلك ننعم لكم بأن يصل إلى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم بما شاؤوا من أنواع التجارات، ويسرح لهم ما أرادوا من ذلك ويكونوا مؤمنين على أنفسهم وأموالهم... وعلى أن يكون ايضاً كل من يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمنين في نفوسهم وأموالهم.. كما ذكرتم في كتابكم.. وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا في البحر والبر ... »[1].

وبعد مفاوضات بين الجانبين عقدت معاهدة تحالف وصداقة بين سلطان غرناطة وملك أراغون وهي تجديد للمعاهدة التي سبق أن وقّعت بين الملكين سنة ٦٩٥ هـ، وهي تنص على ما يلي: « صلح ثابت وصحبة صداقة، وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الاضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة، سواء من المسلمين أو قشتالة، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر، مؤمنين في أنفسهم وأعمالهم ».

وهناك رسائل صداقة ومعاهدات سلام عديدة عقدت بين المسلمين والمسيحيين، ومنها معاهدة بين السلطان اسماعيل وملك أراغون الدون خايم الثاني تنص على أنه « يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام، نؤمن خلالها

---

(١) شكيب ارسلان: الحلل السندسية، جـ٢، ص٢٨٦-٢٩٨. د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي افريقية، ص ٤٥٠-٤٥٣.

أرض المسلمين بالأندلس وأرض اراغون تأميناً تاماً براً وبحراً ، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين في أرض الآخر ، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاداة من يعادي الآخر ، وأن لا يأوي له عدواً أو يحميه ، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة ، وأن يسرح كل فريق من يؤسر في البحر من رعايا الفريق الآخر .. ويتعهد ملك أراغون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم »[1]. وقد اتبعت هذه المعاهدة برسائل تثبيت لها تبودلت بين السلطان اسماعيل الأول بن فرج (٧١٣ ـ ٧٢٥ هـ ، ١٣١٤ ـ ١٣٢٥ م) ملك غرناطة وبين ملك أراغون بين سنة ٧٢١ هـ ، ٧٢٤ هـ . وقد استمرت العلاقات الودية بين غرناطة وأراغون في عهد السلطان محمد الرابع والدون خايم الثاني. كما جرت اتصالات بين محمد الرابع والفونسو الرابع الذي تولى أراغون وملحقاتها بعد وفاة والده خايم الثاني سنة ١٣٢٧ م. ففي ٣٠ جمادى الأول سنة ٧٢٨ هـ أرسل سلطان غرناطة محمد الرابع إلى الفونسو الرابع ملك أراغون الجديد رسالة ، ومما جاء فيها : « ... فأنا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ... وإلى هذا فإنه توجه في هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم وركوناً إلى صحبتنا معكم ، فيعرفنا أن النائب عنكم في قربليان ثقفهم ، وثقف أموالهم ، فخاطبناكم في شأنهم ، وقصدنا منكم تسريحهم ، وتسريح أموالهم ، وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم ، تحتفظوا بذلك عهدنا ونقضوا لنا في ذلك ... نشكركم عليها ... »[2].

---

(١) د. محمد ماهر حمادة ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤ ، نقلاً عن : العنان : نهاية الأندلس ، ص ١٢٠ .

(٢) الأمير شكيب إرسلان : الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ . د. محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية ، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

## ٦ ـ السفارات الإسلامية ـ المسيحية بين الأندلس وبيزنطة

في الوقت الذي كان فيه الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني منصرفاً الى الاهتمام بالغرب، صار معاوية بن أبي سفيان خليفة واتخذ دمشق مقراً سنة ٦٦١ م، واستؤنفت حركة الفتوح الاسلامية، وتوغل المسلمون في آسيا الصغرى، وصقلية والقيروان والقسطنطينية، واستولى المسلمون على قبرص ورودوس وكوس وخيوس وأزمير، وتعرضت كريت للهجوم سنة ٦٧٢ م. وعقدت معاهدة بين الجانبين سنة ٦٨٥ م، بين جستنيان الثاني وعبد الملك بن مروان. واستمرت الحروب في عهد العباسيين ضد البيزنطيين كما شهدت الفترة معاهدات بين هارون الرشيد والامبراطور شارلمان سنة ٨٠٦ م.

فالعلاقات بين الشرق والغرب لم تقتصر على الحروب، بل شملت صلات ودية ومعاهدات سلمية. وعلى سبيل المثال، فقد ساعد أمبراطور الروم البيزنطيون، الأمويين في عملية إعادة بناء بعض الأبنية في الحجاز والشام. وكانت التجارة نشطة بين الدولتين براً وبحراً. وتشير بعض المصادر إلى أن المنصور استقبل سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، والذي أشار عليه بكيفية بناء السوق حفظاً للأمن من الشغب والتجسس. ويروى أيضاً بأن الامبراطور شارلمان بدأ يخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة ٧٨٧ م، ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة ٧٩٩ م. وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ٨٠١ م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ٨٠٢ م، فرد الرشيد بوفد آخر سنة ٨٠٧ م. وكانت الوفود تحمل الهدايا المتنوعة والثمينة، ومنها هدية

هارون الرشيد إلى شارلمان وهي عبارة عن ساعة مائية دقاقة وفيل أبيض ومجموعة من الثياب الحريرية والعطور والتوابل[1]. وربما كان لهذه العلاقات الثنائية الجيدة صلة بعداء هارون الرشيد للدولة الأموية في الأندلس، في محاولة للاتفاق مع الفرنجة لمساعدته ضد ما يعتقده أنهم أعداء دولته العباسية.

والحقيقة فإن العلاقات البيزنطية ـ الاسلامية لم تقتصر على بلاد المشرق أو المناطق الآسيوية، وإنما أقيمت علاقات بين البيزنطيين والمسلمين الأندلسيين وجرت عدة سفارات في مختلف العهود، ولما تولى الأمير عبد الرحمن الثاني الإمارة تعمقت السفارات البيزنطية ـ الأندلسية. ويشير المقري «نفح الطيب جـ ١»، الى قدوم سفارة من قبل الامبراطور تيوفيل (تيوفلس) (Thiophile) امبراطور الأسرة العمورية «ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية»، حوالي سنة ٢٢٥ هـ، ٨٣٩ ـ ٨٤٠ م على الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ ـ ٨٥٢ م) الذي أرسل في العام نفسه وفداً إلى القسطنطينية. ويشير «ابن حيان» (المقتبس) وسواه من المؤرخين، بأن «تيوفلس» أرسل ترجمانه قراطيوس الرومي (Kartiyus) وكان يحمل هدايا إلى أمير الأندلس، ورسالة رسمية يطلب فيها من عبد الرحمن استمرار العلاقات بينهما، ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق، ويطلب منه عقد معاهدة صداقة. كما تعهد له في الوقت نفسه بأن يستعيد من أيدي العباسيين ميراث أجداده الأمويين في بلاد الشام، في مقابل مساعدة عبد الرحمن للامبراطور باستعادة جزيرة «كريت» التي وقعت بأيدي جماعة أبي حفص، إضافة إلى أن من أهداف سفارة الأمبراطور للأمير، كانت مواجهة الأخطار الإسلامية في صقلية وإفريقية[2].

والواقع وإن كان للسفارات المتبادلة بين الامبراطور والامير بعض الأهداف

---

(١) خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، (مقال) مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان ٧٩ ـ ٨٠، أيار (مايو) حزيران (يونيه) ١٩٨٥، ص ٤٥.

(٢) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

السياسية والعسكرية، غير انه كان لها ايضاً أهداف علمية. وقد لوحظ بأن عبد الرحمن الأوسط استقبل السفير البيزنطي استقبالاً حافلاً، ولم يتوان بدوره عن إعادة الترجمان قراطيوس الى القسطنطينية مع وفد إسلامي. فاختار لهذا الغرض بعض العلماء المسلمين المتخصصين في العلوم البحتة منهم: يحيي بن حكم الغزّال العالم والشاعر المشهور، ويحيي المنيقلة الذي لقب بهذا اللقب لاختراعه نوعاً خاصاً من الساعات. وقد جاء ذكر يحيي بن حكم الغزّال (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ) في كتاب الحميدي «جذوة المقتبس» الذي وصفه بالقول: «رئيس كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند امراء بلده. ارسله بعض ملوك بني امية بالأندلس رسولاً إلى ملك الروم..»[1].

هذا وقد عهد إلى الوفد الإسلامي الذي صحب معه قراطيوس بالرد على الامبراطور، وقد نقل ابن حيان نص هذه السفارة كاملاً. وفي بلاط القسطنطينية ظهرت حكمة وصرامة يحيي بن حكم الغزال. وفي العاصمة كلف موظف بيزنطي ـ كان مقدم السفراء ـ بالتعريف بآداب البلاط البيزنطي والاستقبال فيه. ثم دعي الغزال لمقابلة الامبراطور توفلس، فاشترط الغزال عدم السجود للامبراطور لا هو ولا زميله يحيي، وإلا يخرجهما الامبراطور عن شيء من سنة الله ورسوله، فأجابهما إلى ذلك. ولم يملك توفلس اخفاء اعجابه بالسفير يحيي الغزال فقال لرجال دولته: «كان الحكماء على حق في قولهم ان من شخصية الرسول يعرف سيده. ان هذا الأندلسي حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم».

أما الرد الذي أرسله الأمير عبد الرحمن الأوسط للامبراطور توفلس، فقد بدأه بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ومما جاء فيه: «.. أما بعد، فقد بلغني كتابك، تتذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة وأنه قد دعاك ذلك الى مكاتبتنا وارسال قرطيوس رسولك الينا لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٧٤.

وتتواصل له، ونبعث رسولاً من عندنا إليك ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه، ودعوت إليه، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا وتتم به صداقتنا».. ثم شرح له الموقف من الخليفة ومن أبي جعفر وابن مراجل وابن ماردة وأبي حفص الأندلسي، ثم قال «.. وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبرك ومتعة عافيتك، للنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله»[1].

ويذكر أيضاً بأن الامبراطورة «تيودورا» (Theodora) زوجة توفلس، أعجبت بتصرفات وحنكة يحي الغزال، فلما اجتمعت به وبالوفد الأندلسي، نظم الغزال لها قصيدة تمتلىء بالصور الشعرية الرائعة وقد ألقاها في القصر الذي نزل فيه الوفد الأندلسي والذي سماه ابن حيان «أكادمية من مرمر».

من جهة أخرى، فقد أشار ابن عذارى «البيان المغرب، جـ ٢» وابن خلدون «العبر، جـ ٤». بأن عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله، قد استقبل سفارة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع في ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م، محملة بالهدايا الثمينة، وقد تمنى الوفد البيزنطي على الخليفة المؤالفة واتصال المكاتبة، وسلمه رسالة مكتوبة باليونانية بأحرف من ذهب، بدأ فيها بعبارة «من قسطنطين ورومانين (ابن قسطنطين) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم... إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه..»، ولما اجتمع الخليفة بالوفد البيزنطي احاط به مستشاروه وعلماؤه وأبناؤه وقضاته ومنهم: يحي بن محمد بن الليث، محمد بن عبد البر، أبو علي القالي، المنذر بن سعيد البلوطي، وإلى جانبه أولاده: الحكم، عبيد الله، عبد العزيز،

---

(١) انظر: لنفي بروفنسال: المرجع السابق، ص ١١٥-١١٨.

الأصبغ، مروان، المنذر، عبد الجبار، وسليمان، بينما تخلف ابن عبد الملك بسبب مرضه [1].

ولما انتهت مهمة السفارة البيزنطية وتوجهت إلى بيزنطة، أرسل الخليفة بصحبة الموفدين البيزنطيين، سفيراً هو هشام بن هذيل، يحمل الى الامبراطور هدية قيمة تأكيداً للعلاقات الودية بينهما، وقد أمضى السفير هشام في سفارته سنتين عاد بعدها الى قرطبة مصحوباً بسفراء بيزنطيين جدداً لبحث الأمور المستجدة على العلاقات الثنائية.

وفي عهد الحكم المستنصر (٩٦١ - ٩٧٦ م) ابن عبد الرحمن الثالث تجددت هذه العلاقات مع بيزنطة، وقد أرسل الامبراطور نقفور فوكاس (Nicephore Phocas) بعض الخبراء والصنّاع المتخصصين في صناعة الفسيفساء الى الأندلس بناء على طلب الحكم، للأشراف على زخرفة الأجزاء الجديدة من المسجد الجامع في قرطبة. واستمرت العلاقات بين البلدين، وقد تجددت بين بيزنطة وقرطبة في عهد الوزير الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر وفي عهد الامبراطور باسيل الثاني.

ومن الأهمية بمكان القول، أن التبادل الحضاري والثقافي والإجتماعي بين المجتمعين العربي والغربي، لم يكن محصوراً في منطقة واحدة، بل في كل منطقة قدر لها أن تشهد تواجداً إسلامياً - مسيحياً. فمن المعروف انه ترتب على الفتوح الإسلامية في المشرق، أن انفصل عن جسم الدولة البيزنطية كل من قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، فأصبحت الدولة ارثوذكسية موحدة، تتفق حدودها مع سلطان بطريركية القسطنطينية. ثم بسقوط الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس بأيدي المسلمين، أصبح لبطريرك القسطنطينية الصدارة في الشرق، واصبح بابا المسيحية في المشرق.

وبدون أدنى شك فإن الأباطرة البيزنطيين ورجال الدين المسيحيين تأثروا

---

(١) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢ - ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٦ - ٣١٩.

بالمناخ الإسلامي المحيط بهم، من حيث المؤثرات الدينية والعادات والتقاليد واللغة. ففي المجال الديني، عرف عن الإسلام محاربته للصور والإيقونات والتماثيل. وفي حين نرى بأن الكثير من المسيحيين تمسكوا فيما عرف بإسم «عبادة الصور المقدسة» نرى أن قسماً كبيراً من المسيحيين تأثروا بالمعتقدات الإسلامية التي تنبذ الصور والتماثيل. ولما تولى الامبراطور البيزنطي «ليو الثالث» الحكم سنة ٧١٧ م، جرت في عهده صراعات بين مؤيدي عبادة الصور والإيقونات وبين مناهضي هذه العبادة. وظهرت المعارضة لهذه العبادة في الجهات الشرقية (العربية) من الامبراطورية البيزنطية، ويشير البحاثة الدكتور السيد الباز العريني في كتابه (الدولة البيزنطية) الى الأثر الإسلامي في هذا المجال بقوله: «على أن الاتصال بالمسلمين والعالم الإسلامي، يعتبر اكبر عامل في تأجيج نار الكراهية ضد الايقونات وما اشتهر به ليو الثالث من العداوة للإيقونات، ارجعها خصومه إلى مؤثرات يهودية وإسلامية»[١].

والحقيقة انه بالرغم من اضطهاد ليو الثالث لليهود، وبالرغم من حروبه مع المسلمين، غير أنه تأثر بالديانتين اليهودية والإسلامية. وقد أخذ الكثير عن الحضارة الإسلامية، وبسبب المؤثرات الإسلامية في تفكير ليو، اطلق عليه المعاصرون «ليو ذي العقلية الإسلامية». ولعل نشأة ليو في مرعش في شمالي الشام، كان له الأثر على قراراته، إضافة الى انه اشتهر عنه اتقانه للغتين العربية واللاتينية.

ولقد تبين أيضاً بأن العرب لم يحملوا معهم في حروبهم في آسيا الصغرى فكرة الجهاد فحسب، وإنما نقلوا معهم ما اشتهروا به من حضارة وكراهية لتصوير الإنسان، والقرآن الكريم أشار الى ذلك بقوله: «يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، لعلكم تفلحون»[٢].

---

(١) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٠١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩٠.

ومن المعروف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر سنة ٧٢٣ م قراراً ـ أي قبل قرار ليو الثالث بثلاث سنوات ـ يقضي بإزالة الإيقونات من الكنائس المسيحية في الدولة الإسلامية. واعتبر الأباطرة البيزنطيون الشرقيون، أنه لا بد من تطهير الديانة المسيحية، وبرأيهم فإن عبادة الصور والايقونات ليست هي في حقيقتها إلا بقايا متخلفة من الوثنية، وينبغي إزالتها والتخلص منها. ففي سنة ٧٢٦ م أصدر ليو أول قرار ضد عبادة الصور بناء على طلب أساقفة آسية الصغرى، ثم أمر بتدمير تمثال المسيح المنصوب بأعلى أفخم مداخل القصر الأمبراطوري. وكان لهذه القرارات الأثر البارز في خروج نفوذ روما من الشرق، بينما خرجت بيزنطة من الغرب اللاتيني، وازدادت مظاهر حضارتها الشرقية، وبذلك انهارت فكرة الوحدة بين الدولة البيزنطية والبابوية. وقد حذا حذو ليو الامبراطور قسطنطين سنة ٧٦٤ ـ ٧٦٥، فكان أول من أدى قسما بالتخلي عن عبادة الأصنام.

ومن خصائص عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٩ م ـ ٩٤٤ م) المحافظة على استمرار العلاقات الدبلوماسية مع الدول الخارجية. وبالرغم من انه كان يحث رعاياه على الجهاد ضد المسلمين، غير أن العلاقات البيزنطية ـ العربية في الشرق اتسمت بروح العطف والمحبة، نظراً لموقف المسلمين وسياستهم العادلة إزاء الرعايا البيزنطيين. وكان للمسلمين في الشرق من المكانة عند بيزنطة، ما جعلهم في مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين في الغرب، علماً أن قسطنطين السابع بعد أن رأى تزايد النفوذ الإسلامي في المشرق وتزايد رقعة بلاد المسلمين، بدأ يجهز حملات عسكرية ضد المسلمين بإثارة الروح الدينية. ولهذا فقد قيل فيه بانه هو الذي استهل عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، وعند البيزنطيين والفرنج على السواء[1].

---

(١) د. السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

## ٧ ـ التبادل الحضاري بين الأندلس والغرب

أصبحت قرطبة من أهم الحواضر في العالم، فانتشر حولها آلاف من القرى نتيجة للرخاء والتطور الاقتصادي. وكانت وضواحيها الثماني والعشرين في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث أكبر مدن أوروبة كلها. وقد ضمت قرطبة بالإضافة إلى قصورها العديدة ما يزيد على مئة ألف منزل و ( ٦٠٠ ) مسجداً و ( ٣٠٠ ) حماماً و ( ٨٠ ) مدرسة، و ( ١٧ ) مدرسة عليا و ( ٢٠ ) مكتبة عامة تضم عشرات الآلاف من الكتب.

وكان الحكم الثاني المشهور برعايته للعلماء قد حرص على رعاية التمازج الثقافي والتبادل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين. ففي فترة ولايته للعهد ألف الأسقف جودمار الجيروني (Godmar Von Gerona) كتاباً بالعربية عن تاريخ الفرنجة، كما ألف أسقف قرطبة ربيع بن زيد كتاباً عن العلوم الطبيعية بالعربية ترجمه جيرار الكريموني (Gerhard Von Cremona) إلى اللاتينية. وقد اختار عبد الرحمن الثالث الأسقف ربيع ( ريكيداموندوس فيما بعد ) مندوباً عنه سنة ٩٥٥ م للقيصر أوتو الأكبر.

ومن حكام الأندلس الذين اهتموا بالتبادل الحضاري بين الشرق والغرب وبين المسيحية والإسلام المظفر ملك بطليوس الذي اخرج مائة مجلة نحوية تحوي كل علوم عصره، والمقتدر ملك سرقسطة الذي كان فيلسوفاً وعالماً فذاً في الفلك والرياضيات. وقد أصبحت الصفة المميزة للإدارة الأندلسية، أن ما من أحد يتولى منصباً هاماً إلا ويكون قد أثبت كفاءته وحبه للعلم.

ومن المؤثرات المشرقية العربية في التراث الأندلسي والأوروبي الشعر العربي، وتلاحظ هذه المؤثرات في اشعار فرنسيس الأسيزي (Franz Von Assissi) ودانتي (Dante) وفراجا كابانا داتودي (Fraja Capane de todi) ومديتشي (Lorenzo de Medicil) وهؤلاء وسواهم نظموا أشعارهم على أسس الأوزان الشعرية العربية، وبقيت هذه المؤثرات الشعرية واضحة في إسبانيا وصقلية وتوسكانا والبندقية.

ويلاحظ أيضاً بأن الشعر الأوروبي تأثر أيضاً « بالموشح » العربي الذي يرجح أن مبتكره هو مقدم بن معافى القبري الضرير (٢٢٥ ـ ٢٩٩ هـ، ٨٤٠ ـ ٩١٢ م) كما تأثر بالزجل العربي (ينظم باللغة الدارجة بينما ينظم الموشح باللغة الفصحى). وهذان النوعان من النظم اللذان ابتكرهما أهل الأندلس، هما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوروبي. وأول من قال بهذه النظرية هو خليان ريبيرا (Julian Ribera) المستشرق الاسباني الذي عكف على دراسة موسيقى الأغاني الاسبانية ودواوين الشعراء « التروبادور » « والتروفير » (الشعراء الجوالة في العصر الوسيط) والمينسنجر (Minnesanger) شعراء الغرام. وأكد على المؤثرات العربية الشعرية والموسيقية في الشعر والموسيقى الأوروبية.

ويؤكد المستشرق ليفي بروفنسال على وجود المؤثرات العربية الأندلسية في الشعر الأوروبي المعروف باسم « التروبادور » (Troubadours) الذي ظهر في جنوب ووسط فرنسا وفي شمالي شبه جزيرة ايبيريا وإيطاليا. وقد بلغ الأثر العربي والتأثر الغربي حد القول: « إن إحساس المسافر القشتالي أو الليوني أو البشكنسي بالغربة وهو في اسبانيا الإسلامية أقل من إحساس المسلم الوافد من الشرق ومن شمال افريقيا أيضاً، وذلك للإتصال القائم في الحياة اليومية ». أضف إلى ذلك بأن ثلاثماية وخمس وثلاثين (٣٣٥) قطعة شعرية من الشعر الشعبي الأندلسي هي من أصل أربعماية (٤٠٠) قطعة شعرية يتألف منها مجموع أناشيد الفونس العاشر.

وكانت اشعار « التروبادور » تدور كأشعار عرب المشرق حول « الحب

العذرى » وهو ما اطلق عليه في اسبانيا « حب المروءة » والتمجيد للحب الروحي الذي تميزت به الآثار الشعرية الأوروبية. وانتشر في اوروبا اللفظ القائل: « أن المحب لمن يحب مطيع » (Qui amat obedit) وهو الموقف الذي سبق أن قام بإيراده وتحليله ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة ». كما أن العرب يسلكون حيال المحب التقدير والاحترام، ويخاطبون الأنثى بصفة المذكر كقولهم: « سيدي ومولاي وحبيبي »، ولا يقولون « سيدتي ومولاتي وحبيبتي ». والشعراء التروبادور يسلكون هذا الأسلوب فيقولون: سيدي (Mio Cid) أو (Midons) بدلاً من سيدتي (Ma Donna) وهناك صفات مشتركة عديدة بين الشعر العربي الأندلسي وشعر التروبادور، كالهيام، والمدح، والأساليب الشعرية... ولقد حاول بعض الدارسين والمفكرين الغربيين إنكار التأثير العربي على شعر التروبادور. وقد رد المستشرق ليفي بروفنسال على هؤلاء بالقول: « إن اسبانيا الإسلامية كانت تعتبر بالنسبة لبلاد البحر المتوسط الأوروبية مركز الحضارة المترفة والحياة المتمدينة الناعمة... ولا ننسى أن كثيراً من قطع النسيج الثمينة والحلي والتحف التي كانت تزدان بها المقاصير الدينية أو تملأ علب سيدات المجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط الأعلى إنما كان يأتي من الأندلس أو فارس أو العراق.. فأغلب اسماء النسيج تظهر في صورها العربية، وبعضها وهو أغناها يوصف بأنه قرطبي أو شامي أو عراقي. فلماذا إذن ينفر المجتمع الإقطاعي من أن يأخذ من الحضارة الأندلسية الإطار والأغراض التي أوحت إليه بمحاولاته الشعرية الأولى وهي اشبه شيء بألف باء شعره الغنائي الذي كان حينئذٍ يتلعثم به؟ لماذا ينفر وقد اعارته هذه الحضارة طرق قص الشعر والثياب والعاج والحلي. ولم تكن الخلافات السياسية والدينية ـ التي كان من شأنها أن تفصل المسيحية عن الإسلام ـ من القوة بحيث تقيم بين العالمين حاجزاً غليظاً لا يمكن قهره والتغلب عليه »[1].

ومن الأهمية الإشارة إلى أن التفاعل الحضاري في الأندلس لم يكن بين المسلمين والمسيحيين فحسب، وإنما كان أيضاً بين المسلمين أنفسهم القادمين من

---

(١) انظر: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٨٠ ـ ٢٩٦.

مناطق وبلدان متعددة من المشرق، وأيضاً بين مسلمي المشرق والمغرب والأندلس.

ويمثل عهد المرابطين، مظهراً من مظاهر هذا التفاعل والتبادل الحضاري. فالمرابطون منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي بدأوا بالتفاعل مع البيئة الاسبانية، بل انهم «تأسبنوا» في عهد اميرهم يوسف بن تاشفين وابنه علي، وبعد وفاة يوسف كان اسم ابنه علي يذكر من فوق الفين وثلاثمائة منبر في مساجد المغرب والأندلس، وكانت الثقافة الأندلسية قد سادت في مراكش، وحرص الأمير علي على الإستمرار في الأخذ من هذه الحضارة، فوالدته نصرانية وهو من مواليد سبتة على البحر المتوسط، كما تلقى منذ الصغر الثقافة الأندلسية البحتة. ولم يكن مثله الأعلى أمراء المغرب الضعفاء الذين انتصر والده عليهم، وإنما كان همه التشبه بخلفاء قرطبة العظام وحجّاب بني عامر.

والحقيقة فإن اسبانيا أثرت كثيراً في مراكش التي قصدها عدد كبير من الأندلسيين للإقامة في بلاط الأمير بمراكش. وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن المراكشي هذا الواقع بقوله: «ولم يزل امير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بإبن القبطرنة وأبي عبد الله ابن أبي الخصال، وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون..». كما أن الأندلسيين القادمين إلى بلاط الأمير ساهموا بما لديهم من تجارب بقسط كبير في الإصلاحات الإدارية والسياسية والعلمية، كما استعان علي بن يوسف بفرقة من جنود النصارى، وكلف بعض ضباطهم بأعمال هامة، بينها جباية الضرائب ومما قرّب العلماء إلى يوسف ومن بعده ابنه علي أن العلماء اعتبروا أن دولة المرابطين هي المنقذ للمسلمين من الإضمحلال ومن ملوك الطوائف في الأندلس.

## طليطلة : من مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس

بقيت طليطلة (Toledo) في أيدي العرب من سنة ٧١٢ م إلى سنة ١٠٨٥ م، أي حوالي أربعة قرون، وقد غلبت العروبة على نصارى طليطلة، فلبثوا نصارى، ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافية العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنسية باللغتين العربية والقوطية. وصار الأسبان يطلقون عليهم اسم « موزاراب » (Mozarabes) أي نصف عرب.

وكانت طليطلة في عهد المأمون ذي النون مزيجاً من التراث الشرقي والغربي والإسلامي ـ المسيحي. وقد ازدهرت هذه المدينة ازدهاراً قوياً في عهده نتيجة العلاقات الحضارية التي نشأت فيها. ولم تمنعه حروبه المتصلة مع جيرانه من ملوك الطوائف من أن يكفل لعاصمته إزدهاراً لم يتهيأ لها من قبل. إذ ضم بلاط طليطلة نخبة الإرستقراطية الأندلسية. وكان القصر الملكي فيها تحفة في الفن الهندسي والمعماري. وذكر المقري « نفح الطيب جـ ٢ » بأن المأمون بنى في طليطلة قصراً تأنق في بنائه وانفق فيه مالاً كثيراً. وفي وصف لحفل قيل فيه: « ... واحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجلسهم، واشرأبوا إلى الأخذ في شأنهم.. وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب، ونظمت نوبة المغنين زمراً، فهاجوا الأطراب واستخفوا الألباب.. » ويذكر بروفنسال، بأن قصر المأمون مثل في نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين غاية من الرشاقة والترف، وقد تأثروا به كثيراً. ولم يكن يضارع طليطلة من المدن الاسبانية سوى سرقسطة وبلنسية وإشبيلية. وأضاف بأن طليطلة رغم اختلاف سكانها، فإن المسلمين والمسيحيين واليهود

عاشوا فيها متآخين في كل شيء. وكانت طليطلة من أنشط مراكز الثقافة فلم ينقطع وجود الشعراء في بلاط المأمون الذي كان يشجع بدوره الدراسات الإسلامية. وقد قام الكثير من مشاهير فقهاء مملكته بالتعليم في عهده في جامع طليطلة الكبير ومن هؤلاء: ابن القرطبي (المتوفى ٤٦٧ هـ) وأبو الوليد احمد بن عبد الرحمن بن صاعد (المتوفى ٤٤٩ هـ) وأبو زيد عبد الرحمن بن الحشاد قاضي طليطلة (المتوفى ٤٧٣ هـ) وأبو القاسم صاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن حمد بن صاعد الشهير صاحب كتاب «طبقات الامم» وهو موجز في تاريخ العلوم، ذاع صيته فترة طويلة في الشرق وأخذوا عنه.

ويذكر بأن ألفونس السادس عندما احتل طليطلة سنة ٤٧٨ هـ-١٠٨٥م حرص على تعيين قائد مستعرب على المدينة، يستطيع التفاهم مع المسلمين، هو الكونت المستعرب «ششند» (Sinando Davidiz) الذي كان على درجة كبيرة من التسامح، وقد عمل ما بوسعه لمنع ألفونس من نقض مواثيقه وعهوده المعطاة للمأمون قبل وفاته، وللمواثيق التي سبق أن أبرمها في أيار (مايو) ١٠٨٥م مع مسلمي طليطلة. غير أن الفئات النصرانية أصرت على تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة، وكان ذلك بتأثير من رهبان «كلوني» (Cluny) الفرنسيين الذين وفدوا من فرنسا إلى اسبانيا، وبتأثير من «برنار» (Bernard) رئيس أساقفة «دير سهاجون» (أسقف طليطلة فيما بعد). ويقال بأن ألفونسو استشاط غضباً عند سماعه هذا الخبر، كما أن مسلمي طليطلة سعوا لدى الملك ومنعوه من إنزال عقاب شديد بالأسقف.

وكان ألفونس السادس متأثراً ببعض العادات والتقاليد الإسلامية، كما تزيا بزي المسلمين، ورفض بعض النصائح بلبس زي الأفرنج الذين كانوا يحكمون قبل المسلمين. ويقول ابن بسام «الذخيرة»: «وقد حدثت أن شيعة أدفونش - لعنها الله وبددها - أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج، وزينوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من إعلاج. فقال: لا، حتى أطأ ذروة الملك وآخذ

قرطبتهم واسطة السلك. وكان أعد لمسجدها الجامع ناقوساً تأنق في إبداعه وتجاوز الحد في استنباطه واختراعه».

وبالرغم من بعض التناقض في مواقف ألفونس من المسلمين في طليطلة غير أنه ما لبث أن أطلق عليه بالعربية لقب «الأمبراطور ذو الملتين» أي الإسلام والمسيحية ويقابلها في اللاتينية (Imperatur totius hispaniae). وبالرغم من الذهول الذي أصاب المغرب العربي بسبب سقوط طليطلة، وبالرغم من الاستعدادات العسكرية لابن تاشفين لاستعادتها، وبالرغم من أن طليطلة قد تنصرت، غير أنها لم تخل من سكانها المسلمين الذين استمروا فيها لفترات طويلة كاكبر جالية إسلامية في اسبانيا التي استردها المسيحيون. ولا بد من الإشارة الى أن زوجة ألفونس المسلمة المعروفة باسم «زايدة المسلمة» أثرت على سياسة زوجها حيال المسلمين بالرغم من تنصرها فيما بعد واعتناقها الكاثوليكية، وقد عمدت باسم ايزابيلا. وكان الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين أمراً شائعاً في اسبانيا. بل أن ألفونس لم يمانع بعد سيطرته على طليطلة من سك العملة وضربها بالنقوش والأحرف العربية. كما أن رودريجو دياز، بعد احتلاله لبلنسية ١٠٩٤ م أقر المسلمين على تشريعاتهم وتقاليدهم وعاداتهم علماً أنه اضطهدهم فيما بعد وغيّر من سياسته. والحقيقة فإن سكان طليطلة ظلوا متمسكين باستخدام اللغة العربية في تجارتهم ومعاملاتهم وجميع صكوكهم، وذلك إلى سنة ١٥٨٠ م. بل أن النقش على قبورهم كتب بالعربية واللاتينية لا سيما قبور النصارى الأسبان المستعربة، وقد وجدت عدة قبور في طليطلة تعود إلى الأعوام ١١٥٦ـ١١٦٠م نقشت عليها الكتابة باللغتين، ابتدأ بعضها بالتعابير الإسلامية والقرآنية مثل البسملة، مثال ذلك وجد قبر وقد كتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»، كان من مضى لله برحمته مقاييل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضي من نونبر أربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة وألف لتاريخ الصفر نضر وجهه..».

ولا بد من التأكيد بأن اللغة العربية لم تنته من اسبانيا إلا في القرن السادس عشر الميلادي، وذلك بعد محاربتها رسمياً والتهديد بمعاقبة كل من يتكلم العربية

من الاسبان في طليطلة أو يكتب بها. وقد جمع العلاّمة الأسباني المدريدي « انجل غونزاليز بالانسيه » (Angel Conzales Balencia) تحت عنوان « نصف عرب، أو موزاراب طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » ثلاثة مجلدات تقارب الألف صفحة تضم عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق والمعاملات، كلها باللغة العربية. ويلاحظ في بعض هذه الصكوك اختلاط الاسماء العربية بالأجنبية، فبينما الأب هو عمر فإذا الابن هو بطرة، وبينما الأب هو عبد العزيز، فإذا الابن هو ميقيال، ومرتين بن عثمان وشلبطور بن عبد الرحمن ودون شبيب بن عبد الرحمن.. ولا غرو في ذلك فقد حدث أنه في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن احد المطارنة المسيحيين في طليطلة (أسقف إشبيلية فيما بعد) كان اسمه عبيد الله بن قاسم، كما عرف قس باسم القس ماير عبد العزيز بن سهيل [1].

إن تلك الأسماء المختلطة الإسلامية ـ النصرانية تعود إلى ما بعد استرداد طليطلة سنة ١٠٨٥ م وبعد البدء بتنصير المسلمين فيها، غير أن بعض المسلمين بقوا على إسلامهم، وكان لا يزال عدد منهم إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي في طليطلة يتزيا بزي النصارى. وكان بعض المسلمين الذين تعرضوا للضغوطات قد تنصروا علانية وبقوا على إسلامهم سراً، وكانوا يعلّمون أولادهم الصغار سراً تعاليم الإسلام، ويوصونهم كتم ذلك وعدم ذكره لأي إنسان خوفاً من الحرق والإبادة. وقد روى مثل هذه الحوادث المؤرخ العالم سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي (المتوفى في رجب ١٠٥٢ هـ) والذي كان والده يعلمه الإسلام سراً.

ولقد تبيّن أيضاً أنه كان في جيان وغرناطة وإشبيلية وقرطبة، حتى القرن السابع عشر الميلادي، أناس لا يزالون يدينون بالإسلام سراً. بل اللافت للنظر أن عادات وتقاليد الإسلام استمرت في الأندلس إلى القرن العشرين ومنها أن أهالي طليطلة كانوا لا يزالون يذبحون الخراف في يوم عيد الأضحى ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.

---

(١) الأمير شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، ص ٣٦٦.

وكانت طليطلة من المراكز العلمية الهامة ومما اسبغ عليها مكانة علمية ممتازة مدرسة المترجمين التي انشئت بها والجهود الحثيثة التي بذلت فيها لترجمة العلوم العربية، وخاصة كتب ابن رشد وكان « ميخائيل سكوت » (Michael Scottus) أحد علماء هذه المدرسة، وهو أول من نقل مؤلفات ابن رشد من العربية الى اللاتينية. ومهّد بهذا الطريق امام الفلسفة الإسلامية للعبور الى الفكر الأوروبي والتأثير فيه. ومن أكثر الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد القديس « توما الأكويني » الذي استفاد منها وتتلمذ عليها، ثم انقلب أخيراً ضدها. وبعد فترة من الزمن كانت جامعة باريس خير مركز احتضن افكار ابن رشد ورعاها ودرسها. ومع حركة الاسترداد المسيحي إزدادت حركة الترجمة وعنيت بالدرجة الأولى بترجمة مؤلفات الطب والفلسفة والرياضيات .كما استتبع ذلك ترجمة معاني القرآن الكريم وترجمة سيرة الرسول محمد (ﷺ). بالإضافة إلى تأليف المعاجم اللاتينية ـ العربية، وذلك لفهم اللغة العربية وتاريخ العرب والإسلام. والحقيقة فقد تطورت حركة الترجمة في طليطلة بصورة واضحة في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب « بالعالم » (Elsabio) في القرن الثالث عشر. فاستعان لتحقيق النهضة العلمية بعدد كبير من العلماء المسلمين والمستعربين واليهود. وقد انتهت هذه الترجمات بقالب لاتيني ومن ثم قشتالي.[1]

ومن الأهمية بمكان القول، بأن طليطلة بعد سقوطها بأيدي المسيحيين ١٠٨٥م، استمرت من المراكز العلمية الهامة، وتدفق طلاب العلوم من غربي أوروبا اليها والى المدن الأسبانية لتعلم العلوم والدراسات الإسلامية. ونشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية واستمرت نشطة الى القرن الخامس عشر الميلادي وقد ترجم الى اللاتينية الكثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية الكثير من مؤلفات اليونانيين المعربة مثال كتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو وسواهم. وقد وجد من الحكام الأسبان

(١) د. جمال الدين الشيّال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص ٢٢ـ٢٥

من قدروا العلوم والثقافة الإسلامية والعربية، فاستفادوا منها وشجعوا على نقلها ومن هؤلاء: ألفونس الخامس (الحكيم) (١٢٥٢-١٢٨٤م) ملك قشتالة وليون. وبالمقابل فقد وجد بعض المتعصبين ضد الحضارة الإسلامية مثال رئيس أساقفة «اكزيمنيس» الذي أمر بإحراق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب والمسلمين بعد جلائهم عن الأندلس. فيما تشير مصادر بعض المستشرقين إلى أن رجال الأسقف أحرقوا مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم خلال ثمانية قرون. بالرغم من أن رئيس الأساقفة سبق له أن اعترف بحاجة الأسبان إلى علوم وصناعة المسلمين بقوله: «ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم»[1].

ولقد استمرت المؤثرات العربية والإسلامية في اسبانيا بعد استرداد المسيحيين لها، فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة جاءت تقليداً للفن المعماري الإسلامي الأندلسي، وظهر تقليد العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب ولما بنى الملك بترو الملقب بالغاشم (القصر) (Alcazar) بناه على الطراز العربي بأيدي بنّائين من العرب. ومن القصور الأسبانية المبنية على الطراز العربي قصر «الانفانتادو» في وادي الحجارة وقصر «كازادل كردون» (Casa del cardon) في برغش، وهو من بناء مهندس عربي اسمه محمد من سقوبية، وتاريخ بنائه يرجع إلى القرن الخامس عشر[2] وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين ممن زاروا اسبانيا وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملامحه الى ايطاليا رغم تطور فن البناء الإيطالي. كما

---

(١) انظر: زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة، ص ٥٣٢، ٥٣٥، د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٥٢-٥٣، ١٩٠.

(٢) الأمير شكيب ارسلان، المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٠٨ - ٣٠٩. للمزيد من التفصيلات عن الآثار المعمارية في الأندلس من اسوار وحصون وأبراج انظر:

Lévi-Provençal; L'Espagne Musulmane aux xe siècle, p. 149...

Lévi-Provençal; Histoire de L'Espagne Musulmane, T. III, p. 64...

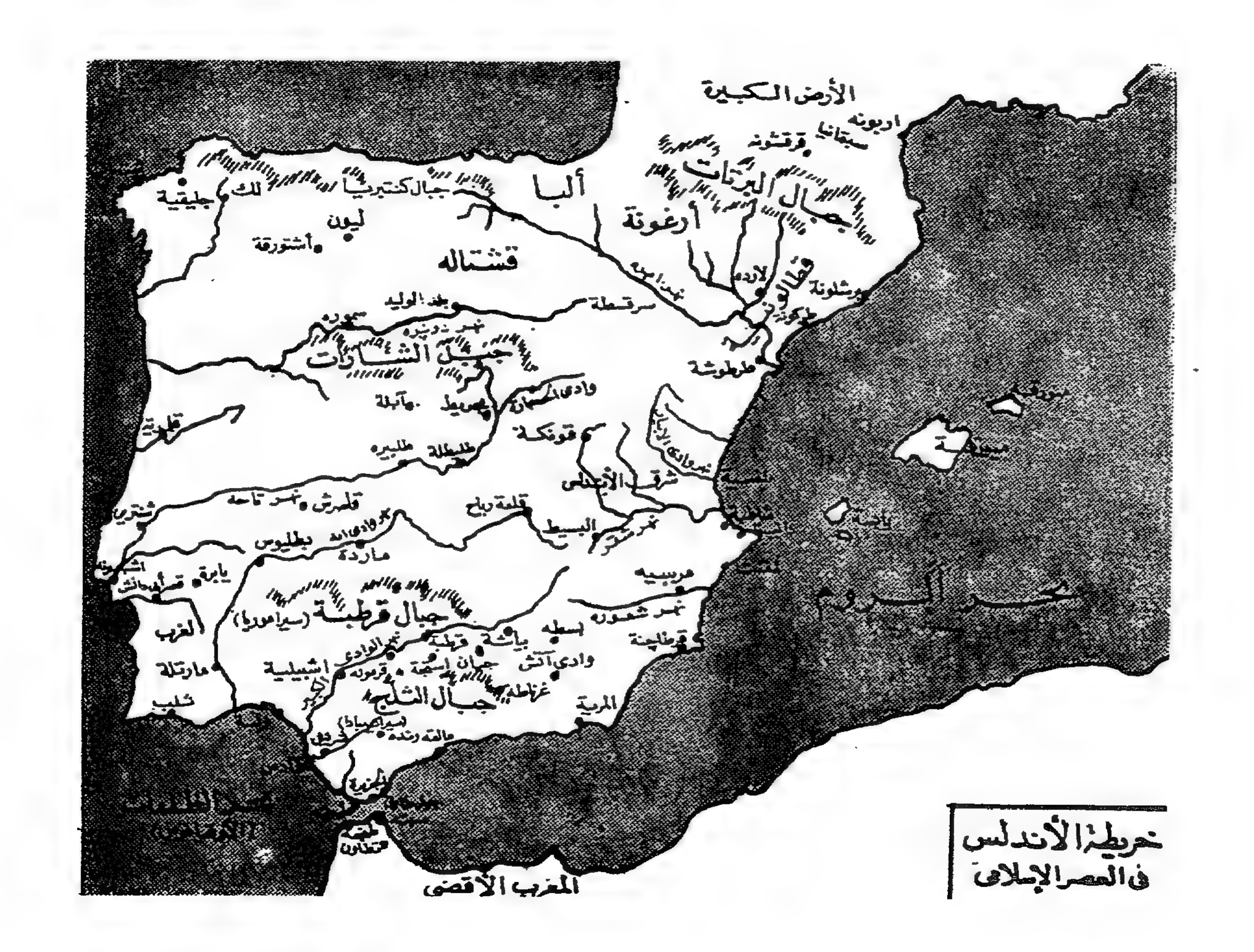
حمل لواء الحضارة الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا فرسان ايطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا، والأسرى الأوروبيون الذين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرهما من مراكز الثقافة الأندلسية. كما مثّل تجار ليون وجنوى والبندقية ونورمبرج دور الوسيط بين المدن الأوروبية والمدن الأنـدلسيـة، كما احتـك الحجاج الأوروبيون المسيحيون في طريقهم إلى سانت ياجو بالتجار المسلمين والحجاج المسيحيين القادمين من شمال الأندلس فنقلوا معهم المؤثرات الإسلامية والعربية.

هذا، وقد كانت مدينة قادس مركزاً صناعياً وتجارياً. ويكفي الإشارة إلى أن تجار جنوى كانوا يتلقون شحنات من ملح قادس المشهور إلى مالقة وإلى جميع أنحاء الأندلس.

أما فيما يتعلق بالتجارة فقد كانت بحد ذاتها أداة لنقل التراث العربي والإسلامي إلى أوروبا. وكانت مدينة قادس محطة هامة في طرق التجارة ترتبط بطريق رئيسية تصلها بالمدن الكبرى مثل: إشبيلية وقرطبة وطليطلة وسرقسطة وطركونة وأربونة. وتشير المصادر الأندلسية أن قادس كانت محطة تجارية هامة في عصر بني الأحمر أصحاب غرناطة. ومما لا شك فيه أن المكانة التجارية التي اكتسبتها قادس منذ القدم ظلت قائمة طوال العصر الإسلامي؛ وعن طريق قادس كان يتم تصدير الحرير الغرناطي إلى تجار أيطاليا[1].

---

(١) د. سحر السيد عبد العزيز سالم: مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي. ص ١٣١، مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ١٩٩٠.




خريطة الأندلس في العصر الاسلامي

# الفصل الثامن

# أثر الحضارة الإسلامية في صقلية

## مقدمة في تاريخ صقلية

تقع جزيرة صقلية بين ساحل ايطاليا الجنوبي وبين الساحل الفرنسي القريب منها جنوباً. وصقلية (Sicily) شبيهة بمثلث ضخم أطرافه ثلاثة رؤوس. وهي محاطة بثلاثة أبحر: البحر اليوني (Mare Ionio) شرقاً، والبحر التيريني (Mare Terreno) شمالاً والبحر الصقلي أو الأفريقي جنوباً وغرباً. ويمكن تقسيم صقلية إلى ثلاثة أقاليم جغرافية هي: اقليم مازر (Val de Mazara) واقليم نوطس (Val di Noto) واقليم دمنش (Val Demone). أما مساحة صقلية فهي خمسة وعشرون ألفاً وأربعمائة وستون كلم (٢٥,٤٦٠ كلم). وأهم مدنها عاصمتها بالرمو (Palermo) وترميني ايمريسه (Termini Imerese) واتراباني (Trapani) ومرسالا (مرسى علي) (Marsala) ومازر أومزاره (Mazara) وكركنته (Agrigenta) وجيليه (Gela) وسيراكوزه (Siracuse) وأوغوسطه (Augusta) وكتانيه (Catania) ومسينا (Messina) وعلقامو (من علقمة) (Alcamo) وسواها من المناطق والمدن. أما عدد سكانها في فترة الحكم العربي فكان يقارب مليوناً وستمائة ألف نسمة (١,٦٠٠,٠٠٠) وهي كثافة سكانية عالية بالنسبة لتلك الفترة، بينهم ستمائة ألف من المسلمين [١].

كانت صقلية من حيث موقعها الجغرافي معرضة لهجمات المسلمين من جهتين:

---

(١) د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، ص ١-٣؛ د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص ٨.

من بلاد الشام ومن أفريقية. فهاجمها معاوية بن أبي سفيان والي الشام في زمن الخليفة عثمان بن عفان مرتين: مرة عام ٦٥٠ م من سواحل الشام (لبنان) عندما كان والياً، ومرة عام ٦٧٠ م من بلاد المغرب العربي (أفريقية) عندما أصبح خليفة. غير أن هذه الغزوات لم تكن منظمة أو قوية ولهذا لم يتسن للعرب السيطرة على صقلية في تلك الفترة. هذا وقد تكررت الغزوات العربية على صقلية في أوائل القرن الثامن الميلادي. فبعد السيطرة على الأندلس، بعث موسى بن نصير عام ٧٠٤ أسطولاً صغيراً بقيادة ابنه عبد الله لغزو صقلية وسردينية وجزر البليار فاحتلها بشكل مؤقت. وفي عام ٧٢٧ م غزا العرب صقلية بقيادة بشر بن صفوان. ثم تعرضت صقلية لغزوتين من العرب في عامي ٧٢٨ ـ ٧٢٩ م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة وبقيادة المستنير بن الحجاب[١].

والحقيقة فإن المسلمين استمروا في محاولاتهم باستمرار للسيطرة على هذه الجزيرة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام ونظراً لخطورتها على البلاد الاسلامية والعربية، ولأنها كانت منطقة وقاعدة لهجمات البيزنطيين والروم والبربر (الهاربين اليها) على العرب في برقة وبلاد المغرب، وعلى الأساطيل الاسلامية ومراكب المسلمين[٢]. واستمر هذا التجاذب العسكري إلى أن ولّى الخليفة هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب على أفريقية الذي عانى من عدم الاستقرار السياسي والعسكري في تعامله مع البيزنطيين. وفي عهد ولاية ابنه عبد الله عام ٨١٢ م بديء ببناء أسطول بحري قوي، وفي المقابل بدأ البيزنطيون يعززون أسطولهم لمواجهة المسلمين. وبين عامي ٨١٩ ـ ٨٢٠ م قام محمد بن عبد الله بن الأغلب بحملة ضد صقلية، انتصر فيها المسلمون ثم انسحبوا من الجزيرة.

وفي عهد الوالي زيادة الله الأول (حكم بين ٨١٧ ـ ٨٣٨ م) والي دولة

---

(١) د. ماريو موريتو، المرجع السابق، ص ٦ ـ ٧.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول واقع صقلية في العهد البيزنطي انظر: Bury: History of the Eastern Roman Empire

الأغالبة في تونس، تمّ الاعداد لغزو جزيرة صقلية، الذي أوكل قيادة الحملة الى قاضي القيروان أسد بن الفرات الخراساني. ففي ١٤ حزيران (يونيه) ٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م أقلعت قوات أسد بن الفرات من ميناء سوسة، وكانت مؤلفة من الأفارقة والأندلسيين المقيمين في تونس ومن المسلمين الخراسانيين. وقد بلغ عددهم ما يقارب عشرة آلاف وسبعمائة رجل وفارس (١٠٧٠٠)، أبحروا على متن مائة مركب. ولما وصل المسلمون إلى صقلية، لاقتهم القوات المسيحية في بالرمو، وقد استمر القتال في الجزيرة أكثر من سنتين، عانى المسلمون خلالها معاناة كبيرة، فحاقت بهم الأخطار والمجاعة والأمراض. غير أن أسد بن الفرات رفض دعوة بعض معاونيه العودة إلى تونس، وفضّل الاستشهاد على العودة. وتابع غزوته الى ان استشهد عام ٢١٣ هـ ـ ٨٢٨ م عند أسوار مدينة سرقوسة (سيراكوزه). وكان تصميمه على الاستمرار في القتال قد أحرز نتيجة ثابتة للمسلمين في الجزيرة، كانت مقدمة لافتتاح الجزيرة بأسرها. وبعد استشهاده عيّن مكانه القائد محمد بن أبي الجواري وكان المسلمون في حالة يائسة بعد محاصرتهم من قبل البيزنطيين، ولكن ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود جاءتهم بالنجدة من أفريقية أصلحت أوضاعهم العسكرية، فاستأنفوا الزحف وتمكنوا من فتح بالرمو العاصمة في عام ٨١٣ م[1].

ومن اللافت للنظر أن المسلمين لم يستطيعوا فتح صقلية بسهولة أو بسرعة ففي حين تمّ فتح الأندلس في حوالي ثلاث سنوات، استغرق فتح صقلية ما يقرب الثمانين عاماً، ولم تتم السيطرة عليها نهائياً إلاّ في العام ٩٠٢ م. والسبب في تفاوت فترة السيطرة في الأندلس عنها في صقلية، أن العرب في اسبانيا لم يجدوا أمامهم إلا حكماً محلياً محدوداً لا يعتمد إلا على قواه الذاتية المحلية، بينما واجهتهم في صقلية امبراطورية قوية يمدها الشرق والغرب بقواها، كما أنها كانت امبراطورية

(١) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص٨ ـ ٩. د. عزيز احمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص١٥ ـ ١٧.

بحرية تمتلك الأساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معاً. غير أنه من اللافت للنظر أيضاً، هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والاسلامية التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام.

في عام ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م انتهى حكم الأغالبة في المغرب، وقضى الفاطميون عليهم في أفريقية، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي اسمياً لا سيا في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨ هـ - ١٠٥٢ م). وقد تمتعت صقلية في هذا العهد باستقلال ذاتي. غير أن صقلية لم تنعم كثيراً بالاستقرار لا سيا بعد سقوط دولة الكلبيين[١] عام ١٠٥٢ م، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروباً أهلية، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت في عهد الكلبيين، وكان ذلك من أسباب تدهور الحكم العربي الاسلامي وضعفه، الأمر الذي أدى أخيراً الى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North-Men) على جزيرة صقلية. وعلى حد قول المؤرخ ابن أبي دينار في كتابه: المؤنس، من أن أسباب هلاك مسلمي صقلية الحسد والشقاق.

ولا بد من الإشارة إلى ان انتهاء الحكم الاسلامي والعربي في صقلية[٢] لا يعني انتهاء حضارة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. فقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي بحكم إسلامي مزدهر، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم الحضارة الاسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها، وانتشرت فيها القصور والمساجد[٣] والبيمارستانات والأسواق والأسوار والقلاع والقناطر، وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء والكبريت، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد. وشاركوا في ميادين التجارة والصناعة. ونشروا اللغة العربية، كما نشروا

---

(١) نسبة إلى المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

(٢) انتهى الحكم العربي في صقلية قبل خروج العرب من اسبانيا بأربعمائة عام.

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ٨٩ - ١٠٨

عاداتهم وتقاليدهم. واستمر حكمهم في الجزيرة أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن (من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر القرن الخامس الهجري - من التاسع الميلادي الى القرن الحادي عشر الميلادي). ومما يلاحظ بأن النورمان بعد أن استعادوا بالرمو سكوا نقوداً كانت تحمل في أحد وجهيها آية قرآنية كريمة هي ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [(١)].

وقد استمر تأثير المسلمين في صقلية بعد انتهاء حكمهم مدة تقارب قرنين من الزمن، ولا تزال آثارهم ماثلة إلى الآن في الجزيرة. وقد استمر التمازج الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في صقلية رغم سيطرة النورمان عليها. فرغم الاضطرابات في صقلية أثناء الحكم الاسلامي، غير أن الأنشطة الفكرية ظهرت واضحة في فترة هذا الحكم، وكانت قاعدة مؤثرة فيما بعد في التراث النورماني والصقلي، والغربي، ومن بين العلماء المسلمين في صقلية نذكر على سبيل المثال لا الحصر علياً بن حمزة البصري (المتوفى في صقلية عام ٨٩٥ م) وكان لغوياً وأديباً، وابن البر شارح ديوان المتنبي، ومحمد بن خراسان النحوي من علماء القرآن الكريم، واسماعيل بن خلف الصقلي عالم في فن النحو وفن القراءات، وأبا العباس من علماء الحديث، ومحمداً بن ابراهيم التميمي الصقلي وهو عالم آخر من علماء الحديث. كما ظهرت في صقلية الكثير من الكتب والدراسات الفقهية والأدبية والنحوية والعلمية، فالعالم عبد الله الصقلي ترجم إلى العربية رسالة في علم النبات، وكان عبد الله محمد بن الحسن بن الطازي طبيباً وشاعراً وأديباً، وكان أبو سعيد بن ابراهيم طبيباً وصبدلياً، وكان أبو بكر الصقلي طبيباً عالماً ماهراً أورده ابن أبي أصيبعة في مصنفه. كما وضع أبو العباس أحمد بن عبد السلام شرحاً لأحد مصنفات ابن سينا الطبية. وهناك من العلماء والأدباء الصقليين من العرب والمسلمين مما لا يتسع المجال لذكرهم في هذه الدراسة الموجزة [(٢)]

---

(١) سورة الصف، الآية ٩.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر: د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ٤٩ - ٥٦.

## ١ ـ أثر الحضارة والأنظمة الإسلامية في صقلية في العهد النورماني

تولى روجر الأول (Roger I) حكم صقلية بين (١٠٩٢ ـ ١١٠١م) وقد تخوف بعض المسلمين فغادروا الجزيرة، بينما استقر آخرون، وغيروا نسبتهم الى صقلية بقلب الياء ووضعها قبل القاف، فأصبحوا يعرفون باسم الصياقلة (صيقلي)، والحقيقة فإن روجر (رجار) عامل المسلمين معاملة حسنة، فعمل على استمالتهم وحمايتهم وأقرهم على ديانتهم وأعيادهم، وجند منهم فرقة في جيشه، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على المشرق العربي رغم الحاح البابا [١]. ومن يطلع على كتاب الأدريسي يرى أن ما من منطقة في صقلية إلا وكانت تضم المساجد والجوامع. مما دعا القزويني إلى انتقاد مسلمي بلرمو لكثرة ما وجد من المساجد [٢]. ويذكر أنه لما ذهب (رجار) إلى نابولي لضرب الحصار على مدينة كابُوا (Capua) استصحب معه جيشاً اسلامياً. وقد زاره في معسكره الأسقف انسلمو الكنتربري الكاثوليكي، فوجد أن الجنود المسلمين يحتفون ويكرمون الملك روجر مما حمله على الظن بأنهم يميلون لاعتناق المسيحية، فسأل الأسقف حاشية روجر: لماذا لم يأمرهم الكونت بالتنصر؟ فكان جوابهم بصوت واحد لا تقل هكذا، بل منع رجار المسلمين أشد المنع عن ترك دينهم [٣]. ويذكر العالم الجغرافي الأدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أنه

---

(١) د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد. المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) د. مارتينو ماريو مورينو، المسلمون في صقلية، ص ١٩ ـ ٢٠

« لما صار أمرها [ أي الجزيرة ] إليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . ثم أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وتقضاه يومه المعلوم »[1] . ومن يطلع على مجمل كتاب الأدريسي يستطلع مدحاً متزايداً لرجار بن تنغريد ولابنه من بعده . ولعل اكرامه واحترامه كان السبب في كثرة هذا المدح .

والحقيقة فإن روجر أخذ عن العرب والمسلمين النظم التي اعتمدوها كما أخذ عنهم أساليبهم في ادارة البلاد وفي الدواوين والنظم المالية والضرائبية والوظيفية . كما أخذ عنهم طرق حصر الأملاك العامة وادارتها . وبالتالي فقد تأثر روجر الأول بالتنظيمات العربية العسكرية . فاقتبس الأنظمة الخاصة بالجيوش البرية والبحرية ، وطبقها على قواته وأدخلها في النظام العسكري في صقلية .

وفي فترة حكم روجر الأول طرأ تحسن في العلاقات بينه وبين البابا . غير أن الخلافات استمرت بينهما بشأن تنصير مسلمي صقلية ، ففي حين كان البابا يرى ضرورة تنصير المسلمين لأنهاء الوجود الاسلامي تماماً في صقلية ولزيادة عدد المسيحيين في الجزيرة ، كان روجر يرى أن الزمن كفيل بتنصير المسلمين ، كما كان يرى أن استمرار هجرة النصارى من شبه الجزيرة الايطالية هو الكفيل باعتلاء الدين المسيحي مكان الصدارة بوصفه الدين الرسمي للجزيرة . ولهذا وبالرغم من معاملة روجر الأول الحسنة للمسلمين . غير أنه لم يتردد في اعادة الكنائس الى وضعها القديم ، بعد أن كان المسلمون قد حولوها الى مساجد ، غير أنه لم يمس مساجدهم التي بنوها بأنفسهم . علماً أن المصادر تشير بدورها الى أنه في بداية حكم روجر ، أرسل الأسرى المسلمين الذين وقعوا في الأسر أثناء فتح صقلية الى ايطاليا وبيعوا عبيداً هناك[2] .

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ المكتبة الصقلية ، ص ٣٦ .

(٢) عبر الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد الأفريقي المنشأ الصقلي الاقامة شكوى وواقع المسلمين في =

ومن الملاحظ أيضاً أن روجر الأول حرص على بناء القصور والمظاهر العمرانية على الطراز العربي. فهو الذي قضى ثلاثين عاماً في محاربة المسلمين لفتح صقلية، فإنه لم يتورع بعد حكمها على الاقتداء بفنون أعدائه. فقد شيّد القصور والحمامات قرب القصر الملكي في العاصمة بالرمو، وهي تعتبر من أقدام الآثار العربية الاسلامية التي ما زالت باقية في صقلية. والملاحظ أن زخارف هذه القصور والحمامات وطرازها المعماري لا يختلف كثيراً عن الطراز والبناء المعماري في الأندلس والعراق في العهد العباسي. هذا وقد اتفقت المصادر التاريخية على أن صقلية في أيام روجر الأول كانت مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الاداري والعسكري. وكان للمسلمين في عهده قضاتهم يتقاضون إليهم، وكان للقرى الاسلامية رؤساء يلقبون بالقادة، وكان يسمع من المساجد الآذان، وأطلقت حرية المسلمين في الاحتفال بأعيادهم. ومما قاله المقدسي عن احتفال المسلمين بأعيادهم في صقلية «... حُسن رمضان بمكة وليلة الختمة بالمسجد الأقصى والعيدين باصقلية...»[1].

ولما توفي روجر الأول تولى الحكم ابنه روجر الثاني الذي حكم بين (١١٠١ - ١١٥٤م) واتفق المؤرخون في أنه كان كأبيه، بل أكثر منه حرصاً في حماية ورعاية المسلمين الصقليين، فأحبه المسلمون ومدحوه في شعرهم، لدرجة أن بعضهم اعتقد خطأ أنه كان مسلماً في السر. وقد اتخذ لنفسه لقباً اسلامياً فسمى نفسه «المعتز بالله» المقتدر بقدرته على حد ما جاء في قول الادريسي[2]. وضرُب نقوداً باللغة العربية اضافة الى اللاتينية واليونانية. كما أصدر قراراته باللغات العربية واللاتينية واليونانية. وكان الولاة الأغالبة والكلبيون قد تركوا في

---

= ظل حكم النورمان بما يلي:

عشقت صقلّية يافعاً ... وكانت كبعض جنان الخلودِ
فما قُدّر الوصلُ حتى اكتهلتُ ... وصارت جهنّم ذات الوقودِ

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٨٣

(٢) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٥.

صقلية نظاما اداريا متقناً فأبقاه مثلما فعل والده. ثم قلّد العرب المناصب والوظائف الهامة والعليا وكان له جيش اسلامي رافقه في كل غزواته سواء نحو ايطاليا أو نحو طرابلس الغرب وتونس. واتخذ روجر الثاني (أورجار كما يلفظها العرب القدامى) ديواناً عربياً، وقد وقع على المعاملات الرسمية الصادرة عن هذا الديوان بعلامة عربية اسلامية مستوحاة من القرآن الكريم وهي «الحمد لله حق حمده» و«الحمد لله وشكراً لأنعمه». «ناصر النصرانية»، وسمى منتزهه الملكي الواقع قرب بلرمو باسم «المعتزية»[1].

هذا، وقد حاكى روجر الثاني ملوك العرب وقياصرة بيزنطية في أزيائهم وشاراتهم. فلبس الطراز البيزنطي والعباءة العربية الموشحة بالكتابة الكوفية وكأنه أراد بذلك اقامة التوازن حتى في التقاليد والعادات بين عناصر شعبه الاسلامي والمسيحي، على غرار ما فعل في تعيين الموظفين في ادارة دولته من المسلمين والمسيحيين على السواء[2]. أضف الى ذلك أنه رفع فوق رأسه المظلة العربية، وأقام مصنعاً للطراز والنقوش، كان ينتج مطرزات عليها النقوش العربية والتاريخ الهجري. أما المباني التي أمر ببنائها فهي أقرب الى الفن المعماري العربي الاسلامي منه الى الفن المعماري البيزنطي، ويكفي القول بأن دير القديس يوحنا، شفيع النساك (San Giovanni) في بالرمو هو أشبه بمسجد اسلامي منه بدير مسيحي. وليس السبب في ذلك مقدرة وتوفر المهندسين والبنائين المسلمين فحسب. بل لأن روجر أعجب وأحب الطراز المعماري والهندسة العربية. كما أن أسلوب الحياة في بلاطه كان أسلوباً شرقياً لا غربياً، فقد كان بلاطاً سلطانياً فيه الحريم والفتيان ويرى المستشرق (اماري) (Amari) بأن روجر الثاني (سلطان معمّد) وهو - كما قيل - سلطان عربي يحمل تاجاً كملوك الأفرنج[3].

---

(١) انظر: د. احسان عباس: العرب في صقلية، ص ١٤٥.

(٢) د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦. د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢١. د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٣) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٢. انظر أيضاً: د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٧٣ - ٧٤.

ويمكن القول بأن بلاطه كان بلاطاً متوازناً أيضاً، فقد ضمَّ التقاليد والمظاهر العربية والمشرقية اضافة إلى المؤثرات اليونانية واللاتينية. وقد حرص على الاهتمام بالآداب والعلوم والفنون العربية. وكان طبيب البلاط طبيباً عربياً، ونظراً لإعجابه بالطب العربي وأسلوب الأطباء العرب، فقد أقر الأساليب الطبية العربية السائدة في صقلية قبل عهده غير أنه أصدر عام ١١٤٠ م قانوناً يقضي باجراء امتحان للأطباء قبل اعطائهم (الاجازة) متبعاً أسلوب المسلمين وعلى غرار ما قام به من قبل وبوقت طويل الخليفة المقتدر بالله في بغداد، وكان روجر الثاني يؤمن بالتنجيم، ولذا فقد قرّب اليه بعض المنجمين المسلمين الذين كانوا في صقلية، ومن بين المنجمين المرموقين فيها محمد بن عيسى بن عبد المؤمن الذي ربط بين التنجيم والفلك والهندسة باعتباره كان أيضاً مهندساً أو عالماً هندسياً [1].

وترى المستشرقة الالمانية «زيغريد هونكه» بأن للعرب الفضل في جعل روجر الثاني أغنى ملك في أوروبة بعد أن كان أقل ملوكها، وذلك بسبب اهتماماتهم الاقتصادية والعمرانية، وبسبب نظامهم المالي الدقيق ونظامهم الاداري وقانونهم الجيد. وقد تدفقت على دولته الخيرات من شمالي أفريقيا التي ضمها الى أملاكه لفترة قصيرة، ثم ما لبث أن تركها. وقد لقب روجر بعد توسعاته باسم «ملك صقلية وايطالية وشمالي افريقيا» [2]. وقد قال الادريسي فيه: «وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعدّ، ولا تحصر بحدّ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقدح المعلى، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة، ما لم يسبقه أحد من الملوك اليه ولا تفرد به» [3].

هذا ومن مظاهر ثقته بالعلماء العرب والمسلمين وتقريبهم إليه، دعوته للعالم

---

(١) د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٦. انظر أيضاً: طبعة دوزي ودي غويه من الادريسي.

الجغرافي الأندلسي الشريف الادريسي (أبو عبد الله محمد) (٤٩٣ ـ ٥٤٨ هـ، ١١٠٠ ـ ١١٥٤ م)[1]، للمجيء الى بلاطه للاطلاع منه على جغرافية مملكته والعالم، وقد طلب منه تأليف كتاب عن جغرافية العالم. وذكر الادريسي أنه عندما خضعت البلاد الايطالية لروجر الثاني أراد أن يعرف حدودها وطرقها البرية والمائية، ومناخ كل منطقة، وواقع البحار والخلجان التي تحيط بها، ولمعرفة نباتاتها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها. وكان الادريسي قد تلقى دروسه في قرطبة وقام برحلات عديدة بين آسية والساحل الغربي لبريطانية ووصل إلى جنوبي افريقية، وقد اكتسب خبرة في الميدان الجغرافي. وبعد أن قضى الادريسي في بالرمو خمسة عشر عاما منكباً على اعداد ما طلب منه. انتهى عمله في شوال ٥٤٨ هـ ـ أوائل عام ١١٤٥ م، وقدم للملك روجر الثاني خريطة وكتاباً تفوق خريطة بطلموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة أخطائها. ووضع خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة (Olani-Sphere) طولها ثلاثة أمتار ونصف المتر وعرضها متر أو نصف المتر، ووضع عليها مختلف التفصيلات والتوضيحات لمختلف بلدان العالم. أما الكتاب الذي ألفه الادريسي فهو المعروف باسم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، أو (الكتاب الروجري) وهو يضم معلومات تفصيلية عن تلك الخريطة وعن مختلف المناطق، واهتم المستشرقون بهذا الكتاب الهام، فعملوا على نشر أجزائه وترجمتها الى لغات عدة، وترجم العالم الهولندي «دوزي» (Dozy) القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من العربية الى الفرنسية.

ويمكن القول بأن روجر الثاني بما لديه من اطلاع على ثقافة العرب، وبما يمتاز من تسامح وعدل، قد ساعد كثيراً على امتزاج الحضارتين العربية والأوروبية من خلال جزيرة صقلية، التي سهّلت انتقال الحضارة العربية والاسلامية إلى بلدان أوروبة عديدة وقد أصبحت صقلية معبراً هاماً من معابر الحضارة الاسلامية. وقد قيل عن روجر الثاني بأنه كان سلطاناً عربياً بتاج افرنجي. وإذا كان صحيحاً

(١) انظر: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٤٦.

القول بأن روجر كان طوال عهده متسامحاً مع المسلمين، فصحيح القول أيضاً بأنه غير سياسته في أواخر عهده، ففي نهاية عام ١١٥٣ م، بدأ يطبق سياسة عنصرية قائمة على التعصب والاضطهاد الديني، وانقلب رأساً على عقب، فانتهج سياسة ترمي الى تنصير المسلمين واليهود. ويبرر البعض هذا التغيير المفاجيء في سياسته الى عدة عوامل منها:

١ ـ الضغوط التي مارسها البابا عليه، كما سبق أن مارسها ضد والده، فضلاً عن تنامي التعصب الديني في صقلية.

٢ ـ أسباب نفسية وشخصية تعود إلى اضطرابه النفسي وإلى تزايد أحزانه بسبب وفاة ثلاثة من أبنائه خلال فترة تسع سنوات، مما بدّل انفتاحه وأوقعه في عزلة وتشاؤم.

٣ ـ أسباب سياسية وعسكرية، بسبب تنامي وتزايد قوة الموحدين المسلمين في شمالي أفريقية، وظهورهم كقوة اسلامية يحسب حسابها. وكان هذا العامل من أهم الأسباب التي أدت الى التخوف من مسلمي الداخل، تحسباً من أن يكونوا مستقبلاً ظهيراً ونصيراً لمسلمي الخارج. وكان ذلك مدعاة لروجر للعمل على تنصير المسلمين بعد أن رفض هذه الخطة ردحاً من الزمن.

هذا، وقد خلف روجر الثاني ابنه وليم الأول[1] (غليام) (William) (١١٥٤ ـ ١١٦٦ م) الذي اتبع سياسة والده وجده من قبل في الأخذ والاهتمام بالحضارة الإسلامية والاعتماد عليها، وفي التسامح مع المسلمين وحمايتهم وتشجيع الدراسات الاسلامية. وكان حراسه من النورمان والسودان تحت إمرة أحد القادة المسلمين. كما أن جيشه كان مكوناً من النورمان والمسلمين، وقد اعتمد على العنصرين معاً. وحمل وليم الأول لقب «الهادي بأمر الله» واقتدى بوالده عندما كان يوقع اسمه ممهوراً بعبارة «الحمد لله وشكراً لأنعمه» كما استعان وليم الأول بالعالم الجغرافي الشريف الإدريسي الذي وضع له أيضاً مصنفاً في الجغرافية على غرار ما فعل لوالده.

---

(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧٧.

ومن الأهمية بمكان القول، إن المسلمين في عهده شهدوا تسامحاً واضطهاداً في آن: فقد بدأ رجال الاقطاع يظلمون الأهالي، وحاولوا توسيع أملاكهم بانتزاع الأراضي من أيدي المسلمين، مبررين ذلك، بأنها كانت في الأصل للنصارى. كما أن طبقة البارونات النورمان بدأوا يسيئون معاملة المسلمين خلال فترة حكم وليم الأول. ومع أن المسلمين استمروا يدينون بالولاء للملك، غير أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين في المهدية، فتخوف منهم النصارى منذ عهد روجر الثاني، واستمر هذا التخوف، فبدأت عملية تجريد المسلمين من السلاح في العاصمة بالرمو. وبعد أن جردوا من أسلحتهم، أصبحوا في مركز ضعف، وهدفاً للاضطهاد والانتقام لا سيما من البارونات النورمان واللومبارديين في عام ١١٦١ م، حيث جرت مذابح بحق المسلمين في المناطق الريفية، فلجأ المسلمون إلى الجبال والغابات وإلى مدن الجنوب حيث ما تزال توجد أعداد كبيرة من المسلمين. غير أن العناصر الاسلامية في جيش وليم الأول استطاعت حماية المسلمين الهاربين، ثم تمكنت من الوقوف في وجه حركة البارونات. ولكن المسلمين استمروا يعيشون هاجس المذابح في مجتمع بدأوا يشعرون بأنه غريب عنهم.

ولما تولى وليم الثاني (١١٦٦ ـ ١١٨٩ م) ابن وليم الأول الحكم[١]، حاول التقرب من المسلمين والتشبه بخلفائهم كما أتقن اللغة العربية، وحمل لقب «المستعز بالله» وكان شعاره «الحمد لله حق حمده»[٢]. غير أنه يلاحظ بأن الالتزام بخط التسامح نحو المسلمين بدأ يتغير تباعاً في صقلية ففي عهده حدث تغيير في السياسة النورمانية الخارجية، فقد شارك وليم الثاني في الحملات الصليبية على الاسكندرية عام ٥٦٩ هـ ـ ١١٧٢ م في أوائل عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأصبح المسلمون أهل ذمة وفرضت عليهم الجزية والضرائب الاستثنائية. ويذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ ـ ١١٨٥ م، خلال حكم وليم

---

(١) انظر: د. احسان عباس، المرجع السابق، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.
(٢) د. مار تينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٣.

الثاني، بعض ما رآه من التناقض في السياسة الصقلية إزاء المسلمين، فقد تأرجحت معاملة المسلمين بين التسامح والريبة، لا سيا وأنه وجدت فئة من المسلمين تنصرت ظاهراً وبقيت على الاسلام سراً، تؤدي الصلاة الاسلامية بعيداً عن الانظار. وكانت صلاة الجمعة محظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي. ومما قاله ابن جبير في ذكره لما رآه في مدينة مسينة:

« .. معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها.. وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر من يسير من ذوي المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب.. »[1]. وعن وليم الثاني قال ابن جبير « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين، واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه، متمسك بشريعة الإسلام ـ وهو كثير الثقة بالمسلمين..، ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده »، وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكراً لأنعمه » وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن »[2].. ثم أشار ابن جبير الى المسلمين الكاتمين اسلامهم تخوفاً ومنهم فتى اسمه عبد المسيح وبعض فتيان القصر.

ويذكر ابن جبير وضع المسلمين في مدينة ثرمه (Therma) التي زارها في شهر رمضان فقال « .. وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد.. فانتهينا الى قصر سعد... وهذا القصر على ساحل البحر، مشيد البناء عتيقه، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل ـ ولا يزال بفضل الله ـ مسكناً للعبّاد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع. وفي أعلاه مسجد من أحسن

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٢٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

مساجد الدنيا بهاء... وسمعنا الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه وأكرمنا القوم الساكنون فيه، وله إمام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك»[1]

وعن وضع المسلمين في العاصمة بالرمو قال ابن جبير «.. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بآذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون فيه وقيده في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن أخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه»[2]. أما وضع المسلمين في مدينة «اطرابنش» (Trapani) فيشير ابن جبير الى أنه وصلها قبل عيد الفطر بقليل «وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة، مع قدم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم، فصلينا صلاة الغرباء... وخرج أهل البلد الى مصلاهم مع صاحب أحكامهم، وانصرفوا بالطبول والبوقات. فعجبنا من ذلك، ومن اغضاء النصارى لهم عليه.. وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها.. وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك، الى طوارىء دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم»[3] واعطى ابن جبير أمثلة على تنصير المسلمين بالقوة ومن

---

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٣، ٢٣٥.

بين هؤلاء ابن زرعة الذي حفظ الانجيل وأصبح في جملة القسيسين، وحوّل مسجده الى كنيسة. وقيل لابن جبير أن ابن زرعة لا يزال على دين الاسلام سراً. كما أعطى ابن جبير مثالاً على وضع القيود وحجز المسلمين، ومن هؤلاء قاضي وسيد (اطرابنش) أبو القاسم بن حمود (ابن الحجر)، الذي ألزمه وليم الثاني بالبقاء في داره بتهمة الاتصال ومراسلة الموحدين. وبعد أن اجتمع ابن جبير بأبي القاسم، «أظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم، ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلوب ألماً. فمن ذلك قال: كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يتخصلنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا الى الحصول في بلاد المسلمين»[1]. وأشار ابن جبير أيضاً الى عمليات التنصير والتعميد في الكنيسة لأبناء المسلمين، مما أوجد تخوفاً عند بعض المسلمين، فبدأوا يطلبون من التجار المسلمين أن يتزوجوا من بناتهم وأن يأخذوهن معهم حفاظاً على اسلامهن ودينهن.

ويلاحظ بأن المسلمين في صقلية كانوا في عهد وليم الثاني يعيشون هاجس الخوف والشكوى من التنصير والاضطهاد والضغوط. وبالفعل فبعد حوالي خمس سنوات من زيارة ابن جبير لصقلية تحققت تخوفات المسلمين، ففي عام ١١٨٩ م وقعت أعمال الشغب، وتعرض المسلمون للانتقام والتعصب من قبل النصارى في الجزيرة. ويصف المستشرق الدكتور مارتينو ماريو مورينو واقع المسلمين في صقلية ويبرره بالتالي: «كان التوازن بين اتباع الديانتين عادم القرار، رغماً من مجهودات الحكام. فما كان للمسلمين أن يرضوا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً، وأن لا يرنو الى اعادة الأمور الى نصابها، خصوصاً وأن رايات الموحدين الخافقة في سماء المغرب، كانت تنعش عزائمهم. وما كان من المستطاع للنصارى أنصاف المسلمين، لبقاء ذكر النهب والغصب الذي كانوا عانوه في الماضي، ولسنوح الفرصة لاسترجاع المغصوب عند الطرفين»[2].

هذا وقد عبر أحد الصقليين وهو «فلقندو» عن مخاوفه بعد بلوغه خبر وفاة

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٢) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٤.

وليم فقال في رسالة لصديقه « انني لأرى جموع البرابرة الغاصبين ومدننا الفسيحة وقصورها التي زهت في ظل سلام طويل تميد بالخوف، وقد جرت فيها الدماء ودنستها الشهوات، إنني لأرى بعيني بني وطني فريسة للذبح والأسر، وأرى العدوان واقعاً على العذارى والنساء. وفي مثل هذه الضائقة، أيها الصديق، ماذا ترى يفعل الصقليون؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلورية. إن بلرم لا تزال مكللة بالعز وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء، فلو أن الشعبين اتحدا في ظل ملك واحد، من أجل سلامتها، لاندفعا يصدان البرابرة بأسلحة لا تنثني. ولكن إن عاد المسلمون الى الثورة لشدة ما لحقهم من أذى، وما رهقهم من اساءة، وزاحوا يحتلون القلاع في الجبال وعلى السواحل. فليوطن المسيحيون التعساء أنفسهم على عبودية لا خلاص منها، لأنهم سيكونون فريسة لهجوم مزدوج وسيقعون بين المطرقة والسندان »[1].

أما على الصعيد الحضاري، فقد استمر النورمان في الأخذ من الحضارة العربية والإسلامية نظراً لتطورها وتقدمها، وتظهر الآثار العربية واضحة في قصر العزيزة (La Ziza) والقبة (La Cuba) في بالرمو، كما تظهر تلك المؤثرات في بناء كاتدرائية جفلوذي (Cefalu) وكنيسة القصر الملكي وأقبية كاتدرائية بلرم (بالرمو)[2]. وقصر القبة مثلاً الذي شيده وليم الثاني كأنه قصر من قصور بني حمّاد، وهو كمباني الفاطميين في المهدية، كما أن كنيسة القصر الملكي في بلرم، فيها الكثير من التشابه مع بناء المسجد الجامع في قرطبة. وهنالك آثار معمارية عربية عديدة تظهر واضحة في البناء الصقلي ومنها قصر « الفواره » (Favara) في بلرم، الذي يعود بناؤه الى أيام الكلبيين، كما أن برج بيش بالقصر الملكي في بلرم، مقتبس من قصر المنار في قلعة بني حماد. وقد وصل أثر البناء والهندسة الإسلامية الى أضرحة النورمان والغربيين، بحيث أن ضريح بوهمند في كانوسا، بتصميمه الهندسي ذي الاضلاع الأربعة وقبته، يبدو تقليداً مباشراً للأضرحة الإسلامية. وهناك العديد من الأمثلة حول المؤثرات الاسلامية في الهندسة النورمانية.

---

(١) د. احسان عباس: العرب في صقلية، ص١٥٣ - ١٥٤.
(٢) د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ١١٥.

## ٢ ـ أثر الحضارة الإسلامية في صقلية في عهد أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية

توفي وليم الثاني بدون عقب، وكان قد أوصى بالملك من بعده للأمبراطور الالماني هنري السادس (١١٩٤ ـ ١١٩٧ م) باعتباره زوجاً لابنة الملك روجر الثاني، غير أن المواطنين رفضوا هذه الوصية، ووقعت منازعات عديدة، ثم تولى الحكم لفترة معينة الأمير «تنكريد»، وفي عهده وقعت مذبحة للمسلمين في عام ١١٨٩ م، وكانوا هدفاً سريعاً للاضطهاد، نظراً لاختلاف زيهم وعاداتهم ودينهم[١]. الأمر الذي دعا المسلمين الى تحصين أنفسهم، وأعلن مائة ألف منهم الثورة في بلرم، التي استمرت الى عام ١١٩٠ م فحسب، وبعد أن وطد تنكريد حكمه، أدرك المسلمون أن وجودهم في الجزيرة أصبح أمراً صعباً، خاصة بعد محاولات ابعادهم عن مناصب الدولة، والابتعاد عن سياسة التوازن التي كانت متبعة من قبل، كما أن اللغة العربية لم تعد مستعملة كثيراً. وبالتدريج بدأ يقل عدد المسلمين في بلرم اما نتيجة للهجرة الى بلاد المسلمين، واما نتيجة للتنصير. وكانت هجرة المسلمين قد بدأت تتزايد من صقلية الى أفريقيا والأندلس والمشرق ابتداء من عام ١١٥٣ م، غير أن الدراسات التاريخية الصقلية تشير الى قيام ثورات إسلامية في الجزيرة رغم تناقص عدد المسلمين فيها.

وبين أعوام (١١٩٨ ـ ١٢٥٠ م) أصبح فريدريك الثاني (Frédéric II) ابن

---

(١) د. عزيز أحمد: المرجع السابق، ص ٨٥.

هنري السادس الالماني امبراطوراً على المانيا وعلى مملكة الصقليتين التي تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية[1]. وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورماندية الى أسرة الهوهنشتاوفن الالمانية، غير أن فريدريك الثاني كان في الرابعة من عمره، ولم يستطع أن يحكم فعلياً وباسمه الا في العام ١٢١١ م، وما أن أتى عام ١٢٢١ م حتى استطاع توطيد حكمه في أرجاء جزيرة صقلية، وأعاد النظام والأمن والهدوء اليها. غير أن المسلمين رفضوا في البدء الخضوع له، وثاروا ضده بقيادة ابن عبّاد الذي تسميه المصادر الصقلية التاريخية (Mirabetto) وكان عدد الثائرين المسلمين في عام ١٢٢١ م ما يقارب ثلاثين ألفاً[2]. وقد هاجم المسلمون مستشفى القديس يوحنا في بلرم وأسروا أسقف مدينة جرجنت، وتمركزوا في حصون بلرم ومنها: حصن «انتيله» (Entella) وحصن «جاطو» (Giato) وفي عام ١٢٢٢ م أسرَ ابن عباد وتم إعدامه، ثم ما لبث فريدريك عام ١٢٢٤ م إن جهز حملة ضد المسلمين المعتصمين في الجبال، فقضى عليهم، أما أسراهم فتم ترحيلهم وترحيل بقية مسلمي صقلية الى لوشيرة (Lucera) في مقاطعة أبوليه (Apulia). وقد ذكر ابو الفداء بأن «لوشيرة من بلاد الانبرور ولما استولى الانبرور على صقلية نقل المسلمين من صقلية وأسكنهم في لوشيرة المذكورة»[3]. ونقل فريدريك آخرين الى نصيره (Nocera) و«جيروفالكو» (Girofalco). أما القلة القليلة التي بقيت من المسلمين في صقلية، فإنها رغم قلة عددها فقد قامت بثورة بعد حوالي عشرين عاماً أي حوالي عام ١٢٤٤ م.

ويلاحظ بأن فريدريك الثاني لم يستطع التخلي عن المسلمين، فاستعان بهم

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن عهد فريدريك الثاني انظر: د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية ـ الفصل العاشر، ص ٩٤ ـ ١٠٠.
انظر أيضاً الدراسة المتخصصة: Kantorowicz, E; Fredrick The Second 1194-1250.

(٢) د. عزيز أحمد: المرجع نفسه، ص ٩٥ ـ ٩٦. د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان، المكتبة الصقلية، ص ١٤٩.

جدداً، لاسيما المسلمين الذين رحّلهم الى لوشيره، فقام بتجنيدهم في جيشه، وأوكل اليهم مهام عسكرية هامة. كما اعتمد على الصناع المسلمين المهرة في صناعة الأسلحة. وكان مسلمو «لوشيرة» يمارسون عقائدهم الدينية ويتكلمون العربية. وقد صبغوا هذه المدينة بصبغتهم العربية والإسلامية. غير أنه في أواخر القرن الثالث عشر شهدت صقلية والمدن الإيطالية مأساة إسلامية، وذلك بإرغام المسلمين وإكراههم بالقوة على الدخول في الكثلكة وترك إسلامهم. وعلى يد شارل الثاني تم تنصير المسلمين عنوة وكرهاً وانتهى بذلك تماماً الوجود الإسلامي في صقلية وإيطاليا، في حين قاوم ملوك صقلية في السابق كل الضغوط الصادرة عن الكنيسة لتنصير مسلمي لوشيرة بالإكراه[1].

ومن الناحية الحضارية، فمن الملاحظ أن فريدريك الثاني منذ صغره شغف بتعلم اللغة العربية الى جانب اليونانية واللاتينية وكان للتراث العربي والنورماني اثر بارز في تكوين شخصية فريدريك الذي أمر بترجمة المؤلفات العربية العلمية والأدبية، وأقام صلات ودية مع ملوك مصر والشام الأيوبيين. ففي عام ١٢٢٦، وصل الى بلاط فريدريك الثاني فخر الدين يوسف بن حموية، شيخ الشيوخ مبعوثاً من قبل السلطان الأيوبي الكامل للاستعانة به ضد أخيه المعظّم وضد جلال الدين الخوارزمي، على أن يسلمه مقابل الدعم العسكري بيت المقدس. وقد استنكر المسلمون على الملك الكامل تنازله عن بيت المقدس بهذه البساطة، بعد عقد معاهدة سلام بينه وبين فريدريك عام ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م[2].

وقد جرت مراسلات علمية بين فريديريك الثاني والملك الكامل، كان

---

(١) د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢) للمزيد من التفصيلات أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٣. انظر أيضاً: المقريزي السلوك، جـ ١، ص ٢٣٠ - ٢٣١، ٢٣٣. انظر أيضاً القسم الثالث: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام. وحول العلاقة بين الكامل وفريدريك الثاني. انظر أيضاً: د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. ص ٨٥ - ٩٠.

فريدريك خلالها يسأل الكامل عن بعض المسائل العلمية، فكان يحولها إلى علمائه للإجابة عليها. وبذلك قال ابن واصل: «... وسيّر الانبرطور الى الملك الكامل في اثناء ذلك مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء. فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم إمام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع»[1].

هذا وقد تبودلت الهدايا النفيسة بين الرجلين تأكيداً على تحالفهما ومصالحهما المشتركة. وبذلك يقول المقريزي: «وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة الى الملك الكامل وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر. فتلقاه الكامل بالإقامات من الاسكندرية الى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراماً زائداً، وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر. واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية الى ملك الفرنج: فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم، ما قيمته أضعاف ما سيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية، وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيزري»[2].

وكان للسفارات بين الحاكمين نتائج علمية إضافة الى النتائج السياسية، فمن المعروف أن المبعوث فخر الدين بن يوسف حموية كان عالماً، وقد استفاد فريدريك من علمه وثقافته خلال إقامته في صقلية أو خلال لقائهما ثانية في الشرق. كما قدم فخر الدين إلى فريدريك قائمة بأسماء الكتب القيّمة التي يبحث عنها. وتوطدت الصداقة بين الرجلين. ومما قاله فريدريك لفخر الدين: «لماذا تكون الحرب واستخدام القوة وسيلتي تفاهم بيني وبين السلطان؟ لماذا لا يمد الرجلان المحبان للفكر والثقافة والكارهان للعنف وإراقة الدماء يد الصداقة الخالصة لبعضهما؟

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٢.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٢٣.

أيجوز لهما ان يتوانيا والفرصة سانحة امامهما عن حقن الدماء التي طال هدرها وتوحيد الشرق والغرب وقد طال صراعهما »؟ ولهذا اقترح فخر الدين على فريدريك ان لا يرسل للسلطان مبعوثه القانوني الدي يثير غضبه بتصرفاته، إنما من الأفضل إرسال الكونت توماس الأكرى (Thomas Acerra) لا لأنه يجيد العربية بل لأنه يحسن التصرف، وتصرفه كالمسلمين تماماً. وبعد هذه السفارات المتبادلة تم اللقاء فعلاً في يافا بين فريدريك والكامل في ١٨ شباط (فبراير) ١٢٢٩ م، وقال السلطان الكامل لفريدريك: « اقسم بالله العظيم وبقلب ونية سليمة ان أنفذ كل ما اتفقنا عليه في هذه الوثيقة والا أحنث بقسمي». بينما اقسم فريدريك بقوله: « اقسم بالله العظيم بأني سأنفذ كل ما اتفقنا عليه، وأني سآكل لحم يدي اليسرى إن حنثت بهذا القسم العظيم». وقد أشار ابن واصل بأن الامبراطور فريدريك الثاني قال لرسول الكامل الأمير فخر الدين بن الشيخ: « لولا اني اخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم»[١].

وتشير المصادر التاريخية بأن هذا الاتفاق السلمي يعود عقده الى عدة عوامل منها:

١٠ ـ وجود جند من المسلمين في جيش فريدريك الثاني، ولهذا كان من الأفضل الاتفاق السلمي من أن يقاتل المسلمون بعضهم البعض.

٢ ـ شعور فريدريك الثاني بالمخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجهه في الغرب، في مقابل المخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجه الكامل في الشرق من جراء تحالف أخيه المعظّم مع السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه[٢].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٣، انظر أيضاً مع شيء من الاختلاف في النص: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٢٣٠.

(٢) حول هذا الموضوع انظر: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

٣ ـ احراج البابوية التي أصدرت الحرمان الكنسي عام ١٢٢٧ م بحق فريدريك الثاني، وذلك بتقوية فريدريك بالسيطرة على بيت المقدس.

٤ ـ إن الاتفاق السلمي بين الجانبين يسهّل لفريدريك الثاني وللشعب الصقلي امكانية الاستفادة من حضارة المسلمين وثقافتهم أكثر من ذي قبل.

ومن مظاهر التبادل الحضاري والثقافي واستفادة صقلية من الحضارة العربية والاسلامية، الكتاب العربي المعروف باسم « المسائل الصقلية » وهي المسائل التي وجهها فريدريك الى علماء المسلمين، وأجابه عليها الفيلسوف الأندلسي « ابن سبعين » بأمر الخليفة الرشيد خليفة الموحدين [1]. حتى أن فريدريك الثاني في فترة الحروب الصليبية رافق العلامة ابن الجوزي الصقلي ليواصل تدريسه في علم الجدل. كما سبق أن استفاد فريدريك من أحد مبعوثي الملك الكامل اليه، وهو الشاعر الفيلسوف صلاح الدين الاربلي. اضافة الى أن الملك الكامل أغنى حديقة الحيوان الخاصة بفريدريك بإهدائه أحد الفيلة، بينما أهدى فريدريك السلطان « الدب الأبيض الى الملك الأشرف أخي الكامل ». كما أهداه طاووساً أبيض. ولم يكتف سلطان مصر بذلك، بل ارسل إلى فريدريك منجماً اسمه « ثيودوروس » (Theodoros) يحسن اللغة العربية ليكشف له أسرار علم الكواكب العربي. وكان عند فريدريك نفسه فيلسوف يتقن العربية والاسبانية، اسمه « ميشال اسكوتوس » (Michel Scothus). وقد ترجم له عن العربية « كتاب الحيوانات » وكتباً أخرى. أما المترجمون الآخرون فقد ترجموا له من العربية إلى اللاتينية « كتاب البيطرة » وشرح ابن رشد وكتاب « الشباب والملاح » للرازي. ولقد أظهرت الوقائع مدى تأثر فريدريك بالثقافة العربية. وبذلك يقول أبو الفداء: « لقد رأيت تلك البلاد عندما سافرت الى امبراطورها كسفير للملك. والامبراطور كان أحد ملوك الفرنجة الكرماء، يهتم كثيراً بالفلسفة والمنطق والطب ويحب المسلمين لأنه

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: ابن سبعين المكي المرسي الأندلسي: كتاب المسائل العقلية. المكتبة الصقلية، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٧.

تربى في جزيرة صقلية حيث أغلبية الشعب من المسلمين». وأكد ذلك صاحب جامع التواريخ فقال: كان فريدريك «الانبرور ملكاً متميزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق والطب...»[1].

هذا، وقد استمر فريدريك في طلب المساعدات العلمية من المسلمين، ولم يتوان عن الاستمرار في الطلب من السلطان الكامل مساعدته على حل بعض المعضلات الرياضية والفلكية والفلسفية، فكان السلطان يحولها بدوره الى علماء المسلمين، وهذا ما حدث مرة عندما حول المسائل الرياضية إلى العالم الرياضي علم الدين قيصر الاسفوني الصعيدي الحنفي الملقب باسم «تعاسيف» الذي استطاع حلها، فأعادها الكامل الى فريدريك مرفقة بكتاب هدية عن علم الفلك، ولهذا ازداد فريديريك علماً بحيث أن المقريزي وصفه بأنه كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي ـ المعروف بتعاسيف ـ وغيره، فكتب جوابها...»[2].

وأضاف بأنه كان محباً للمسلمين ولسماع آذانهم، فعندما كان في بيت المقدس ينتظر سماع آذان المؤذنين، تبين له بأن قاضي نابلس منع الآذان احتراماً له، فإذا بفريدريك يبدي استياءه ويلتفت الى شمس الدين قاضي نابلس ويقول له: «أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم في الليل»[3].

ولما تولى الحكم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد عرش مصر سار على سياسة الود والصداقة التي انتهجها والده نحو فريدريك الثاني، فاستمرت العلاقات

---

(١) حسين اليافعي: جامع التواريخ. المكتبة الصقلية، ص ٥١١.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٣٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٥. المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.

الحسنة بينهما، وتبادلا السفارات والعلوم والهدايا. ومن بين تلك السفارات سفارة الملك الصالح الى فريدريك برئاسة الشيخ سراج الدين الأرموي قاضي قونية الذي أقام فترة في صقلية ألف خلالها كتاباً في المنطق قدمه لفريدريك. وبلغت الصداقة بين الملكين حداً دعت فريدريك الى إرسال مبعوث خاص في زي تاجر الى الملك الصالح لابلاغه بحملة لويس التاسع (ريد فرانس) على مصر. وهذا المبعوث هو سرنرد مهمندار (أمين سر ديوان رسائل الامبراطور) الذي قال: «كان ذهابي الى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا ممالأة الامبراطور للمسلمين عليهم»[1].

وتشير بعض المصادر الى أن فريدريك تزوج في المرة الأولى من أميرة اسبانية من أرغون، التي صحبت معها وصيفاتها من سيدات المجتمع الاسباني، وبواسطتهن تدفق سيل من التأثيرات العربية الاسبانية على صقلية التي كانت هي ذاتها مركزاً للحضارة العربية والاسلامية. ويذكر أيضاً بأن فريدريك تدرب مع أولاده على نظم الشعر الغنائي المتأثر بالشعر العربي، وأن كل ما أنتجوه هو اللبنة الأولى التي أنبتت فيما بعد الأدب الايطالي الكلاسيكي، وفي ذلك قال الشاعر الايطالي «بترارك» (Petrarque) (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) «في زمن قصير شاع ذلك النوع من الشعر، الذي ولد بصقلية، في كل ايطاليا وتعداها».

وقال «دانتي» (Danté) (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) الشاعر الايطالي صاحب «الكوميديا الالهية» (La Divine Comedia): «... لذلك يسمى كل ما نظمه أجدادنا من أشعار بلغة البلاد بالشعر الصقلي». وفي هذا الصدد لا بد من القول من أن بترارك ودانتي تأثرا بالأشعار والآداب العربية، فمن المعروف أن دانتي اهتم كثيراً بالشعر العربي والتصوف والفلسفة الأندلسية وبفلسفة ابن رشد. وبينما نجد في أشعار بترارك تأثيرات عربية غير مباشرة نجد أثر أبي العلاء وابن عربي واضحاً وضوحاً تاماً في أشعار دانتي.

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٧.

**وفي عهد فريدريك الثاني استمرت المؤثرات الهندسية العربية واضحة في البناء الصقلي، فقد بنى قصوره وقلاعه وأعاد ترميم ما تهدم على النمط العربي. وتبين بأن قلاع باري (Bari) وتراني (Trani) وبرانديزي (Brandisi) تتشابه مع قلاع اسبانيا والشرق العربي، وظهر الأثر العربي المعماري أيضاً في نوع الأقبية والأعمدة وخامات البناء والنقوش التي وجدت في أبنية صقلية، وظهرت أسماء العمال والفنيين والتعابير العربية منقوشة على تلك الأبنية.**

من جهة أخرى فإن فريدريك الثاني استفاد كثيراً من الأنظمة الادارية الاسلامية، فاقتبس قواعد الحكم والادارة والأنظمة المالية والضرائبية العربية، مما خفف كثيرا من اعباء وضع مملكته المالي والاداري. وقد فرض الضرائب وضريبة الرأس على اليهود والمسلمين التي يقابلها في الشرع الإسلامي الزكاة على المسلمين، والجزية على غير المسلمين. والواقع فإن صقلية ليست وحدها التي تأثرت بالأنظمة المالية الاسلامية، إنما انتقلت هذه المؤثرات بواسطة النورمان الى مختلف المناطق الأوروبية. وكان بعض المسلمين قد تولوا مناصب ادارية هامة في صقلية، وكانوا بمثابة خبراء في الإدارة الصقلية ومن هؤلاء «ريتشارد العربي» (Ruchard of Arabia) الذي كان مسؤولاً عن جميع أموال الضرائب، وعن وجوه توزيعها على الموظفين ومرافق الدولة. وكان ابن عبد الرحمن رئيساً لمالية صقلية كلها، ثم أصبح مبعوثا للملك الى الأندلس ومراكش وتونس. وكان يملك الصلاحيات للتوقيع على المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية باللغة العربية أيضاً. ذلك لأن اللغة العربية كانت الى جانب اليونانية واللاتينية لغة رسمية في صقلية، وبواسطتها تدون سجلات الدولة ومختلف دواوين الادارة. وكان العالم العربي تيودور الانطاكي (مسيحي من انطاكية) أحد المقربين من فريدريك الثاني، وكانت تتم بينهما المناقشات والمداولات العلمية، وقد ترجم تيودور لفريدريك عدداً من الكتب العلمية، فأصبح موضع ثقته، لذا أصبح سفيراً له الى بعض المناطق العربية. وكان من بين المقربين الى فريدريك الثاني البربري «المورو» (Il Moro) الذي عرف باسم يوحنا موروس (Johannes Morus) وكان حارساً خاصاً

بفريدريك، ثم أصبح مستشاراً للبلاط، وأصبح زمن حكم الملك كونراد حاكماً لمدينة لوشيرة.

هذا ولما استرد المسلمون بيت المقدس عام ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤م، رفض فريدريك الثاني تحريض بطريرك انطاكية للقيام بحملة صليبية لاسترداده. واتهم وقتذاك بأنه يقرب اليه المسلمين أكثر من المسيحيين. وكان فريدريك يردد دائماً « أن صديقي السلطان المسلم أثمن لديّ من أي شخص آخر ما عدا ولدي الملك كونراد » ومن ألقابه التي اعتز بها دائماً « فريدريك هو هنشتاوفن صديق الملك المسلم ». وقيل إنه في آخر حياته كان كلما وقع في ضيق يتنهد قائلاً: « آه، لو كان صديقي الكامل على قيد الحياة ». ولما توفي فريدريك الثاني عام ١٢٥٠م، كفّن بأثواب عربية، ودفن في مسجد بلرمو الذي كان قد حول إلى كاتدرائية.

ولما تولى الحكم في صقلية « منفرد » (Manfred) الابن غير الشرعي لفريدريك الثاني وآخر ملوك أسرة هوهنتشاوفن، استمر في سياسة والده، وجرت اتصالات بينه وبين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) وتبادلا السفارات العلمية والسياسية[1]. وقد أوفد بيبرس اليه المؤرخ الحموي ابن واصل (المتوفى ٦٩٧ هـ - ١٢٩٧م) صاحب كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » الذي وصف بعثته الى منفرد في كتابه، والتي قام بها في شهر رمضان سنة ٦٥٩ هـ، فأشار إلى اجتماعه بالملك، وبالمسلمين المقيمين في مدينة لوجارة (لوشيرة) وإقامتهم للصلاة، والمعاملة الحسنة التي يلقونها من الملك. كما أشار الى تقرب الملك من المسلمين واشتغالهم معه ومما قاله واصفاً ما رآه: « فأقمت عنده [ أي عند منفرد ] مكرماً بمدينة من مدائن أنبوليه في البر الطويل، المتصل ببر أندلس. واجتمعت به مراراً ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم الصقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب أوقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية، تقام فيها الجمعة، ويعلن

---

(١) د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ٩٩.

بشعار الاسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الانبرطور. وكان منفريد قد شرع في بناء دار علم بها، لبشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين. ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة...»[1]. وأكد ابن واصل مجدداً بأن منفرد على علاقة متوترة وسيئة مع البابا، وأن البابا أصدر قرار الحرمان بحقه «لميله الى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم». وكان قراراً مماثلاً قد صدر في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧م - ٦٢٤هـ بحق والده[2].

هذا وقد عرف عن «منفرد» بأنه كان شاعراً وراعياً لمنشدي «التروبادور» (Troubadours) المتأثرين بالتراث الغنائي والموسيقي العربي، كما أعطي لقب «ملك العرب وسلطان لوشيرة». وقد ذكر بأن فريدريك الثاني وورثته الذين تولوا الحكم من بعده كانوا كلهم «ممقوتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية، لميلهم الى المسلمين»[3].

ولا بد في هذا المجال من أن نشير بشيء من الايجاز الى المؤثرات اللغوية العربية في اللغة اللاتينية واليونانية التي انتشرت في صقلية وانتقلت منها الى مختلف مناطق أوروبة، وهي على سبيل المثال لا الحصر :

| | |
|---|---|
| الفندق | Fondaco |
| ديوان | Douane (Dohana) |
| دفتر | Defetari |
| رحبه | Rahba |
| حجّام | Cangemi |
| كابل (سلك) | Kabel |

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٨.

(٢) انظر : Kantorowicz; Fredrick the Second, p.111.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٢٤٨.

| | |
|---|---|
| Scheek | صك |
| Tariffa | تعرفة |
| Magazin | مخزن |
| Calsium | الملح القلوي ( بوتاس ) |
| Feluke | فلوكه ( قارب ) |
| Gittare | قيثارة |
| Rakete | راحة اليد ( مضرب الكرة ) |
| Bazzariotu | بازار |
| Sucre, Zuker | سكر |
| Carara | حرارة |
| Tarsia | ترصيع |
| Buscemi | قلعة أبو شامة |
| Misilmeri | منزل الأمير |
| Amiratus | أمير ( أميراتوس ) |
| Amiragghiu, Admiral | أمير البحر ( اميرال ) |
| Almanach | التقويم والمناخ |
| Almuquantarat | المقنطرات |
| Alcool, Al Khohol | الكحول |
| Apricot, Aprikose | البرقوق ( المشمش ) |
| Askari | عسكري |
| Darsenal | دار صناعة حربية |
| Azur | لازورد ( أزرق سماوي ) |
| Cafe, Caffee | قهوة |
| Cid | السيد |
| Mesquino | مسكين |
| Mohair | قماش المخيّر ( من الماعز ) |

| | |
|---|---|
| **Tasse** | طاسة |
| **Artichoke, Carcioffa** | أرضي شوكي (خرشوف) |
| **Gasena** | خزانة |
| **Cassara** | خسارة |
| **Alcamo** | علقمة |
| **Marsala** | مرسى علي |
| **Trabia** | تربيع |
| **Favara** | فوارة |
| **Zecca** | السكة |
| **Rotola** | الرطل |
| **Cantaro** | القنطار |
| **Azzalora** | الزعرورة |
| **Marascia** | المرشة |
| **Zabbara** | الصبارة |
| **Mazzara** | المعصرة |
| **Cassaro** | القصر |
| **Marzameni** | مرسى الحمام |
| **Pasteque, Pastecca** | البطيخ |
| **Naranzu** | النارنج |
| **Noria** | الناعورة |
| **Gebbia** | الجابية |
| **Galiggi** | الخليج |
| **La Cuba** | القبة |
| **La Ziza** | العزيزة |
| **AlMotacen** | المحتسب |

وهكذا يلاحظ من خلال هذه الدراسة بأن صقلية كانت معبراً من معابر الحضارة العربية والإسلامية، فقد استفادت صقلية من هذه الحضارة، وأفادت سواها من بلدان أوروبا. وبالرغم من أن العلاقات الاسلامية ـ المسيحية في صقلية شهدت التوتر والتقاتل غير أن الثابت ايضاً بأن هذه الجزيرة شهدت علاقات حضارية على غاية من الأهمية. هذا وقد نظم ابن حمديس شعراً في صقلية[1] معبراً عن اشتياقه لها فقال:

ذكـرت صقليـــة والهوى يهيـج للنفس تـذكـارهـــا
فإن كنت أخرجت من جنـة فإني احدّث أخبارها

---

(١) انظر: المكتبة الصقلية، ص ١٤١.

## ٣ ـ بالرمو: من مراكز الحضارة الإسلامية في صقلية

بالرمو أو بلرم عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها زمن حكم المسلمين والنورمان والجرمان، وكان المسلمون يعرفونها باسم المدينة والنصارى يسمونها بالرمو، وقد زارها ووصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن حوقل البغدادي (المتوفي عام ٣٨٠ هـ) والمقدسي (زارها بعد ابن حوقل بثلاث سنوات) والشريف الادريسي (المتوفى حوالي عام ٥٤٨ هـ) وابن جبير (المتوفى عام ٦١٤ هـ) وقد وصفها ابن حوقل التي زارها عام ٩٧٣ م، بقوله [1]: « .. المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع، يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الأكبر، وكان بيعة للروم قبيل فتحها... وببلرم طائفة من القصابين والجزارين والاساكفة وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم... وأشهر أبوابها باب البحر... وباب أبو الحسين.. وباب شنتغاث.. وباب روطه.. باب الرياض.. وباب ابن قرهب.. وباب الأبناء.. وباب الأودان.. وباب الحديد.. والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان، وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم.. »، ويلاحظ بأن ابن حوقل يتهجم كثيراً على أهل صقلية وفي مواقع عديدة منها مثلاً قوله: « .. والطارىء عليهم عظيم شديد، لا يألفون ولا يؤلفون آخذين لذلك عن حاضرتهم لأنهم أيضاً في بغض التجار والغرباء.. لأنها جزيرة لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١١٣ ـ ١١٤.

منازلهم..»[1]. كما أن القزويني انتقد مسلمي بلرمو لكثرة المساجد وقربها من بعضها البعض ومما قاله: «... فسألت عن ذلك فقالوا القوم لانتفاخ أدمغتهم لا يرضى أحدهم أن يصلي في مسجد غيره، ويكون له مسجد لا يصلي فيه غيره»[2].

ومما قاله المقدسي في وصف بلرمو «بلرم هي قصبة اصقلية على البحر في الجزيرة أوسع من الفسطاط إلا أنها متفرقة. بناؤهم حجر وجيل وهي صحراء وبيضاء يحدق بها الفوارات والجنازير، ويسقيها نهر يقال له وادي عباس والأرحية وسطها. كثيرة الفواكه والخيرات والأعناب. الماء يضرب الحائط، ولها مدينة داخلة، بها الجامع والأسواق في الربض، ومدينة أخرى خارجة مسورة تسمى الخالعة بأربعة أبواب... وبها أيضاً جامع ولها أسواق... وصقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجلّ ولا أعمر، ولا أكثر مدناً منها...»[3].

وجاء في وصف الباكوي لبلرمو من أنها «مدينة بجزيرة صقلية في بحر المغرب بها هيكل عظيم، ويقال أن سقرط فيها في شيء من الخشب معلق، والنصارى يعظمون قبره. فيها من المساجد أكثر منها في جميع البلاد»[4]. أما الادريسي فقد امتدح بلرمو ومما قاله فيها «مدينة بلرم وهي المدينة السنية العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا».. وأشار إلى أنها تشتمل على كثير من القصور والمنازل الشامخة «وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار... وبها الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم وأعيد في

---

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٢٤. للمزيد من التفصيلات عن وصف ابن حوقل لأحوال الاندلس، انظر: المصدر نفسه، ص١١٣ - ١٢٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٣١ - ٢٣٣، أنظر أيضاً ص ٢٢١ - ٢٢٢، انظر أيضاً: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٥٥ - ٥٧.

(٤) عبد الرشيد بن صالح بن نوري الباكوي: تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار. انظر: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٦٠ من المقدمة.

هذه المدة على حالته في سالف الزمان... » [١].

وإذا كان ابن حوقل قاسياً في أهل بلرم وصقلية كلها، غير أن الادريسي كان أكثر انصافاً فوصف بلرم وصفاً جيداً بقوله: ان صقلية هي لؤلؤة هذا القرن في الغنى والجمال، وأول بلاد العالم في خصوبة أرضها وكثافة سكانها وقدم حضارتها. يأتي اليها المسافرون والتجار من كل الأنحاء وكلهم مقدر لصقلية مكانتها، الجميع يثنون على جمالها، ويتحدثون عن مزاياها وبضائعها التي تأتيها من أرقى البلاد، وبلرم مركز الملك منذ القدم، تقع على الساحل المكتنف بالشمس محاطة بالجبال مزينة بالمباني الفخمة لدرجة أن الناس تأتي اليها لترى فن البناء فيها وتحفها الفنية، ولتشاهد قصورها المتوجة بالأبراج ومبانيها ومساجدها وحماماتها وحوانيت تجارها، ولا يستطيع المرء أن يتصور مدى جمال جامعها، بالإضافة الى التحف والزينات والنادر من التماثيل والرسوم والزخارف الذهبية والملونة. وبلرم غنية بفواكهها ولا يستطيع الانسان أن يتصور فخامة مبانيها، إن هذه المدينة تخلب لب زائرها. ومما قاله فيها أيضاً « إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن. وقديماً دخلها المتجولون من سائر الأقطار... وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها... فملوكها أعظم الملوك قدراً وأكبرهم خطراً وأرفعهم همة وأشمخهم رتبة... » [٢].

أما ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ ـ ١١٨٥ م، فقد وصف العاصمة بالرمو (أشرنا سابقاً الى بعض ما قاله عنها) ومما قاله: « .. هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يافع أخضر، عتيقة أنيقة.. فسيحة السكك والشوارع.. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون

---

(١) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المكتبة الصقلية، ص ٣٨.

(٢) الادريسي: المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٦ وما يليها من صفحات.

الصلاة بآذان مسموع.. ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران: كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي.. وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات متنقبات.. لبسن ثياب الحرير المذهب.. حاملات جميع زينة نساء المسلمين..»[1].

ومما يلاحظ أن ما من مؤرخ أو رحالة وصف صقلية إلا وأشار الى وجود البراكين. اضف الى ذلك إلى أن ابن فضل الله الدمشقي وصف بلرمو أيضاً ومما قاله: «مدينة بلرم وهي على ساحل البحر بالجانب الغربي، والجبال محدقة بها، وعليها أسوار منيعة بأبراج مشيدة، وبدنات مكينة، وهي على قسمين قصور وربض، وبها الديار والحمامات والفنادق والأسواق الممتدة والمساجد الباقية من زمن ملك الاسلام لها. وبها دار الصناعة لإنشاء السفن وبساتين محدقة ومياه جارية وأرحا دايرة»[2].

ويلاحظ أن بالرمو كانت حاضرة صقلية من النواحي السياسية والادارية والثقافية والعمرانية. وقد أقيم فيها في القرن الثالث عشر الميلادي مدرسة خاصة للترجمة من العربية الى اللاتينية واليونانية على غرار ما كان معمولاً به في مدرسة طليطلة (Toledo) في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد أقيمت العلاقات الثقافية بين مدرسة بالرمو ومدرسة طليطلة، ومن العلماء الذين ترددوا على مدرسة بالرمو من مدرسة طليطلة العالم الاسكوتلندي ميخائيل سكوت (Scott) الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد[3]. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر ترجم القرآن الكريم الى اللاتينية. كما ترجمت حادثة الاسراء والمعراج وانتشرت في

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) ابن فضل الله الكاتب الدمشقي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المكتبة الصقلية، ص ١٥٩. ومن يود الاطلاع على تفصيلات واستزادة حول صقلية وبلرمو وبقية المدن والتاريخ الصقلي، يمكن العودة إلى ميشيل اماري: المكتبة العربية الصقلية، حيث تضم أكثر من سبعمائة صفحة متخصصة كلها عن تاريخ صقلية عبر العصور.

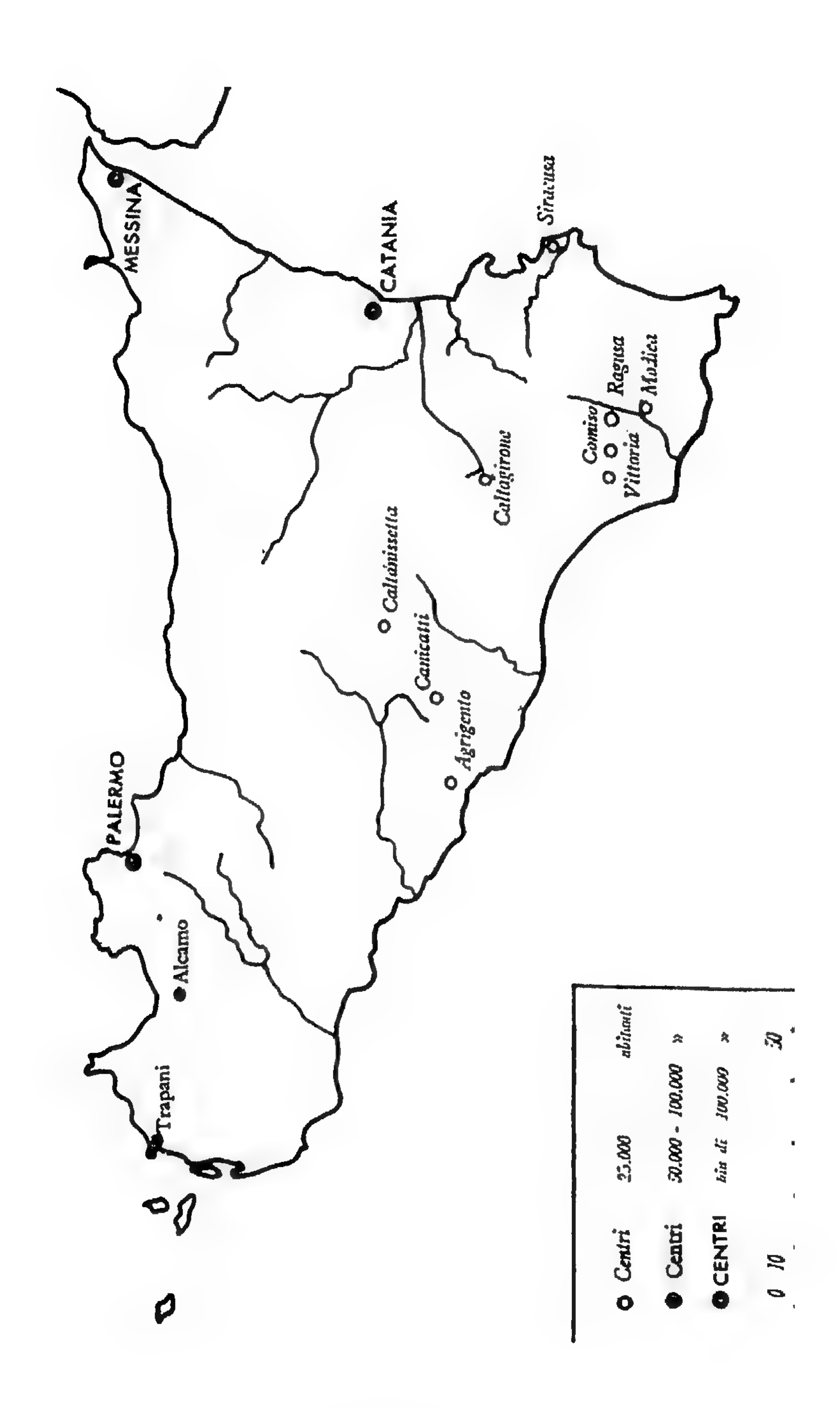
(٣) ميخائيل سكوت (Scott) هو نفسه ميشال اسكوتوس (Michel Scothus) مترجم فريدريك.

اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وقد استفاد منها الشاعر الايطالي « دانتي » في ملحمته « الكوميديا الالهية » بواسطة أستاذه برونيتولا تيني (Prunetto Latini) الذي كان يزور دائماً مدرستي بالرمو وطليطلة في عهد الفونسو الحكيم في القرن الثالث عشر. كما اتجهت مدرسة بالرمو الى ترجمة المؤلفات العلمية منها كتب ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) وأبي بكر الرازي (المتوفى ٩٣٢ م) في الطب. وكان من أعلام المترجين فيها أوجينوس البالرمي (Eugenius) وليوناردو بيزانو (Pisano). ولعل من مظاهر النهضة العلمية في صقلية عامة وبالرمو خاصة، تلك الآلاف من المخطوطات العربية القديمة التي لا تزال محفوظة إلى الآن في مكتبة الفاتيكان في روما [1].

والحقيقة فإن بالرمو لا تزال الى الآن تتميز بالروح العربية والاسلامية في كثير من مظاهرها العمرانية والاجتماعية والثقافية. وهناك حرص من الصقليين على احياء العلاقات الثقافية بينهم وبين البلدان العربية، فمنذ عام ١٩٥٩ افتتح في جامعة بالرمو قسماً خاصاً لتعليم اللغة العربية وآدابها، مع الحرص على احياء التراث الصقلي العربي، من خلال الدراسات التاريخية والمؤلفات والأبحاث المتنوعة.

---

(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨١ ـ ٨٢.


MESSINA
CATANIA
Siracusa
Ragusa
Modica
Comiso
Vittoria
Caltagirone
Caltanissetta
Canicatti
Agrigento
PALERMO
Alcamo
Trapani
Centri 25.000 abitanti
Centri 50.000 - 100.000 »
CENTRI più di 100.000 »
0 10 30

خريطة صقلية




خريطة صقلية وجنوب ايطالياً

# الفصل التاسع

# أثر الحضارة الإسلامية على الصليبيين في بلاد الشام

## مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها

تعتبر بلاد الشام من أهم المناطق الاستراتيجية منذ فجر التاريخ، ومنذ قيام الحضارات القديمة، وقد حاولت الامبراطوريات القديمة السيطرة عليها تبعاً لأهميتها على مختلف الأصعدة، وكان الرأي متفقاً على أن من يحتل بلاد الشام باستطاعته احتلال مصر وأفريقيا ومناطق عديدة في المنطقة. واستمر هذا الواقع وتنازع القوى الخارجية على هذه البلاد، الى قيام الدولة الاسلامية العربية التي استطاعت القضاء على الدولتين الفارسية والرومية. غير أن القضاء على الدولتين لم يكن يعني انتهاء الاطماع ببلاد الشام، بل استمر العالم الغربي يتطلع اليها محاولاً بين الفترة والفترة السيطرة عليها، إلى أن جاءت فترة الحروب الصليبية في العصور الوسطى وتحديداً منذ ما قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام عام ١٠٩٨. ولعل البواعث التي أدت الى قيام الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة يمكن تلخيصها بما يلي[١]:

١ ـ **الباعث الديني**، ادّعت القوى السياسية في أوروبا بسوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين، وكان ملوك أوروبا

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٧ ـ ٣٣. أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤ ـ ٢٤. د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٧ ـ ٣٢.
Runciman, S; A History of the Crusades, vol.I, pp.104-113, 198-200.
وصفحات متفرقة...

وامراؤها قد أثاروا هذه الأمور ، غير أن البابا أوربان الثاني كان له الأثر الأكبر في اثارة روح التعصب ضد المسلمين ، والادعاء بضرورة انقاذ المسيحية من الاسلام في بلاد الشرق.

٢ ـ **الباعث الاقتصادي**، كانت أوروبا تعاني من سوء الأوضاع الاقتصادية ، كما تعاني من المجاعات لا سيما في فرنسا ، وكثرة الحروب بين الاقطاعيين ، مما أفرز الكثير من المعدمين والفقراء. أضف الى ذلك أن جمهرة من التجار الايطاليين لا سيما تجار البندقية وجنوى وبيزا ، كانوا يشجعون على قيام الحروب في الشرق لأهداف تتعلق بمصالحهم الاقتصادية والتجارية. وقد أكد هؤلاء التجار أن تشجيعهم لقيام الحروب لم يكن خدمة للصليب أو حرباً ضد المسلمين وانما لتحقيق مصالحهم الاقتصادية بوسائل عسكرية.

٣ ـ **الباعث الاجتماعي**، كانت طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء ، والفرسان والمحاربين من الطبقات الأساسية والحاكمة في المجتمعات الأوروبية ، والتي كانت تستغل الطبقات الدنيا ومنها طبقة الفلاحين الذين كانوا يعيشون حياة ملؤها الشقاء والتعاسة في ظل الاستغلال الاقطاعي وفي مقابل التزامات الفلاحين الالزامية لرجال الاقطاع. وقد كان الفلاح مع الاقنان والعبيد (رقيق الأرض) يفضلون الحياة والاقامة في أية منطقة في العالم ، على الاقامة في ظل الشقاء والعبودية ، وقد رأت هذه الطبقات الدنيا في الدعوة للحملات الصليبية متنفساً لها للخلاص مما تحيا فيه من ذل وعبودية. كما تمّ تشجيع شذاذ الآفاق وقطاع الطرق على المشاركة في هذه الحروب لتتخلص أوروبا منهم ، في وقت طمعوا هم بالأرتزاق والغنى في الشرق الثري الساحر.

٤ ـ **الباعث السياسي**، كانت الأوضاع السياسية التي يعيشها ملوك وأباطرة أوروبا تحتم عليهم الخضوع للفكر الديني المسيحي ومن الثابت أن فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب اغسطس وفريدريك الثاني لم يشتركوا في الحروب الصليبية إلا بضغط من البابوية باستثناء لويس التاسع ملك فرنسا المشهور بتعصبه

وتدينه وقناعته بمحاربة المسلمين. ثم أن بقية الأمراء كانت لهم أهدافاً سياسية من وراء اشتراكهم في هذه الحملات، تتلخص في سيطرتهم على الأراضي والاقطاعات التي حرم بعضهم من امتلاكها في الغرب. ومما يدل على ذلك الصراعات التي وقعت بين الأمراء أنفسهم بسبب الاقطاعات وامتلاكها في الشرق، كما دبّت الخلافات حول حكم الامارات والمدن.

وفي المقابل فإن بلاد الشام وأوضاع العالم الاسلامي، لم تكن قبيل هذه الفترة أوضاعاً طبيعية أو قوية، بل كانت الجبهات الاسلامية متناحرة ومفككة، فالدولة العباسية شهدت صراعات فارسية - تركية - عربية وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأتراك مما أدى الى اضطراب الأوضاع السياسية واشاعة الفتن وطمع العدو في البلاد. ومن ثم نشوء دويلات مستقلة في مراكش منذ ٧٨٨ - ٩٧٤ م، ودولة الأغالبة في تونس ٨٠٠ - ٩٠٩ م، ومن ثم الدولة الفاطمية ٩٠٩ - ٩٦٩ م. أما في مصر فقد قامت الدولة الطولونية ٨٦٨ - ٩٠٥ م، ثم قامت على انقاضها الدولة الأخشيدية ٩٣٥ - ٩٦٩ م. وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ظهرت قوة السلاجقة الذين وضعوا أيديهم منذ عام ١٠٣٧ م على بعض ممتلكات الدولة الغزنوية ثم أصبحوا أكبر قوة في الشرق الاسلامي لا سيما في الفترة الممتدة بين ١٠٥٥ - ١٠٩٢ م، حيث قاموا بتوحيد العالم الاسلامي تحت رايتهم، واستطاعوا انزال الهزائم بالدولة البيزنطية في أكثر من موقع وفي أكثر من منطقة حتى في داخل أراضي البيزنطيين مثل قبادوقيا وملطية وسيواس. غير أن عودة التفكك الى الدولة السلجوقية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر، ومن ثم الصراع بين الدولتين السلجوقية والفاطمية من جهة والصراع بين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى كل ذلك أدى الى تحضير الأجواء المناسبة للقوى الصليبية للزحف نحو الشرق الاسلامي للسيطرة عليه.

ويصف المقدسي الشام بقوله: «اقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى، وموضع الحشر

والمسرى والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة...»[1].

كما يصف لنا ابن حوقل بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية بمناطقها ومدنها وأوضاعها فيقول: «وأما الشام فإن غربيّها بحر الروم، وشرقيّها البادية من ايلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر ورفح ومما يلي الروم الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة وهي: ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذانة وطرسوس.. وكور الشأم فهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنّسرين والعواصم والثغور... وفلسطين أزكى بلدان الشام ربوعاً ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبر... وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه.. وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أجلّ الثغور وأشهرها وأكثرها سلاحاً.. وهي من أقوى بلد للروم في هذا الوقت، يسكنها الأرمن وفتحت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة [ ٩٣١ م ]، فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور.. وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين افتتحها الروم قبل هذا الحين وأعادهما سيف الدولة علي بن عبد الله، وعاد الروم فانتزعوهما ثانياً من المسلمين، وعاد المسلمون ففتحوهما وكان فتحها مسعود ابن قلج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم سنة خمس وأربعين وخمسماية وهي بيد المسلمين الآن...»[2] وبعد أن عدّد ابن حوقل مناطق شامية عديدة قال:

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥١. ومما يلاحظ ما أورده المقدسي بأن بيروت وبعض المدن الداخلة اليوم في نطاق لبنان وإنما كانت تابعة تحديداً لعقبة دمشق. وقد ذكر ذلك في أكثر من موقع. ومنها قوله في ص ١٥٤: «... وأما دمشق فاسم العقبة أيضاً ومدنها بانياس. صيدا، بيروت. أطرابلس، عرقة، وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجموش، الزبداني...».

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض. ص ١٥٣ ـ ١٧٣. انظر أيضاً المقدسي، المصدر السابق، ص ١٥٣ ـ ١٧٩.

« .. والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس وأنفه الى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما نزل عنها وحاذاها تحت جزيتهم ومقاطعتهم. وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم أسيافهم والحكم فيه اليهم. وقد أقام كثير من أهلها فيما رضوا منهم فيه بالجزية، وأظنهم بآخرة صائرين إلى النصرانية آنفة من ذلة الجزية ورغبة مع حذق المؤونة في العز والراحة. فأما تقدير ما بقي منها لم أذكره، فمذ سنون كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وصحته، وذلك أنها مذ سنة أربعين بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته لا يرغب في عمارة ولا يلتفت اليها برؤية ولا اشارة... »[1].

وبشيء من المقارنة الموجزة يمكن التعرف الى الأوضاع التي كانت سائدة في الغرب والشرق قبيل الحروب الصليبية. وهكذا بدأت الحملات الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الأولى التي وصلت الى بلاد الشام عام ١٠٩٨ م، وكان عددها الاجمالي ثماني حملات أساسية بالإضافة إلى حملات فرعية حملت مجموعات من الغربيين الى الشرق. فالحملات الأولى والثانية والثالثة والسادسة اتجهت الى بلاد الشام، بينما اتجهت اثنتان الى مصر وهما الخامسة والسابعة، في حين اتجهت الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، بينما اتجهت الثامنة إلى أفريقيا، وقد استمرت هذه الحملات من الناحية العسكرية الى حين سقوط مدينة عكا في فلسطين عام ١٢٩١ م، بالرغم من أن هذا التاريخ لا يعني انتهاء حاسماً للحركة الصليبية.

ولقد بدأت الحروب الصليبية - او بالأحرى تجددت - عندما دعا البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ في مجمع كليرمونت للقيام بحملة على الشرق الاسلامي، وقد عرفت هذه الحملة في التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى. وقد نشط البابا مع ملوك أوروبا لتنفيذ هذه الحملة بدعوى تخليص المسيحيين والحجاج من اضطهاد

---

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٧٢.

الأتراك السلاجقة، والعمل على طرد المسلمين من آسيا بالجهد والعزيمة نفسها التي يجري بها طردهم من اسبانيا، لا سيا بعد اتفاق البابا مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومينوس، وبعد موافقة ادهمار ـ أسقف بوي Puy ـ الذي أصبح المندوب البابوي في الحملة الأولى. كما وافق على مشروع الحملة الصليبية ريموند الرابع أمير تولوز وبروڤانس (١٠٨٨ ـ ١١٠٥). وكرّس بطرس الناسك نفسه للدعوة لهذه الحملة بين الطبقة العامة، وكان أحد أوائل متقدمي الحملة باتجاه الشرق بعد أن استطاع تجميع الكثير من المسيحيين واقناعهم بضرورة المشاركة بالحرب ضد المسلمين.

في عام ١٠٩٦، وبعد وصول طلائع الحملة الى البوسفور، قرّر قادتها الزحف على نيقية قاعدة السلطان قلج ارسلان. وكان عدد أفراد الحملة ما يقارب خمسة وعشرين ألفاً، ولكن استطاع السلاجقة مباغتتهم والقضاء عليهم، ومن بقي منهم على قيد الحياة عادوا الى القسطنطينية وظلوا تحت رعاية الامبراطور الكسيوس حتى وصول حملة الأمراء.

وفي نيسان (ابريل) ١٠٩٦ تجمع في حوض الراين جمع كبير من الصليبيين الألمان قدر عددهم بأكثر من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة فولكمار (Volkmar). وفي الوقت نفسه تجمعت قوى أخرى في حوض الراين بزعامة الأمير إميخ (Emich). وكانت المجموعة الأولى من حملة الأمراء برئاسة «جودفري اف بوايون» (Godfrey of Bouillon) أمير لوثرنجيا وبرفقته شقيقه بلدوين البولوني. وفي الوقت نفسه اتجه الى الشرق «بوهيموند النورماني» (Bohemond) على رأس حملة نورمانية كبرى وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية. كما وفدت مجموعة بروفانسية بقيادة ريموند الرابع، ومجموعة صليبية أخرى تألفت من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أميرنورمنديا. ابن وليم الفاتح [1].

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور =

تجمعت قوات الحملة الصليبية كلها على الشاطىء الآسيوي قرب أزمير، وتم لاتفاق على بدء الهجوم على مدينة نيقية القاعدة الأساسية لقلج ارسلان ومقر حكمه في أواخر نيسان (ابريل) سنة ١٠٩٧. وبالفعل ففي ٦ أيار (مايو) ١٠٩٧ أدرك الصليبيون نيقية، وبدأوا بمحاصرتها ومهاجمتها ومن ثم انتصروا على قلج ارسلان وحاميته. وكان سقوط نيقية مشجعاً للصليبيين للتقدم نحو ضورليوم حيث جرت فيها معركة في أول تموز (يوليو) ١٠٩٧ كانت نتيجتها أيضاً لمصلحة الصليبيين ضد الأتراك (السلاجقة وبنو دانشمند).

بدأ الصليبيون زحفهم تباعاً، بالاستلاء على المناطق التي كانوا يمرون فيها مثل هرقلة وقيصرية، وبلاكنتيا والرها وبعض المناطق الأرمنية وفي مقدمتها مرعش. ومنها توجهوا الى بلاد الشام، ووصلوا جسر الحديد على نهر العاصي في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧. والأمر اللافت للنظر هو أن بعض القيادات الاسلامية لم تدرك تماماً طبيعة وخطورة الحركة الصليبية على مصير المنطقة، بحيث أن الفاطميين في مصر لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم العباسبين في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام، على قاعدة أن تكون انطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين. ولم يعلم الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١) ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، بأن انطاكية لم تكن الهدف الحقيقي للصليبيين، بينما كان بيت المقدس أحد أهم توجهاتهم.

وفي العام ١٠٩٨ جرت معارك عسكرية كثيرة بين الصليبيين والأتراك، توجت باعلان امارة انطاكية امارة صليبية. وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٨ عقد الصليبيون اجتماعاً في كنيسة القديس بطرس، وأجمعوا على قرار بضرورة استئناف الزحف نحو بيت المقدس. وبالفعل ففي ١٣ كانون الثاني (يناير)

---

= الوسطى، ص ٨٢ - ١١٣.

Runciman, Op.cit.; vol.I, pp.101-102, 108-109, Grousset; Histoire des croisades et de Royaume France de Jerusalem, vol.I, p.4. Foucher de chartres; Histoire occid. T3, pp.331-332.

١٠٩٩ خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيوشه معلناً الزحف نحو الأراضي المقدسة. وتحركت الحملة الصليبية بعد أن ظلت خمسة عشر شهراً في شمال الشام من تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧ لغاية كانون الأول (ديسمبر) ١٠٩٨ [١].

وبعد السيطرة على مدن الشام، اتجه الصليبيون نحو البقاع فسيطروا عليه، كما سيطروا على حصن الأكراد، وعرقة شمالي طرابلس وطرطوس. ثم سيطروا على طرابلس ذاتها وعلى بيروت وصيدا وصور وقيسارية والرملة واللد. وفي ٦ حزيران (يونيه) سنة ١٠٩٩ زحف الصليبيون مباشرة نحو بيت المقدس، بعد صدمة تلقاها الفاطميون من فشلهم في اقناع الصليبيين بالتحالف معهم دون انتزاع بيت المقدس منهم. وبعد ما يقارب الأربعين يوماً ـ بين ٧ حزيران (يونيه) ١٠٩٩ ـ ١٤ تموز (يوليو) ١٠٩٩ ـ وبعد ارتكاب مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى، استطاع الصليبيون الاستيلاء على القدس الشريف واخضاعه لهم مباشرة.

بعد سقوط بيت المقدس قام الصليبيون باحتلال نابلس وعسقلان والجليل وطبريا [٢]. وكان من الطبيعي أن تكون الخطوة التالية للعمل الحربي الصليبي هي العمل الاداري. لهذا عقد الصليبيون اجتماعات عديدة في بيت المقدس للنظر في تنظيم الدولة التي أقاموها في الشرق الأدنى وبعد منازعات وقع اختيارهم على الدوق الفرنسي «جودفري أف بوايون» (Godfrey of Bouillon) ليكون ملكاً على بيت المقدس ثم عندما مات هذا الملك إثر اصابته بسهم أمام أسوار عكا سنة ١١٠٠ م اختار الصليبيون أخاه «بلدوين» الأول ليحل محله ولقّب بالملك،

---

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٧٧.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين يمكن العودة الى بعض المصادر القديمة ومنها: أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، جـ ٢. وكتاب ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) وكتاب: الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي وسواها من المصادر الأخرى.

وصارت دولة بيت المقدس تعرف بمملكة بيت المقدس أو المملكة اللاتينية ولقد حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس وخاصة مسجد قبة الصخرة الذي كان عبد الملك بن مروان قد بناه على انقاض مسجد عمر بن الخطاب ولقد أقام ( فرسان تامبلا ) « فرسان الداوية » (Temples) في المسجد الأقصى بعد أن حولوه الى كنيسة وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان. ومن ثم عرف هؤلاء باسم فرسان المعبد أما تسميتهم بالداوية فهي كلمة سريانية تعني الفقراء. أما عن الوسائل الدفاعية الخاصة بتنظيم الدفاع عن « مملكة بيت للقدس » فقد طبق فيها نظام الاقطاع الحربي السائد في العصور الوسطى الذي يقوم على استثمار الأراضي في مقابل الدفاع عن البلاد والاشتراك في جيوش الدولة. والى جانب هذا النظام الاقطاعي كان يوجد جيش يتقاضى عناصره رواتب مالية. ومن بين التنظيمات العسكرية الأخرى في مملكة بيت المقدس الأنظمة العسكرية القائمة على أسس دينية، وقد قامت على اكتاف جماعة الفرسان الداوية والاسبتارية وهم من الجنود الرهبان الفقراء الذين نذروا أنفسهم وأرواحهم لخدمة الدين والدفاع عن الأراضي المقدسة. أما المناطق الساحلية فقد كان الدفاع عنها في أيدي الجاليات الايطالية مثل أهالي البندقية وجنوى وبيزا وكان لديها من الأساطيل والمعدات الحربية ما يمكنها من الدفاع عن هذه المناطق حرصاً على مناطقها التجارية وبالإضافة الى ذلك فقد اهتم الصليبيون ببناء الحصون حول بيت المقدس والامارات الصليبية الأخرى وأهمها الحصون الواقعة عبر الاردن حيث تمر طريق القوافل والحج بين مصر والشام والحجاز ومن أشهر هذه الحصون حصن الكرك في جنوب فلسطين ويتبعه ميناء ايلات في العقبة ويمكن القول بأن انتصار الصليبيين على المسلمين أدى الى إقامة عدد من الامارات والممالك الصليبية ومنها: امارة الرها على الفرات وامارة انطاكية في شمالي الشام وامارة طرابلس على البحر المتوسط ثم كان أقواها مملكة بيت المقدس.

والحقيقة فإن وجود هذه الممالك أدى الى اثارة الوعي واليقظة الاسلامية للعمل على التخلص من العناصر التي جاءت من الخارج للسيطرة على المناطق العربية

والاسلامية وقد تيسر للمسلمين بعد هذه الفترة رجال عملوا على القضاء على المخطط الصليبي وبين هؤلاء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي [١].

أما فيما يختص بعماد الدين زنكي الذي حكم من ١١٢٧ حتى ١١٤٦ م فهو من مشاهير الأمراء الأتراك سلمه السلطان محمود السلجوقي أتابكية امارة الموصل وحلب سنة ١١٢٧ م. وكانت شهرته قد تزايدت منذ العام ٥٠٦ هـ - ١١١٢ م، حين اشترك في الهجوم على طبرية [٢]. ومعنى ذلك مجاورته لأمارتي الرها وانطاكيا الصليبيتين، ورأى عماد الدين زنكي ضرورة القضاء على امارة الرها خاصة لأنها تحول دون الاتصال بين امارتي الموصل وحلب ومن أجل ذلك بدأ بتقوية جيشه وحصونه وجواسيسه وقد استغل عماد الدين زنكي أيضاً الخلاف الواقع بين أمير الرها (جوسلين) وبين أمير انطاكية (بوهمند) أو ريموند فبدأ بشن الغارات عليها فاستطاع أن يستنزف قوة الجيش في امارة الرها مما اضطر أمير الرها وجنودها الى مغادرة امارتهم وبالتالي تمّ استيلاء عماد الدين الزنكي عليها سنة ١١٤٤ م، ولقد أثار هذا الانتصار الإسلامي على الصليبيين وجهاً من الحماس بين المسلمين فأقبلوا على الجهاد [٣]. غير أن عماد الدين زنكي لم يعش طويلاً بعد استيلائه على امارة الرها، فقد اغتيل أثناء نومه بيد بعض غلمانه سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م، وخلفه على حكم امارة حلب ابنه الملك العادل نور الدين محمود زنكي أما حكم منطقتي الموصل والرها فقد آلت لابنه البكر سيف الدين غازي بن زنكي.

وكان نور الدين محمود ١١٤٦ - ١١٧٤ م، ٥٤٠ هـ - ٥٦٩ هـ قد حكم في

---

(١) Lane-Poole; Saladine... p.34.

(٢) Lane-Poole; Ibid, p.35.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن نشاط عماد الدين زنكي انظر: Lane-Poole; Op. Cit; pp.42-49, 55-57.

حلب بإمكانيات ضعيفة لهذا رأى ضرورة التسامح مع المذاهب الإسلامية كلها، وقد ساعده ذلك على تهيئة المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ولم يستطع نور الدين في بادىء الأمر القيام بأي عمل حربي ضد إمارة أنطاكية القريبة منه، وقد فضل البقاء في إطار مملكته الصغيرة والدفاع عنها ضد الخطر الصليبي الجديد الذي ظهر في الأفق في إطار الحملة الصليبية الثانية التي كان سببها استرداد إمارة الرها التي سبق أن استولى عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين.

الحملة الصليبية الثانية[1] ٥٥٢ هـ - ١١٤٨ م. من أهم الشخصيات التي اشتركت بالحملة الصليبية الثانية الامبراطور الألماني كورات الثالث وملك فرنسا، لويس السابع، غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً فقد تمكن الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى من صدها والانتصار عليها واضطر الملكان الالماني والفرنسي إلى اتخاذ طريق البحر إلى إمارة أنطاكية الصليبية وعوضاً من أن يهاجم الصليبيون ممتلكات نور الدين وشقيقه سيف الدين لاستعادة الرها إذا بهم يستجلبون اقتراح بيت المقدس بمهاجمة دمشق لأنها قريبة من المدينة المقدسة ولأنها تشكل خطراً على الصليبيين. وبالفعل فقد اتجه الملكان إليها وحاصراها بواسطة بعض ما لديهما من جيوش ومعدات في عام ١١٤٨ م، غير أن الجيش في دمشق استطاع المقاومة وإفشال حصار المدينة، الأمر الذي اضطر الملكين الالماني والفرنسي إلى الإنسحاب والسفر إلى بلديهما وكان فشل الحملة الصليبية الثانية قد ضاعف ايضاً من حماس المسلمين فاستغل السلطان نور الدين محمود هذه الروح الإسلامية فهاجم إمارة انطاكية وانتصر على اميرها بوهمند واستولى على جميع المراكز الصليبية الواقعة بين حلب وأنطاكية وبالرغم من أن نور الدين لم يستطع دخول انطاكية غير أنه بهذه الإنتصارات جعل أميرها مشلول الحركة داخل مدينته لا يستطيع القيام بأي عمل هجومي، وأخذ نور الدين يعمل على توحيد الإمارات الإسلامية وقد ساعد على ذلك وفاة شقيقه سيف الدين غازي ملك

---

(١) عن جميع هذه الحملات الصليبية: انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ٢٥ - ١١٩.

الموصل والأمير معين الدين صاحب دمشق معاً، وفي سنة واحدة في سنة ١١٤٩ م وقد أتيحت له الفرصة لضم الموصل ودمشق الى مملكته، وكان معنى ذلك قيام دولة إسلامية متحدة تمتد من الموصل وحلب شمالاً الى دمشق جنوباً، وكان قيامها نوعاً من التوازن بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية في الشرق العربي.

وفي هذه الأثناء حدث نوع من التسابق بين نور الدين وبين الصليبيين لاحتلال مصر نظراً لأهميتها وموقعها الهام بالنسبة الى بيت المقدس والى بلاد الشام معاً وقد حدثت معارك بين الصليبيين والمسلمين من أجل السيطرة على مصر انتهت هذه المعارك باتفاق على الإنسحاب سوياً من مصر، غير أن هذه المعارك لم تلبث أن عادت وتكررت وانتهى الأمر الى احتلال جيوش نور الدين زنكي لمصر وانسحاب الصليبيين منها وكان انتصار المسلمين وضمهم مصر بمثابة عامل هام لتوحيد الجبهة الإسلامية، فقد أصبحت المملكة الصليبية ولأول مرة بعد وجودها تواجه وحدة مصرية شامية.ومن الشخصيات التي قامت بدور بارز في بعث الحركة التوحيدية الإسلامية شخصية الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو من أصل كردي والده نجم الدين أيوب قائد قلعة تكريت شمالي بغداد وكان صلاح الدين قد خلف عمه في وزارة مصر وفي قيادة جيش نور الدين فيها[1]. وواجهت صلاح الدين بعض الصعوبات في مصر من جانب بعض المصريين الذين رفضوا السيطرة الشامية ومن جانب الصليبيين الذين كانوا يطمعون في احتلال مصر ثم من جانب نور الدين نفسه الذي كان يخشى أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر ولكن صلاح

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن حياته انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤١ ـ ٤٤. وقد انتشر في دمشق أقوال مأثورة عن صلاح الدين منذ عهد الملك نور الدين وتلك الاقوال هي: «الناصر للصليب كاسر، وللفرنج خاسر، وللقدس طاهر، من كل رجس فاجر، الظاهر بالله ظاهر، قاتل كل كافر، وللتتار قاهر، من كل فاجر وعاهر، الناصر النور الباصر، بالشرق ظافر، يطيها بالخف والحافر، بعد ثلاث تواتر». وقد ورد ذلك في الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ٢٧٥.

الدين استطاع بفضل حكمته ومساعدة والده نجم الدين أيوب وأخوته أن يتغلب على الكثير من الصعاب، وقد ساعده أيضا وفاة الملك العادل نور الدين سنة ١١٧٤ م تاركاً وراءه ابنه اسماعيل الذي كان في الحادية عشرة من عمره، وكذلك توفي في السنة نفسها ملك المملكة اللاتينية في فلسطين الذي ترك بدوره أبناً مريضاً وعاجزاً لم يبلغ سن الرشد بعد وهو بودوان الرابع الملقب بالأبرص وكانت فرصة لصلاح الدين أن يخطط لمستقبل العلاقات العسكرية مع الصليبيين على النحو التالي:

١ ـ فترة الاستعداد وتوحيد المشرق العربي.
٢ ـ العمل على استرداد بيت المقدس ومحاولة الانتصارات على الصليبيين.
٣ ـ العمل على مواجهة ملوك غربي أوروبا لا سيما في حملتهم الثالثة.

**الفترة الأولى:**

وهي فترة الاستعداد امتدت نحو ١٥ سنة «٥٦٧ ـ ٥٨٢ هـ» وقد استطاع صلاح الدين خلال هذه الفترة أن يسيطر على بلاد النوبة واليمن الجنوبي وعلى بلاد الشام والجزيرة وأن يكون جبهة إسلامية موحدة أحاطت بالمملكة الصليبية في فلسطين من كل جانب وفي هذه الفترة أيضاً اهتم صلاح الدين بتقوية الجيش والاسطول وتحصين الثغور، ولم يأت عام ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦ م إلا وكان قد تمكن من تحقيق الوحدة التي كان ينشدها.

**الفترة الثانية:**

وتمثلت الفترة الثانية بعد عملية الوحدة بالقيام بهجوم إسلامي على مملكة الصليبيين عام ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م وكان صلاح الدين قد اتخذ من ممارسات بعض الأمراء الصليبيين الاستفزازية سبباً مباشراً لهجماته مثل: ممارسات أحد فرسان مملكة بيت المقدس المعروف باسم رينو دى شاتيو. وفي أواخر عام ١١٨٦ م قام صلاح الدين بهجمات على بعض المناطق الصليبية التي كانت تتعرض

للقوافل الإسلامية والتي كانت تسافر من مصر الى بلاد الشام[1]. وفيما بعد هاجم مدينة طبريا مما أثار حفيظة الصليبيين فتداعوا لمجلس حربي عقد في عكا قرروا فيه الزحف الى طبريا. وبالفعل فقد بدأ الصليبيون بالهجوم بينما حرص صلاح الدين على أن يعزل الصليبيين في تل صخري قاحل لا توجد فيه المياه وهو تل حطين[2]. ولما ابتدأ القتال بين الجانبين تبين بأن موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين الذين حوصروا في هذا التل وانتهت المعركة بانتصار المسلمين واستسلام الصليبيين وفرار زعيمهم ريموند الثالث. وعلّق المؤرخ ابن الأثير المعاصر لتلك الفترة على موقعة حطين بالقول: « كل من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى ». فيما أشار المقريزي بأخذ المسلمين صليب الصلبوت « وأسروا الابرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة. ثم قدم الابرنس ارناط وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية... »[3].

وبعد هذه الموقعة بدأ صلاح الدين يسيطر على المدن الصليبية التي عاملها معاملة حسنة، وقد استولى على عكا ويافا وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة. وبذلك تهيأ له اتصال بحري سريع وسهل بين قسمي دولته أي بين الشام ومصر[4]. ولم تستعص عليه سوى صور بسبب موقعها الجغرافي، ثم اتجه صلاح الدين الى الداخل لمحاصرة مدينة القدس، فاضطرت الى التسليم يوم الجمعة ليلة الإسراء في ١٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ[5]، ١١٨٧ م وكانت الشروط التي

---

(١) انظر: Grousset; Histoire des Croisades, II, p.116.

(٢) انظر د. الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الايوبيون)، ص ٧٦ - ٩٠.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٩٣.

(٤) Stevenson; The Crusaders in the East, p.249.

(٥) انظر المقريزي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٩٦.

فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم، مما دعا بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين للقول: لم تتجلّ عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة، فقد سمح لمن يحب أن يغادر المدينة حاملاً أمتعته وأمواله، أما النصارى الشرقيون فقد اعتبروا من أهل البلاد وعوملوا معاملة المواطنين. كما أن صلاح الدين لم يحاول أن يهدم الكنائس، بل تركها وكان على رأسها كنيسة القيامة، واكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس لا سيما المسجد الأقصى، ولقد واصل صلاح الدين فتوحاته فاسترد بقية المدن الشامية باستثناء انطاكية وطرابلس وصور، وقد عبّر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة الى أخيه توران شاه باليمن: «إن بلاد الشام لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً».

**الفترة الثالثة:**

كان لانتصارات صلاح الدين الأيوبي ردود فعل خطيرة في غرب أوروبا الأمر الذي دعا البابوية والملوك والأمراء للدعوة للقيام بحملة صليبية ثالثة، وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غربي أوروبا هم:

١ ـ فريدريك بربروسا امبراطور المانية.
٢ ـ رتشارد قلب الأسد ملك انكلترا.
٣ ـ فيليب اغسطس أو الثاني ملك فرنسا.

وقد دامت هذه الحملة الصليبية بالمشرق ثلاث سنوات (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) وكان الأمبراطور فريدريك ملك المانيا أول من اتجه الى بلاد الشام ولكن عندما اقترب من هذه المنطقة انتشر الطاعون بجيشه وفتك بجنوده، ثم لم يلبث الامبراطور نفسه أن غرق في نهر بالقرب من انطاكية. وعلى أثر ذلك اضطر اتباعه الى العودة الى بلادهم. أما فيليب الثاني ورتشارد قلب الأسد فقد وصلا الى الشام عن طريق البحر في وقت واحد تقريباً وبدآ بمحاصرة مدينة عكا براً وبحراً وركزا في هذا الحصار جميع قواتها وقد حاول صلاح الدين إنقاذ هذه المدينة ولكنه لم

ينجح، فاستسلمت المدينة في عام ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١م بعد حصار دام سنتين تقريباً، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عكا أهم قاعدة للصليبيين في بلاد الشام، وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين فيليب الثاني وبين رتشارد قلب الأسد، الذي حاول استرجاع بيت المقدس ولكنه فشل في محاولته امام قوات صلاح الدين، غير أن قلب الأسد استطاع السيطرة على بعض المدن الساحلية الجنوبية من عكا إلى يافا ونظراً للخلافات الداخلية في انكلترا اضطر ريتشارد للعودة اليها بعد أن عرض الصلح على صلاح الدين عرف بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨ هـ ـ ايلول ١١٩٢م ومن أهم شروطه:

١ ـ احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية من عكا الى يافا.
٢ ـ أن تكون منطقة مدينة عسقلان منطقة حيادية وأن لا يستكمل تحصينها من جديد من قبل الصليبيين.
٣ ـ تبقى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها.
٤ ـ يسيطر المسلمون على منطقة ساحلية على البحر المتوسط تشمل صيدا ـ بيروت.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١١٩٢ رحل رتشارد الى بلاده وانتهت بذلك الحملة الصليبية الثالثة التي اعتبرها البابا حملة فاشلة لأنها لم تحقق الغرض الذي قامت من أجله وهو استعادة بيت المقدس، غير أن صلح الرملة أقر لأول مرة مبدأ التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين ولكن لا يعني ذلك بأن الحملات الصليبية توقفت على أراضي المسلمين إنما استمرت بين الفترة والفترة.

**الحملة الصليبية الرابعة:** كان من المقرر أن تتجه الى مصر ولكنها اتجهت نحو القسطنطينية عام ١٢٠٤م للانتقام من ملكها الاكسيوس الثالث.

**أما الحملة الصليبية الخامسة:**[1] فهي الحملة التي قام بها الملك السابق لبيت

---

(١) انظر: = Grousset; Histoire des Croisades, III, p.211...

المقدس على دمياط عام ١٢١٨ م بغية احتلال مصر وحرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة العسكرية الهامة. غير أن هذه الحملة انتهت بالفشل بعد مقاومة السلطان الكامل ناصر الدين محمد[1].

**أما الحملة الصليبية السادسة:** فهي الحملة التي خرج بها الأمبراطور فريدريك الثاني من صقلية الى فلسطين عام٦١٨هـ ـ١٢٢١ م في عهد السلطان الكامل محمد

**أما الحملة الصليبية السابعة:** فهي الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٨ م.

استمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في عهد دولة المماليك أيضاً لا سيما في عهود الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وأبنيه الأشرف خليل والناصر محمد، وبعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في بلاد الشام عام ١٢٩١ م، انتقل الصراع بين المسلمين والصليبيين إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها جزيرة قبرص التي صارت مركزاً للعدوان الصليبي على سواحل المسلمين وتجارتهم في مصر والشام، وانتهى الصراع بين المسلمين والصليبيين باحتلال المسلمين لجزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي عام ١٤٢٦ م، ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط دولة المماليك في مصر والشام بل استمرت هذه الحروب بين الصليبيين والأتراك العثمانيين[2].

والحقيقة فإننا لسنا هنا بصدد الحديث عن الحملات الصليبية، بقدر ما يهمنا

---

= وهناك دراسة قيّمة متخصصة عن هذه الحملة للدكتور سعيد محمود عمران تحت عنوان: الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دى برين على مصر ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م، ٦١٥ ـ ٦١٨ هـ).

(١) للمزيد من التفصيلات العسكرية انظر: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ١٩٤ ـ ٢٠٩.

(٢) في عام ١٩١٨ وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها، دخل الجبرال غورو الى دمشق ووقف على قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقال: ها قد جئناك صلاح الدين. اليوم انتهت الحروب الصليبية!.

من هذه الدراسة التوصل إلى النتائج الحضارية ، ودراسة العلاقات التي كانت قائمة بين الغربيين المسيحيين وبين الشرقيين من المسلمين والمسيحيين معاً .

وقد كانت العلاقات الحضارية والتمازج الثقافي والعلمي بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا وصقلية اكثر أهمية وعمقاً مما كانت عليه في بلاد الشام ، ومن أسباب ذلك أن اسبانيا وصقلية شهدت نشوء حواضر ومراكز علمية وحضارية أكثر مما شهدته بلاد الشام، ثم أن المملكة اللاتينية في القدس لم تكن مركزاً علمياً للمعارف والعلوم الإسلامية . وبالرغم من ذلك فقد شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحيين والمسلمين وبين الحضارتين الغربية والعربية[1] ، خاصة وأن العلاقات بين الجانبين لم تكن كلها علاقات حربية مستمرة ، بل قامت بينهما علاقات من الود والصداقة والتأثيرات المتبادلة ، لأن إقامة الصليبيين في المنطقة لمدة مئتي سنة لا بد من أن يؤدي الى نوع من التمازج البشري والفكري والعلمي والاقتصادي والإجتماعي والمعماري والطبي وسوى ذلك من المؤثرات الحياتية . ومما ساعد على توثيق العلاقات بين الجانبين أن المستعمرات الصليبية كانت قائمة وسط إمارات إسلامية في بلاد الشام مثال: حلب وحمص وحماه ودمشق . وقد سهّل ذلك اتصال الصليبيين بالمسلمين والقدرة على فهمهم عن كثب ودراية ومحو الصورة غير الصحيحة التي أخذوها عن المسلمين قبل مجيئهم الى المنطقة[2] . وبذلك يقول ارنست باركر (Ernest Barker) انه ينبغي ان ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب ، لا على انها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق . وأضاف بأن الغرب اتصل بالشرق ، أو بالأحرى اتصل بشيء يخالفه ويغايره ، غير انه في احوال كثيرة يسمو

---

(١) هناك دراسة قيمة حول حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق ، نشرها د . جوزف نسيم في كتابه : دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٨ ـ ١٥٤ .

(٢) انظر : د . أحمد مختار العبادي : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١١٩ ـ ١٢٩ .

عليه، بل أنه لأسمى منه وأعلى. وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير، فما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة، هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشاعري في آن واحد[1]. وعلى هذا يمكن دراسة الجوانب والمؤثرات المتبادلة بين الجانبين في إطار العلاقات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والطبية والمؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية.

---

(١) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤٣، ١٥٠.

## ١ ـ المؤثرات والعلاقات الاجتماعية

كان المجتمع في بلاد الشام في العهد الصليبي ١٠٩٨ ـ ١٢٩١ خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان، فقد ضمّ الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والالماني إلى جانب العربي والتركي والكردي والأرمني، مع انتشار الأديان الثلاثة: اليهودية، والنصرانية والإسلام، ولغات عدة. وبالرغم من التباين والتفاوت الاجتماعي والقومي والديني واللغوي، فإن هذه الجماعات بدأت تنسجم وتتأثر بعضها بالبعض الآخر. وقد ذكر فوشيه دو شارتر (F. De Chartres) في تاريخ ١١٢٠ م عن الامتزاج الغربي بالمجتمع الشرقي قوله: « واحسرتاه، نحن قد تحولنا الى شرقيين، فمن كان منا إيطالياً أو فرنسياً في الأمس قد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليلياً أو فلسطينياً وكذلك قد غدا ابن مدينة ريمس (Reims) أو مدينة (Chartres) صورياً أو أنطاكياً، فقد نسي كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً، وهو مطمئن حتى كأنه قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد، كما أن البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات، بل بالسوريات أو الأرمنيات أو أحياناً بالمسلمات بعد أن تعمدن.. وأنّا لنستعمل من آن لآخر اللغات المحلية المختلفة.. إذ أصبح بالحقيقة الفقير منّا غنياً بنعمة الله، ومن كان لا يملك سوى دريهمات، اصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة.. »[1].

---

(١) Foucher De Chartres; Rec. Hist. Occid. T3, p.360.

انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج

وهكذا يلاحظ بأن المجتمع الشامي أصبح مجتمعاً مختلطاً[1]. وكما أقبل الصليبيون ـ نظراً لقلة عدد النساء الأفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين ـ على الزواج من المسيحيات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسيرات اللائي تنصرن، فقد أقبل المسلمون بدورهم على الزواج من الأسيرات الافرنجيات أو الزواج من الفتيات اللائي ولدن من زواج الصليبي بنساء شرقيات. ومما شجع المسلمين على ذلك انعدام العائق الديني وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم الأفراخ (Pullani)[2] غلبت عليهم طبائع وعادات الشرق منها الغيرة على روجاتهم، وهي عادة لم تكن موجودة عند الغربيين. ولم يرَ الصليبيون مانعاً من الاستعانة بهؤلاء المولدين من الموارنة والأرمن والسريان والمسلمين في تشكيل فرق الخيالة الخفيفة التي عرفت باسم «تركوبول» (Turcopoles)، وقد دخل عدد كبير من هؤلاء الفرسان المرتزقة بين قوات الداوية والاسبتارية وفي خدمة بعض أمراء الصليبيين. وقد امتدت محاولات الزواج بين كبار المسؤولين من المسلمين والأفرنج، فقد كشف ابن شداد في «النوادر السلطانية» عن رسالة مرسلة من ملك الأنجليز الى السلطان صلاح الدين الأيوبي حول تزويج اخته أو ابنة اخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين، وهو مشروع للزواج اقترحه ريتشارد قلب الأسد. والحقيقة فقد كاد أن يتم هذا الزواج لولا أن البابا عارض ذلك. ومما قاله الملك الإنجليزي في رسالته: «إنّا معاشر دين

---

= خلال الحروب الصليبية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤، د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد الشام في العصر الصليبي انظر: د. سعيد عاشور: فصل «المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية» في كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢١ ـ ٥٣.

(٢) يذكر جوانفيل بأن فلاحي بلاد الشام يقال لهم المولدون (Poulains). وجاء في الهامش بأن «المولد هو طفل من نتاج زواج فرنسي من مسيحية في سورية» (Enfant né de mariage d'un Franc et d'une femme indigène chretienne en Syrie)

انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

النصرانية ومقدمه. وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر، فإن إذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة اختي، وما احتاج في أذنه في ذلك».

وكما أن المسلمين قد أعطوا الإفرنج عادة لبس الخاتم عند الخطبة أو الزواج فقد تبلّد الصليبيون (أصبحوا كأهل البلد) كذلك من حيث الملابس الشرقية، فلبسوا الملابس الشرقية واسعة الأكمام زاهية الألوان الموشاة بالحرائر والتطاريز، واطلقوا لحاهم وجلسوا على الزرابي (السجاجيد). واستخدموا المساحيق والمرايا الزجاجية واتخذوا السُبّحات للتسبيح بحمد الله. وأكلوا الأطعمة الشرقية واستعملوا البهارات (Spice) كذلك استخدموا في الولائم وحفلاتهم الراقصات والمهرجين وفي جنائزهم النادبات كما يفعل المسلمون في بعض المناطق، كما استخدموا الآلات الموسيقية العربية مثال: الأرغن والمزمار والعود والقيثارة والربابة والأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات. كما أن المرأة الصليبية تشبهت بالمرأة العربية من حيث لباسها وزينتها، فاتخذت الصليبيات لزينتهن المجوهرات الدمشقية والقاهرية وأدوات المساحيق والزينة واستخدمن المرايا الزجاجية والفراء والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل[1]. وكان بغدوين الرهاوى (Bowdoin of Edessa) ملك بيت المقدس (١١٠٠ ـ ١١١٨) قد بدّل ثيابه الأفرنجية بأخرى شرقية، وأطلق لحيته وتناول طعامه على بساط متربعاً على الأرض. وبلغ الأمر بتانكريد الأنطاكي (Tancred of Antioch) المتوفى ١١١٢، أن سك نقوداً وعليها صورته في زي عربي.

وقد أشار الرحالة ابن جبير الى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ووضع المرأة النصرانية ومشاركة المسلمين للمسيحيين أفراحهم، وذلك عندما وصف لنا احتفال زفاف عروس في مدينة صور في فترة حكم الصليبيين، ومما قاله: «.. زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات

(١) د. زكي النقاش. المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنها من ذوي أرحامها . وهي في أبهى زي وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم . وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ـ نعوذ بالله من فتنة المناظر ـ وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في ارفل الحلي والآلات اللهوية قد تقدمتهم . والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة . . »[1] .

ويروي أسامة بن منقذ المعاصر لفترة الحروب الصليبية الكثير من العادات الغربية الصليبية . ومما ذكره عن عاداتهم وتقاليدهم قوله : « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى »[2] .

وأورد أسامة بن منقذ حادثة أخرى جرت في نابلس لرجل أفرنجي يبيع الخمر ، وجد مع زوجته في الفراش رجلاً غريباً فقال له : أي شيء أدخلك الى عند امرأتي ؟ . قال : « كنت تعبان دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي » ، قال : « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ قال : « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها » ؟ قال : « وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » . وقد علق أسامة بن منقذ على ذلك بقوله :

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ . انظر أيضاً : د . سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

« فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ». كما أورد أسامة عدة حوادث تدل على عدم نخوة الأفرنجة، ومنها ادخال رجل افرنجي ابنته الصبية معه الى حمام للرجال في صور بهدف الاستحمام، ومنها طلب زوج افرنجي من رجل حمامي (يعمل في حمام) في المعرة بأن يحلق عانة زوجته « فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني ووهبني حق خدمتي ». وعلق أسامة بن منقذ على أخلاق الأفرنجة بقوله: « فانظروا الى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والآنفة من سوء الأحدوثة »[1] علماً أن الشجاعة عند الأفرنج أكدها أيضاً ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) عندما تحدث عن شجاعتهم في الدفاع عن حصن بارين امام هجمات المسلمين بقوله: « ... ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم، علم أنه لا ينال بالتواني.. »، كما أكد في الوقت نفسه على شجاعة المسلمين. ومما قاله أيضاً عندما تحدث عن حصن الأثارب قرب حلب « وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس، كل معروف بشدة المراس... »[2].

ويلاحظ أيضاً بأن مدينة عكا كانت في عهد الصليبيين قد اكتظت ببنات الهوى اللائي يجنين أرباحاً بما يلقينه من حظوة عند الرجال. ويؤكد « جاك دوفتري » هذا الواقع بالقول: « نرى الرجال فيها يغتالون نساءهم، والزوجات يسممن رجالهن في سبيل عشاقهن، فلا غرابة إذن أن تختص عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة » وذكر امبرواز » (Ambroise) من أن الجنود الفرنسيين الذين جاؤوا في الحملة الثالثة كانوا يقضون لياليهم في الرقص ومعاشرة النساء وزيارة بيوت الدعارة، مجترحين الآثام بالتكسير والتخريب. وذكر شهاب الدين المقدسي (ابو شامة) في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين بأنه وصلت في سنة ١١٩٠ في

---

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، ص ٣٩ وصفحات متفرقة أخرى.

مركب ثلاثمائة امرأة أفرنجية مستحسنة « أجتمعن من الجزائر [ الجزر ] وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء ، وأنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة ».

والأمر اللافت للمنظر ، هو في مدى إعجاب الراهبات والمرأة الأفرنجية بشكل عام بالحمامات الشرقية لنظافتها ولرسالتها الصحية والاجتماعية ، ونظراً لكثرة تردد الراهبات، فقد احتج « جاك دوفتري » على الراهبات لخروجهن من الأديرة مخالفات بذلك أنظمة حياتهن ليذهبن الى الحمامات العامة وحضورهن مع عامة الناس أيضاً[1]. وقد اشتهرت بلاد الشام بكثرة حماماتها العامة لأن ذلك كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية القائمة على الطهارة والوضوء وقد عرفت عكا ونابلس وطبرية وصور وبيروت وطرابلس وحمص وحماه وحلب ودمشق ومعرة النعمان وسواها الكثير من هذه الحمامات. ويكفي أن نشير في هذا المجال الى ما ذكره الرحالة ابن جبير عن حمامات دمشق وأسواقها ومما قاله: « وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب... وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ولا سيما قسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق.. »[2].

والحقيقة فإن أسامة بن منقذ يورد من جهة أخرى بعض الحوادث التي جرت معه أو بوجوده تدل على تأثر الأفرنج بعادات وتقاليد وعقائد المسلمين ، ومنها أن بعضهم بدأ يكره أكل لحم الخنزير تأثراً بالمسلمين. ومما قاله أسامة بن منقذ في هذا الصدد : « ومن الأفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليهم » ثم أورد حادثة جرت مع

---

(١) د. زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ١٥٠.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٢ .

أفرنجي دعي لغداء على مأدبة أفرنجي آخر في انطاكية « فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس. فأنا ما آكل من طعام الأفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا »[1].

ومن الأمور المشتركة بين الأفرنج والمسلمين رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في المقاطعات والإمارات المشتركة أو القريبة أراضيها بعضها من البعض الآخر. كما كانوا يقومون ببعض المباريات الرياضية وسباقات الخيل واللعب بالرماح. وكانت هواية صيد الطيور والأسماك والغزلان والضباع والوحوش والحمير الوحشية من الهوايات التي شهدتها بلاد الشام ومصر. وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلاً خاصاً عنها[2]. وكثيراً ما جرت رحلات صيد اجتمع بها العرب بالأفرنج، على غرار ما جرى في طبرية ودمشق وبانياس، وكما جرى في عكا عندما اجتمع الأمير معين الدين وأسامة بن منقذ برجل صياد أفرنجي من الجنوية (من جنوى) كان يحمل بازاً كبيراً، وقد أعجب الأمير بهذا الباز، فما كان من ملك عكا « ملك الإفرنج فلك بن فلك » إلا أن أخذه من الجنوي وقدمه للأمير معين الدين. وهذا مما يدل من جهة أخرى على العلاقات السلمية التي كانت قائمة بين الأمراء المسلمين وملوك الأفرنج. ويبدو أن عادة تربية واقتناء الباز قد انتشرت في الشام لأن العرب والأفرنج كانوا يحرصون باستمرار على اصطحاب الباز في رحلات الصيد. وكانت هذه الرحلات قد أدت الى إقامة صداقات بين الحجاج المسيحيين والأفرنج وبين القائمين في البلاد. ومما ذكره أسامة بن منقذ في صدد ذلك قوله « كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فانس بي وصار ملازمني يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة »[3].

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٤٠.

(٢) أسامة بن منقذ، المصدر نفسه، ص ١٩١ - ٢٢٦ (الباب الثالث).

(٣) أسامة منقذ، المصدر نفسه، ص ١٣٢.

وروى المؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة بعض حوادث من العلاقات الإجتماعية والسلمية بين الجانبين، ومما قاله: «ولما طال القتال بين الطائفتين أمام عكا، انس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا لي: كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ. نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا وصبي منكم. فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين، فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيراً، فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا: هو أسيرك حقاً، فأخذ الدينارين وأطلقه»[1].

أما المؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل والمؤرخ محمد بن علي بن نظيف والمؤرخ ابن شداد وسواهم فقد أشاروا في مؤلفاتهم الى بعض المعلومات عن العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، والتي سنبحثها لاحقاً.

والجدير بالذكر أن العلاقات السلمية والحضارية بين الافرنج والمسلمين والتي كانت تنعم بها بلاد الشام قد انعكست إيجاباً على العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في جبل لبنان ومختلف المناطق اللبنانية ـ الشامية. وقد أشار الى ذلك الرحالة ابن جبير، ومما قاله عن نصارى جبل لبنان ومعاملتهم الحسنة للمسلمين قوله: «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت، واحسنوا إليهم ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملّتهم هذه المعاملة، فما ظنّك بالمسلمين بعضهم مع بعض؟»[2] وفي حال توتر العلاقات بين الكبار من الممالك الإفرنجية والاسلامية فإن هذا بدوره ينعكس سلباً على العلاقات المسيحية ـ الإسلامية، وبذلك يقول ابن جبير «ومن أعجب ما يحدّث به أن نيران الفتنة

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ٢، ص ١٤٣.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٠١.

تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم »[1]. ولما تحدث المقدسي واصفاً بلاد الشام قال « ... واكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام... وأما الجبال الشريفة فجبل لبنان وجبل الجولان فيها عُبّاد... » [2].

ومما ذكره ابن جبير بعد معركة خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الأفرنج في نابلس قوله: « وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة.. »[3]، وبعد ان انتقل ابن جبير من داريا الى بانياس وجد شجرة بلوط كبيرة « فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الأفرنج - وهم الحواسة والقطاع - من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الأفرنج بقدر ذلك اطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الأفرنجية وأغربها »[4].

وعن العلاقات الجيدة المشتركة بين المسلمين والأفرنج في منطقة هونين وبانياس، قال ابن جبير « وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهم فيها »[5]. ولما تحدث ابن جبير عن تبنين قال: « سكانها كلها مسلمون وهم مع الأفرنج على حالة ترفيه.. وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً،

---

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠١.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٣٣، ١٨٩.
(٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم»[1]. ولما أشار الى تحاسد المسلمين فيما بينهم بسبب رفاهية البعض وفقر البعض، تعجب وقال بأن «هذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الأفرنج ويأنس بعدله».

والأمر الملاحظ أن التسامح الديني بلغ في بعض الأحيان حداً لافتاً للنظر، حيث أن المسيحيين والمسلمين كانوا في بعض المناطق يقيمون الصلاة في مسجد ومكان واحد. وقد أشار الى ذلك أيضاً الرحّالة المعاصر ابن جبير، عندما تحدث عن مدينة عكا، حيث يوجد في شرقيها العين المعروفة بعين البقر «وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الأفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه: يستقبل هذا مصلاه، وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين»[2]، كما بقيت بعض المساجد بأيدي المسلمين منفردين بالصلاة فيها. وهذا ما أشار اليه ابن جبير بالقول: «وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور، بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد اخرى». وكان بلدوين أمير الرها في حوالي ٥٠٢ هـ - ١١٠٩ م قد اطلق سراح عدد من الأسرى المسلمين كانوا معتقلين لديه، وسمح لمسلمي مدينة سروج بإعادة تعمير مسجدهم، وأعدم حاكم المدينة المسلم المرتد الذي تَقَوّلَ على الإسلام إرضاء لمسلمي المدينة[3].

كما تحدث ابن جبير عن مشاركة مسلمي صور للنصارى في أفراحهم واحتفالاتهم، وكما أشار أسامة بن منقذ الى دخول بعض الأفرنج في الدين الإسلامي، فقد أشار ابن جبير إلى دخول بعض المسلمين المغاربة الأسرى في بلاد

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، ١١٠٠ - ١١٣٧ م، ص ٤٢.

الشام في الدين المسيحي. وقد انتقل جو التسامح والمشاركة الإجتماعية الى الاحتفالات التي كان يصادف وقتها والناس في السفن في البحر. وقد أوضح ابن جبير أنه اثناء سفره من عكا بحراً في ليلة الخميس ٢٤ رجب ـ وهو أول يوم من نوفمبر العجمي على حد قول ابن جبير ـ « كان للنصارى عيد مذكور عندهم، احتفلوا له في أسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم ـ صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى ـ من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة». غير أن البداية لم تكن موفقة على متن المركب وذلك بسبب عزلة المسلمين عن الأفرنج فقد «حاز المسلمون مواضعهم بإنفراد عن الأفرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى.. أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة..»[1].

وبالرغم من العلاقات الإجتماعية التي كانت قائمة بين الأفرنج والمسلمين، غير أن هذه العلاقات كانت تشوبها السلبيات في بعض الأحيان، لا سيما في فترة التوتر والصراع السياسي والعسكري، حيث كان يُضطهد المسلمون من قبل الأفرنج ويتعرّضون للمشقات والأهوال والذلة و« المسكنة الذمية » على حد قول ابن جبير الذي أشار بأن المسلمين كانوا يعانون ويسمعون من الأفرنج السباب والشتائم ضد نبيهم « لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده.. ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الأشفاق عنهم شيئاً »[2]. غير أنه كان باستطاعة اغنياء المسلمين فك الأسرى لقاء مبالغ طائلة، وكان في دمشق رجلين من اغنياء

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٦.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١٤.

كبار التجار عملا على فك الأسرى المسلمين، وهما: نصر بن قوّام وأبي الدر ياقوت « شأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند امراء المسلمين والأفرنجيين خطير ». وقد حرص التاجران وسواهما من أغنياء المسلمين على فك الأسرى المغاربة « لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين، والخواتين من النساء، وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين رحمه الله نذر ـ في مرضة اصابته ـ تفريق إثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة.. »[1].

ولكن هذه الأوضاع كانت تتبدل في فترة السلم، لأن طبيعة العلاقات الإجتماعية تحتم قيام تعاون بين الجانبين الأفرنجي والإسلامي رغم العداء بينهما. ولذا فقد شهدت الفترة قيام علاقات جيدة بين امراء شيزر من آل منقذ وبين روجار صاحب انطاكية، كما استمرت هذه العلاقات في عهد بلدوين الثاني وريث روجار. وكان نجم الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر على علاقة جيّدة مع جوسلين الأول صاحب تل باشر.

كما استمرت هذه العلاقات زمن حكم الأسرة الأيوبية، حيث اتصفت معاملة صلاح الدين الأيوبي ـ رغم انتصاراته ـ للأفرنج بالمعاملة الجيدة وبالتسامح والكرم. كما عامل أسرى الحرب النصارى معاملة حسنة. وسنأتي على ذكر بعض هذه العلاقات في إطار الحديث عن العلاقات السياسية بين الأفرنج والمسلمين، وقد أشار الى ذلك ابن شداد وابن واصل وابن الفرات وابن الأثير والمقريزي وسواهم ممن أوردوا بعض ملامح العلاقات الإيجابية بين الطرفين. وكان صلاح الدين الأيوبي حريصاً رغم عدائه مع الأفرنج على معاملتهم معاملة طيبة حينما تستدعي الظروف. فقد حدث أن مرض ملك الإنجليز، فما كان من صلاح الدين إلا أن أرسل إليه طبيباً وفواكه وهدايا تليق بالمريض. ونظراً لمعاملة صلاح الدين

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٤.

الحسنة للأفرنج، فقد تودد إليه حاكم الساحل الفلسطيني « كندهري » ابن اخت ملك الإنجليز فأرسل الى صلاح الدين رسالة طلب فيها خلعة وقال: « أنت تعلم أن لبس القباء والتربوش عندنا عيب، وأنا ألبسها منك محبة لك »[1]. أضف الى ذلك فإن المفاوضات التي جرت بين المسلمين والأفرنج زمن لويس التاسع، اسفرت عن إطلاق الأسرى الأفرنج، غير أن المسلمين رفضوا إطلاق سراح الأسرى قبل أن يتناولوا طعامهم وقد أكد جوانفيل المعاصر للحدث ذلك بقوله: « فطلبنا اليهم ان يدعونا نذهب في سبيلنا، فأبوا قائلين انهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا « لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبة الدهر في جبين امرائنا ». كما حدث أنه اثناء مباحثات المفاوضات بين سلطان مصر ولويس التاسع، قام مبعوث السلطان بزيارة الملك « وقدم إليه لبناً في جرار وزهوراً مختلفة الألوان والأنواع هدية من ابناء الناصر (Nasar) الذي كان سلطان مصر، وقدم إليه هذه الاشياء، وكان هذا المسلم يتكلم الفرنسية »[2].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٢، ص ٧٩.

(٢) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، ص ١٧٣، ١٨٠.

## ٢ ـ المؤثرات والعلاقات الاقتصادية

شهدت فترة الحروب الصليبية حركة اقتصادية بين المسلمين والافرنج سواء على الصعيد الداخلي في بلاد الشام أو مع مصر[١]، أم على صعيد العلاقات بين بلاد الشام والغرب، ونظراً للأهمية الإقتصادية لبلاد الشام، فقد اعتبر البعض بأن الحروب الصليبية هي في حقيقتها حروب اقتصادية.

**الزراعة**

بالرغم من الحروب في بلاد الشام فقد استمرت الزراعة متطورة ونشطة بسبب حاجة السكان والطارئين الى المواد الغذائية، وقد عرفت البلاد بعض الأنماط الغربية في العلاقات القائمة بين الإقطاعي والفلاحين. والواقع فإن استفادة الافرنج من الزراعة الشامية لم تقتصر على الجند والمدنيين في بلاد الشام، بل بدأ الافرنج بنقل بعض أنواع من الزراعة الى البلدان الأوروبية لم يسبق ان تعرّفت إليها مثل السمسم (Sesame) والخرّوب (Carobe) وقصب السكر (Sucre) والليمون (Limon) والأرز (Riz) والقطن (Coton) وبصل عسقلان (Secallion) وسوى ذلك من النباتات والثمار والفواكه[٢]. علماً أن بلاد الشام كانت مليئة بأنواع

---

(١) يمكن الاطلاع على بعض الأحوال الاقتصادية في العهد الأيوبي، سواء في مصر أو في بلاد الشام في كتاب الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الأيوبيون)، ص ١٨٩ ـ ٢٠٩. د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٦٨ ـ ١٩٣. د. جوزف نسيم: دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٦٧ ـ ٧٥ وصفحات أخرى.

(٢) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٧٨. انظر أيضاً: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥١.

المزروعات الأخرى مثال: التين والزيتون والقمح والشعير والذرة والعدس والفول والرمان والتفاح والدراق واللوز والبطيخ والتوت والأجاص والخوخ والمشمش وسوى ذلك من مزروعات تم نقل معظمها الى أوروبا. ويرى ستيفن رنسيمان أن فواكه فلسطين النادرة مثال الليمون الحلو أو الرمان، كانت تشاهد في بعض الأحوال على موائد الأثرياء في إيطاليا. وحينما وصل الصليبيون الى سوريا، تبيّن لهم أن قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية متعددة، وفي وادي نهر الأردن، فواصلوا زراعته. أضف الى ذلك أن بيروت وجبال لبنان كانت مليئة بأشجار الصنوبر والشربين والسرو.

ويصف ابن حوقل الزراعة والبساتين في مختلف بلاد الشام وذلك قبل الحروب الصليبية ومما قاله « .. ومياه فلسطين من الأمطار والطل، وأشجارها وزرعها اعذاء نجوس لا سقي فيها إلا نابلس فيها مياه جارية. وفلسطين أزكى بلاد الشام ربوعاً ..» وعن القدس قال: « عليها شجيرات وهي من أخصب بلاد فلسطين على مرّ الأوقات »، وعن جبال بيت لحم قال: « وأشجار هذه الجبال وأكثر جبال فلسطين زيتون وتين وجميز الى سائر الفواكه.. والجبال والشراة بلدان في غاية الخصب والسعة »، وعن الأردن، وبحيرة الغور وبيسان قال ابن حوقل: « وبه فاكهة وأب ونخيل وعيون وأنهار ». وبعد أن تحدث عن جمال غوطة دمشق ومياهها العذبة « الفيجة » قال: « وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة، بينه الخصب والرخص وهي قريبة من مدينة بيروت.. وببيروت هذه كان مقام الأوزاعي وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة، وتجارات البحر عليها دارّة واردة وصادرة » وعن مدينة حمص فهي « خصبة.. ولها مياه وأشجار، وكانت كثيرة الزرع والضرع، وكانت أكثر زروع رساتيقها نجوساً اعذاء.. وشيزر وحماه.. نزهتان كثيرتا المياه والشجر والزرع والفواكه والخضر.. » أما قنسرين فهي « مدينة كثيرة الخير والسعة في التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم والأزبة ».

وعن أنطاكية فقد وصفها ابن حوقل بأنها « كانت بعد دمشق أنزه بلاد

الشام، وعليها الى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها، فيه لهم مزارع ومراع وأشجار وأرحية». أما مدينة «بالس» على شط الفرات فلها بساتين فيما بينها وبين الفرات وأكثر غلاتها القمح والشعير، ويعمل بها من الصابون الكثير الغزير» بينما مدينة ملطية «بها مباح الجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية أما الحدث ومرعش ففيهما زروع وأشجار وفواكه، وكذلك الاسكندرونة وحصن التينات الذي كان فيها مقطع لخشب الصنوبر. وكذلك فإن عين زربة كانت مليئة بالثمار والزروع ومنها النخيل. وشرح ابن حوقل أوضاع الزراعة في المصيصة وطرسوس ومعان وحوران والبثينة وأكثر المناطق الشامية فأشاد بخصوبة أراضيها وحسن زراعتها وطيب ثمارها. وعلى سبيل المثال فقد وصف زبيب منبج المصنّع بقوله: «ولها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم أر له شبهاً إلا ما ببخارى منه، فإنه يزيد عليه في الحلاوة..».[1].

أما الرحالة الأندلسي ابن جبير فيبدو من كلامه بأن العلاقات الإقتصادية بين أهل البلاد وبين الأفرنج كانت علاقات مقبولة من الطرفين فقد جاء في حديثه عن مدينة بانياس «..ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للأفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة، ولا صيف يجري بينهم فيها». ثم أشار ابن جبير إلى واد مليء بالأشجار فقال: «واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف بالشجر ـ وأكثر شجره الرند ـ بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالأسطيل، لو ولجته العساكر لغابت فيه..»، ثم أشار ابن جبير إلى تلك العلاقة الإقتصادية الزراعية فقال: «.. ورحلنا

---

(١) للمزيد من التفصيلات حول الأحوال الاقتصادية والزراعية في بلاد الشام انظر ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٥٨ ـ ١٧٢. انظر أيضاً: د. علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، ص ١٦١ ـ ١٦٤.

من تبنين.. وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم من الأفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع.. »[1].

وعن بساتين عكا وصور قال ابن جبير.. « والفواكه تجلب اليها من بساتينهما التي بالقرب منهما، ولهما عمالة متسعة. والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع، ومنها تجبى الثمرات اليهما، وهما من غر البلاد ». وقال عن قنسرين « هي البلدة الشهيرة في الزمان.. فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً.. » وعن بلاد المعرة وهي سواد كلها شجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً ». وعن بساتين وزراعة حماه أشار ابن جبير إليها بقوله « مدينة شهيرة في البلدان.. أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً.. قد انتظمت طريقه بساتين تتهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه.. وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم اكثر شجرات الأعناب، وفيه المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي.. »[2]، وهذا الوصف كله يدل على مدى انتعاش وتطور الحياة الزراعية في بلاد الشام.

**الصناعة**

وفي ميدان الصناعة، تعرّف الأفرنج الى الكثير من المصنوعات العربية ونقلوها

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١.

الى بلادهم مثل الصناعات الزجاجية والخزفية والمرايا والحلي والسجاد والمنسوجات والأواني المعدنية والسبحات والأصباغ والعقاقير وصناعة الصابون والسكر وسوى ذلك. وذكر بأن طرابلس الشام كانت تحوي وقت الهجوم الصليبي عليها في مطلع القرن الثاني عشر نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف، فضلاً عن مصانع الورق التي اعتبرت احدى الصناعات الهامة في ذلك الوقت[1].

وكان الأفرنج قد تعلموا من سكان الشام عملية استخراج السكر من القصب، وكان يوجد في عكا معصرة (Masarla) ضخمة للسكر، بالإضافة الى معصرتين في اريحا. فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل مثل صور التي كانت تعتبر المركز الرئيسي لصناعة السكر، ومن هذه المدن الساحلية قام الأفرنج بتصدير السكر بكميات كبيرة الى الغرب الأوروبي ومعظم ما كان يستهلك في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق.

كذلك قام الصليبيون بتصدير الأقمشة من بلاد الشام الى أوروبا، وتصدير الملابس الحريرية والتيلية والمخمل والزجاج. والحقيقة فان القماش يلي السكر في الأهمية من حيث التصدير من بلاد الشام الى الغرب الاوروبي، لأن تربية دودة القز كانت قد انتشرت في بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس، وقد انتشر معها زراعة أشجار التوت المعروف بالتوت البري. كما كان الكتان ينمو في سهول فلسطين، وقد جرى تصنيعه في تلك المناطق كما أقيم في عكا مصانع للحرير الشامي الذي شهد إقبالاً أوروبياً عليه، كما وجد في بيروت واللاذقية مثل هذه المصانع، واشتهرت صور بالصناعات النسيجية المعروفة باسم «صندل». كما اشتهرت صور بصناعة الصباغ الأرجواني، الذي اكتسبت شهرته منذ أيام الفينيقيين. وكان لكتان نابلس شهرة دولية نظراً لجودته وإمكانية استغلاله في الصناعات الكتانية المتنوعة ونظراً لانخفاض سعره ووفرة كمياته. وكان

---

(١) د. محمد محمد مرسي الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادية، ص ٤١٠. انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ٩٦ - ٩٧.

الإيطاليون يقبلون عادة على شراء كتان نابلس وبقية المدن الشامية والمصرية، وتسويقه في الأسواق الأوربية. وعرفت مدن الشام مثل بيروت ودمشق وصور وطرابلس مصانع لدبغ الجلود، ولهذا نجد مناطق عديدة تعرف باسم مناطق الدباغة، كما جرى تصنيع وتصدير الأواني الفخارية. وقد تعاون اليهود من أهل الشام مع بقية الطوائف في صناعة وتصدير الزجاج الشامي الذي كان يلقى في بعض الأحيان منافسة من الصناعة المصرية.

وتعتبر مدينة جنوى من أهم المراكز التجارية في أوروبا في العصور الوسطى لتميزها بموقع استراتيجي هام، مما جعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب. وكانت التجارة الجنوية مع العالم الاسلامي قد توثقت وازدهرت لا سيما أيام الدولة الفاطمية. وتطورت العلاقات الاقتصادية الجنوية ـ الاسلامية، وقد ازدادت تطوراً زمن الحروب الصليبية نظراً لتأييد الجنوية للحملات الصليبية الى الشرق لا سيما الحملة الأولى، وقد أكسبهم ذلك وأعطاهم امتيازات تجارية. وأصبح تجار جنوى يرتادون بسهولة كافة المناطق الغربية والشرقية على السواء، وكثرت تجارتهم بين بروڤانس وسردينيا وكورسيكا وناربون وشمبانيا وقطالونيا وبرجنديا وانجلترا وفرنسا من جهة وبين الشرق الاسلامي من جهة ثانية. وأصبحت بضائع الشرق ترى بوضوح في الأسواق الاوروبية، كما ازدادت البضائع الأوروبية في الأسواق الشرقية. وكانت السلع المشرقية تتدفق على أسواق أوروبا عبر مصر وبلاد الشام بصورة أساسية وعبر البحر الأسود. وكانت الرحلات الجنوية المتجهة الى الشام ومصر وسواهما من موانىء الشرق الأدنى تتم عادة مرتين في العام: الرحلة الأولى وتسمى رحلة الربيع (**Passagium Vernale**) والثانية وتعرف برحلة الخريف (**Passagium Augusti**) [1].

والحقيقة فإن الجنوية أصبحوا سادة التجارة الشرقية سواء في مصر أو الشام، لا سيما بعد أن عقدوا معاهدة تجارية مع السلطان قلاوون وولده الأشرف خليل في

---

(١) د. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي، ص ٢٩١ ـ ٣٠٤.

٢ جمادى الأولى ٦٨٩ هـ - ١٣ أيار (مايو) ١٢٩٠ م. وهي تعتبر أهم معاهدة تجارية عقدت في حينه، حيث لم تستطع أية مدينة تجارية أخرى أن تعقد مثلها في تلك الفترة. وكان قد سبقها معاهدة هامة بين الجنوية والناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢ - ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م. وكان تجار جنوى يجلبون الى مصر وبلاد المشرق الفراء والجلود والزيوت والمنسوجات والمماليك والجواري والخيول والأسلحة والحديد والنحاس والرصاص والأخشاب والحبوب. ونقلوا معهم الى الغرب سلع بلاد الشام والمشرق عامة ومنها: المنسوجات، والملح والنطرون والمرجان واللازورد والبلسم أو البلسان والزمرد والشمع والعسل والسكر والتوابل والصبغة الزرقاء (النيلة) والتمور والأسماك المملحة والفواكه والتين الجاف والعنب (الزبيب) والزيتون وأخشاب الأرز والملابس على اختلاف أنواعها. بالإضافة الى الأواني الزجاجية، وذلك من مصنوعات المدن الشامية ابتداء من انطاكية شمالاً، ومروراً بحلب ومدن الساحل الشامي، وانتهاء بدمشق وبيت المقدس وسواها من مدن وسط وجنوبي الشام [1].

وكانت العلاقات الاسلامية - الجنوية قد ازدادت توثقاً بعد اقامة مراكز تجارية جنوية في مدن الشام ومصر، واقامة محطات تجارية اسلامية في جنوى. بل إن بعض احياء جنوى اتخذت أسماء عربية وأسماء بعض المدن الشامية والمصرية ومنها على سبيل المثال زقاق دمياط (Vico Damiath) وزقاق جبيل (Vico Gebello). تشير بعض الدراسات الى وجود مسجد للتجار المسلمين في مدينة جنوى، وذلك لإقامة الشعائر الدينية وتأدية الصلاة، في مقابل اقامة كنائس في بعض المناطق الاسلامية في الشرق للتجار المسيحيين الجنويين.

والأمر الملاحظ أن بعض ما ذكر عن الحركة الصناعية والتجارية، قد أشار إليها الادريسي الذي تحدث عن حركة صناعية نشطة في بيروت وصور ويافا

---

(١) د. مصطفى الكناني، المرجع السابق، ص ٣٠٥ - ٣٠٩. انظر أيضاً:
Thompson, J.W., Economic and Social History of the Middle Ages (300-1300), Vol. I, p.405.

ودمشق، وأن صناعة الفخار كانت فيها متقدمة بجميل مصنوعاتها وبديع منتجاتها، لما عرفت به من دقة في الصنعة وبهاء في المظهر. وكانت أشهرها الذي صدر إلى أوروبا باسم «فخار دمشق». ومما قاله الادريسي عن صناعة الحرير «... وكذلك فإن صور وطرابلس وانطاكية وطرطوس، قد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق والغرب بمصنوعاتها الحريرية». وأشار الادريسي الى أن مصنوعات صور هي من أفخر الأجناس، لأنها تمتاز بجمالها عن غيرها من منتجات الشام. أما انطاكية فقد أشار الادريسي إلى أن أهلها يصنّعون في هذه المدينة أقمشة جميلة بألوانها المنسجمة، ومن أبدع منسوجاتها الحريرية المبرقشة والديباج.

وكان الخزف الشامي من المصنوعات الهامة في تجارة المستعمرات الصليبية، وتظهر هذه الحقيقة من خلال مراجعة «مجموعة قوانين القدس» على حد قول فيليب حتي. كما يتضح ذلك من بنود معاهدة ١٢٢٣ التي عقدت بين امارة بيروت وجمهورية جنوى التي نصت على «أن المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع المعفاة من الرسوم الجمركية»[١].

أما الصابون،فقد اشتهرت بلاد الشام بصناعته لا سيما مدن فلسطين وخاصة نابلس وعكا، بالإضافة الى طرابلس وعكار واقليم الخروب في جبل لبنان، ذلك لأن صناعته ارتبطت إلى حد كبير بإنتاج الزيت والزيتون المزروع في تلك المناطق، وقد أصبح للصابون النابلسي شهرة شامية وأوروبية بسبب جودته. وقد أنشئت مصابن عدة لصناعته في المدن الساحلية والجبلية بالإضافة الى انطاكية وطرطوس. كما أقبل الأوروبيون على شراء المصنوعات الذهبية والنحاسية والفضية التي اشتهرت بها بلاد الشام لا سيما المصنوعات التي تميزت بالنقوش والحفر والرسوم.

---

(١) انظر: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٧٨ - ١٨٤.

وقد استفاد الافرنج من الأخشاب المتوافـرة في بلاد الشـام لا سيما غـابـات بيروت وجبل لبنان، فصنعوا منها بعض سفنهم التجارية والحربية. وكان يوجـد في بعض مناطق جبل لبنان مناجم للحديد، غير أن انتاجها لم يكن من الوفرة ما يكفي للتصدير الى أوروبة، ولكن مصر كانت تستورد الحديد من لبنان بدليل ما ذكره ابن بطوطة من أن بيروت كانت « تجلب منها الى ديار مصر الفواكه.. والحديد »[1].

وقام الافرنج بشراء وتصدير الأعشـاب الطبيـة التي تعـرّفـوا عليهـا أثنـاء تواجدهم في المنطقة، ولمسوا مفعولها الطبي. وكانت مادة « البلسان » المادة العشبية الأكثر أهمية بالنسبة لمسيحيي أوروبا، لأنها كانت تستخدم هناك في طقوس الكنيسة. وقد تطورت زراعة هذه المادة في عهد الصليبيين لا سيما في بيت المقدس، غير أن المسلمين أهملوا زراعتها بعد أن أعادوا سيطرتهم على بيت المقدس في أواخر القرن الثاني عشر، لأنها لم تكن ترتبط بعقيدتهم الدينية، بالإضافة الى أن هذا النبات يحتاج إلى ري مستمر وكميات وفيرة من المياه، غير أن بلاد الشام شهدت صناعات للمشروبات الروحية والكحولية مثل الجعة (البيرة) التي كانوا يصنعونها من الشعير ومـن الذرة، كما صنّعـوا مشروبـات أخـرى مـن العنـب والفواكه.

## التجارة

كانت التجارة بشكل عام قد ازدهرت بين البلاد الاسلامية والأوروبية، وانتقلت المؤثرات الصناعية الشرقية الى مختلف مناطق أوروبا[2]. وقد جنى التجار أموالاً طائلة، واشتد الطلب في أوروبا في العصور الوسطى على التجارة الشرقية كالتوابل والاصباغ والحرير والخزف والصابون، والصناعات التي سبق أن أشرنا

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ١، ص ٨٢...

(٢) انظر: د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٩٣.

إليها. والحقيقة فإن هذه الحركة التجارية شهدت تطوراً أكثر بعد قيام الوحدة بين المسلمين في مصر وبلاد الشام في زمن السلطان نور الدين، ثم صلاح الدين الأيوبي، لأنه أصبح من المستطاع أن تجتاز السلع الواردة من العراق وفارس في أمان واطمئنان إلى حلب أو حمص أو دمشق ومنها إلى حوض البحر الأبيض المتوسط. بالإضافة إلى ذلك فلا بد من الاشارة إلى أن فترة السلم شهدت تطورات اقتصادية في بلاد الشام وأوروبا، كما ارتفعت أسعار بعض السلع المعيشية. ويكفي القول أنه بعد عقد صلح الرملة بين صلاح الدين والافرنج في ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م، بدأ التجار من المسلمين والافرنج بتبادل التجارة فيما بينهم كما ارتفعت الأسعار بما فيه سعر الفول المصري.. وبذلك يقول المقريزي «... رحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل جلق عظيم من الافرنج إلى القدس... وفيها [أي في دمشق] انتقل سعر الفول بديار مصر من خمسة عشر ديناراً الى ثلاثين دينار المائة أردب...» [1]. وعندما نذكر التجارة فمعنى ذلك بأن المصالح الاقتصادية هي التي كانت تتحكم بالعلاقات بين تجار المنطقة وتجار الغرب. ومما يدل على ذلك أن المدن الايطالية لم تبادر أثناء الحروب الصليبية بسرعة الى مساعدة الحملات الصليبية، لأن رخاءها وتطورها الاقتصادي بأكمله يتوقف على استمرار العلاقات الطيبة مع المسلمين، ولكن عندما شعر الايطاليون بأن احتلال بلاد الشام ممكن أن يضاعف أرباحهم فإن سفن وسكان جنوى وبيزا والبندقية لم يترددوا في المساهمة في الحملات الصليبية، وبشيء من المساهمة الفعالة. غير أن هؤلاء التجار الايطاليين وسواهم من التجار الأوروبيين عرفوا كيف يقيمون الصداقات والعلاقات التجارية مع المسلمين [2].

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ١١٠.

(٢) للمزيد من التفصيلات يمكن العودة الى دراسة متخصصة جيدة للدكتور فايد حماد محمد عاشور تحت عنوان: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الاسلامي في العصر الأيوبي. ومن ضمن ما تضمنته العلاقات التجارية والسفارات بين المنطقتين والمعاهدات التي عُقدت بينهما وأوضاع التجار البنادقة، وموضوعات أخرى هامة.

وكانت موانيء عكا وصور واللاذقية من أهم موانيء بلاد الشام بالإضافة الى موانيء بيروت وطرابلس وانطاكية والسويداء، وكانت تستورد الى هذه الموانيء ويصدر منها مختلف أنواع السلع والمصنوعات. وقد أوجدت هذه الحركة التجارية طبقة من التجار المحليين، وقد ذكر ابن جبير اثنين منهما كانا يعملان على فك أسرى المسلمين المغاربة وهما: نصر بن قوام وأبي الدر ياقوت. ومما قاله ابن جبير في ثرائهما وتجارتهما «وقيض الله لهم [للأسرى] بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي. وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير...»[1].

كما أوجدت الحركة التجارية طبقة من التجار الأجانب، بالإضافة الى أن منطقة الشام استأثرت باهتمام التجار المسلمين من غير بلاد الشام، والذين وفدوا اليها باعتبارها منطقة التقاء حضاري وصناعي وتجاري، حيث كان التجار يقصدونها بهدف شراء ما يعجزون عن شرائه أو وجوده في الخارج والحقيقة فان التبادل التجاري المستمر بين بلاد الشام أو الممالك الصليبية فيها وبين البلدان الأوروبية، ساعد على ازدياد النشاط المالي والصيرفي، وأدى الى استحداث أساليب مالية جديدة مأخوذة عن المعاملات المالية المعمول بها في بلاد الشام. كما استحدثت أنواع من العملات المعدنية المتداولة بين الجانبين في المنطقة. كما اتبع أسلوب الديوان (الجمرك) حيث كان المسلمون مثلاً يدفعون ضريبة للصليبيين على بضائعهم الداخلة الى مينائي عكا وصور ومنطقة تبنين وسواها بمعدل قيراط عن كل سلعة ثمنها دينار واحد، وكان الدينار يساوي ٢٤ قيراطاً.

وبالرغم من العداء القائم بين المسلمين والافرنج، غير أن العلاقات التجارية كانت قائمة وبصورة ناجحة، وكانت القوافل تنتقل بين أراضي الطرفين في

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٤.

سهولة. ولا بد في هذا المجال من أن نورد مشاهدات ابن جبير وملاحظاته حول العلاقات التجارية بين الجانبين. فبعد أن أشار الى خروج صلاح الدين الأيوبي لمنازلة حصن الكرك الافرنجي، لأنه المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر قال:

« ... واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ».

ثم أضاف: « ... وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم.. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم. وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه.. »[1].

ولما كان ابن جبير يعد السفر من دمشق إلى عكا، التمس ركوب البحر مع تجار النصارى « في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة. ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين. شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً ». وقد تعجب ابن جبير أنه بالرغم من الحروب القائمة بين المسلمين والصليبيين غير أن الوجه الآخر لعلاقاتهم التجارية، كان وجهاً قائماً على السلم بين الجانبين. ومما قاله « وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا، الاعتدال في السياسة »، ووصف ابن جبير الوضع في إحدى قرى عكا بقوله: « ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين.

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٠١.

فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة.. وأنـالهم ألـوانـاً مـن الطعـام قـدمهـا لهم.. »[1].

وعن الخانات التجارية والضرائب المفروضة على البضائع قال ابن جبير: « وحملنا الى الديوان، وهو خان معدّ لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم - صاحب الديـوان والضـامـن لـه - يعـرف بالصاحب: لقب وقع عليه لمكانه من الخطة. وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه، وطلب رجل من لا سلطة له لئلا يحتوي على سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر »[2].

ووصف ابن جبير ميناء عكا وتجارتها قائلاً: « هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطيء الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً.. انتزعها الافرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الاسلام ملء جفونه.. »[3]. كما وصف مرفأ صور الذي اعتبره بأنه أفضل من مرفأ عكا ومما قاله ابن جبير عن برجي الميناء « ليس في البلاد البحرية أعجب وصفاً منها يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب... فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها.. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١١.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٣) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.

عظيمة، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل، ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم». ثم أضاف واصفاً هذا المرفأ بقوله: «فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل اليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل..» [1].

وعن تجارة مدينة طبرية منها وإليها قال ابن جبير «وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها، ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصر طريقها..».

ومما قاله عن حصن تبنين ووضع الضرائب فيه: «حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين. وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، هي أم الخنزير صاحب عكة.. ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم..»، وذلك بسبب وقوفهم الى جانب نور الدين في أثناء حصاره أحد حصون الافرنج «فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الافرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً. فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنته عنهم» [2].

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢١٢ - ٢١٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٠.

ويلاحظ أيضاً بأن من مظاهر نشاط الحركة التجارية في هذه الفترة، كثرة الخانات والفنادق الخاصة بالتجار المسلمين والافرنج على السواء، فقد كان للتجار المسلمين خانات وفنادق خاصة يفضلون النزول بها مجتمعين، كما كان للتجار الايطاليين (نابولي، جنوى، بيزا، البندقية) والفرنسيين (ناربون، ومرسيليا) والاسبان (أراجون وقطالونيا) خانات وفنادق خاصة يجتمعون وينامون فيها ريثما تتم معاملاتهم وشراء بضائعهم أو بيع المستورد منها [1]. كما كان لكل طائفة تجارية أو قومية قنصل يرعى مصالحها، وكان يعرف في بلاد الشام باسم شهبندر التجار أو بازار باشي وهو المسؤول عن مصالح التجار المسلمين. كما كان يوجد في هذه الفترة محاكم خاصة تفصل في القضايا العالقة بين التجار الأجانب والتجار المسلمين، او بين التجار الأجانب وعمالهم من السكان المحليين، وقد نشأت بعض الخلافات بين الجانبين بسبب سوء معاملة التجار الايطاليين والافرنج عامة للعمال الموارنة والسريان واليعاقبة والبيزنطيين الروم والاقباط، لأن هؤلاء سخروا للقيام بالخدمات والأعمال الدنيا التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها، باستثناء بعض الأرمن الذين نالوا الامتيازات من الصليبيين، وتمت زيجات مشتركة بينهم وبين الافرنج، كما تولى بعضهم مناصب هامة في الممالك الصليبية، ولعل مواقف الأرمن السابقة المعادية للسلاجقة أعداء الصليبيين، كانت من جملة الأسباب التي قربت بين الفئتين الأرمن والافرنج.

وبصورة عامة فقد أوجدت العلاقات التجارية بين المسلمين والافرنج محكمتين هما:

محكمة التجارة وتعرف باسم «محكمة الفندق» أو «محكمة السوق» و«محكمة الملاحة» أو «محكمة السلسلة» التي تقفل بها الموانىء. وكانت المحكمتان مختلطتين ومؤلفتين من سوريين وافرنج (أربعة سوريين وافرنجيين) بالإضافة الى ذلك فقد وجدت محكمة خاصة بالشاميين سميت «محكمة الرئيس» وهو المسؤول عن التجار

---

(١) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.

كمنصب شهبندر التجار أو بازار باشي، وكانت مهامها فض الخلافات المحلية حسب القوانين المحلية [١].

واتبع الصليبيون مع تجار المسلمين في بلاد الشام قاعدة الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل وأبقوا على وظيفة المحتسب الاسلامية، التي يقوم صاحبها بمراقبة الأسواق ومنع الغشوش فيها ومراقبة الموازين والمكاييل والصنج (المعايير) ومراقبة جميع الباعة وأصحاب المهن. وكان المحتسب هو المسؤول الفعلي في الادارة المحلية الاسلامية.

أما النقود المتداولة في الامارات الصليبية، فكانت تتمثل بالدينار الاسلامي الذي ضرب لاستخدامه في التجارة مع المسلمين، وقد اشتهر منه الدينار الصوري الذي اعتمده البنادقة ثم قاموا بسكه في مدينة صور، وهو عملة ذهبية عليها بعض النقوش العربية والآيات القرآنية. ولم يلبث هذا الدينار الصوري أن صار أكثر العملات انتشاراً بسبب جودته. وبالإضافة إلى مدينة صور، فقد وجدت دور للسكة وضرب النقود في كل من عكا وطرابلس وانطاكية، حيث كان الافرنج يسكّون النقود لا سيما الدينار الاسلامي تقليداً للدينار الفاطمي، وما لبث هذا الدينار أن حمل الشعار النصراني بالأحرف العربية. وكان تجار الشام والعراق يتعاملون بهذا الدينار تسهيلاً لأعمالهم التجارية. وهناك رأي يشير إلى أن تعامل الأوروبيين بمثل هذا الدينار الذهبي كان أول تعامل من نوعه مع مثل هذه النقود [٢].

ولم يكن للدينار الاسلامي قوة تجارية فحسب، بل كانت له قوة سياسية، لذا حرص الافرنج على تغيير العبارات والآيات القرآنية الواردة فيه، ذلك أنه عندما زار الملك لويس التاسع الامارات الصليبية في الشام بعد حملته الفاشلة على مصر في

---

(١) د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول العملات المتداولة وأسمائها انظر: د. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي، ص ٣١١ - ٣١٥.

منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، كان الدينار الصوري لا يزال متداولاً ومعمولاً به في الشام بعباراته الاسلامية. وكان البابا « انوسنت الرابع » قد حرّم استخدام هذا الدينار، فما كان من لويس التاسع إلا أن تدخل وتوسط مع المعنيين الافرنج وتوصل إلى حل وسط وهو الابقاء على هذا الدينار وقيمته الشرائية، على أن يتم تغيير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب بالعربية حتى يقبل المسلمون على التعامل به.

وكان الايطاليون بالتعاون مع الداوية والاسبتارية قد أصبحوا من أصحاب أكبر البيوتات والمصارف المالية في طرابلس وعكا وقيسارية. وقد ساهم في ذلك الصفقات التجارية بين أوروبا والشرق، مع ما رافقها من صفقات غير مباشرة فيما يعرف باسم « البورصة » (Bourse) التي كانت تقام عادة في الفندق (Fondica) حيث ملتقى التجار. وقد شارك في أعمال الصيرفة إلى جانب الايطاليين فئات من اليهود، فتطورت حركة التبادل التجاري، ووجد نظام الرهونات والشك (الصك) والمعاملات التجارية المتنوعة وقد أوجدت هذه الحركة التجارية أيضاً أوراقاً مالية وشيكات تجارية باتت مقبولة في مختلف بلاد الشام وأوروبة. كما أدى التبادل التجاري بين الشرق والغرب إلى قيام علاقات رسمية بين التجار. وذلك عبر معاهدات رسمية ضمنت قيام التجارة وحقوقها وحقوق التجار في كلا الجانبين. كما تمخضت عن هذه الحركات التجارية قيام نظام المصارف أو البنوك التي ساعدت التجار بامدادهم بالقروض، وأمدتهم بأذون الصرف (الشيكات) وبالسفاتج أي الحوالات المالية.

وكان من نتائج النشاط التجاري أيضاً بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية، ظهور عدة مدن أخرى سواء في الشرق أو الغرب، بالإضافة إلى أن هذا النشاط مهد لانهيار النظام الاقطاعي، بعد اجتذاب الفلاحين للمشاركة في الأعمال التجارية لا سيما في هذه المدن الجديدة أو المتطورة في بلدان غربي أوروبة.

## ٣ ـ المؤثرات الإسلامية الثقافية والطبية

إن اقامة الصليبيين لفترة تقارب مئتي سنة في بلاد الشام، أدت الى التبادل الثقافي مع المسلمين، كما استفادوا كثيراً من الطب العربي المعمول به في المنطقة. والواقع فإن طبيعة الاتصال البشري أدت الى تعرف الافرنج الى علوم العرب، وتعرف العرب الى العادات والتقاليد الطبية عند الافرنج.

ففيما يختص بالمؤثرات الثقافية، فقد بدأ الافرنج يتعلمون اللغة العربية ويستخدمونها أحياناً في علاقاتهم مع الامارات الاسلامية المحيطة بهم، كما أن المسلمين تعلموا اللغات الافرنجية سواء الفرنسية أو الالمانية أو الايطالية، بدليل أن الاصفهاني [1] وابن جبير وابن منقذ قد أعطى كل واحد منهم بعض الدلائل على ما أشرنا إليه، فمن جهة استخدم أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » عدة كلمات غير عربية افرنجية، كان الافرنج يستخدمونها، ومنها على سبيل المثال استخدامه لكلمة « سرجنت » (Sergeant) في قوله: « فحرد دنكري وقال: أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم، وهاولاً « سرجند » ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم » ثم استخدمها ثانية عندما قال عن أحدهم « فوقف وكان سرجندياً.. » ولما تحدّث عن صاحب طرابلس وعن جنده استخدم أسامة كلمة

---

(١) استخدم الأصفهاني في كتابه: الفتح القسيّ في الفتح القدسي، ص ٤٠٣، بعض العبارات الأجنبية ومنها: تركبولي، وسرجندي، وباروني. واسباتاري، وفريري... كما استخدم في صفحات أخرى (ص ٤٦٠) عبارة براكيس وهي مأخوذة من الكلمة الايطالية Barcoso وتعني السفينة الحربية.

« تركبول »(Turcopole) وهم جند في خدمة الافرنج آباؤهم من العرب أو الأتراك وامهاتهم من اليونان أو بالعكس. وقال إن صاحب طرابلس خرج « في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي وهم رماة الافرنج». كما استعمل أسامة كلمة البرنس (Prince) عندما تحدث عن « صاحب البيت المقدس بغدوين البرونس». واستعمل كلمة المدام والداما (Madame), (Dame) في قوله « بحق دينك اعمل للداما ... قل للداما أن تجيء ..»، كما استعمل كلمة « الفيكونت » (Viscount) عندما تحدث عن محاكمات الافرنج بقوله « فجاء البسكند وهو شحنة البلد ... » بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم اسامة بن منقذ في كتابه عبارة « بورجوازي » (Bourgeoisie) ، فعندما حاولت احدى النساء اتهام اسامة بقتل أخيها ، فما كان من أحد الافرنج إلا أن دافع عن أسامة وقال للمرأة « هذا رجل برجاسي لا يقاتل ولا يحضر القتال..»، كما أن أسامة استخدم عدة تعابير يونانية منها : « سقلاطون » وتعني الثياب الكتانية الموشاة، وكلمة « قنطارية » وتعني الرمح ، وكلمة « زربول » أو « زربولة » وتعني الحذاء[1] .

كما أن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ ، ١٢٦٠ - ١٢٧٧ ) أو كاتبه ، قد استخدم تعابير أجنبية لاتينية في رسائله، ومنها رسالة الى بوهمند السادس أمير انطاكية وطرابلس سنة ( ٦٦٧ هـ - ١٢٦٩ م )، ومن التعابير التي استخدمها في رسالته تعبير « كنداسطيل » وهو لفظ لاتيني معناه حاكم القلعة بقوله : « ... وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كنداسطيل .. » كما استخدم لفظ « المرشان » وهو لفظ لاتيني أيضاً ويعني الحفلات ، كما استخدم اللفظ اللاتيني « القسطلان » ، ويعني حارس القصر ، وذلك في قوله : « .. ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولأن للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان .. »[2] .

---

(١) انظر : أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، صفحات : ٥١ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٤١ .

(٢) انظر : المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٦٦ - ٩٦٩ .

كما استخدم الملك المنصور قلاوون أو كاتبه محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشاء بعض التعابير اللاتينية في الهدنة الموقعة مع افرنج عكا، فقد استخدم كلمة « السنجال » (Senechal) وهي كلمة لاتينية تعني نائب المملكة أو الكفيل. كما استخدم المسلمون في فترة العهد الصليبي كلمة (Empereur) « الأنبرور » (الامبراطور) كثيراً، كقول أحمد بن عبد السيد صلاح الدين الاربلي إلى الملك الكامل بعد التفاوض مع فريدريك الثاني:

زعم الزعيم « الأنبرور » بأنه سلم يدوم لنا على أقواله

ولا بد من الاشارة الى أنه بالرغم من تأثر أهل الشام باللغات الأجنبية التي استخدمها الصليبيون لا سيما الفرنسية، غير أن تأثير اللغة العربية في الافرنج كان أشمل وأكثر اتساعاً نظراً لقلة الصليبيين إذا ما قيسوا بعدد سكان المنطقة، ثم بسبب مصالحهم التجارية والسياسية رأوا أنه من الأجدى لهم تعلم واستخدام اللغة العربية، وقد دخل الى اللغات الأوروبية أكثر من ألف كلمة عربية [١]. وقد أشار ابن جبير الى استخدام الافرنج ومعرفتهم للغة العربية، عندما تحدث عن موظفي الديوان (الجمرك) في عكا. فقال عن خان عكا التجاري ومصاطبه « فيها كتّاب الديوان من النصارى.. وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها.. » [٢] بالإضافة الى أن المولدين وسادة الاقطاعات قد اتقنوا اللغة العربية [٣]. وذلك للتفاهم والتعامل مع اتباعهم المحليين ولادارة البلاد. وممن تعلم اللغة العربية واطلع على تاريخ العرب « رينو الصيداني » الذي حرص على الاتيان بمترجم وقارىء عربي، يفهمه ويفسر

---

(١) د. سعيد محمود عمران: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٥٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١١.

(٣) يذكر جوانفيل في مذكراته عن حملة لويس التاسع الكثير من المترجين الذين كانوا يتقنون اللغتين العربية والفرنسية على السواء. انظر مثلاً، ص ١٦٨، ١٨٠، ٢٠٠، ٢٤٧. كما أشار الدواداري في: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ١٢٥، من أنه كان لبيبرس كتاباً يكتبون بالافرنجي يحتاج اليهم عند مراسلة ملوك الافرنج. كما استخدم الدواداري عدداً من الألفاظ الافرنجية السائدة.

له بعض الأمور . وكان الأمير « همفري الرابع » صاحب تبنين يتقن العربية وكان ترجمان «ريتشارد» إلى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما قرب أرصوف ثم قرب يافا سنة ١١٩٢ م ، وقد قام بالمهمة نفسها بلدوين الابليني للقديس لويس التاسع في فترة أسره في مصر . كما أن نقولا العكاوي من الافرنج كان يتقن العربية وكان وسيطاً ومترجماً بين المسلمين والصليبيين في مصر أثناء الاعداد للهدنة بين الجانبين . فضلاً عن أن مبعوث سلطان مصر الى الملك لويس كان مسلماً يتقن الفرنسية والعربية على السواء . وكان نصرانياً افرنجياً سبق له أن دخل الاسلام [١] .

إضافة إلى ذلك فإن أحد مبعوثي.فريدريك الثاني إلى الملك الكامل كان يتقن العربية. وكان هذا المبعوث هو « الأخ ايفز » (Yives) البريطاني من جماعة الاخوان المبشرين ، وكان يعرف اللسان العربي » [٢] . كما أن الملك « بلدوين الثالث » والملك « املريك الأول » شغفا بالآداب العربية ، واهتم سيد صيدا « رينالد » بالعلوم الإسلامية .

والحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد أنجب أيضاً نخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين ، ويمثل كل منهم وجهة نظره في تلك الحروب ، وقد تركوا لنا تراثاً فكرياً هاماً وسجلاً حافلاً وملامح من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري [٣] . فمن بين المؤرخين الافرنج « فوشيه دو شارتر » (F. de Chartres) صاحب كتاب (Histor a Hierosolimitana) الذي وصف فيه تاريخ مملكة القدس إلى سنة ١١٥٧ م ، وكذلك فقد ترك مؤرخ فرنسي تاريخاً عن الحروب الصليبية وهو يعرف باسم النورماندي . ومنهم أيضاً غليوم (وليم) الصوري ، وله « تاريخ فيما وراء البحار » (Historia Transmarina) وهو (٣٣) مجلداً ، تناول فيه الأحداث إلى سنة

---

(١) مذكرات جوانفيل ، ص ١٦٨ ، ١٨٠ . للمزيد من التفصيلات انظر : د . عمر تدمري : الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ، صفحات متعددة من الكتاب .

(٢) مذكرات جوانفيل ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر : د . زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

١١٨٣ م. وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية. وبالإضافة الى تاريخ الافرنج في بلاد الشام، فقد ألف غليوم الصوري أيضاً كتاباً عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور النبي»: (History of the Muslims Princes to the Appearance of the Prophet). وظهر من المؤرخين الافرنج المعاصرين غليوم الطرابلسي الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية، كما ترك كتاباً في «حالة العرب» (Tractatus de Statu Sarracenorum) وذلك سنة ١٢٧٣ م، ويضم هذا الكتاب ايضاً بعض ما جاء في كتاب غليوم الصوري «الأمراء المسلمون منذ ظهور النبي». كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحملات الصليبية ومنها كتاب صدر باللغة اللاتينية وعنوانه: (Tinerarium Regis Ricardi) وقد ألفه رجل انجليزي من لندن اسمه (Richard of the Holy Trinity)، كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسية القديمة «لأمبرواز» وعنوانها: «تاريخ الحرب المقدسة» (L'Estoire de la guerre Sainte)، ووجد تقرير يمثل وجهة النظر الفرنسية، كان قد أعده «ريجور» وعنوانه: (Gesta a Philipe Angusti) وهناك مؤلفات المانية تصف حملة فريدريك بربروسة الصليبية منها ما كان تحت عنوان: (Expedition Frideric) والأمر الملاحظ أن بعض الجنود الصليبيين تركوا لنا مذكراتهم ويومياتهم عن الحروب الصليبية كانت لها أهمية كبرى في التأريخ للحملات الصليبية على غرار مذكرات الحملة الصليبية الرابعة.

وفي التأريخ للحملة الصليبية الخامسة، فقد أستفيد من رسائل الكاردينال «جيمس فيتري» وتاريخ دمياط الذي ألفه «أوليفر بادينورن» الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس. وهناك كتاب «تاريخ القديس لويس» لمؤلفه «يوحنا سير جوانفيل» (Jean Sire de Joinville) (وهو يهتم بحملة لويس القديس). كما اعتبرت المراسلات والتقارير البابوية القائمة بين البابوات وزعماء الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة. أضف الى ذلك بأن الحروب الصليبية خلّفت أيضاً مجموعة من المؤلفات الدستورية المهتمة بالاجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات

وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوروبة.

ولا بد من الاشارة الى وجود بعض المصادر الأرمنية التي اهتمت بالتأريخ للحروب الصليبية، ومنها كتاب الأمير الأرمني هايتون (هيثوم كوريكوس) الذي ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وهو المعروف باسم: (Flor des Estoires de la terre d'orient). كما كتب ابن العبري باللغتين السريانية والعربية وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القرن الثالث عشر (١٢٦٦ - ١٢٨٦). ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية ومن مؤرخي تلك الحقب: ابن بيبي الذي أرّخ لسلاجقة الروم، وتاريخ رشيد الدين عن المغول.

كما أفرزت الحروب الصليبية عدداً من المؤرخين الشرقيين ومنهم على سبيل المثال: أسامة بن منقذ، ابن جبير، ابن الأثير، ابن شداد، وابن واصل، ابن الفرات، ابن العميد القبطي، ابن عساكر، أبو شامة، القلقشندي، محمد بن علي بن نظيف (صاحب التاريخ المنصوري)، والمقريزي وسواهم. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه الكتب الغربية والشرقية، وذلك في موسوعة علمية تحت عنوان: «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

(Recueil des Historiens des croisades) Paris 1841-1960

وهي تنقسم إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى وتضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون في خمسة مجلدات وهي تحت عنوان (Historiens Orientaux).

- المجموعة الثانية وتضم ما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أخرى وهي تحت عنوان (Historiens Occidentaux)[1].

---

(١) للمزيد من التفصيلات الوافية عن مؤرخي ومصادر ووثائق الحروب الصليبية انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٨٥ - ٢٠٤. انظر أيضاً: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الاوروبي، ص ٦٨ - ٧٦.

كما تأثرت أوروبا بالعلوم الرياضية السائدة في المشرق. ويقول ارنست باركر إنه بالرغم من أن أقوى ما تأثرت به أوروبا انما جاء من المسلمين باسبانيا، غير أنها تأثرت أيضاً بما جاء من المسلمين في الشرق. فالمعروف أن أول عالم مسيحي في الجبر هو ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) الذي ارتحل الى بلاد الشام (سوريا) ومصر. وبدأ في دراسة اللغات الشرقية، لارتباطها بالبعثات التبشيرية في الشرق. كما أن المبشر الدؤوب ريموند لل (Raymundus Lullus) حثّ مجمع ڤينا سنة ١٣١١ على اتخاذ قرار بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية في أوروبا. وبالإضافة إلى هذه المؤثرات العلمية هناك المؤثرات الأدبية، إذ توافر الكثير من القصائد الجديدة التي عالجت الحروب الصليبية، إما عن طريق الرواية، كالتي اشتهرت بها قصيدة امبرواز (Ambroise) التي تروي تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، وإما في روح شاعرية حرة، كالتي انبعثت من قصيدة انطاكية [١].

وبالإضافة الى تلك النتائج، فقد شهدت الفترة الصليبية نتاجاً من الفكر الجغرافي، كما أقيمت المؤسسات العلمية لا سيما المدارس، سواء الصليبية أم الاسلامية، وشهدت الفترة ذاتها مدارس مختلطة ضمت أبناء من المسلمين والصليبيين ومن المولدين. وقد قام هذا الجيل بدور نشط في نقل التراثين الغربي والشرقي، كما كان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية، وشهدت فترة الحروب الصليبية تنوعاً في المدارس في الامارات الاسلامية، ومنها مدارس تدريس الفقه الاسلامي، تخصص معظمها لتدريس فقه مذهب واحد من المذاهب الأربعة: الشافعي، المالكي، الحنفي، والحنبلي. وكانت أكثر المدارس في بلاد الشام للحنفية، ثم للشافعية ثم الحنابلة فالمالكية. وأنشئت في دمشق وحلب كما في القاهرة مدارس خاصة بالطب [٢]، كما كان الطب يدرّس الى جانب مواد أخرى

---

(١) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢) يعتبر ابن العبري (المتوفى ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م) صاحب كتاب: تاريخ مختصر الدول من أشهر المؤرخين والأطباء في ملطية. ومن أطباء ملطية أبو سالم اليعقوبي الملطي المعروف بابن كرايا. للمزيد من التفصيلات انظر: د. علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، ص ١٧٨ - ١٨٢.

في بعض المدارس. ومن بين هذه المدارس «المدرسة النورية» التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ هـ. وقد زار هذه المدرسة ابن جبير بعد عودته من الحج، وقد أعجب بفخامتها وبكثرة المدارس في دمشق، ومما قاله: «وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة. ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوّره الله. وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله»(١).

ويلاحظ بأن بلاد الشام في هذه الفترة كانت متطورة من الناحية العلمية، وكانت مقصد طلاب العلم. وقد أكد ابن جبير ذلك، وطلب من أبناء دياره المغاربة طلب العلم من الشام، ومما قاله: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة: فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ـ وهو أكبر الأعوان وأهمها ـ فإذا كانت الهمة، فقد وجد السبيل الى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر، إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي. فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فأدخل أيها المجتهد بسلام. وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد...»(٢).

ومن بين تلك المدارس الشامية وبالذات الدمشقية مدارس: الصادرية، النورية الكبرى، العزيزية، القليجية، الأمينية، التقوية، العادلية، الشامية البرانية، العذراوية، الشريفية، العمرية، الصلاحية، الأشرفية، الوجيهية، ومن مدارس الطب المدرسة الدخوارية، وكانت في الأصل داراً للطبيب عبد الرحيم بن علي الدخوار، وقفها لتكون مدرسة للطب، ووقف عليها ضياعاً وأماكن عدة، تستثمر

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

للإنفاق منها في مصالحها وعلى مرتب المدرس، ومرتبات المشتغلين فيها. وكان أول طبيب درس فيها هو واقفها نفسه عبد الرحيم الدخوار الذي صنف كتباً عدة في الصناعة الطبية، وقد توفي سنة ٦٢٨ هـ. وكانت هناك مدارس أخرى في حلب وحماه وحمص وحران والقدس[1] وقد رأى ابن جبير بعض هذه المدارس وتحدث عنها. ومما ذكره عن مدارس حلب حينما زارها عام ٤٨٠ هـ وصفه «مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً.. وهذه المدرسة من احفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة.. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس ولها مارستان..».

والحقيقة فإن الظروف العلمية في فترة السلام في بلاد الشام شهدت ولادة الكثير من العلماء، ليس في ميدان الفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا فحسب، وإنما أيضاً في مجالات الرياضيات والفلك والكيمياء وبقية العلوم. ففي الرياضيات مثلاً ألّف علي بن خليفة لصاحب بعلبك كتاباً سمّاه: الموجز المفيد، كما ألّف كتاباً في المساحة، ووضع نجم الدين اللبودي المتوفى سنة ٦٢١ هـ كتاباً في الحساب سماه: كافية الحساب، كما ألّف نجم الدين كتاباً في الجبر والمقابلة سمّاه: الرسالة الكاملة، واختصر في الهندسة كتاب إقليدس. ووجد مهندسون بارعون منهم ابراهيم بن غنائم المصري باني المدرسة الظاهرية في دمشق. أما الكيمياء، فقد شهد عصر الحروب الصليبية رجالاً كانوا يدرسونها، ويقومون بتجاربها، بهدف تحويل المعادن الخسيسة الى الذهب. وقد اهتدى بعض العلماء المسلمين الى اختراعات حربية، كذاك الاختراع الذي أحرق أبراج الأفرنج على أبواب عكا. وأشهر عالمين في الرياضيات والكيمياء كانا من طبقة الأطباء وهما: نجم الدين بن اللبودي المولود في حلب وبلمظفر نصر بن محمود. ومن الأطباء الذين توزعوا ما بين

---

(١) أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص: ٦١ - ٦٩. للمزيد من التفصيلات الوافية يمكن العودة الى الدراسة المتخصصة التي أصدرها الدكتور حسن شميساني تحت عنوان: مدارس دمشق في العصر الأموي. انظر أيضاً: محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٦، ص ٦٦ - ١٢٩.

أنطاكية وطرابلس والقدس: ميخائيل اليعقوبي أسقف حلب، وتيودور الأنطاكي طبيب فريدريك الثاني، وباسيل الحلبي ويعقوب النسطوري الطرابلسي[1].

وهناك علماء كثر في الفلك والنجوم والموسيقى والطب. وكان الطب الشرقي أو العربي والإسلامي قد بات طباً متطوراً أخذ الأفرنج عنه الكثير. ومن الأطباء العرب المعروفين في تلك الفترة: مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، الذي طبب الملك العادل من المرض الذي ألمّ به، واسعد بن الياس، وابراهيم بن أبي الوحش، وعدنان بن نصر، وموسى بن ميمون، وأبي الحكم المغربي نزيل دمشق. وهناك اطباء وصيادلة كثر مما لا يسمح المجال بذكرهم جميعاً، علماً أن المؤلفات الطبية كانت عديدة بدورها[2]. وقد بلغ الطب المشرقي من التطور ما دعاه للاهتمام بمداواة الحيوانات وهو ما يعرف بالطب البيطري، وكانت قوانين «المملكة اللاتينية» تنظم حالة الاطباء في الممالك الأفرنجية في البلاد المقدسة، على غرار ما كان معمولاً به في البلاد الإسلامية، من ذلك انها لم تكن تسمح لأي طبيب مزاولة المهنة، قبل أن يؤدي امتحاناً تحت إشراف نقيب أطباء المملكة، وفي مجلس يرأسه الأسقف.

هذه الجذور العلمية والخلفية الثقافية،هي التي أدت إلى تطور الطب العربي، في وقت كان فيه الإفرنج يرزحون فيه تحت قيود التقاليد والعادات والمعالجات الوهمية والماورائية. وقد أكد أسامة بن منقذ في كتابه ملامح وشواهد من الطب العربي والطب الأفرنجي ومما قاله عن الطب الأفرنجي[3] «ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: احضروا عندي فارساً قد

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٥.

(٢) انظر: أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٣٠٧ - ٣٢٣.

(٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٢ - ١٣٣.

طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة إقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها، فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل. فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن اعرفه».

وروى أسامة بن منقذ قصة أخرى تبين مدى تأخر الطب الأفرنجي ومما قاله: «ومن عجيب طبهم ما حدّثنا به كليام دبور صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم. واتفق انه رافق الأمير معين الدين رحمه الله، من عكا الى طبرية وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت. فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال نعم، ومشى معنا، ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال: اعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فليّنه وعمله مثل عقد الأصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح»[1].

ويلاحظ بأن أسامة بن منقذ كان منصفاً، ففي الوقت الذي أشار فيه الى تأخر الطب الأفرنجي، أشار في مكان آخر واعترف بمهارة بعض أطباء الأفرنج في

---

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٧ - ١٣٨.

علاج بعض الأمراض، ومما قاله: «وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم، يقال له برنـاد ـ لعنـه الله ـ مـن ألعـن الأفـرنـج وأرجسهم. فرمحه حصان في ساقه فعمّلت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً. والجراح كلما ختم موضع فتح موضع، وأنا ادعو بهلاكه. فجاء طبيب افرنجي، فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان»[1]. ثم ذكر أسامة حادثة أخرى وقعت لأبي الفتح في شيزر يستفاد منها تقدم الطب الأفرنجي، كما ذكر حوادث أخرى تشير الى مدى تقدم الطب الأفرنجي، وإلى أسماء بعض الأطباء العرب مثل يوحنا بن بطلان من حلب «الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب»، والطبيب الشيخ أبو الوفاء تميم الذي عالج أسامة بن منقذ نفسه عندما ألمّ به مرض في شيزر. غيَر أن أطباء الملك «املريك الأول» كانوا من السوريين، ولما عاد للاعتماد على الاطباء الأفرنج، مرض مرضاً خطيراً، ثم ما لبث أن توفي.[2]

وهكذا يلاحظ من خلال ما أورده أسامة بن منقذ بأن العلاقات العلمية والطبية كانت قائمة في بلاد الشـام بين الأفـرنـج وبين العـرب، وأن المؤثـرات المتبادلة بين الجانبين قد ظهرت من خلال حاجات السكان الى اطباء من العرب أو الافرنج، علماً أن الطب الأفرنجي بصورة عامة لم يكن طباً متطوراً أو ناجحاً، مع الإشارة الى أن كثيرين من الأطباء الافرنج قد تأثروا بالطب العربي وبالوصفات والكتب الطبية العربية التي اطلعوا عليها، ومنها على سبيل المثال كتاب المالكي لعلي ابن عباس الذي ترجمه ستيفن البيزوي في انطاكية سنة ١١٢٧ م إلى اللغة اللاتينية. والكتاب الآخر هو «سر الأسرار» الباحث في طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية الى اللاتينية في انطاكية أيضاً سنة ١٢٤٧ م.

ولما تحدث ابن جبير عن مدارس دمشق، وبيمارستاناتها (مستشفياتها) وصف

---

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٢) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

ملامح من تقدم الطب العربي وتحدث عن أحد هذه البيمارستانات وكيفية معالجة المرضى فيه ومعاينة الاطباء ومداواتهم، كما تحدث عن البيمارستانات الخاصة بالمجانين ومما قاله «وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية اسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون اليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم.. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثوقون ـ فعون بالله من المحنة وسوء القدر ـ وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع به..»[1].

كما أشار ابن الأثير وأبو شامة في «كتاب الروضتين» الى هذه البيمارستانات في ايام نور الدين لا سيما بيمارستان الملك العادل الذي بناه في دمشق «فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير..» وأشار الى حادثة جرت معه عندما كان مريضاً فقصد ذلك البيمارستان، ومما قاله: «.. فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب، فدللت على طبيب هذا البيمارستان، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به.. سألني عن حالتي فوصفتها له، فكتب لي نسخة.. فقال: يا مولاي، لا أشك انك في غنى عن هذا، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه، والله أن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان.. أنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم..».

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨. ويذكر محمد كردعلي عن أحد بيمارستانات حلب في: خطط الشام، جـ ٦، ص ١٦٠ - ١٦١ ما يلي:
«ان كل مجنون يخص به خادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارىء حسن الصوت ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة». انظر أيضاً: د. محمد محمد مرسي الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام، ص ٤١٥.
للمزيد من التفصيلات عن البيمارستانات، انظر محمد كرد علي، المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٦٣.

## ٤ ـ المؤثرات الإسلامية المعمارية العسكرية والمدنية

عندما تحدث الرحّالة عن بلاد الشام أشاروا الى وجود المنشآت المعمارية من حصون وقلاع ومساجد وحمامات وخانات وقيساريات ورساتيق وشوارع منتظمة، وذلك قبل قيام الحروب الصليبية أو في اثنائها أو بعدها ونعطي أمثلة موجزة عن هذا الواقع من خلال ما كتبه بعض الرحّالة ومن بين هؤلاء المقدسي الذي وصف على سبيل المثال حمص بقوله: « حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج... وما كان منها على الساحل حصينة... »[١]. أما ابن حوقل فقد وصف مدينة صور بقوله: « مدينة صور من أحصن الحصون التي على شط البحر.. وإن عامة حكماء اليونانية منها » وعن بيروت فقال عنها « وهي مع حصنها حصينة منيعة السور جيدة الأهل ». وعن مدينة حمص قال: « جميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلّطة ». أما قنسرين، فكان فيها سور حصين « وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة » وكانت طرسوس « وتشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين لكافر ولا مسلم... »[٢] وكان فيها الفنادق والدور والحمامات والخانات... وتحدّث عن حصن برزوّيه « وهو حصن حصين

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٦. انظر أيضاً ما ذكره عن عكا وصور...، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤...

وحجر منيع، وقف عليه الروم غير وقت فاستحسنوه، ولم يتعرضوه، ثم هادنوا أهله خوفاً مما علق ببلاد المسلمين من الخذلان وهلاك السلطان وقلة الإيمان، وإن بقيت الحالة على ما نحن به فالأمر سهل والخوف المتوقع أعظم وأجلّ...».

وأشار الرحّالة ابن جبير المعاصر للحروب الصليبية الى المظاهر العمرانية في بلاد الشام، ومما قاله على سبيل المثال لا الحصر عن عمران مدينة حمص «وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد سامية الأشراف هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأنافة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة... حمص كلها مارستان». ثم تحدث عن عمائر دمشق ومدارسها ومارستاناتها «وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك... وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر... ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان... وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام... وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد.. ولا سيما قيسارياتها وهي مرتفعات كأنها الفناديق»[1]، ثم تحدث ابن جبير عن أبراج صور وعكا والمظاهر العمرانية في مختلف بلاد الشام.

ولما جاء الصليبيون الى بلاد الشام، وأقاموا ممالك لهم فيها، كان من الطبيعي أن يتأثروا بالفن المعماري الإسلامي، فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الأمراء والملوك منهم الطراز العربي، المنسجم مع مناخ وظروف البلاد فسكنوا في الأبنية ذات الأفنية والإيوانات الفسيحة، تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها «النوفرة» يتدفق منها الماء وينطلق من النافورة عالياً. كما تأثر الفرنج بفنون الزخرفة المنزلية، فقاموا بتصفيح الجدران والسقوف بالرخام والفسيفساء، وتمويهها بالذهب والألوان المعدنية الأخرى. كما كانت الزخرفة تغطي الجدران

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٨٢، ٢٠٢. حول القلاع والهندسة المعمارية في بلاد الشام في العهد الصليبي. انظر: محمد كردعلي: خطط الشام، جـ ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

على شكل توريقات وتكوينات هندسية تعرف بالأرابسك (Arabesque).

ثم اتخذ الأفرنج لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتلاءم معها ومع الروح الشرقية العربية، فافترشوا الطنافس والسجاد، وزينوا منازلهم بالرياش الفاخر والأواني النحاسية والآنية الزجاجية والخزفية المصنوعة في الساحل الشامي لا سيما صور.

والحقيقة فإن أول ما احتاجه الصليبيون من العمائر، كان ما يتعلق منها بأسباب الدفاع عن أنفسهم، فكان لا بد من الاهتمام بالقلاع وأسوار المدن للحراسة ولاستخدامها كمراكز إدارية عسكرية ـ مدنية. ثم قاموا بإصلاح بعض العمائر مثل أسوار بيت المقدس التي سبق أن شيدها الفاطميون، وكذلك برج داوود الذي أدخلوا عليه بعض التعديلات والتحسينات. ومن القلاع التي أقامها الصليبيون القلعة التي شيدها ريمونت كونت تولوز عند جبل الحجاج سنة ١١٠٤ لاتخاذها مقراً لقيادته في طرابلس الإسلامية. كما تم في الفترة ذاتها بناء قلاع طبرية وتبنين. غير أن العهد الزاهر لتشييد القلاع إنما بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني عشر في عهد بلدوين الثاني، واستمر زمن فولك «فلك» حين أقيم من الحصون الرائعة أمثال قلاع مؤاب وهونين وصهيون ومعاقل يهودا والصافية ويبنة. وقد اكتشف الصليبيون أن العمارة الحربية بلغت من التطور في الشرق ما يفوق ما كان موجوداً في الغرب، علماً أن المسلمين سبق لهم واقتبسوا بعض الأنظمة المعمارية عن البيزنطيين. وكانت العمارة البيزنطية ـ العربية قد تطورت عبر مراحل عديدة، فما كان من الصليبيين إلا أن أخذوا عند استقرارهم في الشرق نظام تلك العمارة المشتركة والتي قام العرب والمسلمون بتطويرها، فأضاف الصليبيون بدورهم إلى تلك العمارة بعض الملامح المعمارية التي تطلبتها الظروف العسكرية في المنطقة.

هذا وقد لاحظ الصليبيون بأن العمارة الإسلامية لها مميزات كثيرة يمكن الأخذ بها من خلال الأنظمة المعمارية الماثلة في المساجد والقصور والمساكن والحصون والحمامات والأسوار والمدارس. وكانت هذه العمارة قد ابتكرت عناصر عديدة منها العقود متعددة المظاهر والتركيب بعكس العقد الروماني الذي كان نصف

دائري فحسب، ومن تلك العقود الإسلامية: العقد المنفرج والعقد المدبب والعقد المطوّل والمنفرج والمنبعج والمنبطح وسوى ذلك من الخطوط الهندسية. والدلايات والمقرنصات والصنج المعشقة والمكعبات والمضلعات والنقوش على الجص بواسطة الحفر أو الصب، والنحت والزخرفة على الأحجار أو الأخشاب، والتي تضمنت صوراً للنباتات والحيوانات والطيور وأحياناً صور الإنسان. كما أعجب الصليبيون بالمضلعات النجمية وأشكال التوريق والتوشيح المعروف باسم الأرابسك. كما لفت نظرهم الخط العربي الذي كتب على الجدران بأساليب بارعة ومتعددة شكلت رسوماً آية في الجمال[1].

ولا بد من الإشارة بأن المؤثرات المعمارية الإسلامية انعكست على الحصون والقلاع والمباني الصليبية التي اقيمت في الشام وفي الغرب. وفيما يلي بعض هذه العناصر المعمارية التي اقتبسها الصليبيون من الشرق وهي:

١ ـ اقتبس الصليبيون عنصراً زخرفياً متصلاً بالعقد المنفوخ، وهو إحاطة هذا العقد بإطار مستطيل يوضح حدوده ومعالمه، وهو عنصر ابتكرته الهندسة المعمارية الإسلامية التي انتشر استعمالها في بلاد المشرق والمغرب معاً.

٢ ـ الشرفات البارزة أو «السقاطات»[2] وهي من المؤثرات الإسلامية في

---

(١) في وصف المقدسي لجامع دمشق بعض التفصيلات المعمارية والفنية ومما قاله عنه: «والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه، قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كباراً مؤلفة وجعل عليها شُرف بهية، وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً. وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها. ثم بُلط جميعه بالرخام الأبيض وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع. ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة في المذهبة، صور أشجار وأمصار، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مُثّل على تلك الحيطان وطليت رؤوس الأعمدة بالذهب. وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء نقوش وطروح. والسطوح كلها ملبسة بشقاق الرصاص، والشرافيات من الوجهين بالفسيفساء. وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفسيفساء ... ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزّع كل شامة الى أختها ....». المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) انظر: د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٩.

العمارة الأوروبية، وكانت هذه الشرفات قد استخدمت للمرة الأولى على بوابة قصر الحيرة الشرقي في بلاد الشام في سنة (١١٠ هـ - ٧٢٩ م)، واستخدمت فيما بعد في بوابة النصر في القاهرة، في سنة (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م)، ثم استخدمت بكثرة في الحصون الشامية في العصر الأيوبي، ومنها انتقلت إلى أوروبا بواسطة احتكاك الصليبيين بالمسلمين وتأثرهم بالعمارة الإسلامية. ونجد أمثلة من هذا التأثير في فرنسا في قصر «جايار» (Chateau Gaillard) وفي «شاتيون» (Chatillon) وفي انجلترا في «نورويتش» (Norwich) وفي «ونشستر» (Winchester). ولم تلبث هذه الأنواع من الشرفات أن انتشرت بكثرة في اوروبا في أواخر القرن الثاني عشر وفي القرنين التاليين، الثالث عشر والرابع عشر، ويتجلى ذلك في بوابة حصن «فيلنف افينيون» في فرنسا (Villeneuve - Les Avignons).

ولقد انتقلت هذه الشرفات أو السقاطات إلى الغرب باسم (Machicoli). وكانت عادة شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز عن الجدار ولها فتحات من أسفل، وتقام عادة فوق أسوار الحصن وفي أعلى مداخله، فيصبح باستطاعة الجنود من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السوائل الكيمائية أو الزيتية الحارة على المهاجمين. وكان المسلمون قد استخدموا السقاطات على نطاق واسع في شمال الشام، ثم ما لبث أن تأثر بها الصليبيون فنقلوها إلى أوروبة.

٣ - المدخل ذي المرافق المتعددة، المتمثلة بالمنحنيات والمنعطفات، وهدفها توفير إمكانيات الدفاع والتحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة. وكان المسلمون قد استخدموا هذا المدخل منذ بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور العباسي في القرن الثامن الميلادي. واستمر هذا الأسلوب يظهر في مرافق المسلمين المعمارية. وقد بدا واضحاً مدى تأثر الصليبيين بهذا الطراز من الفن المعماري، وطبقوه على القلاع التي أقاموها في بلاد الشام مثل حصن الأكراد الواقع في شمالي شرقي طرابلس الشام.

٤ ـ المقرنصات (Squinches)[١] وهو أسلوب من أساليب النظام المعماري الإسلامي، وكانت أول قبة إسلامية قائمة على مقرنصات معقودة هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان التي بنيت في سنة (٢٢١ هـ ـ ٨٣٦ م). كما استخدمت في كثير من عمائر المسلمين. والمقرنصات عبارة عن طبقات مصفوفة ببراعة فنية ولا يقصد فيها الزخرفة فحسب، بل هي ركن هام في الهندسة المعمارية لا سيما في بناء القباب والمآذن. وهي في المآذن تستخدم عادة أسفل دورات المؤذن لإيجاد البروز الذي يتحرك فيه المؤذن. فهي بمثابة الكوابيل التي نشاهدها في أسفل الشرفات لحملها. وتظهر المقرنصات بشكل واضح في مسجد الحمراء في قرطبة وبشكل ملفت للنظر. وقد اعتمدها الصليبيون في بناء قلاعهم وحصونهم وكنائسهم وأبنيتهم عامة. وقد أشار ابن جبير الى هذه المقرنصات عندما تحدث عن جامع حلب فقال: «وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته..»[٢].

٥ ـ المتراس (Portcullis) وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام المعماري الإسلامي، وهو عبارة عن إطار من الحديد مدبب الأطراف من أسفله، وهو ينزلق عمودياً في جانبي باب الحصن كالشبكة ويسدل بواسطة سلاسل حديدية أو حبال متينة عند محاولة العدو اقتحام القلعة.

٦ ـ البربقان (Barbican) والبربقان أو البربخان كلمة عربية فارسية الأصل، تطلق على البرج الكبير الذي يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المليء بالماء والمحيط بالحصن. وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام فطبقوه على قلاعهم في بلاد الشام، كما نقلوه معهم الى أوروبا. ومما قاله ابن جبير عن نظام الأسوار والخنادق المطبق في قلعة حلب «... سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، والماء ينبع فيه».

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ١١٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٧٩.

٧ ـ الأبراج، ولقد عرف المسلمون هذا النظام وطبقوه في عمائرهم العسكرية والدينية، وكانت أبراج الكنائس في طليطلة صورة مطابقة لأبراج ومآذن المغرب والأندلس، وتبيّن بأن بعض الأبراج الأوروبية بدت كأنها مآذن أندلسية. وكانت قلعة حلب في بلاد الشام من القلاع العسكرية الهامة، وقد تميزت بسورها وتعدد أبراجها، وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام في بلاد الشام. ومما قاله ابن جبير عن قلعة حلب: «وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي الى وصفه، وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طيقاناً. وكل برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية».

ومن المفيد واعتماداً على منهج الدراسة التاريخية المقارنة، كان لا بد من الإشارة الى أوضاع العمارة والمظاهر العمرانية بعد انتهاء الحملات الصليبية وانتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، وذلك من خلال ما ذكره الرحّالة ابن بطوطة في الرحلة التي بدأها ابتداء من السنة (٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٦ م). فقد أشار الى وضع سور مدينة القدس بقوله: «وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها، ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها»[١]. أما وضع مدينة عكا حسبما وصفه ابن بطوطة فقال: «فوصلت الى مدينة عكا، وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الأفرنج بالشام ومرسى سفنهم.. ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب..» وبعد أن أشار الى مدينتي صيدا وطبريا، وصف مدينة بيروت وأسواقها «ثم وصلت الى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الفخام... تملكها الروم زماناً، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت..»[٢]، أما مدينة حلب فقد جاء فيها وصف لقلعتها بقوله: «لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة

---

(١) ابن بطولة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ١، ص ٧٦.

(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧.

الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع..»، ثم اكمل وصف ابن جبير لهذه القلعة التي سبق أن أشرنا اليه.

وبعد أن وصف ابن بطوطة حلب وجبلة، تحدث عن حصن القصير فقال فيه هو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردي... ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس، وهو منيع في رأس شاهق. أميره سيف الدين الطنطاش..»[1]. وبالمناسبة فقد أشار ابن بطوطة الى استمرار العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين بعد انتهاء الحروب الصليبية، ومما قالـه: «وبخارج اللاذقيـة الديـر المعـروف بـديـر الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق. وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه.. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين..»[2] أما حصن المرقب فهو «من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك، وبناؤه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته، وافتتحه من يد الروم الملك المنصور قلاوون..»[3].

وهكذا يلاحظ استمرار بعض الملامح العمرانية في زمن ابن بطوطة بينما دمر أو خرب البعض الآخر، علماً أن بعض المناطق شهدت تطورات عمرانية تبعاً لتطور الظروف العسكرية والسياسية، أو تبعاً للمقتضيات السكانية.

ويذكر ابن الجيعان المعاصر للمماليك أوضاع بعض القلاع الشامية في عهد السلطان قايتبـاي الـذي اطلع على هذه القلاع خلال رحلته (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ ـ ١٤٦٧ ـ ١٤٩٦م) ومما قاله عن عمائر وميناء وحمامات اللاذقية «هي بناء عظيم محكم، بها دكاكين كثيرة خراب وعامر، وضع الروم، كان بها ثلاث قلاع متلاصقات، وإلى الآن خراب، وهي واسعة الغناء، عالية البناء، بمينة مستديرة، بها مخازن وبرجان على فوهتها، بها سلسلة عظيمة... وميتها مستديرة تسع من

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، جـ ١، ص ٩٢.
(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٩٩.
(٣) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٩٩.

داخل السلسلة سبع مراكب متلاصقة كبار ، وبها حمامات عـامـرة وخـراب » .
وأضاف ابن الجيعان بأن المسلمين نقلوا عن الأفرنج بعض الصناعات منها الطواحين. ومما قاله: « ان باللاذقية طاحوناً تدور مع الريح حيث كان يميناً وشمالاً ، شرقاً وغرباً ، ويطحن بها على عادة طواحين الفرنج الى الآن ، وإذا طحنت مستمرة في طول اليوم والليلة تطحن اثني عشر اردباً بالكيل المصري وعمل الطاحون المذكورة شخص من اللاذقية كان أسر ببلاد الفرنج وشاهدها عندهم، ولما خُلّص وحضر إلى بلده عملها وهي اعجوبة »[٦] .

---

( ١ ) ابن الجيعان: القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، ص ٥٨ ـ ٥٩ . وحول العمارة الاسلامية الى فترة العهد العثماني. انظر مقالنا: « العمارة في العهد العثماني من خلال سجلات المحكمة الشرعية في بيروت » في المجلة المعمارية ـ العدد الأول ١٩٨٥ ، ص ٨٥ ـ ٨٩. كلية الهندسة المعمارية ـ جامعة بيروت العربية.

## ٥ ـ المفاوضات السياسية والسلمية بين المسلمين والإفرنج

كان من طبيعة الحروب أن يجري خلالها أو بعدها الاتصالات والمفاوضات السياسية، وقد جرى مثل هذه الاتصالات بين المسلمين والافرنج خلال الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكان لهذه الاتصالات طابع الحدة حيناً، وطابع اللين حيناً آخر. وكانت الاتصالات في إحدى مراحلها عبارة عن تهديدات واتهامات، بينما كانت في مراحل أخرى تعبر عن مدى تفهم الجانبين لبعضهما البعض.

فبعد موقعة حرّان بين الصليبيين والمسلمين في عام ٤٩٧ هـ - ١١٠٤ م، وانتصار المسلمين، كان من بين الأسرى بلدوين أف بورج أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر وبندكت رئيس أساقفة الرها وقد وقعوا أسرى في قبضة جكرمش صاحب الموصل. وبعد حوالي خمس سنوات أي عام ١١٠٩ م اطلق سراح جوسلين الذي سعى لإطلاق سراح بلدوين اف بورج. وكانت الفدية التي تقررت على بلدوين سبعين ألف دينار، فأخذ جوسلين معه ثلاثين ألف وذهب إلى قلعة جعبر ووضع نفسه رهينة مكان بلدوين وأخرجه من سجنه. ولما علم صاحب الموصل بأن جوسلين عاد إلى السجن تعجب وطلب رؤيته واللقاء به لما سمعه عن وقاره وهيبته. فلما رآه صاحب الموصل خفض الفدية عشرة آلاف دينار، فركع جوسلين ثم سجد على الأرض تعبيراً عن تقديره واحترامه وشكره لصاحب الموصل، فخفض له عشرة آلاف دينار أخرى. وفي اليوم التالي ألتقى صاحب الموصل بجوسلين وطلب منه الركوب على حصانه وإعطاء سلاحه، ثم أعاد له كل

ما قدمه من فدية، فما كان من جوسلين إلا أن جدد شكره، وعاد مسروراً[1]:

وكانت الاتصالات قد استمرت الى عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده، ومن بين هذه الاتصالات رسالة امبراطور الروم «ايساكيوس» الى صلاح الدين، تضمنت التحذير من عبور ملك الألمان بجيشه بلاد الروم في طريقه الى بلاد الشام، كما تضمنت المودة القائمة بين الشخصين ومما جاء في هذه الرسالة: «المحبة والمودة، وقد وصل خط نسبتك الذي انفذت الى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي.. ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول الى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى.. وما اظن انه سمع نسبتك اخباراً ردية. وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم... وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي. وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك. وبعد ذلك كله العجب كيف نسيت الذي بيني وبينك؟ وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم. ولا بد لنسبتك، كما قد كتبت لملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من انفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم»[2].

والأمر الملاحظ في هذه الفترة أن ملك الأرمن كاغيكوس صاحب قلعة الروم

---

(١) Michael Le Syrian; Chronique, Vol. III, p. 195-196, Ed. chabot 1899-1910؛
د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، ٤٩٣ ـ ٥٣١ هـ، ١١٠٠ ـ ١١٣٧ م، ص ٣٥، انظر أيضاً: ص ٦٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ انظر أيضاً: د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

الواقعة على أطراف الفرات، أرسل رسالة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي حذّره فيها وأخبره عن تحركات ونشاطات ملك الألمان، كما أرسل له عدة تقارير حول التحركات الألمانية في المنطقة. وهذه دلالة على أن ملك الأرمن كان في هذه الفترة من مؤيدي السلطان صلاح الدين ضد الافرنج[1].

وبعد معارك عكا وانتصار الصليبيين جرت مفاوضات بين الفرنج وبين صلاح الدين دارت حول فك الأسرى المسلمين مقابل مائة ألف دينار تدفع على ثلاث دفعات. ومما قاله صلاح الدين في رسالته الى ملك الصليبيين في عكا: «أما أن ترسلوا إلينا أصحابنا، وتتسلموا الذي عيّن لكم في ذلك النجم، ونعطيكم رهائن على الباقي، تصل إليكم في نجومكم التالية، وأما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا الينا أصحابنا». غير أن الصليبيين لم يتجاوبوا مع مطالب صلاح الدين.

وأثر ذلك جرت مراسلات بين ملك الإنجليز وبين صلاح الدين، أوردها ابن شداد في «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وقد طلب ملك الإنجليز الذي احتل عكا عقد اجتماع للتفاهم مع السلطان صلاح الدين، فما كان من الأخير إلا أن أرسل إليه رسالة حدد فيها مفاهيم وقواعد الاجتماع ومما قاله: «الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط، يفهم كل واحد منا ما يقوله الآخر. فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان فإذا أسفرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى»[2]. وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين عبر الملك العادل شقيق صلاح الدين. وفي إحدى رسائل ملك الإنجليز عرض الصلح على المسلمين، ومما قاله لصلاح الدين عبر الملك العادل: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد

---

(١) انظر: ابن شداد: النوادر، ص ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ١٦٣.

الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم».

فما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن رد على هذه الرسالة بقوله: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً... ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»[1].

فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن أرسل رسالة أخرى إلى صلاح الدين تضمنت ضرورة التفاهم على تقسيم البلاد بينه وبين الملك العادل، ومما قاله: «اني احب صداقتك ومودتك، وانك ذكرت انك اعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف.. ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه، ولا عليّ لوم من الأفرنجية»[2]. وأردف الملك الإنجليزي هذه الرسالة برسالة أخرى حول القدس وتقسيم مناطق النفوذ بطريقة سلمية وقال: «أنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد، وإن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في ايديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة»[1]. ومما قاله لصلاح

---

(١) ابن شداد: النوادر، ص ١٩٤.

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

الدين في رسالة أخرى « .. والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني، بل المصلحة.. ».

هذا وقد استمر الملك الإنجليزي في مفاوضاته ومراسلاته مع صلاح الدين مبدياً ضرورة إحلال السلام في المنطقة، ومما قاله في إحدى رسائله: « لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم. وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشنق سمعوا وأطاعوا. أن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طالبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو اعطيتني مقرعة أو خربة لقبلتها وقبّلتها »[٢].

والحقيقة فإن القدس كانت من أهم الموضوعات الدينية والعسكرية والسياسية التي تضمنتها المفاوضات بين الجانبين. وقد أشار رسول ملك الإنجليز في رسالتـه الى صلاح الدين بقوله: « إن الذي اطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلاً، وإن من سكن من النصارى والأفرنج لا يتعرض إليهم. وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم. وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح، وأن الانكتار لا بد له من الرواح الى بلده »[٣] وقد أرفق الملك مع هذه الرسالة هدية.

هذا وقد أبدى صلاح الدين تجاوباً مع العروض الأفرنجية حول السلام، فقد جاء في رسالته إلى ملك الإنجليز: « إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول، فما جزاء

---

(١) ابن شداد، النوادر، ص ٢٠٥.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٧٧.

الإحسان إلا الإحسان. ابن اختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا اعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة، وبقية البلاد نقسّمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العملين تكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها تكون لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان»[1].
وقد جاءه رد بموافقة الملك الإنجليزي على هذه المقترحات، غير أن صلاح الدين اشترط شرطاً حول القدس وهو أنه ليس للأفرنج حق السيطرة عليها، باستثناء السماح لهم بزيارتها. وقد وافق الملك الإنجليزي على ترك القدس كلية، وأفراغها أيضاً من الرهبان والقساوسة باستثناء كنيسة القيامة، وبذلك «يكون الصلح عاماً... وينتظم الحال ويروح.. وإن لم ينتظم الصلح، فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم».

وفي سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م عقد صلح الرملة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والافرنج بعد معارك في مناطق عديدة. وقد أشار المقريزي الى هذا الصلح بقوله: «... وعقدت هدنة عامة في البر والبحر... على أن يكون للفرنج من يافا الى صور وطرابلس وانطاكية ونودي في الوطاقات وأسواق العسكر؛ ألا ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح مشهوراً عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور، لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة، ودخل جلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم. ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان الى القدس...»[2].

وبعد فترة جرت مراسلات بين الجانبين، تضمنت مدى الخلاف الواقع حول

---

(١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٢) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ١١٠.

عسقلان وما يجاورها، وحول الصلح مع انطاكية. واستمرت المفاوضات بين مد وجزر، فما كان من صلاح الدين إلا أن هاجم يافا وأوشك إسقاطها، فاضطر ملك الإنجليز الى التدخل مجدداً لدى صلاح الدين متوسلاً الصلح، ومما قاله: «بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا امر لا بد له من آخر، قد هلكت بلادي وراء البحر، وما دام هذا لا مصلحة لا لنا ولا لكم». ثم استمرت المفاوضات السابقة بين الجانبين حول قضية عسقلان ومن سيحكمها.. فرفض صلاح الدين التنازل عن عسقلان، فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن قال: «لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود الى بلادي..»[1]، ومما اقترحه للملك العادل حول الصلح المقترح، اعطاؤه عسقلان «فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية». غير أن صلاح الدين لما علم بأمر هذا العرض رفضه وقال لأخيه: «إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم». ثم انتهت الأمور إلى فتح المسلمين لعسقلان.

وكثيراً ما التجأ قادة الافرنج الى صلاح الدين لحمايتهم من ظلم جماعتهم. ومن بين هؤلاء «المركيس» صاحب صور الذي التجأ ليلاً وزوجته هرباً من الأفرنج. ويقول ابن شداد في «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أن صاحب صور «أخلد الى السلطان والاعتضاد به. وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج فإنه كان أشدهم بأساً، وأعظمهم للحرب مراساً، واثبتهم في التدبير أساساً. وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه. فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به»[2].

وبعد أن وصل الى صلاح الدين من بيروت خمسة وأربعون أسيراً من الافرنج، وتحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم، وسأله عن سبب مجيئه الى

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ ٤، ق ٢، ص ٨١.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٥٧.

بلاد الشام، فرد الافرنجي قائلاً: «وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور». فما كان من السلطان إلا أن رقّ له ومنّ عليه بإطلاق سراحه، «وقد أخرجه من ذل الرق الى عز العتاق. ورده إلى الفرنج راكباً على فرس، ولم ير قتله ولا أسره، حيث رأى نفساً مرتهنة بنفس». كما منع السلطان بعض الشبان من قتل بقية الأسرى ولما سئل عن سبب ذلك قال: «لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم»[1].

وبعد فتح المسلمين لعسقلان ويافا عُقد الصلح مع الإفرنج وصوّر صلاح الدين وضع الافرنج بعد الهزيمة في رسالة أرسلها الى العزيز قال فيها: «.. واقتنعوا بيافا وعكا وصور، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور، ورأوا عزهم في ذلهم، وصونهم في بذلهم، وسلامتهم في سلمهم وغناهم في عدمهم، ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد، وهانوا بعد الاعتزاز.. مدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين: ثلاث سنين وثمانية أشهر.. ولقد كان الخادم للمسلم متكرها، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها، ولكنه اجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة، وأن صفة الكفر فيها خاسرة، وصفقة الإسلام رابحة. وأن في إطفاء هذه الجمرة، وقد وقدت، سكوناً عاماً وأمناً تاماً، وتفريقاً لجمع الكفار بشمل النصر عليهم ضاماً، فهي سلم انكى من الحرب فيهم، وإنها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم»[2].

وبعد تمام الصلح بين الجانبين أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق إلى أن الصلح قد انتظم في سائر البلاد «فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل... إن طريق الحج قد فتح من الشام...».

---

(١) الأصفهاني: الفتح القسيّ في الفتح القدسي، ص ٤٧١.

(٢) الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٦٠٦ - ٦٠٩.

وكان أمير انطاكية قد أظهر المودة والسلم لصلاح الدين الذي استقبله استقبالاً لائقاً وقد وصف الاصفهاني هذا اللقاء بقوله: « إن الابرنس الانطاكي قد وصل الى الخدمة، مستمسكاً بحبل العصمة، داخلاً حكم الذمة... وإذن للابرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمثول، وقربه وآنسه، ورفع مجلسه. وأظهر له البشاشة والهشاشة... وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً... أجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء... وانصرف المذكور مسروراً، بين أسرته مذكوراً، محبواً بالمنح والمنن محبوراً »[1].

وفي سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٣٠ م، بدأت المفاوضات بين امبراطور صقلية فريدريك الثاني وبين الملك الكامل، ودارت حول قضية القدس[2]. والمعروف عن فريدريك الثاني انه كان ضد الحملات الصليبية الى المشرق، وعرف عنه صلاته الحميمة مع المسلمين - وقد فصّلنا ذلك في دراستنا السابقة عن صقلية - وقد طلب في إحدى رسائله إلى الملك الكامل عدم إحراج موقفه أمام البابا والافرنج، وسأله إذا كان يوجد إمكانية لتسليم القدس مقابل دفع دخلها للملك الكامل، ومما قاله: « اني عتيقك، وتعلم إني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي. وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية، وانتم قد خرّبتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك »[3]. وكان فريدريك الثاني قد تعهد بتطبيق ما جاء في المعاهدة - التي عقدت فيما بعد - من بنود وقد قيل في ذلك التعهد ما يلي:

زعم الزعيم الانبرور بأنه ... سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً ... فليأكلنْ لذاك لحم شماله

---

(١) الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٦١٨.

(٢) انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) انظر: د. محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨. نقلاً عن: الذهبي، كتاب العبر في خبر من عبر، جـ ٥، ص ١٠٢.

غير أن الملك الكامل امتنع عن تسليم القدس إلا وفق شروط منها « إنه يبقى خراباً ، ولا يجدد سوره ، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة ، بل يكون جميع قراياه للمسلمين ، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه ، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين ، وشعار المسلمين فيه ظاهر ، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام المسلمين ... » . ورأى الملك الكامل « إنه إن شاقق الانبرطور ولم يفِ له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنج ، ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج سببه ، فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس ضراباً ويهادنهم مدة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء »[1] .

ويصف ابن واصل ردود الفعل الإسلامية ضد قرار الكامل بقوله : « لما نودي بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليم القدس إلى الفرنج ، وقع في اهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم . وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين ـ قدس الله روحه ـ لكن علم الملك الكامل رحمه الله ان الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وإنه إذا قضى غرضه واستتب الأمور له ، كان متمكناً من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه » وقد دافع الملك الكامل عن موقفه بالقول : « إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله ، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه ، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه واعماله »[2] .

ويبدو أن فريدريك شعر بما يعاني الكامل منه من إحراج امام المسلمين . فلما

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ . انظر أيضاً عن ردود الفعل الاسلامية : Grousset; op. cit. III, p.300.

(٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ . انظر أيضاً عن ردود الفعل ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ . انظر أيضاً : المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣١ .

نزل القدس وقام بزيارة المسجد الأقصى، رأى قسيساً وبيده الإنجيل ويهمّ لدخول المسجد، فما كان من فريدريك إلا أن صرخ في وجه القسيس امام جمهرة المسلمين قائلاً له: «ما الذي اتى بك إلى هاهنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذني لآخذنّ ما في عينيه. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدّق عليّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى احد منكم طوره. فمضى ذلك القسيس وهو يرعب خيفة منه. ومضى الانبرطور إلى الدار التي عُيّن نزوله فيها، فنزل بها»[1] في ٦٢٧ هـ - ١٩ آذار (مارس) ١٢٢٩ وتوّج نفسه أمبراطوراً في كنيسة القيامة، ثم قفل عائداً إلى عكا، ثم ما لبث أن انصرف إلى غربي أوروبة[2].

ولما توفي الملك الكامل وتولى الحكم ابنه الملك العادل سيف الدين استمرت المراسلات والمفاوضات بين الجانبين وقد عقد اجتماع بين الملك العادل وبين الملك الانجليزي، وقد ضرب الملك العادل ثلاث خيام، «أعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام». وقد طالت المباحثات بين الملكين انتهت باتفاقهما «ثم افترقا عن موافقة أظهراها، ومصادقة قرراها...» وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس «وإنه يرغب في سلوك نهج التأنيس. وأن يكون للسلطان مصالحاً، وله على الطاعة مصافحاً، حتى يقوى يده على ملك الإنكتير [الانجليز] ويتفرد هو بالملك والتدبير. وعرف ملك الانكتير بالحال، فوصل رسوله ايضاً بالإحفاء بالسؤال. ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت، ونسخ إيمان حررت»[3].

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٤ - ٢٤٥. المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.
حول مشكلة تسليم القدس أنظر أيضاً: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.
Runciman: History of the Crusades, II, p.169, 184-185.
Wiet; G; L'Egypte arabe. Histoire de la Nation Egyptienne IV, pp.352-355.

(٢) Stevenson; The Crusaders in the East, p.314.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٥٦٠

واستمرت العلاقات السياسية والعسكرية والمفاوضات السلمية في عهد المماليك، وكان هذا العهد كالعهد الأيوبي، يتخلله الحرب والسلام بين المسلمين والصليبيين. ففي عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ، ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) جرت حروب ومفاوضات مع الفرنج، ومنها حروبه ومفاوضاته من اجل طرابلس وعكا. فبعد أن نقض الافرنج المعاهدة المعقودة مع بيبرس، زحف السلطان إلى عكا لإحتلالها، فما كان منهم إلا أن طلبوا مجدداً العمل بالهدنة السابقة، ومما قاله في رسالته إليهم: «من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة.. فأي شيء تعلمون؟ وماذا تحيطون علماً؟ ولم لا أعطيتم لوالي غزة الكتاب الذي كنا سيّرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر»[١].

ولما تولى شارل حكم صقلية، تفاوض مع الملك الظاهر بيبرس، وكانت المفاوضات تدور حول نية الملك شارل بعقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك، وأن يكون نفوذ شارل مقبولاً عند المماليك، وأن يكون نفوذ بيبرس مقبولاً في صقلية. كما جرتْ مراسلات بين بيبرس وملك قبرص دارت حول نتائج بعض المعارك العسكرية التي خاضها المسلمون ضد القبارصة، ولم تخل هذه المراسلات من الحدة والتحدي.

ومن يطلع على القلقشندي يطالع الهدنة المعقودة بين الملك بيبرس وبين مقدمي الاسبتارية المسؤولين عن عكا وحصن الأكراد وحصن المرقب وبعض مدن الساحل الشامي. وقد عقدت هذه الهدنة في عام (٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م)، وكانت مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. ومما جاء في مقدمتها: «.. على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٤٨٣. انظر أيضاً رسالة أخرى أرسلها بيبرس للافرنج حول موضوع قلعة الشقيف انظر: الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ١٢٥. وبعد السيطرة على انطاكية انظر الرسالة المميزة التي أرسلها بيبرس الى صاحب انطاكية في المصدر نفسه، ص ١٢٨ - ١٣١.

لمباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراها وضياعها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها وفروعها ومعطلها وطرقاتها ومياهها وقلاعها وحصونها، على ما يفصّل في كل مملكة ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة الى آخرها». ولوحظ في هذه المعاهدة، اهتمام الجانبين بالعوامل الاقتصادية التي تتحكم بالجانبين، كتوزيع الغلات الزراعية بينهما مناصفة في المناطق التي حددتها المعاهدة. ومما جاء في خاتمتها: «على أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقضي بموت أحد من الطرفين ولا بوفاة ملك ولا مقدم الى آخر المدة المذكورة»[1].

كما جدد بيبرس المعاهدة التي سبق ان عقدها مع ملكة بيروت، التي اعطته الحق بحكم بيروت في حال غيابها عن المدينة. فبينما تضمنت المعاهدة الجديدة التي عقدت سنة (٦٦٧ هـ - ١٢٦٩ م) الاستمرار في المواثيق المعقودة بين الأفرنج وبين الأيوبيين. ومما جاء فيها أيضاً: «ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة، وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً..»[2].

وفي عهد السلطان الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) استمرت حالات التوتر والحروب والمفاوضات أيضاً بين الأفرنج والمسلمين. وقد عقد قلاوون هدنة مع الملك بوهمند صاحب طرابلس الشام، وذلك في العام (٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م) وقد تضمنت ايضاً ضرورة إحلال الأمن والسلام في المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على مصالح الرعايا من

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٤، ص ٣١ - ٣٩.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٤٠ - ٤٢.

الجانبين[1]. كما عقدت هدنة بين السلطان قلاوون وبين مملكة عكا وصيدا في (٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٣ م) تضمنت عدم التعدي على رعايا الافرنج والمسلمين في مختلف المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على سفن التجار من الجانبين. ثم اقسم ملوك عكا وصيدا على احترام الهدنة، ومما جاء في نص القسم الافرنجي: « والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحق المسيح.. وحق الصليب.. وحق الأقانيم الثلاثة.. انني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي وأصفيت طويتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة... وانني والله وحق ديني ومعبودي اسلك في المعاهدة والمهادنة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال، وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة... ومتى خالفتها.. يكون عليّ الحج الى القدس الشريف ثلاثين حجة حافياً حاسراً، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلم من أسرى الفرنج وإطلاقهم.. »[2].

كما أن الملك المنصور قلاوون أقسم بدوره على تنفيذ ما جاء في هذه الهدنة، ومما قاله في نص القسم: « والله والله والله.. وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.. انني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة.. وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها.. وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج الى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاسراً ثلاثين حجة، ويلزمني صوم الدهر.. »[3].

---

(١) انظر: ابن الفرات، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية، ص ٣٠٦ ـ ٣١٣، نقلاً عن: ابن عبد الظاهر: كتاب تشريف الأنام والعصور، ص ٣٤ ـ ٤٢.

(٣) تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢. من يطلع على مذكرات حوانفيل في اطار المعاهدات بين المسلمين والصليبيين إثر حملة لويس التاسع على مصر عام ١٢٤٨ م، يرى تشابهاً في نصوص القسم عند المسلمين فعندما أقسم الأمراء المسلمون للملك على مراعاة المعاهدة معه =

وفي العام (٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) توالت عقد المصالحات، فعقد الملك قلاوون هدنة بينه وبين ملكة صور «مرغريت بنت السير هنري ابن الملك بوهمند»، وكان لها بنود اقتصادية وسياسية تتعلق بالتجار والمسافرين والمقيمين وحدود المناطق والغلات، وكيفية دفع الديات بين الجانبين[1].

هذه النماذج من العلاقات السلمية والمفاوضات والاتصالات السلمية حتّمت انعقادها الظروف العسكرية والسياسية والاقتصادية والإجتماعية، التي سادت المنطقة سنين طويلة، فأثرت إيجاباً أو سلباً على القاطنين في بلاد الشام من المسلمين والافرنج، فاضطرتهم أحياناً الى إحلال السلام، كما كانت تضطرهم في أحيان أخرى إلى مواصلة القتال. مع الإشارة الى أن طبيعة الحروب تؤدي عادة إلى مفاوضات سلمية وليس بالضرورة الى السلام. ولهذا فقد استمر المسلمون على قناعاتهم بضرورة استرجاع أملاكهم وأراضيهم، الى أن حققوا ذلك وأجلوا الصليبيين عن بلادهم بعد إقامة استمرت ما يقارب مائتي عام،وذلك بتحرير عكا عام ١٢٩١ م آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام.

وهكذا، يلاحظ بأن الحروب الصليبية في بلاد الشام، وما رافقها من علاقات عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية في الفترة الممتدة بين ١٠٩٨ - ١٢٩١ م، قد اعطت نتائج هامة في ميدان الحرب والسلم، وفي تاريخ العلاقات الغربية - الشرقية، والمسيحية - الإسلامية. ويلخّص «رنسمان» مفهومه لنتائج الحرب الصليبية فيقول: «إن الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم

---

= قالوا له: «فإنهم يفقدون شرفهم ويصبحون أشبه بالرجل الذي تحمله خطيئته الى أن يحج الى مكة عاري الرأس...» وبالمقابل فإن الملك أقسم على تنفيذ بنود المعاهدة. للمزيد من التفصيلات انظر: مذكرات جوانفيل: القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ص ١٦٧ - ١٦٩.

(١) د. محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٣١٦ - ٣٢٣. نقلاً عن: ابن عبد الظاهر: تشريف الانام والعصور، ص ١٠٣ - ١١٠. للمزيد من التفصيلات عن نماذج من هذه المعاهدات الى عهد خليل بن قلاوون انظر: كتاب تشريف الأنام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور. المكتبة الصقلية، ص ٣٣٩ - ٣٥٢.

المسيحي الشرقي من المسلمين، فلما انتهت الحروب الصليبية أضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعا لحكم المسلمين.. أن فترة الحروب الصليبية تعتبر من اهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية. فحينما بدأت، لم تكد أوروبا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد، والتي يطلق عليها العصور المظلمة. فلما انتهت، كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الأوروبية تأخذ في الظهور..» ويرى «لوبون» في نتائج الحروب الصليبية الشيء الكثير، ويلخص ذلك، بقوله: وإذا نظرنا الى الحروب الصليبية من حيث هدفها القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تسفر عن أية نتيجة، على الرغم مما خسرته أوروبة في قرنين من المال والرجال، وقد بقي المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أرادت أوروبة الاستيلاء عليها بأي ثمن.. فأما الشرق فكان يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الجهالة والهمجية.. إن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيماً بفعل الحروب الصليبية، وإن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب... إن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة وانه انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبة من علوم العرب وآدابهم عصر النهضة الحديث[1]. ورأى العلاّمة المتدّين مسيو «بارتلمي سان هيلر» (Barthelmy Saint Hilaire) أثر المسلمين والعرب في أوروبة كبيراً وهاماً ومما قاله:

«لقد هذّبت طبائع امرائنا الإقطاعيين الخشنة الغليظة في القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب وتقليدهم لهم، لقد تعلّم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق من العرب دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم. وانني لأشك في أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل ذلك التأثير مهما يبالغ في كرمها»[2]..

---

(١) لوبون: حضارة العرب، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ وصفحات متفرقة

(٢) د. سعيد عاشور: المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ٢١٠. نقلاً عن:
Barthelmy saint Hilaire; Mahomet et le Coran.

وأوضح العلاّمة جوستاف فون جروينباوم (Grunebaum) رأيه في مدى أثر الإسلام في أوروبة سواء في إبان فترة الحروب الصليبية أو سواها من الفترات، ومما قاله: « .. وعلى حين كان للحروب الصليبية أثر أقوى على الأدب العربي بل وعلى العواطف الشعبية بوجه الإجمال، فمن الجلي انها أثرت في الفكر الأوروبي والمثل العليا الأوروبية، وكذلك في أنواع الأدب الأوروبي المختلفة تأثيراً أعمق كثيراً وأكثر دواماً »، وأضاف قائلاً: « وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى.. وكانت الحروب الصليبية، من كثير من النواحي، أعظم مغامرة أقدم عليها الإنسان في العصور وأبعدها أثراً... قد تركت جميعاً آثارها ببلاد الغرب في القرون الوسطى »[1].

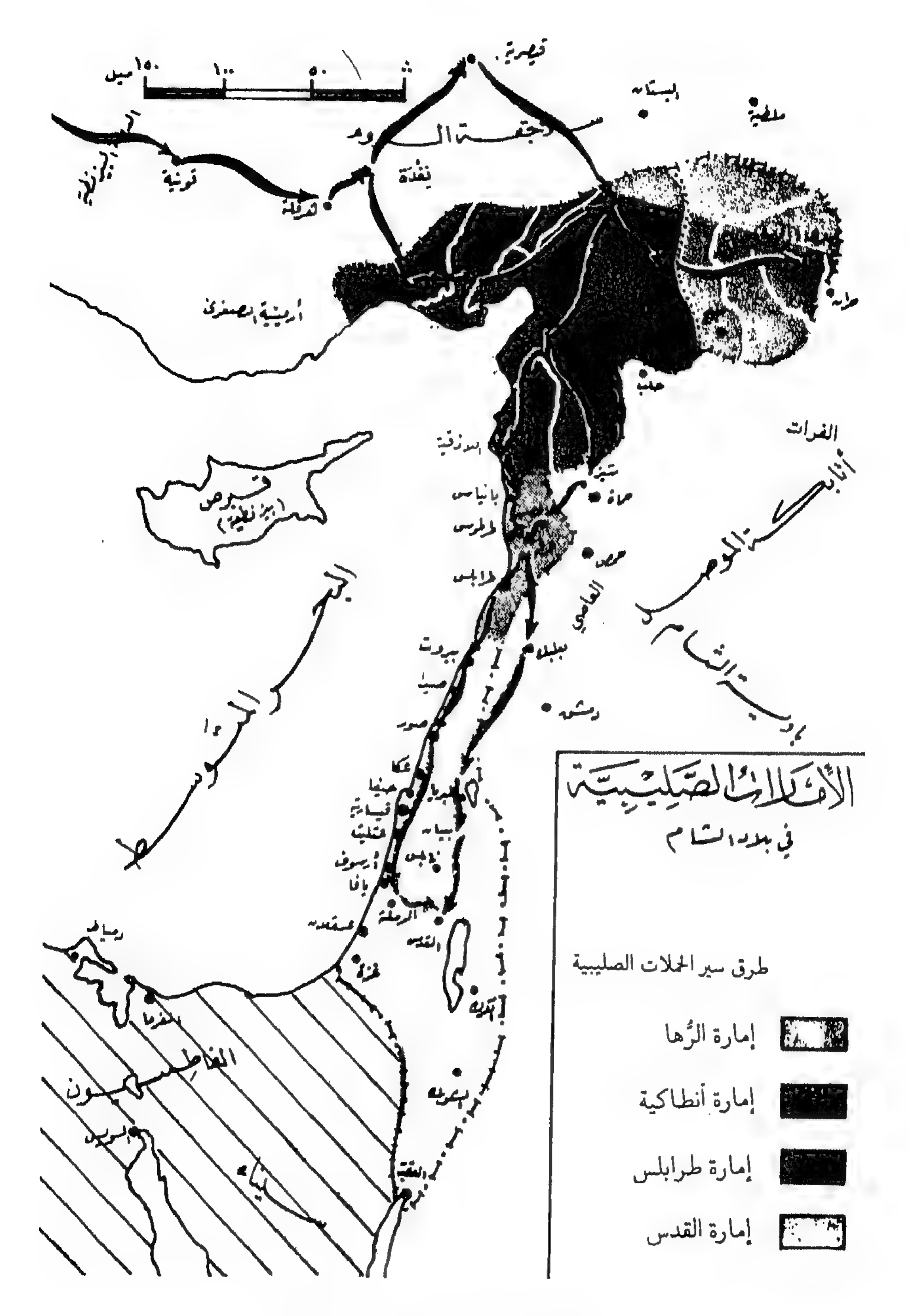
ويكفي ان نختم هذه الدراسة في قول « لوبون » مبدياً رأيه في دولة الإسلام والعرب ودينهم وثقافتهم وعلومهم وأثرهم على أوروبة، ومما قاله:

« إن الأمم التي فاقت العرب تمدنا قليلة الى الغاية، وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه امة، وأن العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، ولا يزال الناس يخضعون لها، وأنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وأنهم مدّنوا أوروبا ثقافة وأخلاقاً، وأن الأمم التي سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة، وانه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها »[2].

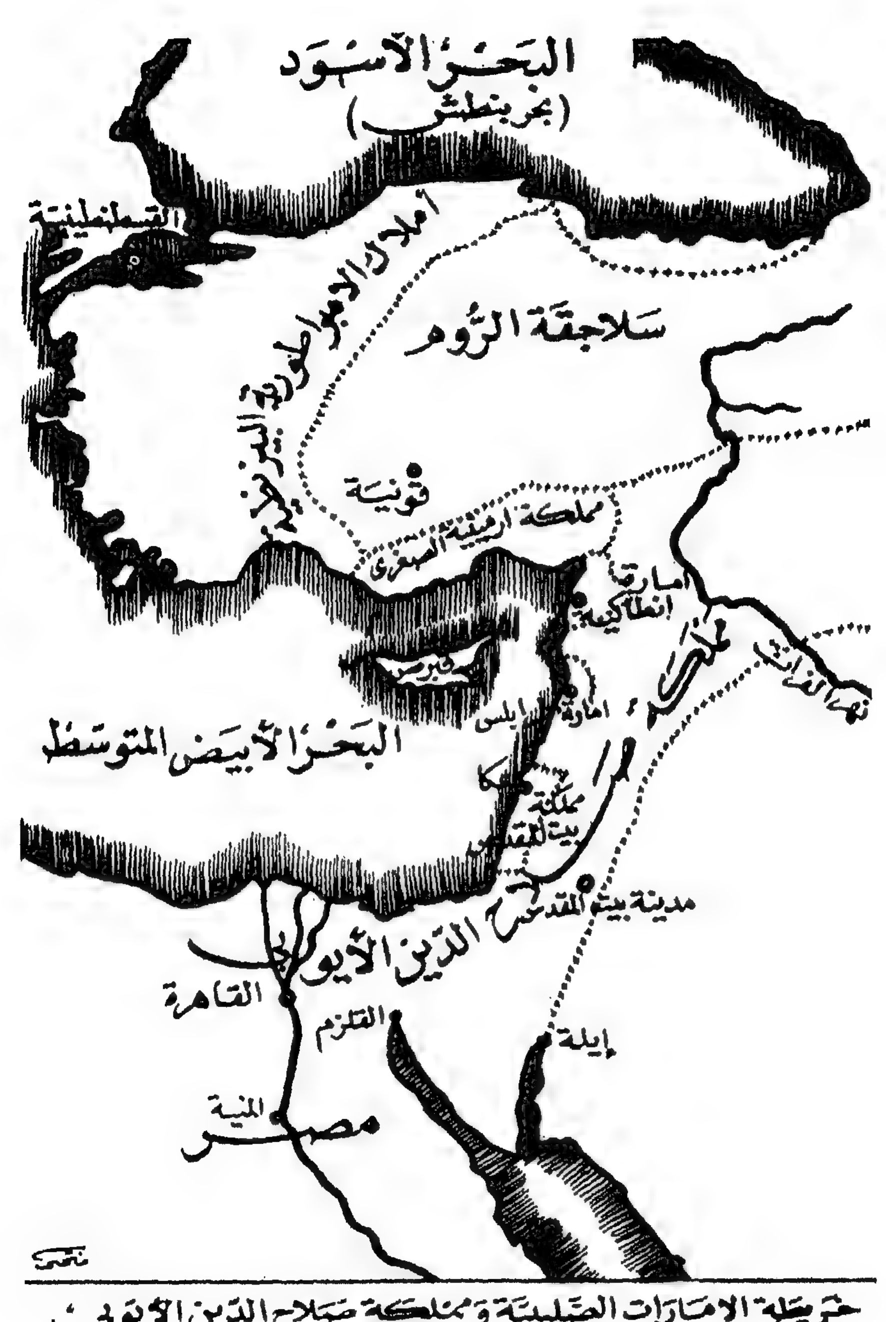
---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: جروينباوم: حضارة الاسلام، جـ ٢، ص ٥٢ (الأدب والتاريخ)، ص ٣٢٨ - ٣٧٢.

(٢) لوبون: حضارة العرب، ص ٦٤٣. للمزيد من التفصيلات الوافية أنظر أيضاً: الفرد جيوم: تراث الإسلام، جـ ١، جـ ٢، لجنة الجامعيين لنشر العلم - مصر ١٩٣٦. انظر أيضاً: شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، ٣ أجزاء المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٧٨.




خريطة الامارات الصليبية في بلاد الشام




خريطة الامارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة .

# المصادر

## أولاً ـ المصادر العربية الأولية :

ـ القرآن الكريم :

١ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق : د . نزار رضا ، مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ .

٢ ـ ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) : معالم القربة في أحكام الحسبة ، نقل وتصحيح روبن ليوي ، كمبردج ١٩٣٧ .

٣ ـ ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد المعروف بالجزري) : الكامل في التاريخ ، دار الطباعة المنيرية ـ القاهرة ١٣٥٦هـ .

٤ ـ ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٥ ـ ابن بسام (محمد بن احمد بن بسام المحتسب) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق وتعليق : حسام الدين السامرائي ، بغداد ١٩٦٨ .

٦ ـ ابن بطوطة (محمد بن عبدالله المكنى بأبي عبدالله) : رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جـ ٢ ، تقديم وتحقيق : د . علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٥ .

٧ ـ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ١، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

جـ ٦ ، القاهرة (١٣ جزءا طبعة قديمة صدرت بين ١٩٢٩ ـ ١٩٤٣)

٨ ـ ابن تيمية (أحمد بن عبد الحكيم تقي الدين) : الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية (مصر ـ لا تاريخ).

٩ ـ ابن تيمية : أسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان الإمام ابن تيمية، مجموعة من المحاضرين العرب، عقد في دمشق ١٩٦١، طبعت محاضراته في القاهرة ١٩٦٣.

١٠ ـ ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي المكنى بأبي الحسين): رحلة ابن جبير المسماة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تقديم د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري (لا تاريخ) (النسخة الأولى تحقيق: وليم رايت ـ ليدن ١٩٠٧).

١١ ـ ابن الجيعان (القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني) : القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف (رحلة قايتباي إلى بلاد الشام) تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة جروس برس ـ طرابلس الشام ١٩٨٤.

١٢ ـ ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) : كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٩.

١٣ ـ ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات في المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) جمع وتحقيق : د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ١٩٨٣.

١٤ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن محمد (ت ٨٠٨هـ) : المقدمة، جـ ١ ـ مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٧. ونسخة دار القلم ـ بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨١.

١٥ ـ ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، م ١، بيروت ١٩٦١ .
١٦ ـ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ .
١٧ ـ ابن شداد (القاضي بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (كتاب سيرة صلاح الدين) مطبعة الآداب ـ مصر ١٣١٧هـ ونسخة مطبعة التمدن ـ مصر ١٩٠٣م .
١٨ ـ ابن طباطبا (الفخري محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ): تاريخ الدول الإسلامية دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٠ .
١٩ ـ ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ ابن الفرات، جـ ٢، جـ ٤، جـ ٧، تحقيق: د. أسد رستم، د. قسطنطين زريق، د. نجلاء عز الدين، المطبعة الأميركية ـ بيروت ١٩٤٢ .
٢٠ ـ ابن القوطية (ابو بكر محمد بن عمر . . . بن مزاحم) تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .
٢١ ـ ابن كثير (الحافظ ابن كثير الدمشقي) «أبو الفداء» (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، جـ ٧ ـ الطبعة الأولى، مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦ .
٢٢ ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم ـ القاهرة ١٩٥٧، ونسخة مطبعة دار الكتب ـ القاهرة: ١٩٧٢ تحقيق: د. حسين محمد ربيع، مراجعة: د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
٢٣ ـ أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن

إبراهيم المقدسي الشافعي) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ١، جـ ٢، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، ونسخة أبي السعود أفندي محرر صحيفة وادي النيل المطبوعة في مصر ١٢٨٧هـ.

٢٤ ـ الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عقبة بن الأزرق (ت ٢٠٤هـ) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جـ ١ الطبعة الثالثة تحقيق رشدي ملحس ـ دار الأندلس بيروت ١٩٥٧.

٢٥ ـ أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري) : كتاب الاعتبار، تحرير وتحقيق: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة الأميركية ١٩٣٠.

٢٦ ـ الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس . . . الشريف) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر : دوزى ودى غويه ، ليدن ١٨٩٣ .

٢٧ ـ الأصفهاني (أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي الفرج . . . ) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (لا تاريخ).

٢٨ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) : فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الطباع. دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧.

٢٩ ـ البيهقي (إبراهيم بن محمد (عاش زمن المقتدر بالله ما بين ٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ)) : المحاسن والمساوىء، جـ ٢ ـ مطبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٦١.

٣٠ ـ الجهشياري (محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)) : كتاب الوزراء

والكتاب، تحقيق ونشر: مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهر ١٩٣٨.
٣١ ـ جوانفيل، جان: مذكرات جوانفيل (Jean Sire de Joinville) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، تعريب وتعليق: د. حسن حبشي، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٨.
٣٢ ـ الحميدي (أبو عبدالله الأزدي): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر وتحقيق: إدارة إحياء التراث ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٦.
٣٣ ـ الدواداري (أبو بكر بن عبدالله بن إيبك الدواداري): كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، تحقيق: أولرخ هارمان (Ulrich Haarmann) المعهد الألماني للآثار ـ القاهرة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
٣٤ ـ السيوطي (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري (ت ٩١١هـ)): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية ـ مصر ١٩٥٢.
٣٥ ـ الشيزري (عبد الرحمن بن نصر): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: د. الباز العريني. (بيروت ـ لا تاريخ).
٣٦ ـ الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٦هـ)): أدب الكتّاب، نسخه وعلق عليه محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١هـ.
٣٧ ـ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)): تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٢.
٣٨ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن عبدالله): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة

والنشر ـ القاهرة ١٣٣١ ـ ١٣٣٨هـ، ونسخة دار الكتب المصرية ١٩١٤ ـ ١٩١٥م.

٣٩ ـ الكاملي (منصور بن بعرة الذهبي الكاملي) : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق : عبد الرحمن فهمي، مطبعة دار التحرير للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦.

٤٠ ـ الكندي (محمد بن يوسف الكندي (ت ٣٥٠هـ)) : ولاة مصر، تحقيق : د. حسين نصار، دار صادر ـ دار بيروت للنشر ١٩٥٩.

٤١ ـ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ)) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٢ ـ المجيلدي (أحمد) : التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق : موسى لقبال، الجزائر ١٩٧٠.

٤٣ ـ المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا المعروف بالبشاري) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق : M. J de Godje طبعة دى غويه ليدن ١٩٠٦.

٤٤ ـ المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) : السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ـ ٢، نشر وتحقيق : د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى القاهرة ١٩٣٤، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧. (جـ ٣، تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢).

٤٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ٧ ـ القاهرة ١٩١٠، م ٢ ـ القاهرة ١٩١٣ تحقيق :

Edite par; G; Wiet; Imprimerie de L'institut Francais - Le Caire.

٤٦ ـ المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق : محمد مصطفى زيادة،

جمال الدين محمد الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠.

٤٧ - مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

٤٨ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح): تاريخ اليعقوبي، دار صادر - دار بيروت ١٩٦٠.

## ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

٤٩ - إبراهيم الشهاوي: الحسبة في الإسلام، القاهرة ١٩٦٢.

٥٠ - د. إحسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة - بيروت ١٩٧٥.

٥١ - أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، الفجالة - مصر ١٩٧٢.

٥٢ - أحمد لواساني: مدخل إلى اللغة الفارسية، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٢.

٥٣ - د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، مكتبة كريدية - بيروت ١٩٧٠.

٥٤ - د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢.

٥٥ - د. أحمد مختار العبادي: محاضرات في الحضارة الإسلامية، مطبعة كريدية - بيروت ١٩٧٨.

٥٦ - أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧٠.

٥٧ - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، م ١، ٢ تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي - بيروت (بلا تاريخ) الطبعة الخامسة.

٥٨ - أرنست باركر: الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني،

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧ .

٥٩ ـ أمين الريحاني: نور الأندلس، دار الريحاني للطباعة والنشر ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩ .

٦٠ ـ انستاس الكرملي (الأب) نشر وتحقيق: النقود العربية وعلم النميات، ويتضمن على التوالي الكتب التالية:

أ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): كتاب النقود.

ب ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): كتاب النقود القديمة الإسلامية.

جـ ـ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، جـ ٢٠ .

٦١ ـ الشافعي (مصطفى الذهبي): تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال، منشورات محمد أمين دمج ـ بيروت (لا. ت) عن النسخة الأصلية ـ القاهرة ١٩٣٩ .

٦٢ ـ بارتولد (ق): تاريخ الحضارة الإسلامية، تعريب: حمزة طاهر، دار المعارف ـ مصر، الطبعة الخامسة ١٩٨٣ .

٦٣ ـ د. توفيق اليوزبكي: الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

٦٤ ـ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، جـ ١، طبعة جديدة، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، دار الهلال ـ القاهرة.

٦٥ ـ د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩ .

٦٦ ـ د. جمال الدين الشيال، د. إبراهيم بيومي مدكور، د. سهير القلماوي وآخرون: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. إشراف: مركز تبادل القيم الثقافية وبالتعاون مع اليونسكو، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠ .

٦٧ ـ جورج صبحي: كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ـ القاهرة ١٩٢٥.
٦٨ ـ د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ١٩٨٣.
٦٩ ـ جوستان أ. فون جروينباوم: حضارة الإسلام، تعريب: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: عبد الحميد العبادي، مكتبة مصر ١٩٥٦.
٧٠ ـ جوستان لوبون: حضارة العرب، تعريب: محمد عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة، بيروت ١٩٤٥.
٧١ ـ د. حسان حلاق: الإدارة المحلية الإسلامية ـ المحتسب ـ الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٠.
٧٢ ـ د. حسان حلاق: تاريخ الحضارات، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٤.
٧٣ ـ حسان حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٨.
٧٤ ـ حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٦.
٧٥ ـ حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٨.
٧٦ ـ حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٢.
٧٧ ـ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ١، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٤.
٧٨ ـ د. حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣.

٧٩ ـ د. خالد جاسم الجناني : تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ١٩٨٤.

٨٠ ـ خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، مجلة تاريخ العرب والعالم ـ بيروت، العددان ٧٩ ـ ٨٠ أيار (مايو) ـ حزيران (يونيه) ١٩٨٥.

٨١ ـ دوزي. ر: تاريخ مسلمي إسبانيا، جـ ١، تعريب: د. حسن حبشي، مراجعة: د. جمال محرز، د. أحمد مختار العبادي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ تعريب لكتاب: R. Dozy; Histoire des Muslumans D'espagne, 3 Vols, ed, lévi - Provençal - leyde 1932.

٨٢ ـ د. زاهية قدورة: شبه الجزيرة العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٧.

٨٣ ـ د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٥٨.

٨٤ ـ زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة (شمس العرب تسطع على الغرب) تعريب: فاروق بيضون ـ كمال دسوقي، مراجعة وتعليق: مارون عيسى الخوري، دار الآفاق ـ بيروت ١٩٦٩، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٨٥ ـ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني، دار الثقافة ـ بيروت.

٨٦ ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣.

٨٧ ـ د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣.

٨٨ ـ د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢.

٨٩ ـ د. سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٦.

٩٠ ـ د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، منشورات جامعة بيروت العربية ـ بيروت ١٩٧٧.

٩١ ـ د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١م، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٥.

٩٢ ـ د. السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الأيوبيون) دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧.

٩٣ ـ عباس العزاوي: تاريخ النقود العراقية، وزارة المعارف العراقية، بغداد ١٩٥٨.

٩٤ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف لبنان ـ بيروت ١٩٦١.

٩٥ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ ١، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧١.

٩٦ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧١.

٩٧ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٣.

٩٨ ـ د. سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ١٩٤٧.

٩٩ ـ د. سيدة، كاشف: الوليد بن عبد الملك، المؤسسة المصرية العامة ـ القاهرة ١٩٦٢.

١٠٠ ـ د. سيدة كاشف: عبد العزيز بن مروان، دار الكاتب العربي ـ القاهرة، ١٩٦٦.
١٠١ ـ شكيب أرسلان (الأمير): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، منشورات المكتبة التجارية ـ فاس، المطبعة الرحمانية ـ مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.
١٠٢ ـ ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٢.
١٠٣ ـ د. الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في إسبانيا وصقلية، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠.
١٠٤ ـ د. عبدالله الخالدي: دراسات في النظم الإسلامية، بيروت ١٩٨٨.
١٠٥ ـ عبد الحميد فايد: المرأة وأثرها في الحياة العربية، دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة الطبعة الثانية ١٩٨٣.
١٠٦ ـ د. عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، وكالة المطبوعات، دار القلم ـ الكويت ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩.
١٠٧ ـ د. عبد الرحمن فهمي: صنج السكة في فجر الإسلام، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٧.
١٠٨ ـ د. عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ماضيها وحاضرها، المؤسسة المصرية العامة ـ القاهرة ١٩٦٤.
١٠٩ ـ د. عبد الرحمن فهمي: فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٥.
١١٠ ـ د. عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٦٩.
١١١ ـ د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، جـ ٢،

الطبعة الثالثة، مكتبة جامعة بيروت العربية - بيروت ١٩٦٦.
١١٢ - د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب: د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب - طرابلس الغرب ١٩٨٠.
١١٣ - د. علية السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٩.
١١٤ - د. علي حبيبة: مع المسلمين في الأندلس، مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٧٢.
١١٥ - د. علي الدفاع: تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١١٦ - د. علي الدفاع: إعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١١٧ - د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١١٨ - د. فايد حماد محمد عاشور: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف - الإسكندرية ١٩٨٠.
١١٩ - د. فايد حماد محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨١.
١٢٠ - فهمي توفيق مقبل: الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية - بيروت ١٩٨٠.
١٢١ - د. فيليب حتى، د. جبرائيل جبور: تاريخ العرب المطول، جـ ٢، الطبعة الثانية؛ دار الكشاف للنشر - بيروت ١٩٥٣.
١٢٢ - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٥٣، الطبعة السابعة ١٩٧٧.

١٢٣ ـ د. لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨.
١٢٤ ـ ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: د. السيد عبد العزيز سالم، أ. محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة: د. لطفي عبد البديع، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٦. تعريب لكتاب: (Islam d'occident).
١٢٥ ـ د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٨.
١٢٦ ـ محمد باقر الحسيني: العملة الإسلامية في العهد الأتابكي، الطبعة الأولى، دار الجاحظ ـ بغداد ١٩٦٦.
١٢٧ ـ محمد باقر الحسيني: تطور النقود العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الجاحظ ـ بغداد ١٩٦٩.
١٢٨ ـ د. محمد عبد المعز نصر: في الفكر السياسي العربي والمجتمع، دار نشر الثقافة ـ الإسكندرية (بلا تاريخ).
١٢٩ ـ د. محمد زكي شافعي: مقدمة في النقود والبنوك، الطبعة السابعة، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣.
١٣٠ ـ د. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، علم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٨.
١٣١ ـ د. محمد عبد السلام كفافي: الحضارة العربية، دار النهضة العربية بيروت ـ ١٩٧٠.
١٣٢ ـ محمد عزة دروزة: تاريخ الجنس العربي، جـ٣، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت (لا تاريخ).
١٣٣ ـ محمد عز دروزة: عروبة مصر في القديم والحديث، الطبعة الثانية، المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٦٣.
١٣٤ ـ محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢.

١٣٥ ـ محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر - القاهرة ١٩٣٤.
١٣٦ ـ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، جـ ٦ (طبعة جديدة) مكتبة النوري ـ دمشق ١٩٨٣.
١٣٧ ـ د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
١٣٨ ـ د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٢.
١٣٩ ـ د. محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإسكندرية ١٩٨٠.
١٤٠ ـ د. محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإسكندرية ١٩٧٨.
١٤١ ـ د. محمود سعيد عمران: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة كريدية ـ بيروت ١٩٨١.
١٤٢ ـ د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ ـ ٥٣١هـ، ـ ١١٠٠ ـ ١١٣٧م دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥.
١٤٣ ـ د. مصطفى حسن محمد الكناني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي ١١٧١ ـ ١٢٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية ١٩٨١.
١٤٤ ـ مولوي حسيني: الإدارة العربية، تعريب: د. إبراهيم العدوي، المطبعة النموذجية بالحلمية ١٩٥٨.
١٤٥ ـ مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، تعريب: حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
١٤٦ ـ ميشيل أماري: المكتبة العربية الصقلية ـ نصوص في التاريخ

والبلدان والتراجم والمراجع ـ ليبسك ١٨٥٧.
١٤٧ ـ ناصر النقشبندي : الدينار الإسلامي ، جـ ١ ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٥٣.
١٤٨ ـ ناصر النقشبندي : الدرهم الإسلامي ، جـ ١ ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٧٠.
١٤٩ ـ نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ، تعريب فتحي عثمان ، دار القلم ، الكويت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
١٥٠ ـ نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام ، جمع وتقديم : د. نقولا زيادة ـ بيروت ١٩٦٢.
١٥١ ـ يوليوس ڤلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، تعريب : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٥٨.

## ثالثاً ـ المعاجم والموسوعات :

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد (١٥) تعريب مجموعة من الأساتذة.
٢ ـ الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية ـ اليونسكو + مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ، القاهرة ١٩٥٦.
٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٦٤هـ.
٤ ـ الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ـ مؤسسة فرانكلن للنشر ـ القاهرة ١٩٦٥.

## رابعاً ـ المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Ameer Ali, S; A Short History of the saracens, london 1953.
2. Atiya, A. S. The Crusade in the Later Middle Ages, London 1938.
3. Atiya, A. S. Crusade Commerce and Culture, London 1962.
4. Browne, E; A literary History of Percia, Vol. 1 London 1909.
5. Cahen, C. La Syrie du Nord a l'Europe des Croisades, Paris 1940.
6. Conder, C. R; The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 - 1211, London - 1897.

7. Delaville le roul G. les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre. Paris 1904
8. Denys de tell - Marche; Chronique, publ. et Traduite par Chabot, (Paris 1895).
9. Deschamps, p; la Defence du Royaume de Jerusalem 2 Vols, Paris 1939.
10. Deschamps P; Les Chateaux des Croises en Terre Sainte, 2 Vols, Paris 1939.
11. Description de L'Egypte, Paris 1825.
12. Dozy R; Recherches sur l'Histoire et de la Litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age (2Vols) leyde 1881.
13. Dozy, R; Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols ed. Lévi - Provençal, Leyde 1932.
14. Encyclopedie de l'Islam, 2 ed., (Paris 1954).
15. Encyclopedie de l'Islam (Nouvelle Edition) par B. Lewis, Ch. Pellat et J. Schacht Tome II, (Paris 1965).
16. Faris, N. A; The Arab Heritage, Princeton 1944.
17. Farmer, H. G; 1 History of Arabian Music to th XIII Century, London 1929.
18. Gibbon, E; The Decline and Fall of The Roman Empire, Vols 5, (London 1953).
19. Gibbs, Sir H; The Arab Conquests in Central Asia, (London 1923).
20. Grousset, R; Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 3 Vols. Paris 1934.
21. Kantorowiez, E; Frederick the Second 1194 - 1250 London 1931.
22. Kohler, C; Melanges pour servir a l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades, Paris 1906.
23. Lane - Poole, S; Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Newyork - London 1898 (S. E Beirut 1964).
24. Lavoix, H; Catalogue des Monnaies Muslumanes de la Bibliotheque Nationale, 3 Vols (Paris 1887 - 1896).
25. Levi - Provecal, l'Espagne Musulmane aux XE Siecle, Paris 1932.
26. Lévi - Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane, Paris 1950.
27. Miles, G; The Numismatic History of Rayy, New York 1938.
28. Richard, Le Royaume latin de Jerusalem Paris, 1935.

29. Runciman, S; History of the Crusades, 3 Vols. cambridge 1951 - 1954.
30. Stevenson, W. G; The Crusades in the East, cambridge 1907 - (S. E Beirut 1968).
31. Thompson. J. W; Economic and Social History of the Middle Ages, 2 Vols, New York 1928 (S. E. London 1959).
32. Walker, J; A Catalogue of the Arab - Sassanian coins, London 1941.
33. Walker, J; A Catalogue of Muhamadan Coins, London 1956.
34. Wiet.G; l'Egypte Arabe-Histoire de La Nation Egyptienne, IV, Paris

# اللوحات والرسوم *

(*) أخذت هذه اللوحات والرسوم من: قاموس المنجد، زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب.
مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية المجلة الثقافية (تونس) أعداد ٤٧، ٤٨، ٤٩ (١٩٨٨).
حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى
حسان حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي.
صور ولوحات خاصة من مجموعة المؤلف.



جامع الرسول محمد (ﷺ) في المدينة المنورة



الجامع الأموي في دمشق



جامع سامراء في العراق.



جامع ابن طولون في مصر



جامع الخمس في الرباط في المغرب



جامع السلطان سليمان في ادرنه في تركيا



جامع آيا صوفيا في تركيا (وهو متحف اليوم)



مسجد الأمير عساف : بيروت



المسجد العمري الكبير في صيدا الشام



مسجد البرطاسي في طرابلس الشام



ساحة الأسود في قصر الحمراء في غرناطة



صفحة مخطوطة من القرآن الكريم مرقّنة ترقيناً نفيساً.



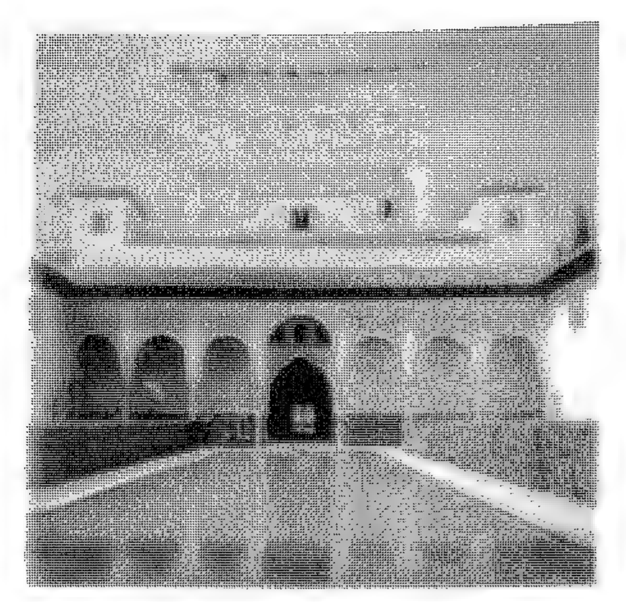
جامع اللآلئ في لاهور.



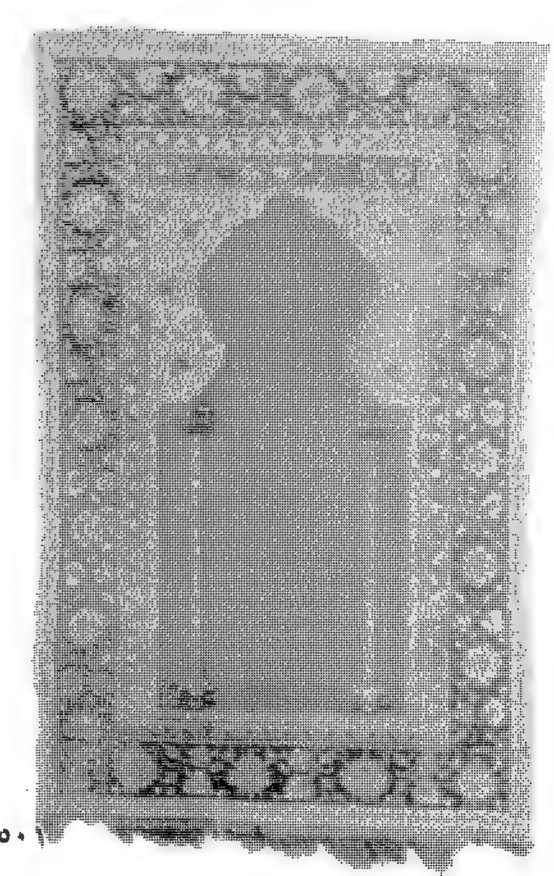
جامع أصفهان الملوكيّ المشهور
بقبابه المزيّنة بالفسيفساء الزرقاء.



منمنمات إسلامية إيرانية تظهر براعة الفن الإسلامي



باحة الرياحين
في قصر الحمراء في غرناطة



سجادة من الطراز الإسلامي



علم وفن والكتاب عن العلم عند المسلمين



لوحة فنية من وحى مقامات الحريرى



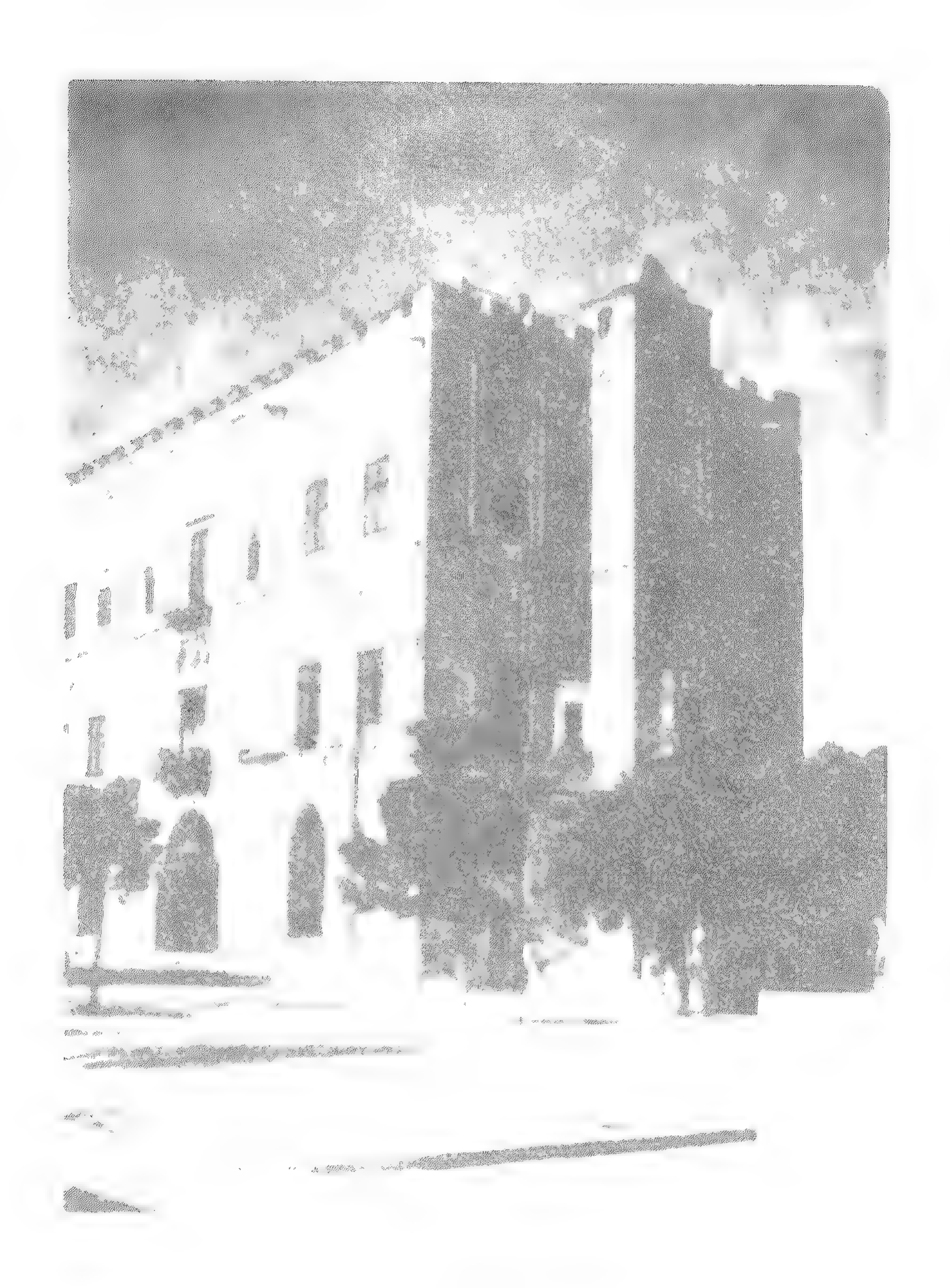
سجادة بمثابة لوحة فنية تظهر روعة الخط والرسم والصناعة عند المسلمين



العقود المتشابكة في مقصورة جامع قرطبة



مدينة قرطبة على الوادي الكبير



قصر العزيزة في بالرمو



نقود إسلامية عليها ايات قرانيه من عهد عبد الملك بن مروان

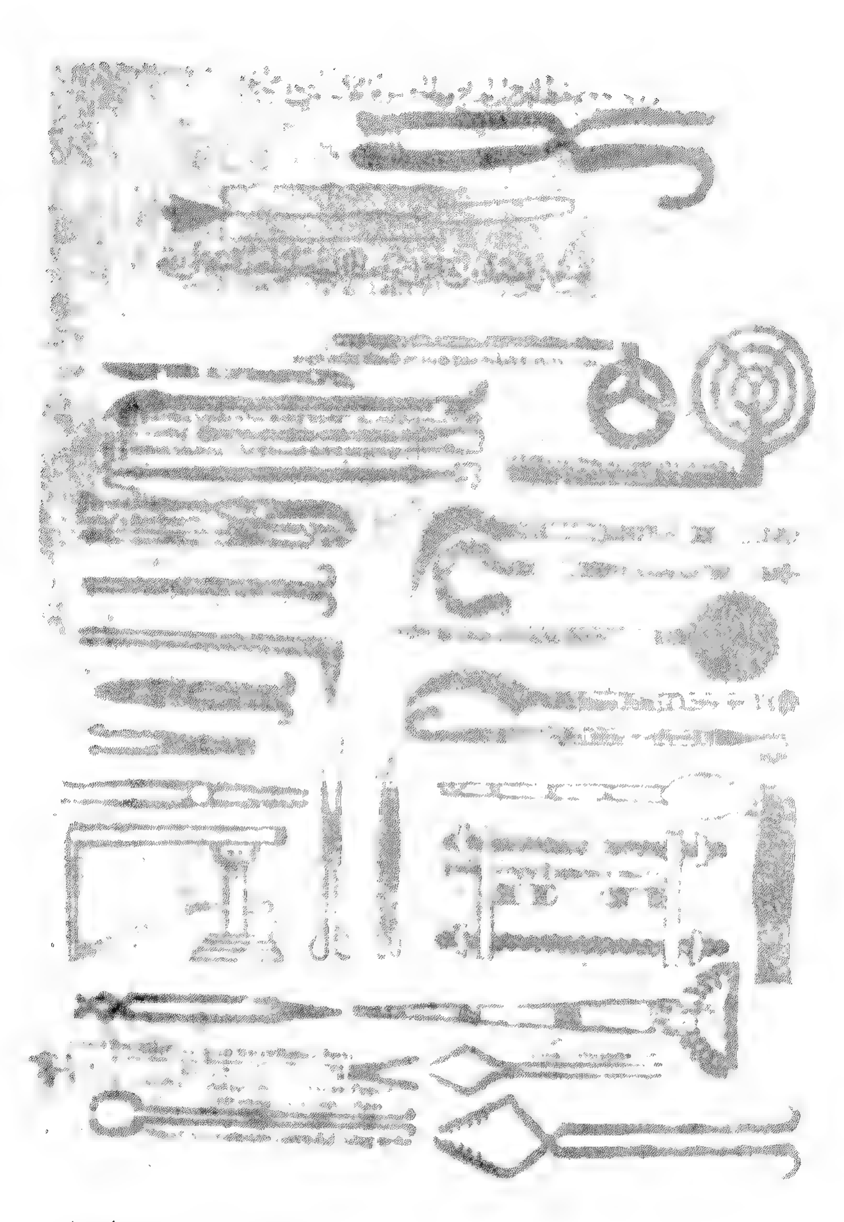




صيدلية إسلامية تجمع مختلف الأدوية والوصفات الطبية




صناعة الأدوية من النباتات والأعشاب التي اكتشفها علماء الكيمياء المسلمين.



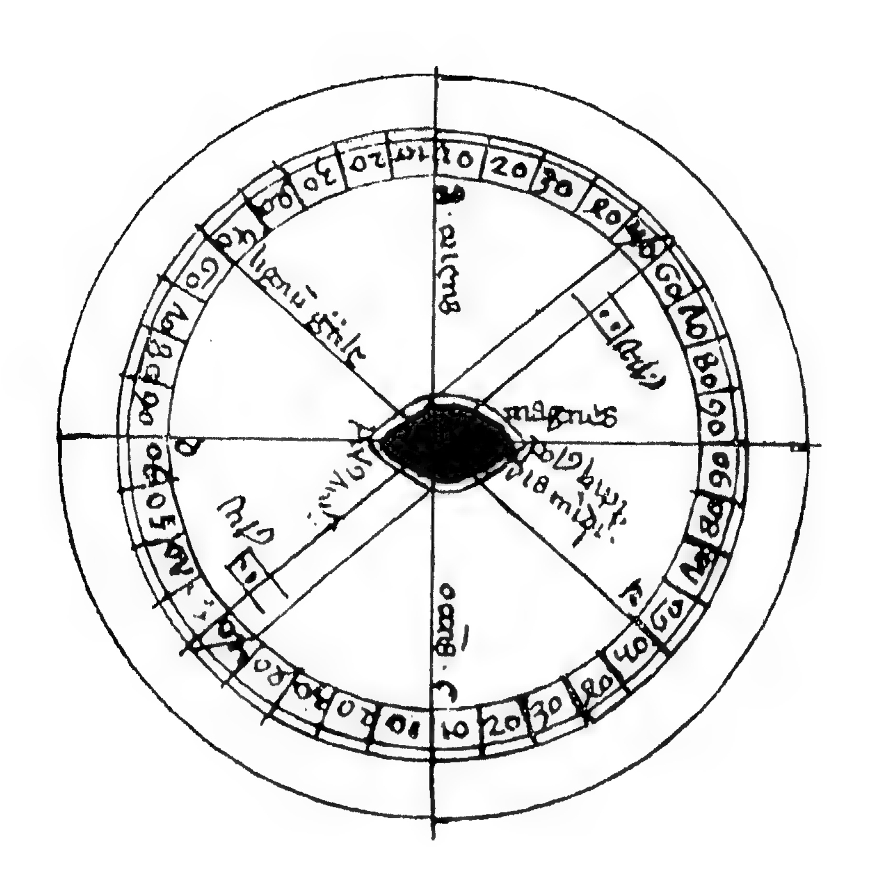
أدوات للعمليات الجراحية للأطباء المسلمين وفي مقدمتهم أبي القاسم الزهراوي



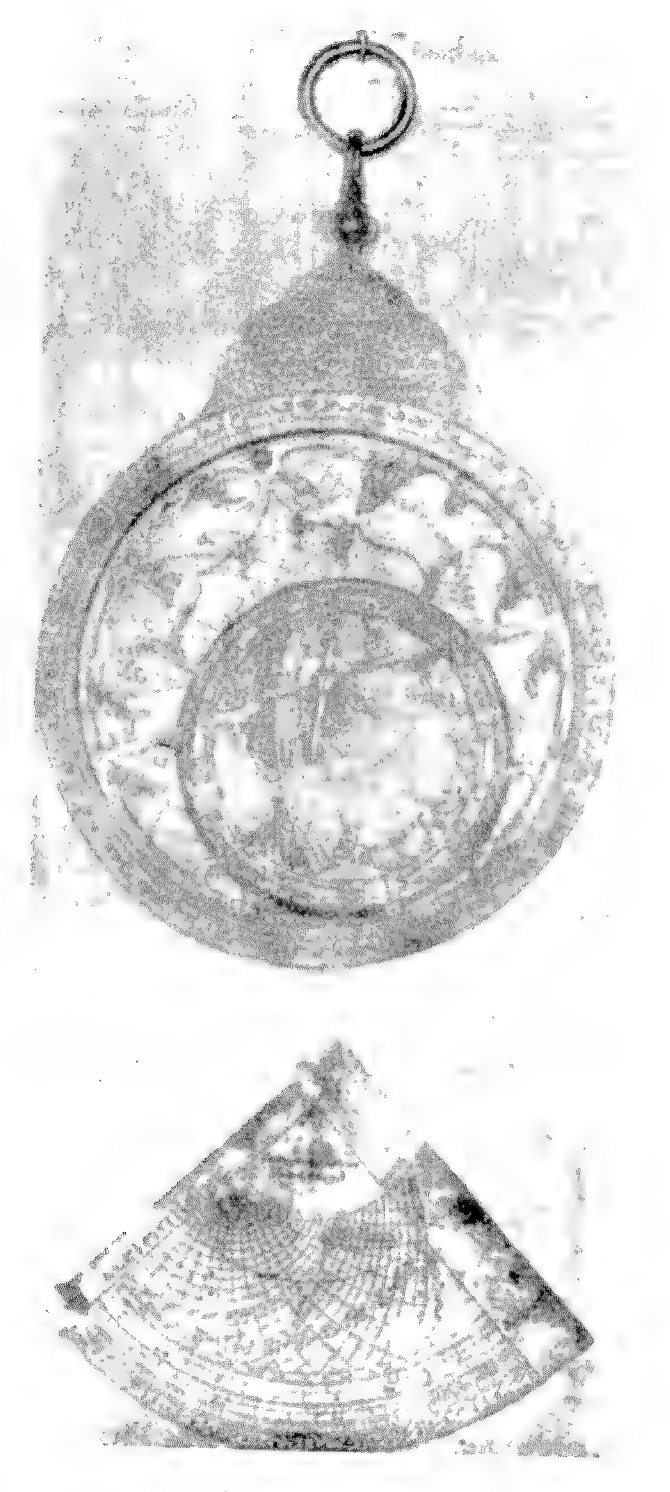
الأطباء المسلمون يجرون عملية قيصرية مستعصية



ساعة من اختراع العلماء المسلمين في العصور الوسطى يظهر فيها رسوم عالم الحيوان والشخوصات المنتقلة التى تقذف في وعاء معدني محدثة صوتاً إيقاعياً جميلاً ، إلى عازفين على آلات موسيقية .



بوصلة عربية نقلت صناعتها الى أوروبة



الأسطرلاب العربي بمثابة ساعة جيب (فوق) وربعاً فلكياً تخص مخترعه محمد بن أحمد من المدينة المنورة (تحت)




رسم يظهر المقارنة بين الطريقة الحسابية اللاتينية القديمة والطريقة العربية (الخوارزمية).



نموذج من تطور الخط العربي حيث بدأت تظهر عليه النقط

## فهرس الموضوعات

## المؤرخ الدكتور حسان حلاق في سطور

- مواليد بيروت عام ١٩٤٦ .
- دبلوم عال في الدراسات العربية والاسلامية بتقدير جيدجدا .
- ماجستير في التاريخ بتقدير ممتاز .
- دكتوراه دولة في التاريخ الحديث مع مرتبة الشرف الاولى .
- استاذ التاريخ في كلية الاداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية.
- استاذ التاريخ المنتدب في جامعة بيروت العربية.
- استاذ سابق في كلية الاعلام – الجامعة اللبنانية.
- عضو لجنة الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية.
- عضو مجلس امناء وقف البر والاحسان في بيروت ( القيم على جامعة بيروت العربية ) .
- عضو المجلس الاعلى لجامعة بيروت العربية .
- عضو سابق لمجلس جامعة بيروت العربية .
- استاذ مشرف على رسائل واطروحات الماجستير والدكتوراه في الجامعات العاملة في لبنان واستاذ معتمد من قبل الجامعات اللبنانية والعربية في لجان ترقية الاساتذة الجامعيين .
- نائب رئيس مجلس امناء المركز الاسلامي للتربية في بيروت .
- نائب رئيس تجمع بيروت .
- عضو المجلس العلمي لكلية الامام الاوزاعي للدراسات الاسلامية .
- عضو اللجان العاملة في دار الفتوى من اجل انشاء مجالس ومؤسسات اسلامية .
- رئيس اللجنة الثقافية وعضو الهيئة الادارية في نادي متخرجي جامعة بيروت العربية .
- عضو اللجنة الثقافة في المركز الاسلامي – عائشة بكار .
- عضو جمعية متخرجي الجامعات المصرية .

- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين .
- شارك في ندوات ومؤتمرات علمية محلية وعربية ودولية .
- ترجمت بعض مؤلفاته الى اللغات : الالمانية والانجليزية والتركية .
- اعتمد الكثير من المستشرقين على مؤلفاته ودراساته .
- اعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في برلين عام ١٩٨٨ والندوات العلمية الالمانية على مؤلفاته لفهم تاريخ لبنان السياسي والاقتصادي والاجتماعي . كما اعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في لندن عام ١٩٩١ على تلك المؤلفات والبحوث .
- له العديد من المؤلفات التاريخية والسياسية والحضارية في ميادين الدولة العثمانية لبنان ، بيروت ، فلسطين ، شخصيات لبنانية ، اشتهر عن د. حسان حلاق ، بانه قام عبر سنوات بتصحيح جوانب هامة من التاريخ العثماني وتاريخ بيروت ولبنان وفلسطين .
- اول من استخرج وحقق ونشر سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، واصدر عدة كتب وعدة دراسات معتمدة على هذه السجلات . وتضم مجموعته الوثائقية حوالي مائة الف وثيقة غير منشورة .
- اول من قدم برنامجا تلفزيونيا عن بيروت وتاريخها وتراثها تحت عنوان " اوراق بيروتية " .
- نال شهادة تقدير عام ١٩٩٢ من جامعة الاسكندرية علىجهوده العلمية .
- نال شهادة المؤرخ العربي وشهادة تقدير من اتحاد المؤرخين العرب عام ١٩٩٣ .
- مرشح دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية لجائزة الملك فيصل في سبيل الاسلام والمسلمين لعام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .
- واضع مشروع وثيقة بيروت في" مؤتمر وثيقة بيروت " في ٢١-٢٢ آذار ١٩٩٦ .
- نتيجة لمساعيه مع وزارة التربية والشباب والرياضة تم تسمية ثانوية الحرج الرسمية للبنات باسم ثانوية عمر فروخ الرسمية للبنات . وثانوية الطريق الجديدة الرسمية للبنين باسم " ثانوية جميل رواس الرسمية للبنين " .
- انتخب عام ١٩٩٨ الناطق الرسمي باسم اتحاد جمعيات العائلات البيروتية .

## مؤلفات وبحوث د. حسان حلاق

١- موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩ .
٢- دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ١٩٠٨-١٩٠٩ .
٣- موقف لبنان من القضية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٥٢ .
٤- دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣-١٩٥٢ .
٥- التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣-١٩٥٢ .
٦- لبنان من الفينيقية الى العروبة ( دراسات لبنانية وعربية ١ ) .
٧- أية ثقافة أية سياسية للتعايش في لبنان ( دراسات لبنانية وعربية ٢) .
٨- الجذور التاريخية للميثاق الوطني اللبناني والاتجاهات الوحدوية والانفصالية في لبنان ( دراسات لبنانية وعربيه ٣ ) .
٩- الابعاد الطائفية والسياسية في مواقع الحكم والسلطة في لبنان ( دراسات لبنانية وعربية ٤ ) .
١٠- اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية( دراسات لبنانية وعربية٥).
١١- دور اللبنانيين في معركة النضال العربي ( دراسات لبنانية وعربية ٦ ).
١٢- مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة ١٩٣٦.
١٣- اوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني - سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .
١٤- التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية- سجلات المحكمة الشرعية .
١٥- بيروت المحروسة في العهد العثماني .
١٦- مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات .
١٧- العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - الاندلس- صقلية - الشام .

١٨- المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٨٧٨ - ١٩٧٨ .
١٩- مذكرات سليم علي سلام ١٨٦٨ - ١٩٣٨ .
٢٠- العلامة الدكتور عمر فروخ ١٩٠٦- ١٩٨٧ .
٢١- تعريب النقد والدواوين في العصر الاموي .
٢٢- الادارة المحلية - المحتسب .
٢٣- دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية .
٢٤- تاريخ العلوم والتكنولوجيا .
٢٥- ملامح من تاريخ الحضارات .
٢٦- دراسات في تاريخ المجتمع العربي بالاشتراك مع د. عبد العزيز قانصو ، د. عدنان السيد حسين ، د. مصطفى فواز .
٢٧- مقدمة في تاريخ العرب بالاشتراك مع د. عبد العزيز قانصو ، د. مصطفى فواز .
٢٨- مدن وشعوب اسلاميه .
٢٩- ' البوم' (Album) صور ولوحات نادرة : بيروت - دمشق - القدس - القاهرة في العهد العثماني .
٣٠- المناهج العلمية في كتابة الرسائل الجامعية ( كيف تكتب بحثا او رسالة او اطروحة ) بالاشتراك مع د. محمد منير سعد الدين .
٣١- عمر حوري ( ١٩١٢- ١٩٩٤ ) سيرة رجل ومسيرة أمة .
٣٢- مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة .
٣٣- الامام والسلطان ( الامام الاوزاعي والسلطان صلاح الدين الايوبي ).
٣٤- فلسطين في المؤتمرات العربية والدولية ( وثائق ومراسلات تنشر للمرة الاولى ) .
٣٥- المعجم الجامع في المصطلحات الايوبية والمملوكية والفارسية والتركية بالاشتراك مع الدكتور عباس صباغ .
٣٦- الحاج جميل رواس رجل البر والاحسان .